المركز القومى للترجمة

بيرل باك

جناح النساء

ترجمة

سمير محفوظ بشير



المشروع القومى للترجمة

1617

سلسلة الإبداع القصصى

جنــاح النســاء

(روايــة)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1617
- جناح النساء
- بيرل باك
- سمير محفوظ بشير
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:

Pavilion of Women
By: Pearl S. Buck

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st., Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail. egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax 27354554

جناح النساء

تأليف: بيرل باك

ترجمة: سمير محفوظ بشير

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

باك، بيرل، ١٨٩٢-١٩٧٣
جناح النساء؛ تأليف: بيرل باك؛ ترجمة: سمير محفوظ بشير
ط١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠
٤٥٢ ص؛ ٢٤ سم
١- القصص الأمريكية.
(أ) بشير، سمير محفوظ (مترجم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٥٧١٧ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 980 - 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

(١)

كان هذا الوقت هو عيد ميلادها الأربعيني. جلست مدام "وو" أمام منضدة زينتها وانهمكت في فحص ملامح وجهها الهادئ. كان يشغل فكرها عمل مقارنة بين ملامح هذا الوجه وشكله على هذه المرآة نفسها عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها. في ذلك اليوم البعيد، يوم الصباحية، غادرت سرير الزوجية مبكراً، فهي دائماً ما تقدس عادة الصحو المبكر ووضعت على جسدها معطفاً واتجهت إلى هذه الغرفة نفسها وجلست أمام المرآة نفسها بطريقتها الهادئة وأخذت تحملق في وجهها الغض.

في ذلك اليوم، ساءلت نفسها، "هل شكلي هنا ما زال مشابهاً لما كنت عليه بالأمس؟".

أخذت تفحص وجهها، جبهة منخفضة عريضة، وقد نزع منها بالأمس أهدابها العذرية، عيون مستطيلة، أنف دقيق، ذقن وخدود بيضاوية وفم دقيق أحمر، كان هذا الفم أكثر احمراراً هذا الصباح، ثم لاحظت أن وصيفتها "ينج" قد أسرعت إليها وهي تقول متلجلجة، "أوه يا آنسة.. أقصد يا مدام، كنت أظن أنك هذا اليوم بالذات لن تنهضي هكذا مبكراً!"، كان خدا ينج ينضحان باللون الأحمر، أما خدا المدام فقد كانا ناصعي البياض كالمعتاد فوق فمها الوردي، "إنني أحب دائماً أن أستيقظ مبكراً". كان ردها بأسلوبها الهادئ اللطيف نفسه، وهو الصوت نفسه الذي علق عليه زوجها، الذي لم تره من قبل، عندما قال بأن صوتها يشبه شقشقة العصافير.

في تلك اللحظة، وبعد مرور أربعة وعشرين عاماً، وكما لو كانت تعلم ما كان يدور بخلد سيدتها، قالت "ينج" من خلف المقعد الأحمر الثقيل، بينما يداها مشغولتان بالعمل في تصفيف شعر سيدتها الأسود الطويل المستقيم، وهي كثيراً ما انشغلت بالعمل في هذه الضفائر،

لذا كان فى إمكانها أن ترفع ناظريها عن عملها وأن تملى عينيها فى ذلك الوجه الجميل فى المرآة، "سيدتى، إنك لم تتغيرى أبداً ولم يتبدل جمالك طوال أربعة وعشرين عاماً مضى".

"هل تفكرين فى الموضوع نفسه الذى كان يشغل فكرى هذا الصباح"، ثم قابلت عينى ينج فى المرآة وقد امتلأت بأمارات الحب والود. لقد ازداد حجم ينج كثيراً خلال عشرين عامًا منذ زواجها من رئيس الطباخين، لكن ويا للعجب، احتفظت مدام وو بمقاييسها الرقيقة نفسها وهى فتاة.

ضحكت ينج بصوت عال، "لقد كنت أشعر بخجل شديد من تلك الليلة المعهودة.. أكثر منك يا سيدتى. كنت غارقة فى الخجل بلا سبب، أليس كذلك؟ فهو أمر طبيعى ذاك الذى يحدث ما بين الرجال والنساء. لكن فى ذلك الحين، كان يبدو كأنه نوع من السحر!"

ابتسمت مدام وو دون أن ترد عليها، فهى تترك لوصيفتها الحرية الكاملة أن تقول ما تشاء، لكن عندما لا ترغب فى الاستمرار، فإنها تمنحها ابتسامة عاجلة ثم تصمت بعدها. لذا خرست ينج عن الكلام، أظهرت نفسها كأنما هى غير راضية عن تصفيف خصلة معينة، لذا تخفضها وترفعها مرة أخرى. عندما انتهت، وضعت مشبكين من اليشم على طرفى الشعر ثم نضحت يديها بعطر زيتى وأخذت تدعك فروة رأس مدام وو الناعمة.

"أحضرى لى حلق اليشم"، نطقت بذلك مدام وو بصوتها الصافى الواضح، إنه صوت نسائى ناضج يغطى خلفه كل شىء.

صاحت ينج، "كنت أعلم أنك سوف ترغبين فى أن تتحلى به هذا اليوم!، لذا جهزته". فتحت ينج صندوقًا صغيراً مغطى بقماش حريرى مرسوم عليه زهور وطيور، ثم سحبت منه زوجاً من الحلقان وثبتتهما بكل رقة فى أذن المدام. قبل أربعة وعشرين عاماً، حضر السيد وو إلى هذه الغرفة نفسها فى اللحظة نفسها التى كانت فيها قد انتهت ينج من مساعدة سيدتها فى ارتداء معطف من الساتان الأحمر له ذراعان واسعتان فوق

قميص من الساتان الأسود المطوى، أطرافه مزينة بصور للطيور والورود. كان السيد وو يحمل بين يديه هذا الصندوق نفسه، بينما عيناه الناعستان كلها فرح وانبساط، ثم ناول الصندوق إلى ينج ، ولأن أخلاقه الرفيعة تمنعه من أن يخاطب عروسه أمام الخادمة، لذا خاطب هذه الأخيرة قائلا، "ضعى هذين فى أذنى سيدتك". صاحت ينج وهى تشاهد الحلق المصنوع من اليشم الصافى ووضعتهما أمام عينى العروس. هذه العيون اختطفت نظرة سريعة لعريسها ثم خفضتهما فى خفر وحياء وهى تغمغم "شكرًا".

هز هو رأسه بينما كانت الوصيفة تثبت الحلق فى أذن العروس، وقف هو معجبًا بعروسه، بينما تملت مدام وو فى وجه عريسها الوسيم الفخور بنفسه، ناطقًا باسمها، "أيلين"، ثم وهو يزفر بهجة، تقابلت أعينهما فى المرآة، كل منهما قاس سريعًا وسامة الآخر. قال هو بلهجة حاسمة مخاطبًا الوصيفة، "اذهبى وأحضرى لى شايًا ساخنًا"، ومع رنات صوته الآمر، جفلت الخادمة وهرولت خارجة.

كانا وحيدين مرة أخرى، كما حدث معهما الليلة الماضية، انحنى قليلا ووضع يديه على كتفيها وأخذ يحملق فى وجهها فى المرآة. قال، "لو كنت قبيحة الشكل، إذن لكنت قد قتلتك الليلة الماضية على المخدة، إننى أكره النسوة القبيحات الشكل". ابتسمت وهى تستمع لذلك دون أن تتحرك من تحت يديه، أجابت بصوتها الناعم اللطيف، "لكن تقتلنى؟ يمكن لك بكل بساطة أن تعيدنى إلى أهلى"

كانت فى حالة غريبة من الاستثارة هذا الصباح، يا ترى هل زوجها هذا يتميز بالذكاء كما هو وسيم؟ لكن ربما يكون هذا أكثر من تطلعاتها.

فى تلك اللحظة، بعد مرور أربعة وعشرين عامًا، هاهى ينج تقول، "هذا اليشم يزداد جمالا عندما تتزينين به يا سيدتى، وما الذى يمكن أن تنبس به الأخريات اللاتى بلغن سن الأربعين؟ لذا ليس هناك مجال للعجب من أن السيد لم يفكر أبدًا أن يتزوج بامرأة أخرى".

قالت مدام وو، "لا تتحدثى بصوت عال، هو ما زال نائمًا".

"يجب أن يستيقظ مبكرًا يا سيدتى، إنه يوم عيد ميلادك الأربعين يا سيدتى"، ثم دعكت أنفها بظهر يدها، طوال تلك السنوات التى انقضت، تعتقد هى أنها على علم كامل بأخلاق السيد وو، كانت على يقين كامل أنه على الرغم من غرامه المشبوب بزوجته، لكنه فى الواقع لا يقدرها حق قدرها، بينما كل سكان المنزل الواسع هذا يحبونها ويقدرونها. نعم، فمن بين الستين فردًا الذين يعيشون تحت سقف هذا المنزل الضخم، من الذى لا يحب مدام وو، سواء كانت الجدة العجوز حتى أصغر الأحفاد أو أحقر خادمة بالمنزل؟ إذا جرؤت خادمة جديدة أن تتجهم لأن سيدتها لاحظت تواجد بعض الغبار خلف أحد الأبواب، فإن الوصيفة ينج تعرك أذنها قائلة بصوت عال، "هذا منزل السيد وو، هذا ليس منزل أحد الرعاع أمثال الذين نعثر عليهم فى منزل عائلة وانج أو هوا". كان كبير الطباخين يبتسم عندما يستمع لمثل هذه الأقوال، فطوال حياته الزوجية إذا حدثت مقارنة بينه وبين سيدة الدار، إذن هو لا شىء فى نظر زوجته ينج. فى الحقيقة، حتى زوجتى الابنين لا يضمران أى شر أو حفيظة تجاه سيدة المنزل، فتلك الساعدان اللذان تضمهما بحنو على حجرها، تتميزان بالحزم والرأفة فى الوقت نفسه عندما تتصدر للحكم.

هى الآن تخبر وصيفتها، "سوف أتناول إفطارى الآن، بعد ذلك أود أن أتحدث قليلا مع ابنى الأكبر، ثم عليك أن تساعدينى فى ارتداء ملابسى وقت الظهيرة استعدادًا للاحتفال، لكن راقبى سيدك، ما إن يصحو حتى تخبرينى"

"بالطبع سوف أفعل هذا يا سيدتى"، ثم انحت لتلتقط مشطًا وقع منها، كانت رائحته تنضح برائحة عطر الصندل الذى تستخدمه سيدتها فى شعرها. جذبت ينج من المشط بعض الشعيرات ولفتها على إصبعها ثم وضعتها بعناية فى قارورة صغيرة زرقاء من البورسلين، كانت تدخر هذا الشعر لكى تستفيد به سيدتها عندما تطعن فى السن وتكون فى حاجة لأن تغلظ واحدة من ضفائرها.

وقفت مدام وو، كانت الآن على استعداد لأن تباشر نشاطها المعتاد اليومى، فعيد الميلاد الأربعينى لربة منزل غنى محافظ على التقاليد، يعتبر يومًا كله بهجة وكرامة.

فى ذلك اليوم البعيد، قامت الجدة الكبيرة بتسليم حق إدارة هذا المنزل المليء بالأفراد إلى زوجة ابنها الوحيد، ولمدة اثنين وعشرين عامًا، قبضت مدام وو على مقاليد الحكم فى هذا المنزل بكل حكمة ومهارة. حاولت قدر إمكانها أن تحتفظ بالعادات المتوارثة حتى لا تلاحظ السيدة الكبيرة أى نوع من التغيير يمكن أن يكون قد حدث، لكن هى فى الواقع استطاعت أن تحدث العديد من التغييرات. مثلا، قررت مدام وو سابقًا أن تفعل شيئا بالنسبة لشجيرات الريح التى تناثرت بكثافة فى حديقة المنزل الشرقية، خارج هذه الحجرات بالذات؛ لذا قامت فى فترة شتاء معين بترك هذه الأشجار حتى تموت، وعندما لم تبرز براعمها الحمراء كالمعتاد، قامت هى بلفت نظر الجدة لهذه الظاهرة، ثم أقنعتها بأن هذه الشجيرات قد أنهكت التربة والهواء فى هذا الجزء من حديقتهم، لذا من الأفضل أن يتم زراعة نبات آخر ينمو ويستمر بقاؤه جيلا أو اثنين. كانت مدام وو فى الثامنة عشرة من عمرها فى ذلك الحين، لذا قالت للجدة، "هل نزرع بدلا منها النرجس أم الأوركيديا أم أى أشجار أخرى مزهرة؟ فكل ما أهدف إليه هو أن أبعث بالسرور فى قلبك يا والدتى". هى بالطبع وضعت اقتراح زراعة الأوركيديا فى وسط الحديث، وهو ما تفضل زراعته، لكن لأنها وضعت هذا النوع فى الوسط، فهذا يعنى أنها لا تهتم به كثيرًا، لذا قالت الجدة، "بالطبع نختار الأوركيديا". إنها بالطبع كانت معجبة بزوجة ابنها، لكنها كانت ما زالت تود أن تبدى مظاهر سيطرتها السابقة.

وافقت مدام وو، "إذن فلتكن الأوركيديا". خلال خمس سنوات، كان لديها أفضل مجموعة من هذا النبات فى كل المدينة، وكانت تقضى وقتًا طويلا وسط أشجارها. الآن، فى بدايات الشهر السادس، فإن براعم الأوركيديا ذات اللون الفضى الناعم بدأت فى الظهور، وبحلول الشهر الثامن، سوف تبلغ شجيرات الأوركيديا القرمزية اللون أقصى ارتفاع لها، وهذا ما سوف يحدث مع النوع الأصفر مع حلول الشهر التاسع.

غادرت مدام وو غرفة استقبالها وتوجهت إلى الحديقة، ثم قطفت زهرتين بلون رمادى بلا رائحة أتت بهما إلى غرفتها حيث كانت وجبةالإفطار فى انتظارها. كانت وجبة بسيطة، فهى لا تستطيع أن تزدرد الكثير فى الإفطار، المكون من الشاى،

الأرز الموضوع داخل إناء خشبى صغير، كذلك طبقين أو ثلاثة بحجم صغير داخلها قطع مجففة من اللحم المملح، جميعها وضعت فوق منضدة مربعة فى منتصف الغرفة. جلست فى مكانها المعتاد والتقطت عصوين من العاج مربوطين من نهايتهما بسلسلة صغيرة من الفضة.

اقتربت نحوها واحدة من خادمات المنزل وهى تبتسم، كانت هذه تحمل بين يديها طبقاً به مكورات من الخبز الذى يصدر منه بخار ساخن، كانت هذه المكورات على شكل فاكهة الخوخ، وهو رمز الأبدية، وكل واحدة مدهونة بلون أحمر.

"لك العمر الطويل يا سيدتى"، هذا ما نطقت به الخادمة بصوت أجش ثقيل، "أعلم أن سيدتى لا تفضل ما هو حلو صباحاً، لكن نحن الخدم علينا أن نحضر هذه المخبوزات لجلب الحظ الحسن، لقد صنعها الطباخ بنفسه"

"أشكرك، وأشكركم جميعًا"، وبنوع من المجاملة تناولت واحدة من المكورات المدخنة وقطعتها، كان هناك حشو مسكر بالداخل مصنوع من الفول المصحون والسكر الأحمر، قالت السيدة، "تبدو لذيذة"، ثم قضمت منها جزءاً.

تشجعت الخادمة، لذا انحنت وهمست بصوت واضح: "المفروض أن لا أخبرك بهذا، لكن يجب أن أخبرك على كل حال لأننى أهتم بالأكثر بمصلحة هذا المنزل العظيم. كبير الطباخين يتقاضى يا سيدتى ثلاثة أضعاف سعر الأعشاب التى يشتريها كوقود للمنزل. بالأمس وأنا فى السوق استمعت وعرفت مقدار السعر الحقيقى. فى الحقيقة، حصلت بالفعل زيادة فى الأسعار لأن الأعشاب الجديدة لم تظهر بعد – لكنى أقول إن ثمانى قطع من النقود كافية أن توفر كل احتياجات المنزل من الوقود، هذا على الرغم من أنه يتقاضى مائتين عن الكمية نفسها! هو يظن أنه قادر أن يفعل أى شىء لأن وصيفتك ينج هى خادمتك المفضلة"

أخذت عينا مدام وو تبرق بعيداً، قالت، "عندما يحضر لنا كشف المصروفات سوف أتذكر ذلك". كان صوتها هادئًا ومتحفظاً. استمرت الخادمة واقفة للحظات ثم غادرت.

وضعت مدام وو مكورات الخبز جانباً، ثم استخدمت العصوين فى التقاط قطعة من السمك المملح، واستأنفت استغراقها فى التفكير. إنها لا تفكر أبداً أن تتنازل عن مركزها فى هذا المنزل وتمنحه لزوجة ابنها الأكبر المدعوة "منج". هى لها أربعة أبناء، اثنان منهما متزوجان، بينما الجدة كان لديها ابن واحد، لذا لم يكن فى حينه مجال لحدوث نوع من الغيرة بين زوجات الأبناء. زوجة ابنها الأكبر صغيرة للغاية، فابنها الأكبر "ليانجمو" تزوج متبعاً التقاليد القديمة، وهى التى اختارت له زوجته، هى ابنة أعز صديقاتها، مدام كانج. لم يكن فى نيتها أن تزوج ابنها الثانى "تسيمو"، لكنه وهو ملتحق بمدرسة فى شانغهاى، أحب هناك فتاة تكبره بعامين، وأصر أن يتزوج وهو فى الثامنة عشرة من عمره. وهذا يعنى أن "رولان"، وهى زوجة الابن الثانى هى أكبر عمراً من سلفتها التى تعتبر لها الأفضلية الأولى فى إدارة المنزل، ولكى تتفادى هذا الإحراج، الذى بسببه كانت مدام وو تلوم نفسها لأنها لم تراقب ابنها الأصغر تسيمو كما يجب، ليس عليها الآن إلا أن تحتفظ بمركزها الحالى لعدة أعوام قادمة، وربما يحدث خلال ذلك الزمن ما قد يبدل الأحوال.

لذا هى لن تعلن عن أى تغيير فى إدارة المنزل، إنها سوف تتقبل منهم هداياهم وسوف ينعقد الاحتفال الكبير كالمعتاد. إنها سوف تعرب عن مدى حبها وإعزازها لأحفادها، فهى تحبهم بعمق، وسوف تعلن عن طاعتها للجدة الكبيرة، تلك التى تنهض ظهراً لكى تحضر الاحتفال.

بالنسبة لمدام وو، كما اشتاقت هى لقدوم هذا اليوم، لكن خالط مشاعرها نوع من الارتياح المشبوب بقليل من مشاعر الحزن، فقد انتهى الجزء الأول من حياتها، والآن هى تدرج فى النصف الآخر. إنها لا تخشى من كر السنين، فالقدم يكرم الإنسان، وكل عام يمر يكسب المرء كرامة أعظم واحتراماً فى أوساط العائلة والأصدقاء. أيضاً هى لا تخشى فقدان جمالها، فهى قد تركت الزمن يعمل فى بشرتها برقة بالغة، ويبدو واضحاً أنها ما زالت تحتفظ بالكثير من مظاهر الجمال. إنها لم تعد ترتدى الملابس الملونة المزينة بالزهور والطيور كما كان يحدث أيام شبابها، لكن رقة وجهها وبشرتها كانت

واضحة وهى ترتدى الملابس ذات اللون الفضى الأزرق أو الأخضر الرمادى. كان تأثير تقدمها فى العمر يضفى عليها مزيداً من البهاء والشموخ أكثر من الفقد، ولأنها كانت تعلم أنها ما زالت جميلة، لذا انتوت اليوم أن تنفذ ما خططت وفكرت فيه لزمن، وأى امرأة غيرها فقدت سمات جمالها، سوف تتردد كثيراً بل وربما شعرت بالغيرة، لكن هى لا تشعر بما يسمى الغيرة. إنها سوف تنفذ خطتها اليوم وسوف يكون هذا من وحى إرادة حرة واضحة وهادئة.

أنهت إفطارها. كل أفراد العائلة كانوا نياماً ما عدا الأحفاد، والمربيات سوف يتجمعن فى ركن ما من هذا المنزل الواسع إلى أن يستيقظ الآباء، لكن لن يتم إحضار الأحفاد إليها إلى أن تأمر هى بذلك. لذا شعرت بالاندهاش وهى تستمع إلى حوار يدور قريباً من مكانها، ثم استطاعت أن تميز الأصوات.

"لا يحدث كل يوم أن تبلغ صديقتى العزيزة الأربعين من عمرها، هل هناك أهمية ما إذا كنت قد حضرت مبكرة؟"

استطاعت على الفور أن تميز صوت صديقتها، مدام كانج، وهى والدة منج، زوجة الابن الأكبر، لذا أسرعت نحو باب غرفتها. صاحت، "ادخلى من فضلك"، قالت هذا وهى تلتقط الزهرتين من فوق المائدة وتلوح بهما.

تدحرجت مدام كانج وعبرت الجناح متجهة نحو صديقتها. لقد أصبحت إنسانة سمينة للغاية اكتسبتها فى الأعوام نفسها التى استطاعت صديقتها مدام وو أو تحتفظ برشاقتها، لكن هذه الأخيرة من الكرم الجامح الذى يجعلها تجل وتحب صديقتها على الرغم من مظهرها.

"أيلين..هل أنا الأولى التى تتمنى لك عمراً مديداً وخلوداً؟"

ابتسمت مدام وو، "نعم، أنت الأولى..الخدم بالطبع ليسو فى الحسبان"

"إذن أنا لم آت مبكرة"، حدجت مدام كانج الوصيفة ينج بنظرة لوم وعتاب لأنها حاولت أن تمنعها، لكن هناك قواعد صارمة فى هذا المنزل، فممنوع منعاً باتاً إزعاج

مدام وو أثناء تناولها طعام الإفطار، ففى حالة أى مقاطعة، لا تستطيع هى أن تتناول شيئًا. ينج ليست من النوع الخجول، كذلك لا أحد يخشى مدام كانج، وفى مقدور ينج أن تمنع الحاكم نفسه إذا رغبت أن تتمتع سيدتها بقدر من السلام والطمأنينة خلال فترة الصباح.

قالت مدام وو، "إننى أفضل أن أراك أفضل من أى شخص آخر"، قبضت بأصابعها الدقيقة على ذراع صديقتها الممتلئ وقادتها إلى حديقة الأوركيديا، وتحت شجرة صفصاف حانية، كان هناك مقعدان من البامبو، وإليهما اتجهت السيدتان، جلستا وتحت أقدامهما امتدت بركة صغيرة، من قاعها بزغت مجموعة من نباتات السوسن، وهناك زهرتان كانتا تطفوان على السطح. إن مدام وو لا تهتم كثيراً بزراعة نبات اللوتس، فزهور ذلك النبات خشن الملمس ورائحة زهورها ثقيلة. بين لحظة وأخرى، كان يبرز عدد من الأسماك من نوع "جولد فيش" وهى تتلاعب وسط أعواد السوسن الزرقاء، ثم يتوقف البعض منهم عن اللعب ويبرز أنفها وهو يتذبذب فوق سطح المياه، وعندما لا تعثر تلك السمكات على الفتات، تندفع مبتعدة بينما ذيولها الضبابية تتحرك خلفًا صانعة ظلا أبيض طويلا.

سألت مدام وو صديقتها، "ما هى أحوال حفيدك الآن؟". على مدى فترة زواج مدام وو، أنجبت هى أربعة أبناء أحياء، كذلك ثلاثة أبناء توفوا، وكان من ضمنهم فتاة. أما مدام كانج، فقد استطاعت أن تنجب أحد عشر طفلا، ستة منهم بنات. ولا يتمتع منزل مدام كانج بهذا السلام الشامل الذى يمكن أن نعهده فى منزل مدام وو، فحول كيانها السمين وأخلاقها الرضية، يتحلق إزعاج مستمر من أبنائها وخدمها. مع ذلك، على الرغم من كل شىء، فإن وو مغرمة بصديقتها، فأميهما كانتا أيضًا من الأصدقاء، وكانا يتزاوران وبينما تنهمك الأمهات فى اللعب والمقامرة طوال النهار حتى وقت متأخر من الليل، كانت البنتان تتصرفان كأنهما أختين.

ردت مدام كانج "إنه لم يتحسن"، بدت أمارات الحزن تكسى وجهها المستدير الأبيض الذى بدا كأنما هو مصباح منير، "أفكر أن أذهب به إلى المستشفى الأجنبية، ما رأيك؟"

"هل وصل الموضوع بحيث يصبح مسألة حياة أو موت؟"

" ربما يحدث له ذلك فى ظرف عدة أيام، لكنهم يقولون إن الطبيب الأجنبى لا يستطيع أن يخبرنا بنوعية المرض قبلما يقطع فى جسد المريض حتى يستطيع أن يشخص، وأنت تعلمين أن حفيدى هذا بالذات صغير للغاية، هو فى الخامسة من عمره يا أختى، وأعتقد أن حياته ما زالت غضة ولن يحتمل أى تقطيع يحدث فى جسده"

"على الأقل انتظرى حتى الغد، دعينا لا نفسد يومنا هذا"، بعد ذلك شعرت أنها ربما تتهم بالأنانية، لذا أضافت "فى الوقت نفسه سوف أرسل ينج ومعها قصعة مليئة بشوربة معينة بها وصفة علمتنى أسرارها جدتى، وهى مفيدة فى مكافحة السعال الذى يضنى صدر حفيدك، لقد استخدمته كثيراً فى علاج ابنى الأول والثالث، وأعطيت الكثير منه لوالدهم ، فأنت تعلمين أنه كان يعانى من السعال على مدى فترتى الشتاء السابقتين".

"أى، أى.. إنك إنسانة مفضالة وخيرة"، قالت هذا مدام كانج وهو تشعر بالامتنان لصديقتها. كان الوقت مبكراً والجو فى الحديقة بارداً، لكن هى سحبت من كمها مروحة وأخذت تروح بها بينما تضحك وهى تفعل ذلك، "ما إن يختفى الثلج، حتى أشعر فى الحال بالحر".

جلستا لفترة فى صمت، كانت مدام كانج تملى أنظارها فى وجه صديقتها وهى لا تشعر بأى مظهر من مظاهر الغيرة، قالت "أشعر بحيرة بالغة بخصوص ما يتوجب أن أقدمه لك كهدية فى عيد ميلادك، لذلك أحضرت لك هذا...."، وضعت يدها فى فتحة صدرها وأخرجت صندوقاً صغيراً وناولته لصديقتها.

تعرفت مدام وو على الصندوق على الفور "آه، أحقاً تودين أن تمنحينى مجموعة اللآلئ ملكك؟"

"نعم، هذا ما أرغبه"، ثم عبر على وجه مدام كانج لمحة ألم.

"لكن لماذا؟"

ترددت مدام كانج قليلا، "المرة الأخيرة التى ارتديت فيها هذه اللآلئ، قال لى والد أبنائى إنها تشبه قطرات من الندى فوق بطيخة"، ابتسمت مدام كانج، ثم انهمرت الدموع من عينيها. لم تهتم هى بذلك، وأخذت الدموع تهطل على خديها وتتناثر على الساتان الكثيف الذى يغطى صدرها.

رأت مدام وو ما يحدث، لكنها تظاهرت أنها لا ترى ولم تتحرك من مقعدها وقبضت بين يديها بصندوق اللآلئ. هى كثيراً ما تسمح لصديقتها أن تتحدث عن متاعبها مع السيد كانج، لكن ولا واحدة منهما كانت تتحدث عن السيد وو، فقط ربما كلمة أو اثنتين فقط. أحياناً كانت مدام كانج تقول، "آه، والد أبنائك لا يسبب لك متاعب كثيرة، فأنا لم أسمع يوماً أنه قد ارتاد بيتاً من بيوت الأزهار، لكن رجلى.. حسناً، أنه إنسان طيب، فقط...."، فى تلك اللحظة تتوقف مدام كانج عن حديثها وتصدر من صدرها آهة حارة.

منذ عدة سنوات سابقة، قالت مدام وو لصديقتها "يا عزيزتى متشن، لماذا لا تتركينه يفعل ما يشاء مادام أنه يعود لمنزله قبل انبلاج ضوء الصباح؟"، لكن هى لم تنس أبداً نظرة العار التى كست عينى صديقتها الأمينة.. لذا أعلنت مدام كانج "إننى فى الحقيقة أشعر بالغيرة الشديدة ، أحياناً أشعر كأن دمى قد تحول وأصبح ناراً". كانت مدام وو تصمت وهى تستمع لذلك، هى لم تجرب أبداً مشاعر الغيرة، فهو موضوع يزعج صديقتها لكن هى لا تفهمه إطلاقاً، وربما تتفهمه قليلا عندما تتذكر شكل السيد كانج، فهو تاجر عادى موسر، لكنه ليس وسيماً. هو وفير الثروة لكنه ليس ذكياً، هى بالتأكيد ما كانت قد شعرت بأى نوع من السعادة لو كانت زوجته.

قالت مدام وو، "منذ مدة طويلة وددت لو أخبرتك عن شىء ما، فى البداية عندما فكرت فى هذا الموضوع، ظننت أننى فى حاجة ملحة لأن أستمع لنصيحتك، لكنى لم أفعل ذلك، وقد أصبح الموضوع الآن منتهياً ولا يخضع لأى نصيحة لأنه أصبح مؤكداً".

جلست مدام كانج منتظرة أن تستكمل صديقتها حديثها. كان الهواء الذى أحدثته المروحة كافياً لأن يجفف دموعها، فهى تضحك وتبكى بسهولة تامة بسبب طبيعتها السلسة، وبالنسبة لهذه الصداقة بالذات، هى تشعر وتعلم جيداً أنها فى المرتبة الثانية فى كل شىء، فلا يقتصر الأمر على أنها ليست جميلة، لكن هى فى صميم وجدانها تعلم أنها لن تحقق شيئاً بشكل جيد كما يحدث مع مدام وو. لذا فعلى الرغم من أن منزلها كبير وأنيق مشابه لهذا المنزل، لكنه لم يكن أبداً تام النظافة والترتيب، وعلى الرغم من جهودها، أما الخدم فقد كانوا يستغلون طيبتها ويتكاسلون فى عملهم. عندما حضرت إلى منزل مدام وو، أدركت كل هذا، على الرغم من أنها لا تشعر بهذا عندما تكون فى منزلها، لكن هى كثيراً ما كانت تخبر نفسها أن أى إنسان يكون فى معية مدام وو سوف يشعر بابتهاج بالغ. ربما يكون هذا هو السبب الرئيسى الذى جعلها تحضر إلى منزل مدام وو عشر مرات، بينما هذه الأخيرة لا تزورها سوى مرة واحدة.

قالت مدام كانج، "أخبرينى ما الذى يشغل فؤادك؟"

رفعت مدام وو عينين طويلتين واسعتين، كان النني الأسود واضحاً تماماً وسط محيط ناصع البياض، وهذا هو الذى منحها مظهر الشباب الدائم. تحدثت بصوت واضح، "لقد قررت أنه من اليوم سوف أطلب من والد أبنائى أن يتخذ لنفسه محظية".

على الفور هبط الفك السفلى لمدام كانج، وظهرت أسنانها الصغيرة التى تمثل المظهر الجمالى الوحيد بين شفتيها الغليظتين، "هل هو ... أيضاً... كان..."

"لا، لم يحدث..الموضوع ليس هكذا إطلاقاً. بالطبع أنا لم أسأله من قبل عما يحدث فى احتفالات الرجال، فهذا لا يخصنى أو يخص منزلى. لا، هذا فقط سوف يحقق مصلحته – كذلك مصلحتى".

"لكن كيف يحدث هذا... ومعك؟". فجأة شعرت فى هذه اللحظة أنها الأفضل فيما يختص بعلاقتها بالسيد كانج، فهذه الخطوة لا يمكن أبداً أن تحدث فى بيتها ولا تخطر أبداً على بال زوجها، فوجود محظية فى المنزل واعتبارها عضواً من أفراد العائلة،

وأولادها يتعاركون مع أبناء الدار، كل هذا يمثل وضعًا أسوأ من قيام الزوج بزيارة بيوت الأزهار.

"إننى أرغب فى تحقيق ذلك"، قالت مدام ووذلك وهى تحدق فى أعماق بركة المياه الصافية، بينما زهرتا الأوركيد ما زالتا فى حجرها بحالتهما الأصلية. هى بالطبع إنسانة هادئة الطباع، لذا تعيش الأزهار أمداً أطول وهى فى حماها.

تساءلت مدام كانج بتثاقل، "لكن... هل سيوافق هو؟ إنه مغرم بك".

"إنه لن يوافق أولا"، هذا ما قالته مدام وو بكل هدوء ورزانة. الآن وقد أفشت سرها لصديقتها، حان الوقت لأن تمطرها مدام كانج بالعديد من الأسئلة، وانهمرت عليها استفسارات متنوعة، بينما سقطت المروحة على حجرها، "لكن هل أنت التى سوف تختارين له الفتاة؟ أوه،ألا تعلمى أنه سوف يحدث كثير من الشجار عندما يكون للسيد امرأتان تحت سقف واحد؟"

"إننى لن أشكو شيئًا، لأن هذا سوف يحدث بناء على رغبتى".

"أيلين..ألن تجبريه على فعل ذلك؟".

"إننى لا أجبره أبداً على فعل أى شىء".

صدر من أحدهم سعل بسيط. كل من السيدتين التفتتا، كانت ينج واقفة على الباب وعلى وجهها المستدير المنير نظرة كلها توتر وقلق، فى لحظة أدركت مدام وو الأمر، لذا صاحت:

"لا تخبرينى أنه فى هذا اليوم من دون كل الأيام ممكن أن تزورنا الأخت الصغيرة هسيا".

كان فى صوتها الجميل نوع من الاستثارة الشقية.

"نعم، هى التى حضرت"، توقفت ينج قليلا لكى تنفجر بعدها ضاحكة، ثم غطت فمها بيدها، "يا للسماء، إنها سوف تسمعنى"، لذا همست، "لكن يا سيدتى، هى لا تفهم أبداً معنى كلمة لا، لقد أخبرتها أن لديك ضيوفًا...."

"لم تخبريها بالطبع أنه يوم عيد ميلادى، فأنا لا أود أن أدعوها لحضور الحفل".

"لست بهذا القدر من الغباء يا سيدتى، لكنى أخبرتها أن مدام كانج موجودة هنا".

قامت مدام كانج بشكل متعجل، "أنا خارجة، لست مستعدة أن أسمع لعظات هذا اليوم. فى الحقيقة، لقد أهملت كل واجباتى المنزلية، جئت فقط لكى أسلمك هذه الهدية". لكن مدام وو رفعت ذراعها الرقيق لتقول، " متشن، ليس مسموحاً لك أن تتركينى الآن ، يجب أن تجلسى بجوارى، إذا لم تغادر هذه الأجنبية فى ظرف نصف ساعة، إذن يمكن أن تنهضى وتودعينا"

رضخت مدام كانج، فهى لا تستطيع أبداً أن ترفض طلباً لأعز صديقاتها، لذا جلست فى مكانها مستريحة، أما ينج فإنها ذهبت ثم أحضرت معها تلك المرأة الأجنبية، ثم أعلنت، "الأخت الصغيرة هسيا".

صاحت هسيا، "أوه، مدام وو، ومعك أيضاً مدام كانج". هى سيدة طويلة القامة، نحيفة، شاحبة اللون، الآن هى فى منتصف العمر، ولدت فى إنجلترا، شعرها الشحيح فوق رأسها له لون التراب، وجهها يشبه وجه السمكة، أنفها نحيف وعال والشفاه لونها أزرق، ترتدى فستاناً قطنياً لونه رمادى، لذا بدت أكبر عمراً من حقيقتها، لكن هى فى أفضل أحوالها لن تبدو أبداً أنيقة أو جميلة، وهذا ما وقر فى ذهن هاتين السيدتين الصينيتين، لكن هما يرثيان لها بسبب طيبتها ولأنها تعيش وحيدة فى المدينة حيث لا يتواجد سوى عدد قليل من أفراد جنسها. هما، كما كان يفعل الكثيرون، لا يخترعان أبداً أسباباً لكى لا يتقابلا مع هذه المبشرة الأجنبية. فى الحقيقة، بخصوص هذا الموضوع بالذات، هما يتمتعان بقلب طيب عطوف، لكن لأن الآنسة هسيا عذراء، يتعذر أن يثيرا أمامها موضوع المحظيات.

"من فضلك، اجلسى أيتها الأخت الصغيرة هسيا"، هذا ما نطقت به مدام وو بصوتها العذب الرقيق، "هل تناولت إفطاراً؟"

ضحكت الأخت هسيا، فهى لم يتيسر لها، على الرغم من قضائها وقتاً طويلا فى هذه المدينة أن تكون على راحتها وسط النساء. كانت تضحك بلا توقف وهى تتحدث، "أوه... لقد اعتدت على (صندوق) الفلاحين". هى كانت تدرس اللغة الصينية يومياً، لكن لأنها تعانى من أذن ضعيفة، لذا كانت تتحدث اللغة الصينية بلهجة غربية، لذا تجدها الآن وقد اختلط عليها الأمر بين كلمتين. كل من السيدتين أخذتا تنظران لبعضهما فى حيرة، على الرغم من أنهما كانتا معتادتين على ما تحدثه هسيا الصغيرة من ارتباك عندما تتحدث اللغة الصينية.

رددت مدام كانج، "صندوق الفلاحين؟"

غمغمت مدام وو، "هى تعنى أن تقول: أشبه بالفلاحين، كل من الكلمتين متقاربتان فى النطق".

صاحت هسيا ضاحكة، "أوه، هل أنا قلت ذلك؟ من فضلكم، أنا أعترف أنى إنسانة غبية!". لكن مدام وو استطاعت أن تشاهد تلك البقع الحمراء التى انتشرت على عنق هسيا وغمرت بشرتها الباهتة، وفهمت هذا الضجيج الذى غمر قلب هذه الأجنبية.

"ينج، أحضرى بعض الشاى والكعك، أحضرى أيضًا بعض الكعك المحمص"، ثم أضافت، "يا ترى، لماذا إذن لا أخبر صديقتى الأجنبية أن هذا اليوم بالذات هو عيد ميلادى؟"

صاحت هسيا، "أوه، عيد ميلادك، إننى لم أعلم....".

"ولم تعلمين؟ لقد بلغت الأربعين من العمر اليوم".

أخذت هسيا تحدجها بعين زائغة، ثم رددت، "أربعين؟" ثم أخذت تحرك يديها وتصدر منها ضحكاتها الخجولة التى بلا معنى، "لماذا.. يا مدام وو، أنت تبدين فى العشرين من العمر".

تساءلت مدام كانج بكل أدب، "ما هو عمرك أيتها الأخت الصغيرة؟".

نظرت نحوها مدام وو بنظرة عتاب، "متشن، أنا لم أخبرك من قبل، فطبقًا للتقاليد الغربية يعتبر من سوء الأدب والتربية، التساؤل عن عمر المرأة، وهذا ما أخبرتنى به زوجة ابنى الأصغر لأنها عاشت فترة طويلة فى شانغهاى وقد تعرفت على العديد من الغربيين".

"من سوء الأدب، لكن لماذا؟"

ضحكت الأخت هسيا، "أوه..ها..ها! هذا لا يهم...لقد قضيت وقتًا طويلا هنا وأصبحت معتادة على......".

نظرت نحوها مدام كانج باهتمام، "إذن..ما هو عمرك؟"

بدت مظاهر الإحراج على وجه هسيا، قالت بصوت خفيض سريع، "أوه.. إننى فى الثلاثينيات".

لم تفهم مدام كانج قصدها، لذا أضافت، "فى السادسة والثلاثين؟"

"أوه..لا، لا. ليس بهذه الكثرة"، كانت هسيا تضحك مرة أخرى، لكن كان هناك نوع من الاحتجاج فى هذا الضحك.

أدركت مدام وو هذا الاحتجاج، "اهدئى، هذا لا يهم إطلاقًا، شىء رائع أن يعيش الإنسان حياته من عام لآخر وهو متمتع بكل ما يمر به"، فهمت هى أن موضوع التساؤل عن العمر قد أحرج هذه الأجنبية، لا سيما وهى ما زالت عذراء. عذراء عجوز. لقد وعت لمثل هذا الحدث فى عائلة والدتها، فأخت جدتها الأصغر ظلت عذراء لأن الرجل الذى كادت أن تتزوجه توفى فجأة. لقد أعجبت العائلة بمسلك هذه العذراء، لكنهم فى الوقت نفسه كانوا يشعرون بالتوتر بسبب تواجد آنسة لم تتزوج وهى الآن عجوز تضمحل رويداً تحت سقف منزلهم. أخيراً، ولكى تحصل على سلامها، أصبحت راهبة بوذية، لذا بشكل أو بآخر، تعتبر هذه الأجنبية راهبة.

بلطفها البالغ، قالت مدام وو، "لدينا ضيوف سوف يحضرون بعد قليل، لكن قبل حضورهم أرجو أن تلقى على مسامعنا بعضاً من عظاتك". كانت هى تعلم أن أكثر ما يبهج قلب هذه المرأة الأجنبية هو أن يدعوها أحد لتلقى عظة.

نظرت نحوها هسيا بامتنان ووضعت يدها داخل حقيبة سوداء عميقة كانت تحملها معها باستمرار. من الداخل، أخرجت كتاباً كثيفاً مغطى بغطاء جلدى بال، أيضاً أخرجت علبة نظارتها الجلدية السوداء وسحبت منها نظارتها ووضعتها فوق أنفها المرتفع وفتحت الكتاب.

قالت بصوت متهدج، "لقد تم إرشادى اليوم أن أخبرك يا مدام وو عن ذلك الرجل الذى بنى بيته على الرمال".

قالت مدام كانج بصوتها المرتفع، "أرجو أن تعذرونى، لقد تركت منزلى بلا ترتيب أو تنظيف"، ثم انحنت لهما وغادرت المكان بخطوات ثقيلة ثابتة.

مدام وو التى اضطرت أن تقف، جلست مرة أخرى، ثم سارعت باستدعاء ينج وأعطتها التعليمات الخاصة بإرسال الشوربة الشافية التى وعدت بإرسالها لمعالجة حفيد مدام كانج، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة للأخت الصغيرة هسيا، وقال بكل تبجيل، "أخبرينى عما قاله سيدك لهذا الرجل الذى بنى بيته على الرمال".

"عزيزتى مدام وو، إنه سيدك أنت أيضاً، فقط عليك أن تقبليه".

ابتسمت مدام وو، "إنه أمر لطيف من قبله، أرجو أن تخبريه بذلك..الآن استمرى يا صديقتى".

كان هناك نبرة عتاب فى لهجة مدام وو، لذا استمرت هسيا فى القراءة وهى متوترة قليلا، لكن نطقها الغريب للغة الصينية جعل من الصعوبة تتبع ما تنطق به، لكن مدام وو تظاهرت أنها تستمع وتعى بينما مظاهر الجد على وجهها، بينما هى فى الحقيقة كانت تركز أنظارها على أسماك ال "جولدن فش" وهى تبرز بأنوفها وتلعب فى ماء البركة. مرتين حضرت ينج حتى باب الجناح لتصنع بعض الإشارات من فوق رأس الأخت الصغيرة المحنى، لكن مدام وو كانت تحرك رأسها قليلا. مع ذلك، ما انتهت هسيا من القراءة حتى نهضت وو واقفة، "أشكرك أيتها الأخت الصغيرة، إنها قصة جميلة، أرجوك احضرى مرة أخرى عندما يكون لدى وقت كاف".

كانت الأخت الصغيرة هسيا تخطط لتقديم صلاة مشتركة، لذا قامت من مكانها محتارة مرتبكة تلملم حقيبتها السوداء وتضع النظارة فى غطائها والكتاب الكثيف داخل الشنطة، قائلة، "أليس من الأفضل أن نصلى صلاة قصيرة سوياً؟"، لكن لهجتها الغريبة الخاطئة جعلت كلمة (صلاة) تتحول لتصبح (كعكة). للحظات، بدت مظاهر من الحيرة على وجه مدام وو، ثم أخيراً فهمت، وبأريحية خالصة لم تبتسم بسبب هذا الخطأ، قالت، "عليك أنت أن تصلى من أجلى فى منزلك أيتها الأخت الصغيرة، أما الآن فأنا لدى مهام أخرى عاجلة". ثم بدأت فى المسير حتى باب الجناح أثناء حديثها، فجأة ظهرت ينج لتقود هسيا خارجاً. بذلك أصبحت مدام وو وحيدة مرة أخرى. عادت إلى البركة وأخذت تطيل النظر داخلها بينما شكلها الرشيق يبدو منعكساً على سطح البركة الصافية من رأسها حتى أخمص قدميها. أدركت بعد ذلك أنها ما زالت محتفظة بالزهرتين بين يديها، ففردت أصابعها ودعت الوردتين تسقطان فى الماء. فى الحال تجمعت الأسماك وأخذت فى جذب أوراق الورد، لكنها تفرقت بعد ذلك. ابتسمت مدام وو، "لن أعطيكم سوى الزهور، أنتم هكذا جائعون باستمرار! منزل مبنى على الرمال؟"، لكن هى ليست بهذا الغباء، فمنزلهم هذا الذى تعيش تحت سقفه ظل فى مكانه هكذا مئات السنين، هناك عشرون جيلا من عائلة وو عاشوا وماتوا فيه.

سمعت صوت ابنها الأكبر وهى واقفة على الباب، "والدتى، كان من المفروض أن آتى إليك مبكراً لكى أتمنى لك العمر الطويل ودوام الصحة". التفتت إليه، "تعال يا ابنى".

"لك العمر الطويل يا أمى!"، قالها ليانجمو بكل الحب والود، ثم انحنى قليلا أمامها هازلا وهو يتقدم نحوها، فعائلة وو ليست من النوعية القديمة المتمسكة بالتقاليد التى تحتم أن يركع الإنسان أمام الكبار الذين يحتفلون بأعياد ميلادهم . لكن هذه الانحناءة كانت نوعاً من التذكير بالعادات القديمة.

تقبلت منه مدام وو تحيته تلك بانحناءة بسيطة لطيفة، "الآن أريد أن أتحدث معك". جلست على مقعد البامبو وأشارت إليه أن يجلس على الآخر. جلس هو على حافة المقعد الآخر.

"كيف حالك يا ابنى"، قالت هذا وهى تستعرض وجهه الوسيم الشاب، إنه أكثر وسامة من والده عندما كان فى نفس عمره، فهى منحته أيضًا بعضًا من رقتها وشكلها.

كان يرتدى فى هذا الصباح معطفًا طويلا من الحرير المناسب لفصل الصيف بلون أخضر مائى، شعره أسود قصير مصفف خلفًا، بشرته زيتونية ناعمة كلها حيوية بسبب تمتعه بالصحة والغذاء الجيد، عيناه تمرحان فى سعادة ومرح.

ذكرت مدام وو نفسها، "لقد وفقت عندما اخترت عروسه المناسبة"، ثم بصوت عال، "ما أخبار حفيدى الصغير؟"

"إننى لم أره هذا الصباح، لكنه لو كان مريضًا لكنت قد علمت".

إنه لا يستطيع سوى أن يتجاوب مع ابتسامة والدته، فهناك وجد وحب عظيم يجمعهما. إنه يثق تمامًا فى حكمتها أكثر مما يثق فى نفسه، وبسبب ذلك، عندما سألته يومًا أن يتزوج، لكى لا يحدث نوع من الارتباك فى العائلة بسبب زواج أخيه الأصغر المفاجئ قبله، لذا صرح على الفور، "يا أمى، اختارى أنت العروس المناسبة لى". وكان بالفعل راضيًا عن عروسه الجميلة "منج"، تلك التى منحته الصبى بعد عام واحد من زواجهما. الآن هى حامل للمرة الثانية. قال، "إننى أدخر لك بعض الأخبار المدهشة لهذا الصباح يا والدتى".

"إنه بالفعل يوم الأخبار الحسنة".

أعلن بكل فخر، "والدة ابنى سوف تمنحنى ابنًا آخر، لقد مرت عليها الفترة القمرية الأولى، الآن هى متأكدة. لقد أخبرتنى بذلك منذ ثلاثة أيام، لكنى قلت لها أن تنتظر حتى موعد الاحتفال بعيد ميلادك يا والدتى لتعلن للعائلة هذا الخبر".

"إنها أخبار مفرحة حقًا"، قالت ذلك بحرارة، "أرجو أن تخبرها أننى سوف أرسل لها هدية".

فى تلك اللحظة وقعت أنظارها على صندوق اللآلئ الذى كانت تضعه فوق منضدة صغيرة من البورسلين، صاحت، "أنا بالفعل لدى الهدية المناسبة لزوجتك"، أمسكت بالصندوق وفتحته، "لقد منحته لى أمها منذ ساعة واحدة، هذا الحلق المرصع باللؤلؤ، واللآلئ هى الأنسب للزوجات الصغيرات، كما أظن. لذا أعتقد أنه من المناسب أن أقدمه هدية لابنتنا الغالية، لذا عندما تعود إلى منج....، لا، سوف أذهب أنا معك، لكن أولا يا ابنى، هل هناك شىء يجب أن أصنعه من أجل الضيوف الذين سوف يحضرون احتفالنا اليوم؟"

أجاب،"لا شىء يا والدتى، علينا نحن أن نفعل كل ما هو لازم من أجلك، أولادك مستعدون أن يمنحوك يومًا من الكسل والمرح الحر. لن تضطرى أبدًا للسؤال عن أى شىء – عليك فقط أن تفرحى. بالمناسبة، أين والدى؟"

"أشك أنه من الممكن أن يستيقظ قبل الظهر حتى فى يوم الاحتفال بعيد مولدى"، قالت هذا وهى تبتسم، "فى الحقيقة، أنا التى أخبرته أن يكون على راحته، إنه دائمًا ما يبتهج عندما لا يكون مضطرًا أن يستيقظ مبكرًا، لذا سوف تجده منتعشًا سعيدًا أثناء الاحتفال".

"أنت طيبة معنا كلنا يا والدتى".

أخذت تستعرضه بناظريها، بدا الأمر كأنما هى لم تستمع لمقولته، "يا ابنى، مادام أنه ليس من المحتمل أن يقاطعنا أحد، فسوف أخبرك ما انتويت أن أفعله. لقد قررت شيئًا ورأيت أنه من واجبى، بصفتك ابنى الأكبر أن أخبرك ما قررت أن أفعله. لقد قررت أن أدع والدك يختار لنفسه محظية".

قالت هذه العبارات العجيبة بصوتها الساحر الهادئ. استمع لها ليانجمو دون أن يدرك معناها، ثم تزاحمت تلك الكلمات فى عقله وروعته، شعر كأنما قد تعرض لصدمة من برق السماء، أصبح وجهه الوسيم شاحبًا فى لون الزبد الأصفر.

تلجلج، "يا أمى! هل حدث يومًا منه...حدث من والدى أنه...؟"

"بالطبع لا"، شعرت بصدمة لأن ليانجمو هو أيضًا يوجه لها التساؤل نفسه. هل حقًا يبدو زوجها من ذلك النوع الذى...؟ ثم محت هذه الأفكار التافهة من عقلها قائلة، "والدك ما زال شابًا، على الرغم من أنه قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره، وهو ما زال وسيمًا، لذا لا أتعجب عندما أستمع منك أنت، ابنه، هذا السؤال الخالد نفسه. لا، إنه كان وما يزال الشخص المخلص نفسه".

توقفت قليلا عن الحديث، ثم بنوع من التهيب، بسبب ما أدركه ابنها مخالفًا لصفاتها الهادئة، لذا أضافت، "لا، أنا لدى أسبابى الخاصة لاتخاذ هذه الخطوة، لكن كنت فى حاجة لأن أتأكد أنك أنت، ابنى الكبير، سوف تتقبل حدوث ذلك، وأن تساعد كل من فى المنزل لتقبل الفكرة عندما تنتشر. من الطبيعى أن يحدث كثير من الرغى والمتاعب، لذا يجب أن لا أستمع لأى نوع من الإزعاج، لكن يجب عليك أن تستمع إليها وتحافظ على كرامة والديك".

الآن، على الرغم من شحوب وجنتيه، فإن ليانجمو استطاع أن يسترد قوة أعصابه، واستقرت حواجبه السوداء فوق عينيه، تلك التى تشبه عيون والدته، قائلا، "بالطبع هذا الموضوع هو بينى وبينك وبين والدى، لكن إذا سمحت لى أن أتجاوز موقفى، أرجوك أنه إذا رفض والدى هذه الفكرة، أن لا تلحى عليه. إننا عائلة سعيدة. ما الذى نعرفه عن نوعية المرأة التى سوف تحضر إلى منزلنا؟ أولادها سوف يكونون فى أعمار أحفادك، ألن يحدث هذا ارتباكًا فى سلسلة الأجيال؟ وإذا كانت شابة صغيرة، ألن تشعر زوجات أبنائك بالغيرة بسبب موقفها بالنسبة لأبى؟ إننى أستطيع أن أستشعر كثيراً من المتاعب والأحزان التى سوف تقع".

"ربما لا تستطيع أن تتفهم، فى سنك هذا، العلاقات التى تربط الرجال بالنساء من جيلى، لكن بسبب أننى كنت دومًا سعيدة مع أبيك، وهو معى، لذا قررت أن أتخذ هذه الخطوة. أرجوك يا ابنى، عد إلى مركزك. كل ما أطلبه منك هو أن تطيع والدتك فى هذا الشأن، كما كنت تفعل فى كل الأمور. أنت أفضل أبنائى، وما سوف تقوله يمكن أن يؤثر فى باقى إخوتك الصغار، أيضًا فإن ما سوف تنطق به زوجتك منج، هو أيضًا سوف يؤثر فى الزوجات الأصغر. عليك أن تساعدها هى أيضًا".

أخذ ليانجمو يناضل ضد هذه الفكرة فى عقله، لكن طاعته لوالدته كانت مستقرة فى فؤاده، لذا هو يعرب عن طاعته الآن، "سوف أفعل قدر جهدى، لكنى لن أتظاهر بأن ما صرحت به الآن لم يسبب لى نوعًا من الحزن فى يومنا الجميل هذا".

ابتسمت قليلا، "إننى فى الواقع أود أن أدخر أحزانك لأيام أخرى"، أدركت بعد ذلك أن ما قالته هو عبارة عن أحجية فى نظر هذا الشاب، لذا نهضت وهى ممسكة بصندوق اللآلئ، "تعال معى، سوف نذهب لنرى زوجتك لكى أسلمها هذه الهدية بنفسى".

قام هو بمجرد قيامها، والآن هو واقف بجوارها، شاب كامل قوى يشبه والده فى هذا الشأن، رأسه وكتفاه يعلونها، مدت يدها الرشيقة ووضعتها فوق ذراعه للحظة علامة نادرة للحب والإعزاز. هذا أدهشه بالفعل، فهى لا تحتمل بسهولة أن تتلامس بدنيًا مع آخر، حتى ولو كان واحدًا من أبنائها. نظر نحوها وتقابلت عيونهما.

قال بشكل واضح محدد، "معك، أنا بنيت منزلى على الصخر!"

* * *

كانت منج تلعب مع ابنها الصغير فى ساحة منزلها الذى يقع داخل حدود هذا المنزل الكبير. كانت بمفردها معه بالإضافة لمربية الطفل، تلك التى جلست مربعة على الأرض، فالمربية والأم مشغولتان فقط بهذا الطفل طوال نهارهم. فى الليل، هو ينام بين ذراعى المربية، وفى هذا الوجد المنصب على هذا الطفل، عثرت كل من المرأتين على الزمالة الحقة، وسكبا، فى تضحية مبذولة، حبًا والتفافًا غير عادى يحتاجه هذا الطفل.

جسد منج معد لأن يحمل العديد من الأطفال، صدرها ملىء باللبن، لكن لا أحد، حتى ولا هى، يفكر يومًا أن يسمح لهذا الطفل أن يجذب بشفتيه من حلمة صدرها، بذلك يمكن أن يفسد تماسكه واعتداله. لذا تم استئجار خدمات المرضعة "لين" لتغذية الطفل باللبن. هذه المرأة هى زوجة أحد المزارعين فى حقول السيد وو، أما ابنها،

وهو ولد أيضًا، فغذاؤه مكون من الدقيق والماء والأرز، تطعمه به جدته، بدلا من لبن أمه. لذا أصبح ابن المرضعة هذه نحيفًا، صغيرًا، شاحب اللون، بينما الطفل الذى ترضعه ليين فهو سمين ولونه وردى.

كان يسمح للمرضعة ليين أن تذهب لمنزلها مرة كل شهر، وما إن ترى ابنها حتى تنخرط فى بكاء مر، ثم على الفور تضعه على صدرها الممتلئ، فصدرها يخر لبنًا، لكن ابنها يشيح بوجهه مبتعدًا، إنه لم يتذوق من قبل هذا اللبن، ولا يعرف أيضًا كيف يمتصه. لذلك لا تستطيع ليين أن تستكمل يومها فى بيتها، فصدرها يؤلمها بشدة، لذا فى منتصف النهار تسرع عائدة إلى منزل عائلة وو، هناك يكون طفل العائلة فى انتظارها، يصرخ فى غضب وجوع.

ما إن تراه ليين، حتى تنسى ذلك الطفل الآخر الشاحب الأصفر، وتفتح يديها على اتساعها، وهذا الطفل السمين يصرخ مناديًا لها محاولا أن ينزل من فوق ركبتى والدته، تسرع ليين نحوه وهى تفتح معطفها أثناء الجرى، ثم تركع بجوار منج، وبكلتا يديه، يمسك بصدرها كأنما هو كوب ويبدأ فى المص وهو يصدر صوتًا غريبًا مسموعًا. كل من منج وليين يتضاحكان، فكلتاهما تشعران فى بدنيهما هذا الطفل.

الآن، وبينما تراقب السيدتان هذا الطفل، فإنه من الصعوبة بمكان أن يخبر أحد من هى أمه. فى الحقيقة، هذا الطفل لا يهتم بذلك، فهو يوزع ابتساماته بالعدل بينهما. لقد تعلم الآن السير واستطاع أن يقطع الخطوات البسيطة التى تفصل الواحدة عن الأخرى، بينما هو يكركر ويقع فى حضن هذه ثم تلك.

تشعر منج بسعادة مقيمة، وقد ازداد مقدار سعادتها وتعمق خلال الأيام القليلة الماضية. هى لم تخبر أحدًا بقدوم الطفل الجديد سوى زوجها ليانجمو. بالطبع عرف الخدم، فوصيفتها هى التى ذكرتها أن القمر الثانى قد حل موعده ورحل دون أن تظهر العلامات المعروفة، وفى غرف لخدم، سادت حالة من الابتهاج، لكن الخدم فى البيوت الكبيرة يشبهون قطع الأثاث التى يتم استخدامها بدون أى قدر من الاهتمام.

عرفت لبين بذلك الحدث وفرحت، فمنزل به عدد كبير من الأطفال المحتاجين لخدمة المربيات هو حقاً بيت سعيد. هى تدريجيًا توقفت عن حب ابنها الطفل، وكل حبها الحيوانى انصب على ذلك الطفل الذى ترضعه. منزلها فقير وحالته كرب والطعام نادر الحصول عليه، أما حماتها فهى سيدة سليطة اللسان، ودائمًا ما تستحوذ على الأجر الذى تحصل عليه، هذا على الرغم من أن ليين هذه بكت وانتحبت يومًا وليلة عندما أرسلتها حماتها لتخدم فى منزل السيد وو، فإنها الآن مغرمة بالطعام الجيد، كذلك السهولة البالغة فى الحصول على كل شىء، أيضًا الكسل، فخلافًا لمهمة إرضاعها للطفل، ليس مطلوبًا منها أن تؤدى أى عمل آخر، بل كانت دائمًا ما يحثونها لأن تأكل المزيد من الطعام، وأن تشرب ما تشاء، كذاك أن تستغرق فى النوم. جسدها الشاب الذى يقدس متع الحياة، استجاب لكل هذا بكل ترحاب وسرعة. الآن، هذا هو بيتها، وهى مغرمة برضيعها أكثر من ابنها.

لقد اشتاقت، وهى فى قمة سعادتها أن تخبر سيدتها الصغيرة كم هى جزلة بأخبار قدوم الطفل الثانى، لكنها ترددت، فالنسوة الغنيات اللاتى اعتدن على حياة الدعة والكسل يسمحن بكل شىء، لكن أحيانًا ما ينفجرن غضباً بلا سبب. لذا استمرت ليين فى الضحك وهى تمدح رضيعها الصغير وتقول، "إنه ولد رائع، لم أشاهد مثيلا له فى أى مكان يا سيدتى.

قبلما تفعل منج شيئاً خلاف الابتسام، استمعا لصوت خطوات قادمة. أسرع الطفل نحو ليين ليستقر بين ذراعيها، استطاع أن يلمح والده قادماً ومعه جدته. نهضت منج من مكانها.

قالت مدام وو، " كيف حالك يا منج، اجلسى يا ابنتى، استريحى من فضلك، تعال إلى يا ابن ابنى". دفعت ليين الطفل الصغير أمامًا وأخذت تزحف معه لأنه كان يجد المأوى المناسب له بين ذراعيها، أخيراً وقف تحت ركبتى مدام وو وأخذ يحدق فيها بعينيه السوداويين الكبيرتين بأطرافهما المستدقة، ثم وضع إصبعه فى فمه، فسحبت هى إصبعه بلطف وغمغمت، "إنه ولد جميل، هل وضعت له اسمًا يا ليانجمو؟"

"لا، ليس هناك ما يدعو للعجلة، فهو لن يحتاج اسماً إلى أن يذهب إلى المدرسة".

أخذت تحدق فى ذلك الطفل الذى وقف وسطهم، فى مركزهم جميعًا، مع ذلك، وهذا ما فكرت فيه وهى شاردة الذهن، ليس هو نفسه، ليس ذلك الكائن الضئيل، هو الذى تتعلق به آمالهم. إذا شاء القدر ومات، فغيره سوف يأخذ مكانه. لا، هو ليس إلا رمز لامتداد الحياة، والرمز هو الذى يجمع بين ضفتيه كل أحلامهم.

أدارت عينيها من ذلك الوجه البديع الصغير، وتذكرت لماذا حضرت، "منج، أخبرنى ليانجمو أنك قد أضفتى لحياتنا سعادة جديدة. جئت لكى أشكرك وأحضرت لك معى هدية".

احمرت وجنتا منج وأدارت رأسها الصغير. العيب الوحيد الذى يشوب جمالها هو شعرها المجعد، على الرغم من كل كميات زيت الخشب الذى تدهن به رأسها لتنعيم الشعر. الآن خالط بهجتها نوع من الخوف بسبب شعرها المجعد الذى ظهر أمام حماتها. إنها تحب مدام وو، لكن تخشاها أيضاً، ولم يشاهد شعراً مثل شعر مدام وو البديع. مدت بعد ذلك يدها لتتسلم الهدية.

"أوه، إنها لآلئ والدتى!"

"لقد أهدتنى إياها، لكنى أنا أكبر من أن أتزين باللآلئ. الآن كل الأمور تسير فى مجراها الحسن فى هذا المنزل. يمكن لك أن تعلنى عن سعادتك اليوم، وأنا مستعدة أن أمنحك هذه اللآلئ"

"كثيراً ما تشوقت لهذه المجموعة من اللآلئ"، ثم فتحت الصندوق وأخذت تحدق فيها.

أمرها ليانجمو بالقول، "البسيها".

أطاعت منج وزاد احمرار وجنتيها. كانوا جميعاً يراقبونها، حتى الطفل الصغير، لكن يدها لم تهتز وهى تثبت الحلقين فى أذنيها، أخيراً اعترفت، "اعتدت أن أضعهما فى أذنى، وكنت دائماً ما أطلب من والدتى أن تمنحهما لى".

قالت مدام وو، "هوذا الآن أصبحا ملكًا لك"، ثم التفتت ناحية ابنها، "انظر كيف تحول لون اللؤلؤ إلى اللون الوردى على الرغم من أن لونهما الأصلى هو الفضى الرمادى، وهذا ما حدث فعلا، فقد ظهرت اللآلئ بلون زهرى قرمزى فوق بشرتها الصافية. صاحت ينج، "يجب أن لا تكون سيدتى بارعة الجمال هكذا، وإلا أنجبت بنتًا!".

ضحكوا جميعًا، واختتمت مدام وو الضحك بقولها، "إننى أرحب بالطفلة المولودة، فعلى كل حال، يجب أن يكون هناك إناث فى العالم كما يكون ذكور. نحن ننسى ذلك على الرغم من أنها من حقائق الحياة الراسخة، أليس كذلك يا منج؟"

لكن منج كانت فى قمة الخجل لأن تجيب على مثل هذا التساؤل.

* * *

حانت الآن ساعة الاحتفال بعيد الميلاد. احتلت مدام وو مكانها على يسار الجدة الكبيرة، التى بسبب تقدمها فى العمر، خصص لها أفضل مكان. جلس السيد وو على يمين أمه، على الجانب الآخر جلس ليانجمو. أما الابن التالى وهو تسيمو فقد جلس على يسار مدام وو. على يسار تسيمو جلس الابن الثالث وهو "فنجمو"، أما "ينمو"، وهو الابن الرابع، فهو ولد صغير فى السابعة من عمره، ارتضى أن يكون فى معية والده، والآن هو واقف وسط ذراعى والده. كانت منج جالسة وقد وضعت ابنها على ركبتيها، بينما هناك خادمة واقفة فى الجوار مستعدة أن تأخذ الطفل إذا صدر منه أى نوع من الإزعاج. ظهر على الجدة الكبيرة علامات الفخار بابن حفيدها، لكن هى دائمًا سريعة التذمر، بينما تتحلى مدام وو بصبر لانهائى.

فى الحقيقة ليس هناك شىء يمكن أن يزعج مدام وو، فبوجهها الصبوح كانت تستعرض هذا الجمع العظيم من أفراد عائلتها. على ست موائد من ثمانية أماكن، جلس الأعمام والأخوال والخالات وأبناء العم والخال والأصدقاء وأبناؤهم، وعلى مائدة منها كانت صديقتها مدام كانج تتصدرها. كان كل واحد منهم قد أرسل هديته مسبقًا لمدام وو،

هذه الهدايا بأشكال متنوعة – زوج من الفازات، كميات من البلح، صناديق تحتوى على كعك ناعم وحلويات مختلفة، لفائف من الحرير ملصق عليها أشكال قطعت من ورق مذهب، كل واحدة تحمل نقشًا هو عبارة عن أمنية طيبة. كان هناك الكثير من الهدايا الأخرى، وقد أضاف السيد وو قطعتين من الحرير الثقيل المطرز، أما الجدة الكبيرة فقد أضافت صندوقين من الشاى الفاخر.

كل هدايا العائلة فاخرة، وكانوا قد لجأوا إلى أفضل رسام فى المدينة ليرسم لهم ربة الحظ الحسن. وقد أعجب كل الزائرين بجمال الرسم عندما أتوا لتقديم أولى مراسم تحياتهم لمدام وو. هذا الرسم كان معلقًا فى مكان الصدارة، وكل تفاصيلها دقيقة للغاية، فهناك ربة الحظ الحسن ممسكة بخوخة الخلود، على جانبها رُسم شكل وعل ومجموعة من الخفافيش تطير حول رأسها لتمنحها البركات، من زنارها تعلق إناء إكسير الحياة، وحتى الأعشاب طويلة العمر لم ينسها الرسام ووضعها فوق عصاها.

على الحائط خلف مدام وو، تم تعليق قطعة قماش من حرير الساتان مربعة الشكل وقد تم خياطة شخوص الحياة المديدة فوقها من القطيفة السوداء.

ولرد التحيات والتمنيات السعيدة، قام ليانجمو بالنيابة عن والدته بصنع ذلك، قام هو ومعه زوجته منج بالتوجه إلى كل مائدة يشكر ضيوفها بالنيابة عن والدته، بصفته الابن الأكبر.

كل شىء تم بمنتهى البساطة، وإن كان يشوبه نوع من الرسميات، مما يعنى أن عائلة وو تقدر العادات القديمة، أيضًا تتفهم العادات الحديثة. بين لحظة وأخرى، كانت مدام وو تقوم من مكانها وتتحرك بين الضيوف لتتأكد أنهم جميعًا قد نالوا أفضل خدمة. ما إن تفعل ذلك، حتى يقوم الضيوف على أقدامهم راجين أن لا تتعب نفسها، وهى من جانبها ترجوهم أن يجلسوا.

ما إن فعلت ذلك مرتين، وقبل المرة الثالثة، انحنى السيد وو عبر ركن المائدة قائلا، "أرجوك، لا تنهضى مرة أخرى يا أم أولادى. سوف أحل بدلا منك عندما يحين وقت تقديم الحلوى".

أحنت مدام وو رأسها شاكرة، ثم لاحظت أن الجدة قد التقطت قطعة كبيرة من لحم الفراخ وكانت الشوربة تتساقط منها على ملابسها، فأمسكت هى بعصويها وأمسكت بالقطعة حتى تتمكن الجدة أن تضعها فى فمها. ما إن استطاعت الجدة أن تنطق حتى نادت بصوتها الحاد العالى، "أنت يا ينج!"

كانت الوصيفة ينج واقفة قريبًا من سيدتها، فأتت مسرعة. صاحت الجدة، "عليك أن تخبرى زوجك السمين أنه يجب أن يقطع لحم الفراخ قطعًا أصغر، هل يظن هو أن لنا فك أسد أو نمر؟". أجابت ينج، "سوف أخبره بذلك أيتها السيدة المبجلة"

لكن السيدة الكبيرة كانت الآن فى قمة سعادتها، فقد امتلأت معدتها الآن بالطعام، وبدأت الآن فى الحديث مع الجميع بصوتها العالى المشروخ. قالت وهى تدير عينيها حول الغرفة "علمت أن الأجانب يأكلون قطعًا ضخمة من اللحم، لقد سمعت أنهم يضعون على موائدهم فخذة كاملة لخروف أو بقرة، حجمها فى حجم الطفل الصغير، ثم يقطعون منها قطعًا كبيرة بسكاكينهم، بعد ذلك يضعونها فى أفواههم باستخدام شوكة معدنية.

ضحك الجميع، قال ابنها السيد وو، "أنت فى أفضل حال يا والدتى". إنه لا يحاول إطلاقا أن يصحح الألفاظ الخاطئة التى تنطق بها أمه، فأولا هو لا يريد أن يجعلها تشعر بالتعاسة، ثانيًا من يهتم بما تنطق به وهى تلك السيدة الطاعنة فى السن.

فى تلك اللحظة، حضر الأرز الحلو المغمور فيه الفواكه الثمانية الفاخرة. هذا يوضح أن هذا الاحتفال قد وصل إلى منتصفه. الجميع شعروا بالسرور وهم يشاهدون وصول هذا الأرز المعمر. على الباب، شاهدت ينج زوجها كبير الطباخين واقفًا نصف مختبئ لكى يستمع إلى مديح الضيوف، وقد رأته مدام وو أيضًا، لذا انحنت نحو ينج وأمرتها، "أخبريه أن يحضر إلى هنا". صعد افتخار ينج إلى قمته حتى بلغ وجنتيها المنتفختين، لكن لكى تعرب عن مدى تحضرها وأدبها، حاولت أن تقلل من قيمة زوجها تواضعًا، "يا سيدتى، لا تهتمى كثيرًا برجلى الخائب"، لكن مدام وو أصرت قائلة، "لكن هذا يدعو لسرورى".

لذا بتردد زائف، استدعت ينج زوجها، فحضر هذا ووقف أمام مدام وو ينفض ويسوى من مريلته بكل فخر، فليس هناك طباخ بارع بمريلة نظيفة تمامًا، وهو يعلم ذلك.

قالت هى بصوتها الحنون "يجب أن أشكرك من أجل صناعتك للأرز الحلو المحشو وفيه الثمانية أنواع من الفواكه الثمينة. أنت دائمًا ما تصنعها وتكون لذيذة، لكنك اليوم أنت قد تفوقت على نفسك أكثر من أى وقت مضى، وهذا ما أعتبره علامة مؤكدة على إخلاصك وطيبة قلبك، وسوف أتذكر ذلك قبل نهاية هذا اليوم"

عرف الطباخ أن معنى ذلك هو أنها سوف تمنح هدايا للخدم بعد انتهاء الاحتفال، لكن بسلوكه المتميز، تظاهر بخلاف ذلك، "أرجوك، لا تمدحى فيما قمت بطهيه، فأنا لا أستحق كل هذا المديح".

"مع السلامة أنت"، قالت ينج ذلك بينما عيناها تلمع فخرًا وتيها، لذا خرج هو مسرعًا مسرورًا، بينما كانت ينج تدارى فخرها وتعود لتتمسك بموقعها الأول.

الآن يتحتم على السيد وو أن يفى بوعده، لذا ذهب إلى كل مائدة ليرجوهم أن ينوقوا من هذه الحلوى اللذيذة، وقد تابعته مدام وو بعينيها متفكرة، هل تخيلت أنه توقف أكثر من اللازم أمام مائدة مدام كانج حيث تتواجد ابنتها الثالثة الرائعة الجمال؟

"العصيدة، أين العصيدة؟"، هذه كانت الشكوى المدوية للسيدة الكبيرة، لذا سارعت مدام وو برفع أكمامها وتناولت معلقة من البورسلين ووضعت كمية وفيرة من العصيدة فى صحن العجوز. تمتمت الجدة، "ملعقتى، أين ملعقتى؟"، قامت مدام وو بوضع ملعقة فى يدها، بينما هى مستمرة فى مراقبة السيد وو وهى تطيل التفكير. كل من هم على الموائد كانوا صامتين منهمكين فى النهل من مسراتهم فى ازدراد الطعام، لكن ليس هناك أى شك من أن السيد وو قد تمهل أكثر من اللازم أمام ابنة مدام كانج الجميلة. هذه الفتاة تتبع أحدث الموضات، قامت أخيرًا بقص شعرها ليصل حتى كتفيها فقط ثم جعدته بالأسلوب الغربى، فهى كانت قد قضت سنة فى مدرسة بشانغهاى قبلما

يستولى العدو على هذه المدينة، الآن هى لا تسبب سوى الألم والانزعاج لأبويها، فهى دائمًا ما تعبر عن عدم رضائها من العيش فى هذه المدينة الإقليمية.

أخذت مدام وو تراقبها بينما الجميلة ترفع رأسها لكى تجيب عن شىء ما قاله السيد وو، ضحك السيد وو وغادر. ما إن عاد السيد وو حتى نظرت إليه زوجته بنظرة من عينيها الصافيتين قائلة، "أشكرك يا والد أبنائى"، صوتها كان بنغمته الموسيقية نفسها.

استمر هذا الاحتفال فى مساره اللطيف الطويل، تبع تقديم الحلوى، تقديم اللحوم، فى النهاية تم تقديم ست أطباق، وبدلا من الأرز، تم تقديم نوع من المكرونة المستطيلة (نودلز)، ولأنه كان احتفالا بعيد ميلاد، لذا كانت النودلز فائقة الطول كرمز لطول الحياة. تعتبر مدام وو من النوع المدقق فى تناول الطعام، لذا رفضت أن تتناول شيئًا من اللحوم، لكن كان من الضرورى أن تأكل بعضًا من النودلز، تلك التى برع الطباخ فى جعلها أطول من اللازم، لكن هى استطاعت ببراعة أن تديرها حول عصويها.

السيدة الكبيرة ليست بهذا القدر من الصبر، لذا أمسكت بطبق النودلز بيدها اليسرى وأخذت تدفع بالنودلز إلى فمها باستخدام العصوين وشفطتها كما يفعل الأطفال. لقد التهمت السيدة العجوز كل شىء بشهية دافقة، قالت بصوتها المشروخ القديم، "إننى سوف أمرض هذه الليلة، لكن الأمر يستحق ذلك يا ابنتى فى عيد ميلادك الأربعين".

"تناولى ما تشائين يا أمى".

واحد بعد الآخر من الضيوف، قام رافعًا كأسًا خزفيًا بها خمر، وتم احتساء الأنخاب. لم تستجب مدام وو لهذا، فهى سيدة هادئة الطباع، لذا حدقت فى السيد وو الذى وقف فى مكانها وتقبل الأمنيات الطيبة من الجميع. فقط هى مدام كانج التى استطاعت أن تلتقط عينى صديقتها، وبصمت رفعت كأسها، وبسكون رفعت مدام وو كأسها أيضًا، كلتاهما شربتا سويًا نخب تفاهمهما السرى.

الآن، امتلأت معدة السيدة العجوز حتى آخرها، لذا أسندت ظهرها على المقعد المرتفع وأخذت تحدق فى أفراد عائلتها، ثم أعلنت، "يبدو أن ليانجمو مريض"

الجميع نظر فى اتجاه ليانجمو، الذى ابتسم ابتسامة مريضة بالفعل، قال مسرعًا، "لا، لست مريضاً يا جدتى". أخذت زوجته منج ترمقه بعين منزعجة، غمغمت، "أنت بالفعل تبدو غريبًا، كل تصرفاتك غريبة منذ الصباح". توجهت كل الأنظار إليه، سواء من إخوته أو زوجة أخيه، لكن هو هز رأسه. لم تنطق مدام وو بشىء، لقد أدركت أن ليانجمو لم يستسغ حتى الآن ما أخبرته به هذا الصباح، أخذ ينظر إليها الآن فى ضراعة، لكن هى ابتسمت ابتسامة بسيطة ثم حولت رأسها بعيداً.

لكن ما إن حولت رأسها حتى تقابلت عيناها بتحديق من عين المتمردة الذكية، وهى "رولان"، زوجة الابن الثانى تسيمو، هى لم تنطق بحرف أثناء الاحتفال، لكن الحديث والكلام ليس لازمًا عند هذا المرأة لكى تفهم ما الذى يدور حولها. أدركت مدام وو أنها قد لاحظت نظرة الضراعة التى حدجها به ليانجمو، كذلك إجابة الأم. لكن تسيمو نفسه لا يهتم بأى شىء لما يحدث حوله، إنه إنسان ملول، لذا ابتعد قليلا عن المائدة وأخذ يحرك ساقية سريعًا. بالنسبة إليه، يعتبر هذا الحفل قد مكث أطول من اللازم.

فى مكان ما، تعرض أحد الأطفال الذى ازدرد الكثير من الطعام إلى حالة من القىء الذى توزع على الأرض الحجرية كأنه رشاش، فى الحال حدث نوع من الهرج والمرج بين جماعة الخدم. لذا نصحت مدام كانج فى الحال، "أحضروا الكلاب سريعًا"، لكن ينج وهى تسرع ناحية الكارثة قالت، "سيدتى تمنع دخول الكلاب لتقبع تحت الموائد"، أما الابنة الثالثة لمدام كانج فإنها اندفعت فى القول، "لقد أخبرتك من قبل يا أمى أن لا أحد يفعل ذلك الآن، إنها عادة قديمة وقبيحة، إننى دائمًا ما أشعر بالخجل عندما يطبق ذلك فى منزلنا"، ردت مدام كانج، "حسنًا، حسنًا كونى هادئة وأنت تعبرين عن خجلك هذا أمام الضيوف". قال السيد كانج، "هناك الكثير من الرغى والكلام الزائد الذى يصدر من بنات اليوم". هذا الرجل فى الواقع مغرم بابنته هذه المدعوة "لين يى"، لأنها أجمل بناته، لذا ابتسم لها مشجعاً.

ترجرجت الجدة العجوز وهى تقف متثاقلة على قدميها، "سوف أذهب إلى سريرى استعداداً لقدوم نوبة المرض". قالت مدام وو، "اذهبى يا أمى، سوف ننتقل نحن وضيوفنا فى الغرفة الأخرى".

انتظرت المدام حتى قام اثنان من الخدم بقيادة السيدة العجوز وتسنيدها خارجاً. جميع الضيوف نهضوا، ثم خاطبت السيد وو زوجها، "هل تسمح وتقود ضيوفك نحو الصالة الرئيسية؟ أما النساء فسوف يحضرن معى إلى غرفة استقبالى. ثم تحركت أثناء حديثها يتبعها فصيل النساء، أما الرجال فقد تحركوا مع السيد وو فى زرافات متفرقة، أما الأطفال فقد سيقوا على باحة أخرى وقد أمسك بهم مربياتهم بينما رءوسهم تتمايل نعاساً.

توقفت مدام وو عند الباب، وخاطبت المربية التى برفقتها الولد المريض، "خذيه إلى غرفة نوم البامبو، الجو بارد هناك. يجب أن ينام قليلا". هذا الطفل الذى كان ينهنه منذ قليل، توقف عن ذلك بمجرد سماعه لصوتها.

لقد انتهى الاحتفال، لكن وهى فى غرفة استقبالها، حافظت مدام وو على وقارها أمام النسوة، فتحدثت قليلا، لكن سكوتها هذا لم يلاحظ، فهى فى العادة قليلة الكلام، فقط عندما يستلزم الأمر اتخاذ قرار معين، الجميع ينظرون نحوها متوقعين، فهم يعلمون أن اتخاذ القرارات فى هذا المنزل هو من اختصاصها، وكل قرار تتخذه تجعله معلوماً باستخدام كلمات مختصرة واضحة لا لبس فيها. صوتها دائمًا ما يصدر ناعماً سلساً كأنما هو المياه التى تجرى فوق الصخور.

حولها، كان رتم الأصوات يعلو ويهبط. لقد تم استئجار خدمات فرقة من الممثلين لتقديم بعض الفقرات، كان الأطفال يشاهدون ذلك مبهورين، أما الكبار فكانوا يشاهدون ويتحدثون فى الوقت نفسه ويحتسون الشاى الساخن الفاخر الذى جمعت أوراقه قبل هطول أمطار الصيف، وفى حضور الفتيات الصغيرات، تعذر على النسوة الكبار أن يتحدثن بحرية، هذا وقد نعست مدام كانج قليلا وهى جالسة. فى مرة وحيدة أمرت مدام وو وصيفتها قائلة، "اذهبى وانظرى ما إذا كانت السيدة الكبيرة قد تعرضت

للمرض أم لا". ذهبت ينج بالفعل، ثم عادت وهى تضحك، "بالطبع هى تشعر بأنها مريضة، لكن هى تقول بِأن الأمر يستحق كل ما يحدث لها".

ضحك الجميع، ومع صدى الضحكات، استيقظت مدام كانج من غفوتها، فخاطبت مدام وو، "لا يجب أن نثقل عليك أكثر من ذلك يا أختى، نحن جميعًا نتمنى أن تعيشى مائة عام".

ابتسمت مدام وو ونهضت، عندئذ تقدمت واحدة بعد الأخرى لكى يودعونها وخرجوا جميعًا. بعد ذلك، كانت هناك حزم ملفوفة بها الحلويات والهدايا ونقود قدمها الضيوف، جميعها تم إعدادها لتقديمها لمجموعة الخدم، وقد قامت ينج بإحضارها فوق صينية كبيرة. حضر بعد ذلك الخدم ليتسلموا هداياهم. انحنوا أمام مدام وو وأيديهم مضمومة إلى صدورهم، بينما تقوم مدام وو بتحية كل واحد منهم بكل أدب واحتشام وتسلمه هديته. كل هؤلاء الخدم كانوا قد احتفلوا من قبل بهذه المناسبة السعيدة فى المطابخ.

إذن أخيراً أصبحت مدام وو بمفردها، لذا سمحت لنفسها أن تشعر بالتعب للحظات، فعضلاتها الصغيرة التى تسيطر على زورها وصدرها ووسطها انقبضت قليلا، وبدت هى كزهرة ذابلة وتقريباً بدت فى مظهر عمرها الحقيقى. بعد لأى استطاعت أن تفرد كتفيها الرشيقين، فليس هذا وقتًا مناسباً للشعور بالتعب، فاليوم لم ينته بعد.

* * *

بعد مرور ساعة من الزمان، وبعدما نالت قسطًا من الراحة، قامت وأخذت تزرع غرفتها جيئة وذهابًا، ثم حضرت حتى النافذة واستندت على الحافة المنخفضة لها. كانت هذه النافذة طويلة واسعة، وضلفها مفتوحة إلى الداخل. فى الخارج، كانت هناك الساحة التى جلست فيها هذا الصباح مع مدام كانج ومع ليانجمو. استرجعت فى ذهنها ذلك الرعب الذى خامرهما وهى تحكى لهما ما انتوت أن تفعله، وبطريقة عفوية صدرت منها ابتسامة لطيفة التى لا تعبر سواء عن حزن أو فرح.

فى تلك اللحظة، ظهرت ينج عند البوابة النصف قمرية للساحة وشاهدت هذه الابتسامة، صاحت، "سيدتى، أنت تبدين فتاة صغيرة وأنت واقفة هكذا فى ضوء القمر!". لم تتغير ابتسامة مدام وو، لكنها استدارت وجلست على المقعد الذى يقع أمام طاولة زينتها ومرآتها. أتت إليها ينج ونزعت عنها ثيابها، ثم فكت شعرها الطويل وأخذت تمشطه فى حركات طويلة قوية باستخدام مشط جديد من خشب الصندل. شاهدت ذلك الوجه الهادئ فى المرآة ورأت تلك العيون السوداء الواسعة وكيف تبدو هذه الليلة:

"هل تشعرين بالتعب يا سيدتى؟"

"لا أبداً".

"لقد كان يومك طويلا، والآن يا سيدتى، أنت فى الأربعين من العمر وسوف تبدئين ممارسة نوع آخر من الحياة، أعتقد أنه واجب عليك أن لا ترهقى نفسك بالعمل. يجب أن تسلمى موضوع حكم المنزل وباقى مصالح العائلة إلى ابنك الكبير، وأن تدعى لزوجة ابنك الأكبر موضوع الإشراف على المطابخ، ويمكن لزوجة ابنك الثانى أن تشرف على الخدم. ليس عليك الآن سوى أن تجلسى فى الساحة تقرئين كتبك وتتمتعين بالنظر إلى الزهور، وتتذكرين كيف أن حياتك كانت حسنة ومفيدة للجميع، وكيف أن زوجات أبنائك يحملون أطفالا".

"ربما تكونين على صواب، كنت أنا أيضاً أفكر فى هذه الأمور. ينج، سوف أسأل والد أبنائى أن يتخذ لنفسه زوجة صغيرة".

قالت هذا بصوت هادئ، لذا لفترة بسيطة أدركت أن الوصيفة لم تتفهم جيداً مقولتها، فجأة شعرت أن بالمشط يتوقف عن العمل، شعرت بيد ينج وقد قبضت على خصلة من شعرها بعنف بالغ، ثم بدأ المشط يعمل بسرعة، قالت المدام، "أنت تجذبين شعرى بقوة".

ألقت ينج بالمشط على الأرض وانفجرت، "أنا لن أرعى أى سيدة غيرك!"

"ليس مطلوباً منك أن تفعلى ذلك".

لكن ينج ركعت على ركبتيها على الأرض المبلطة بجوار مدام وو، وأخذت تنهنه وتشهق وتمسح دموعها بطرف الجاكتة الجديدة التى ارتدتها لهذه المناسبة السعيدة، "أوه يا سيدتى، هل هو يغصبك على ذلك يا أعز الناس؟ هل نسى كل أفضالك وجمالك؟ أخبرينى ولو بسبب واحد.....".

قالت المدام بحزم بالغ، "إنها رغبتى أنا. قومى يا ينج. إذا دخل علينا فربما يظن أننى كنت أضربك...".

زاد نحيب ينج، "أنت! أنت التى تمنع نفسها من قتل بعوضة انهمكت فى امتصاص دمها!". قامت ينج من رقدتها واستعادت المشط، بينما ما زالت تشهق وسط دموعها، ثم استمرت مرة أخرى فى تمشيط شعر سيدتها.

بدأت مدام وو فى الحديث بصوتها الهادئ العاقل، "إننى أخبرك بذلك يا ينج لكى تستطيعى أن تحسنى التصرف مع باقى الخدم، فلا يجب أن يصدر حديث مطول بينكم أو أى نوع من اللوم يوجه عندما تحضر هذه الفتاة الصغيرة...."

"من هى؟"

"لا أعلم حتى الآن".

"متى سوف تأتى".

"لم أقرر بعد، لكن عندما تحضر يجب أن تعامل بكل احترام، على أن تكون منزلتها أقل منى ، لكن هى أكبر قدراً من زوجات أبنائى. إنها لن تكون راقصة أو مغنية، لكن فتاة فاضلة. كل شىء يجب أن يتم بنظام، وفوق كل شىء، لا يجب أن يتم تبادل أى حديث ضد والد أبنائى أو ضد الفتاة الصغيرة، لأننى أنا التى سوف أدعوها لتأتى إلى هنا".

لم تتحمل ينج هذا، "يا سيدتى، مادام أننا سوياً منذ سنوات طويلة، إذن فهو مسموح لى أن أتساءل وأقول، لماذا؟"

"يمكن أن تسألى، لكن لن أجيبك بأسبابى".

فى سكون، أنهت ينج تمشيط الشعر الطويل وعطرته وجدلته ثم جعلته على شكل كعكة استعداداً لحمام المدام، ثم أشرفت على صب المياه فى الحمام. كان فى الداخل وعاء كبير خزفى عميق ومستدير، وعبر باب خارجى، حضر اثنان من السقائين أحدهما يحمل وعاء به مياه ساخنة والآخر مياه باردة وصباها فى الوعاء الكبير ثم غادرا. حضرت ينج وجست المياه بيدها ثم صبت فيه بعض العطر أخذته من زجاجة، ثم أحضرت الصابون الجديد والفوط الحريرية، بعد ذلك أتت إلى الغرفة الداخلية:

"حمامك جاهز يا سيدتى"، قالت هذا مثلما تفعل كل ليلة.

نزعت مدام وو آخر ملابسها وسارت عارية رشيقة القوام كأنما هى بنت صغيرة. ثم قبضت على يد ينج وخطت داخل الوعاء الكبير وجلست فى المياه. قامت ينج بدعك جسدها بكل حنية كأنما هى طفل صغير. كان الماء صافيًا، وظهر جسدها المرمرى بلون عاجى أبيض فى ذلك الوسط من البورسلين الأخضر. وصلت المياه حتى كتفيها. أثناء جلوسها هذا، كانت تفكر فى حكمتها. فى الواقع، جسدها جميل كالعهد به دائمًا، هذا وقد منعها السيد وو من إرضاع أطفالها، لذا بدا ثدياها الصغيران مثل براعم للوتس تحت المياه.

ما إن خطت خارجة، حتى أحاطتها ينج بملاءات حريرية وأخذت تضغط على جسدها بغرض تجفيف بشرتها، ثم وضعت ينج على جسد سيدتها قميصًا حريريًا للنوم، وأخذت تقص أظافر يديها وقدميها. ما إن انتهت ينج حتى فتحت باب غرفة النوم. كان المكان خاليًا، فالسيد وو لا يحضر إلا بعد خروج ينج، لكن هناك بعض الليالى لا يحضر فيها، لكن هذا كان يحدث نادرًا. خطت السيدة فوق مسند خشبى مشغول مبطن وصعدت فوق سريرها المحاط بستائر حريرية.

"هل أقوم بجذب ستائر النافذة يا سيدتى؟"

"نعم، دعينى أرى ضوء القمر"

أخذت ينج تتحسس مكان براد الشاى وتبحث عن الغليون الفضى الصغير الذى أحيانًا ما تستخدمه مدام وو عندما لا تشعر بالنعاس، وتأكدت أيضًا أن أعواد الكبريت بجوار الشمعة.

قالت مدام وو، "حتى الغد"

"إلى الغد يا سيدتى"، ثم غادرت ينج.

رقدت مدام وو على استقامتها تحت الأغطية الحريرية واللحاف الحريرى الصيفى. كان ضوء القمر منيرًا وراسمًا شكلا على الحائط المقابل لسريرها، كان واضحًا لدرجة أنها استطاعت أن تتحقق من الخطوط الخارجية للصورة التى علقت هناك . هى صورة بسيطة أبدعها أحد الرسامين، لقد استخدم فكرة المسافات الخالية مع بضع دفقات بسيطة من فرشاته توحى بتواجد هضبة واسعة تنتهى بقمة جبل وهناك شخص غير محدد ما إذا كان رجلا أو امرأة محنى الرأس يحاول صعود الجبل.

أحيانًا كان يخيل لمدام وو أن هذا الشخص قد ارتفع فى تسلقه أكثر مما تتخيله فعل هكذا فى أيام أخرى. أحيانًا كان يبدو أنه قد سقط خلفًا لعدة أميال. هى تعلم قطعًا أن هذا له صلة بمدى الضوء الذى يفد من النافذة. أما الليلة، فإن حرف النافذة قطع الصورة بظلال وأضواء مما جعل هذا الكائن يبدو فجأة كأنه قد اقترب من قمة الجبل، لكن هى تعلم يقينًا أنه فى مكانه الخالد، وليس أعلى أو أدنى.

رقدت فى مكانها، لا تفكر، لا تتذكر، هى ببساطة كما هى. إنها ليست فى حالة من الانتظار أو التوقع. إذا لم يأت فإنها سوف تستغرق فى النوم ثم تخبره أن ينتظر لليلة أخرى. لقد تم اختيار الأوقات المناسبة، وإذا حاول أحد أن يجبر الآخر، فهذا هو الخطأ بعينه. كل قوتها الهادئة سوف تتجمع حول تلك اللحظة المناسبة، فى تلك الحالة سوف يكون قرارها هو الصواب بعينه.

فى تلك اللحظة، سمعت صوت خطوات أقدام السيد وو وهو يخطو بثبات فى الساحة. لقد حضر عبر الغرفة الخارجية ثم عبر غرفة الاستقبال، بعد ذلك فتح باب غرفة النوم.

لقد كان يحتسى الخمر، وقد استطاع أنفها الحساس أن يلتقط رائحة الخمر التى انتشرت من تنفسه وبشرته، لكنها لم تشعر بالانزعاج، فهو فى العادة لا يشرب أكثر من اللازم. بالطبع كان هو يشرب مع أصدقائه احتفاء بعيد ميلادها. كان قابضاً على غليونه فى يده، وكاد أن يضعه على المنضدة، ثم أجل ذلك. سألها بسرعة:

"هل تشعرين بالتعب؟"

قالت بهدوء، "لا، لست أشعر بالتعب". لذا وضع الغليون مكانه المعتاد ثم أرخى ستائر النافذة وصعد إلى السرير.

بعد أربعة وعشرين عامًا من حياتهما الزوجية، بالطبع سوف يوجد نوع معين من الروتين فى حياتهما. كانت تتمنى هذه الليلة أن يحدث نوع من التغيير، مادام أن تلك هى آخر ليلة تقضيها معه. فكرت وحددت نوعية هذا التغيير، لكنها قررت أن لا تنفذه. بذلك سوف يصبح من الصعوبة بمكان أن تقنعه بحكمة قرارها، هذا إذا احتاج بالفعل إلى أى إقناع. لقد استعدت وهيأت نفسها لأنه حتى ربما يشعر بالسرور من اقتراحها. فى تلك الحالة، سوف يكون الموقف أسهل كثيراً، لكنه ربما لن يشعر بالسرور باقتراحها، وهناك احتمال أكبر أن يرفض حتى النهاية تنفيذ هذا الاقتراح، لكن هى على ثقة تامة أنه لن يرفض إلى التمام، بالتأكيد ليس إلى النهاية.

لذا كانت حريصة أن تكون تقريباً فى حالتها الطبيعية. هذا يعنى أنها لا يجب أن تكون باردة أو حارة، كانت لطيفة ورقيقة، تراعى عدم وقوع أى نقص، لكن ليس هناك ما هو أعلى أو أفضل، فتحقيق المطلوب بعينه وليس التخمة هى من صفاتها الطبيعية بالنسبة لتصرفاتها بالنسبة لأى شىء.

هى لم تكن مهتمة باستكشاف أسباب أنه لم يكن كعادته تلك الليلة، كان يبدو عليه أن هناك ما يشغل باله وأنه ليس فى تمام تركيزه.

غمغم، "أنت فى قمة جمالك الليلة.. الجميع اعترف بذلك"

ابتسمت فى عينيه التى كانت تلمع فوقها وهى راقدة فوق المخدة. كانت بابتسامتها المحببة نفسها، لكن فى ضوء الشمعة الوحيدة الخافتة فوق المنضدة المجاورة للسرير، تملت فى عينيه ولاحظت أنهما يلمعان ويشتعلان بضياء غريب، بأكثر قوة مما عهدته فيه. أغمضت عينيها وقلبها يدق بعنف، هل سوف تأسف يومًا لقرارها هذا؟ رقدت كأنما هى زهرة مقطوفة لمدة ساعتين تاليتين وما فتئت تسأل نفسها السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا. هل حقًا سوف تندم يومًا؟ أم أن هذا لن يحدث؟

مع نهاية الساعتين، علمت يقينًا أنها لن تندم. عندما استغرق هو فى النوم، قامت هى بهدوء وذهبت إلى الحمام وغسلت نفسها بالماء البارد. لم تعد هى إلى السرير حيث نام هو ممددًا يصدر منه صوت تنفس واضح منتظم. أمسكت بغليونها الصغير ومن إناء صغير ملأته بالتبغ وأشعلته، ثم ذهبت إلى النافذة وأخذت تحدق فى السماء. لاحظت أن القمر يكاد أن يهبط، فبعد خمس دقائق، سوف يختفى القمر خلف سطوح عدد من المنازل القديمة. ملأ السلام قلبها، هى لن تنام فى هذه الغرفة مرة أخرى طوال حياتها الباقية. لقد اختارت بالفعل مكانها الجديد، هو مجموعة غرف تلى جناح السيدة الكبيرة وهو خال تمامًا الآن، وقد كان الجد الكبير والد زوجها هو الذى كان يشغلها من قبل. سوف تستولى على هذا المكان، مدعية أن هذا يعطيها الفرصة لترعى الجدة العجوز أثناء الليل كما تفعل هكذا نهارًا. إنه جناح جميل يقع فى منتصف هذا المنزل الكبير. سوف تعيش هناك فى سلام.

من ذلك السرير الضخم، تثاءب السيد وو واستيقظ فجأة، قال، "كان واجبًا أن أعود إلى جناحى، أنت تعرضت اليوم لمتاعب جمة، ويحق لك أن تنعسى"

حينما يقول هذا، هو دائمًا ما يصرح بذلك، لأنه إنسان مؤدب ومهذب، سواء فى اللعب أو العمل، كانت إجابتها المعتادة، "أرجوك، لا تترك مكانك، أنا أستطيع أن أنام فى أى وقت آخر". لكن فى هذه الليلة لم تنطق بذلك. أجابت بدون أن تدير رأسها، "أشكرك يا والد أبنائى، ربما تكون أنت على حق".

شعر باندهاش بالغ، لذا نهض مرتبكًا من السرير وأخذ يبحث بقدميه عن شبشبه، لكنه لم يعثر عليه. أسرعت هى إليه ووجدت شبشبه ثم وضعتهما فى قدميه وهى راكعة. هو، كطفل كبير، أحنى رأسه فجأة على كتفيها وأخذ يتجول بيديه داخل جسدها.

غمغم، "رائحتك أجمل من زهور الياسمين"

ضحكت بسبب ما يفعله، "هل ما زلت سكرانا؟"

غمغم، "سكران.. أنا سكران!"

جذبها إليه مرة أخرى، فبدا عليها الانزعاج، "أرجوك، هل يمكننى أن أساعدك على الوقوف"، ثم قامت مندفعة جاذبة إياه معها. تساءل، "هل أغضبتك؟". لقد كمل الآن استيقاظه ورأت عينيه بوضوح، "لا، كيف يمكن أن أغضب منك بعد أربعة وعشرين عامًا زواج؟ لكن – أنا انتهيت".

"انتهيت؟"

"اليوم، أنا فى الأربعين من العمر". عرفت فجأة أن تلك هى اللحظة المناسبة، فى منتصف الليل، حيث يستغرق كل من فى المنزل فى نوم عميق. ابتعدت عنه، فقام هو من السرير وأنار الشمعة الأخرى بواسطة الشمعة الأولى، وبذلك أصبحت الإضاءة فى الغرفة واضحة وقوية. جلست هى بجوار المنضدة، وجلس هو على السرير يحملق فيها.

قالت وهى تمد يديها على ركبتيها وهى داخل قميصها الحريرى، فى ضوء القمر، "كنت أستعد لقدوم هذا اليوم منذ عدة سنوات، وقد كنت زوجة صالحة معك"

"ألم أكن أنا أيضًا زوجًا صالحًا؟"

"نعم، ودائمًا، وكما يحدث ما بين الرجال والنساء عامة، كانت علاقاتنا على أحسن ما تكون، لكن الآن قد انقضى نصف عمرى".

"فقط هو النصف".

"لاحظ أن منتصف عمرك أنت لم يحن بعد، فهكذا صنعت السماء هذه الاختلافات ما بين الرجال والنساء".

أخذ يستمع كما كان يستمع دائمًا لكل مقولة تنطق بها، عالمًا أن كلماتها تحمل من المعانى أكثر من منطوقها، وربما كانت أعلى من قدراته على الفهم.

"أنت ما زلت رجلا فى عز شبابك، ونيرانك ما زالت تشتعل بقوة. يجب أن يكون لديك أبناء آخرون، لكن مهمتى أنا قد اكتملت حتى الآن".

استقامت قامته المديدة، وبدت بعض الصرامة على وجهه، "هل يمكن أن أفهم ماذا تعنين؟"

"أعتقد أنك قد فهمت".

أخذا يحملقان فى بعضهما عبر أربعة وعشرين عامًا من الزواج فى هذا المنزل نفسه الذى نشأ فيه أولادهما، وحيث تنام الجدة العجوز تنتظر الموت.

كان صوته خشنًا، "أنا لا أرغب فى امرأة أخرى، ولم أنظر من قبل إلى أى امرأة أخرى. أنت إنسانة جميلة وأجمل من رأته عيناى، وما زلت هكذا".

تردد، ثم هبطت عيناه من عينيها إلى يديه، "لقد رأيت اليوم فتاة جميلة - وفكرت عندما شاهدتها أنك أجمل منها بمراحل".

علمت فى التو أى فتاة يقصد، "آه، إن (لين يى) بالفعل هى فتاة جميلة. داخليًا هذا أيد من قرارها، فعندما يتحدث عمن يختار، إذن يكون هذا من مهامها الخاصة. لكن لن يكون من المناسب اختلاط الأنساب، فابنها ليانجمو متزوج من منج التى هى أخت (لى يى)، وكلتاهما بنات أعز أصدقائها.

زم شفتيه، "لا، لست موافقًا على خطتك، ما الذى سوف يقوله أصدقائى؟ فأنا لست من الرجال الذين يطاردون النساء".

ضحكت ضحكة ناعمة، أثناء ضحكها شعرت بنغزة قوية تضرب قلبها، كأنما هى ضربة من خنجر لم يخترق الجلد. إذا كان هكذا يفكر بما سوف يبدو الأمر أمام أصدقائه، إذن فموضوع اقتناعه بخطتها قريب أكثر مما تظن.

قالت، "يبدو أمرًا مزعجًا أن تلد امرأة فى الأربعين من عمرها، وأصدقاؤك سوف يلومونك أيضًا إذا حدث هذا".

"وهل من الضرورى أن تحملى وتلدى؟"

"إنه أمر ممكن، أنا مهتمة أن لا تتعرض لأى إحراج".

كان هو يتحدث عن الأصدقاء وهى تتحدث عن العار، إنهما لم يتلاقيا بعد، يجب أن تحفر عميقًا فى قلبه وتجذب إليه قواعده، إلا إذا كان عمقه بلا قرار.

نظر نحوها متسائلا، "هل توقفت عن حبى؟"

انحنت نحوه، فهذا حديث القلب للقلب، "إننى أحبك كما كان عهدى دائمًا، وما يهمنى فى المقام الأول هو تحقيق سعادتك".

سأل وهو حزين، "وكيف يمكن أن يكون هذا سببًا فى سعادتى؟"

"أنت تعلم أننى كنت دائمًا قابضة على سعادتك بين قبضة يدى هذه"، رفعت يدها المقبوضة كأنما هى تمسك بقلبه، "لقد قبضت عليه هكذا منذ اللحظة الأولى التى رأيتك فيها منذ يوم زواجنا الأول، وسوف أقبض عليه هكذا حتى يوم مماتى".

"سوف تدفن سعادتى إذا رحلتى قبلى".

"لا، لأنه قبلما أموت سوف أضع قلبك فى يد أخرى، وهى اليد التى سوف أعدها لك".

لاحظت أنها قد اكتسبت نقاطًا لمصلحتها. جلس بلا حراك، عيناه مركزة على يديها.

همست، "ثق بى".

"إننى دائمًا كنت أثق فى أحكامك".

دعت يدها تهبط، قال هو بنوع من الإصرار، "أنا لن أعدك بشىء، لا أستطيع، وبهذه السرعة...."

"لست مضطراً أن تعد بشيء، ولن أجبرك حتى لو استطعت، ومتى كان الإجبار هو مسلكي؟ لا، سوف نترك هذا الموضوع جانباً الآن. عد إلى السرير وسوف أغطيك. الجو بارد الآن وقد قارب انبلاج الفجر. يجب أن تنعس ولست مضطراً أن تستيقظ مبكراً".

أخذت في قيادته بضغط خفيف على كتفيه وذراعيه ويديه. أطاعها وهو غير راض، لكنه مع ذلك أطـاع وهـو يقـول، "لاحظي أنني لم أعدك بشيء". استمر في ترديد هـذه المقولة.

وافقت هي، "نعم، لا شيء، لا شيء". غطته كاملا وسحبت جزءاً من ستارة النافذة لجلب الهواء ، وأرخت الجزء الثاني حتى لا يضايقه نور الصباح. فجأة أمسك يدها بقوة، "لكن أنت، أين سوف تنامين؟"

"أوه، أنا قد جهزت مكـاني بالفعـل"، ثم قالت هـازلة، "في الغـد سوف نتقابل، لا شيء سوف يتغير في المنزل، سوف نكون أصدقاء، وهذا ما أعدك به، ولن نفترق أبداً بسبب الخوف أو الفضائح....".

دعاها الآن أن ترحل، وقد سكن تحت تأثير صوتها الحلو، وهي قادرة دوماً على تسكينه، لكن هو لم يدرك بتاتاً كل ما تعنيه.

عندما استغرق في النوم، غادرت المكان وسارت حتى وصلت إلى الجناح المجاور لجناح الجدة. بأمر منها، كان هذا الجناح نظيفاً بصفة مستمرة ومستعداً منذ أن توفي الجد الكبير، ومنذ عدة أيام سابقة، تأكدت من تواجد أغطية ومراتب جديدة على السرير. داخل هذه الأغطية الجديدة زحفت، شعرت بارتعاد خفيف بسبب هذه الأغطية الجديدة وقد غمرها فجأة تعب بالغ ومميت. ثم، كأنما هو نوع من الموت، استغرقت في نوم بلا أحلام.

(٢)

لكن ليس هو سوى نور الصباح الذى يستطيع أن يختم ويجثم فوق ما اقترفه الليل، وما هو صواب أو خطأ، فلا تدرى به سوى الشمس. استيقظت مدام وو فى اليوم التالى لاحتفالها بعيد ميلادها الأربعين وهى متسربلة بمشاعر كلها فرح وخفة. استعرضت بعينيها تلك الغرفةالمعروفة لها لكنها ليست مألوفة. هذه الغرفة تختلف تمامًا عن تلك التى فيها قضت السنوات الطوال. هذه الأخيرة تناسب شابة صغيرة، عروسًا تزوجت رجلا وتتوقع أن تنجب الأبناء. كل أطراف السرير المدلاة مرسومة بمختلف أنوا ع الفواكه وعلامات الخصب. تلك الغرفة التى هجرتها بالأمس، كانت على حالتها نفسها عندما أدخلتها إليها السيدة العجوز عروسًا لابنها الوحيد. فى ذلك الزمان، قامت السيدة الكبيرة بشراء نوعية ممتازة من الساتان والحرير الملون المستخدم فى تزيين الكلة التى تظلل السرير، لدرجة أنه بعد انقضاء أربعة وعشرين عامًا ليس هناك دا ع لشراء كله جديدة. الشىء الوحيد الذى أضافته مدام وو للغرفة هو صورة ذلك الكائن الذى يجاهد أن يصل إلى قمة الجبل. إنها تفتقد هذه الصورة الآن، لكن اليوم سوف تأتى بها إلى مقرها الجديد مع كافة ملابسها وأطقم التواليت، بذلك تصبح غرفة نومها القديمة مناسبة تمامًا لاستقبال المحظية الجديدة!

كانت مدام وو فى سريرها بمفردها، هو سرير أكثر اتساعًا عن ذاك الذى تركته وراءها. أخذت تجس نبضها، هل هى تعانى بالفعل عندما تتخيل امرأة أخرى تأتى لتنام تحت الأغطية الحريرية زهرية اللون الخاصة بسرير زواجها؟ إنها بالفعل تشعر بنوع من الضنى، على شكل ألم بعيد، ألم ليس قريبًا أو شخصيًا. هو ألم عنيف، لا يجب أن يختبره الإنسان عندما تتحكم الحياة بحكمتها وقوانينها الصارمة ضد الروح المتفردة.

كانت في صميم وجدانها تدرك أنه ربما فشل مشروعها لو استطاع السيد وو أن يكون مستعداً لدخول فترة منتصف العمر معها. لو تحقق ذلك، إذن لأصبح ذلك مصدراً لسعادة إعجازية.

أخذت تفكر في هذا الموضوع فترة طويلة. لماذا لم تسمح السماء أن تعيش النسوة ضعف حياة خصوبة الرجال، وبذلك يكون جمالهن وخصوبتهن مستمرة طوال حياة الرجل، ولا تنتهي إلا مع بزوغ جيل جديد؟ لماذا تستمر قدرة الرجال على البذار أكثر من قدرة النساء على الإخصاب؟ فكرت، "هذا يدعو إلى أن تصبح حياة النسوة ضامرة ومنتهية أكثر من الرجال، فجزء من حياتهن يجب أن ينقضي وهن بمفردهن، وهذه بالطبع هي مشيئة السماء.

دعتها حكمتها في النهاية أن تهجر كل هذه التساؤلات التي لا نفع من ورائها، فهل يقدر أحد أن يغير من قوانين السماء؟ هي السماء فقط القادرة أن ترعى الحياة وتكثرها، لذا قامت بتجهيز الرجال بالكثير من البذار، بينما النسوة هن الأرض الخصبة. هناك أراض كثيرة، لكن ما فائدة الأرض بلا بذار؟ الحقيقة الواضحة هي أن رغبات الرجل تستمر حتى بعدما تتحول عظامه لتصبح من الطباشير، ودمه الحار يتحول إلى ماء. هذا يحدث لأن السماء وضعت في حسبانها أن إنجاب الأطفال هو أهم مهامها وأجلها، وإلا فنى البشر. لكل هذا، يجب أن تجد آخر بذرة في الرجل الأرض المناسبة لكي تغرس فيها، ويجب أن تكون تلك البذرة قوية، لذا عندما يكبر الرجل في السن، يجب إذن أن تغرس بذاره في أرض شابة وقوية، لذلك إذا حاولت امرأة أن تتمسك برجل أكثر من زمان خصوبتها، فهذا في الحقيقة ليس سوى نوع من المعارضة لقوانين السماء.

عندما انتهت هكذا من تشكيل منطقها، انزاح من قلبها ذلك الألم الممضى، شعرت براحة عميقة وهدوء وسكون. في الحقيقة، شعرت كأنما هي قد استعادت نفسها، تقريباً عادت إليها حياتها عندما كانت فتاة صغيرة. شيء عجيب ومثير أن تستلقي فوق سريرها ليلا عالمة أنه في مقدورها أن تنام حتى الصباح بلا إزعاج، وإذا لم تشعر بالنعاس،

إذن فليكن هذا لا بأس به، فليس هناك خوف أن توقظ غيرها! هى أيضًا استعادت جسدها. رفعت أكمامها وأخذت تنظر إلى بشرتها، إنها ما زالت متماسكة وصحيحة كما العهد بها، وبالتغذية الحسنة وما تلقاه من عناية واعتناء وتمتعها بتلك الحرية الجديدة، إذن من الممكن أن تعيش زمنًا طويلا حتى تصبح سيدة عجوزًا، لكن لكى لا تنسحب منها سعادتها، يجب أن تكون فى منتهى الحذر فى كل علاقاتها به هو، لا يجب أن تقاطعه تمامًا. بالطبع لن يكون هذا موضوعًا سهلا عندما لا تعود الروابط بينهما مبنية على العلاقات الجسدية، بل تنبنى على وشائج من العقل والروح. إذن يجب أن تفكر فى اتباع طرق جديدة فيما يختص باعتماده عليها، طرق تكون معقولة ولا تتسبب فى إزعاج لعرى العلاقة مع القادمة الجديدة.

غمغمت، "على أن أؤدى واجباتى المعهودة أمام الجميع"، ثم جذبت أكمامها لتغطى ذراعيها البديعين.

يا ترى من سوف تكون هى تلك الفتاة الجديدة؟ كانت مدام وو تفكر بعمق فى هذا الشأن، والآن هى تعيد التفكير فى هذه المسألة مرة أخرى. من الواضح أنه يجب أن تكون مختلفة تمامًا عنها، أن تكون فتاة شابة، لكن ليست فى عمر زوجات الأبناء، فهذا سوف يحدث كثيرًا من المشاحنات فى المنزل. السن المناسب لها هو اثنان وعشرون عامًا، أيضًا لا يجب أن يكون تعليمها عاليًا، فمدام وو هى من المتعلمات. لا يجب أن تكون المحظية من النوع العصرى، لأن الشابة العصرية لن ترضى أن تصبح محظية، وإذا حدث هذا، فإنها فى وقت قصير سوف تحاول أن تزيح مدام وو جانبًا وتطالب بكل وقت السيد وو وقلبه، هذا بالطبع سوف يلحق العار بالأبناء فى المنزل. يستطيع الرجل الكبير أن يتخذ لنفسه محظية بكل وقار، لكن لا يجب أن يكون ألعوبة بين يديها. يجب بالطبع أن تكون القادمة الجديدة جميلة، لكن لا يجب أن تكون بارعة الجمال حتى لا تزغلل عيون شباب المنزل أو حتى عيون السيد وو نفسه. أن تكون متوسطة الجمال، فيه كل الكفاية، ومادام أن جمال مدام وو كان من نوع خاص، لذا فليكن جمال هذه الفتاة من نوعية مختلفة تمامًا، هذا يعنى أنه يجب أن تكون ممتلئة، وردية اللون، ولا يهم أن تكون عظامها كثيفة نوعًا.

كل هذه الصفات، التى وردت على فكر مدام وو، تشير إلى فتاة واردة من الريف. بالطبع سوف تتمتع الفتاة الريفية بالصحة والعادات المحترمة وسوف تهتم بالطبع أن يكون لها أطفال. يجب أن يكون لها أطفال، فبدون أطفال، لن تسعد أى امرأة، وعندما تحرمها الطبيعة من ذلك، فإنها تصبح مع الوقت نكدية ومنطوية وتنسج حول رجلها طوقًا يخنق رقبته. بالتأكيد لا يجب أن تتأثر سعادة السيد وو بسبب محظيته. فكرت مدام وو، "يجب أيضًا أن تكون هذه الفتاة غبية نوعًا، يجب أيضًا أن تكون راضية تمام الرضى بما يقدمه لها، وأن لا تتدخل فيما يحدث بينى وبينه من معاملات بريئة".

بدا المنظر يتضح أكثر الآن فى عقلها بخصوص هذه الشابة، رأتها فى عقلها شابة قليلة الغباء، جميلة إلى حد ما، مغرمة بالطعام، أن لا تكون قد عاشت من قبل فى بيت غنى بحيث تكون دائمًا فى حالة من الخوف المقيم وهى داخل المنزل، أيضًا أن لا تكون شرسة أو فخورة بنفسها أو بعائلتها، حتى لا تتغلب على مخاوفها باحتداد الطبع أو إحداث جلبة لا لزوم لها. فكرت مدام وو بابتهاج، "بالتأكيد هناك الكثيرات اللاتى يتوافر فيهن هذه الشروط".

قررت أنها بمجرد نهوضها واهتمامها بشئون المنزل كالمعتاد أن ترسل إلى تلك السيدة العجوز التى كانت هى الواسطة فى زواج منج بابنها ليانجمو. لقد أصرت هى أن تستعين بخدمات هذه الخاطبة حتى وهى تخطب ابنة صديقتها الحميمة، فقد خشيت أن تؤدى طيبة قلب مدام كانج إلى أن تطلب القليل وبذلك تتزعزع أركان هذا الزواج لأنه لم ينشأ على أسس عادلة. فكرت مدام وو، "يجب أن أستدعى تلك المدعوة (ليوما) فورًا وسوف أخبرها بكل وضوح بطلباتى. إنها طلبات محددة تمامًا كأنما هى قائمة بطلب شراء لوازم منزلية".

عادت بعد ذلك بفكرها ناحية ذلك الجناح الذى سوف تقضى فيه باقى حياتها. إنها سوف تحدث فيه القليل من التغييرات، هى كثيرًا ما كانت مغرمة بذلك الرجل العجوز والد زوجها، فهو لم ينجب بنات، لذا كانت معاملته طيبة معها، وعندما اكتشف أنها زكية ومتعلمة بالإضافة إلى أنها جميلة. كان سروره عظيمًا بها، لذا استبعد تمامًا تلك

العادة القديمة التى تمنع الرجل العجوز أن يتحدث مع زوجات أبنائه، بل هو أحيانًا كان يرسل لها لكى يقرأ بعضاً مما وجده فى كتبه العتيقة المتراكمة فى مكتبته، وقد اعتاد أن تحضر هى إلى هذه المكتبة أثناء حياته لتقرأ. بعض من هذه الكتب أخفاها عنها لأنها فى رأيه غير مناسبة للنساء، هى لم تجرؤ أبداً أن تمد يدها إلى هذه الكتب بالذات. أما الآن، فقد انتهى نصف عمرها وهى وحيدة ، لذا من حقها أن تقرأ هذه الكتب جميعاً.

شعرت بسعادة غامرة الآن وقد أصبحت كل هذه الكتب تحت تصرفها. لم يكن لديها قبلا أى وقت أثناء النصف الأول من عمرها لقراءة الكتب، أما اليوم، بعد سنوات عديدة منحت فيه الآخرين كل جهد الجسد والعقل، شعرت برغبة جامحة أن تشرب عميقًا من الينابيع القديمة.

أصبحت الآن تشعر أن هذا الجناح هو بالفعل ملكًا خالصًا لها، فالجد العجوز مات منذ زمن وتوقف وجوده فى نظرها كلحم ودم، اليوم وهى تفكر فيه، تدرك يقينًا أنه كان عقلا مدبراً واعياً بصوت هادئ قديم، لذلك ليس هناك ما هو فى حاجة للتغيير فى هذه الغرف، بينما هى سابقًا كانت ترنو إلى إحداث بعض التغييرات فيها منذ أن شعرت أنها أصبحت خالية من اللحم والدم. كانت الكلة التى تحيط بالسرير من الحرير المطرز الشفاف بلون أزرق داكن خال من شعائر الإحساسات أو الخصب. وقد تحول لون الجدران البيضاء إلى اللون الأصفر بسبب القدم، أما عروق خشب السقف فهى لم تكن مغطاة. الأبواب والنوافذ والمقاعد مصنوعة من خشب ثقيل ناعم مدهون بلون داكن من ورنيش "تنجيو"، وهو لون ظل لامعًا حتى نهاية أجيال فى ذلك المنزل. تتكون الأرضية من بلاطات كبيرة مربعة الشكل رمادية اللون، كانت قديمة لدرجة أنه يتواجد الآن عدة حفر بجوار السرير وعند باب المكتبة. تمثل غرفة النوم واحدة من ثلاث غرف، الغرفة الثالثة هى غرفة استقبال طويلة تفتح على ساحة واسعة، هناك تجمعت الأشجار وتشابكت بحيث كادت أن تمنع مرور أشعة الشمس، بينما الأرض تحتها زلقة بسبب تواجد كميات ضخمة من الطحالب.

أحدهم طرق الباب، لذا صاحت، "ادخل".

دخلت ينج، يبدو عليها مظاهر الخوف، " لم أعرف أين أنت، لقد بحثت عنك فى كل مكان، ذهبت إلى غرفتك القديمة وأيقظت السيد، وقد غضب منى".

"سوف تجديننى هنا دومًا إلى أن أموت"، قالت مدام وو ذلك بكل هدوء.

* * *

انتشرت الأخبار فى كل المنزل مع تقدم النهار. الابن أخبر زوجته، الزوجة أخبرت الزوجة الأخرى، ينج أخبرت زوجها كبير الطباخين، كبير الطباخين أخبر صغير الطباخين، لذا فى نهاية اليوم لم يوجد إنسان داخل المنزل لم يعرف أن مدام وو قد انتقلت إلى الجناح الذى كان يشغله سابقًا الجد الكبير. من خلال الخدم، انتقلت الأخبار إلى خادمة السيدة الكبيرة، وبالتالى إلى السيدة الكبيرة التى لم تصدق ما سمعته. لقد تعمدت مدام وو أن لا تخبر الجدة. كانت تعلم أنها سوف تعلم الأخبار عن طريق وصيفتها، وهذا حسن، فعصبية الست الكبيرة سوف تنصب على واحدة من الخدم. بعد حدوث ذلك، وسوف تكون الست الكبيرة فى حيرة بالغة، هل تبدأ عراكها مع ابنها أم مع زوجة ابنها. إذا أتت إلى مدام وو، فهذا يعنى أنها تلومها، وإذا ذهبت إلى ابنها، فهذا يعنى أن العيب كله عنده.

مع اقتراب وقت الظهر، بينما كانت مدام وو تراجع مصروفات الشهر وهى جالسة فى غرفة الاستقبال الجديدة التى أصبحت فى حوزتها الآن. فجأة رأت خادمة السيدة الكبيرة تقود العجوز عبر الساحة. لقد تم بالفعل قطع الأشجار وسحبت من مكانها، أما الأحجار التى يغطيها الطحالب فقد تم تنظيفها وتسويتها. توقفت الست الكبيرة وأخذت تمعن النظر فى هذه التغييرات التى حدثت فى الساحة. كانت تستند على وصيفتها بينما أمسكت باليد الأخرى عصاها الطويلة ذات الرأس التى على شكل التنين. استطاعت الشمس أخيرًا أن تكسو بأشعتها كل مكان فى الساحة، أما الأسماك التى

احتلت البركة الوسطى، فقد أعمتها الشمس، لذا غطست جميعًا فى الطين وأصبح الماء خاليًا من الكائنات الحية، لكن كان هناك فراشتان أخذتا تتراقصان على وجه المياه وقد أسكرتهما أشعة تلك الشمس الساطعة.

قالت الجدة بلهجة الاتهام، "لقد قطعت فخر الأشجار الصينية".

ابتسمت مدام وو التى قامت وحضرت لتقف بجوارها ، "هذه النوعية من الأشجار تنمو سريعًا، والتى قطعت لم تكن فى الأصل مزروعة، بل هى استطاعت أن تدفع بنفسها وسط حجرين".

تنهدت العجوز واتجهت نحو الباب، وعندما أمسكت مدام وو بكوعها لتسندها، دفعت يدها باستياء، "لا تلمسينى، إننى غاضبة منك".

لم تجب مدام وو وتبعت الجدة حتى غرفة الاستقبال.

قالت الجدة بصوتها المشروخ الغاضب، "لم تخبرينى من قبل أنك سوف تنتقلين إلى هنا، يبدو أن لا أحد يخبرنى بشىء مما يحدث فى هذا المنزل"، ثم جلست أثناء حديثها.

"كان من المفروض أن أخبرك يا أمى، وهذا خطأ فادح صدر منى، أرجوك سامحينى".

زمجرت الجدة وقالت بحدة، "هل نشب عراك بينك وبينه؟"

"أبدًا لم يحدث، نحن لا نتعارك سويًا على الإطلاق"

"لا تتلاعبى معى بالألفاظ المعسولة، أنا أستطيع أن أصل للحقيقة"

"أنا لا أتلاعب بالألفاظ يا أمى. بالأمس أنا بلغت الأربعين من العمر، وكنت قد عزمت أنه بحلول هذا اليوم فإننى سوف أستقيل من مهامى كأنثى وأن أبحث له عن فتاة صغيرة تكون مناسبة لسيدى. إنه فقط فى الخامسة والأربعين من عمره، وما زال فى عز شبابه".

جلست الجدة وهى معتمدة على رأس التنين فوق عصاها تحدق فى وجه زوجة ابنها، "هل هناك فى الجو امرأة أخرى؟ إذا كان هو يزور بيوت الأزهار، فإننى سوف... سوف..."

"لا، لا توجد نساء أخر فى حياته. ابنك هو أفضل الرجال ومعاملته لى لا تقارن أبدًا، وأنا إنسانة فى قمة الأنانية لدرجة أننى أحاول قدر إمكانى أن أحتفظ دومًا بذلك الحب الذى جمع بيننا. بالطبع، هذا الحب سوف يتأثر كثيرًا إذا حدث وحملت وأنا فى ذلك العمر المتقدم، أيضًا سوف يخفت هذا الحب إذا كانت رغباتى قد همدت بينما هو ما زال فى قمة اشتعاله"

"سوف يتحدث الناس ويقولون إنه كان يلعب بذيله، وإنك الآن تنتقمين لنفسك. من ذاك الذى سوف يصدق أنك برغبتك الخالصة قد ابتعدت عنه؟- إلا إذا كنت فى الحقيقة قد توقفت عن حبك له"

"إننى لم أتوقف عن حبه إطلاقًا"

"وماذا يكون شكل هذا الحب إذا لم ينم الرجل مع المرأة فى سرير واحد؟"

صمتت مدام وو لفترة قبلما تجيب، "أنا لا أعلم. هذا السؤال كان مصدر حيرة بالغة لى، وسوف أكتشف ذلك الآن"

زفرت الجدة وقالت بصوتها العالى، "أرجو أن لا تعانى بسبب ما فعلتيه، وأتمنى أن لا تحضر لمنزلنا واحدة من مثيرى المتاعب!"

"هذا ما سوف أنتبه له، وسوف ألوم نفسى إذا حدث مثل هذا"

"أين تلك المرأة الجديدة؟". كانت الجدة ما زالت غاضبة، لكن غضبها بدأ ينزاح تدريجيًا بدون إرادتها. فى الحقيقة، لا توجد امرأة ترغب أن تحمل بعدما تبلغ الأربعين من عمرها. هى نفسها حصلت معها هذه المصيبة، لكن لحظها الحسن، توفى طفلها وهى تلده. لكن هى تتذكر هذا الموضوع كأنما هو قد حدث بالأمس فقط. تذكرت العار

والخجل الذى شعرت به عندما أدركت أنها أصبحت حاملا فى هـذا العمر المتقدم. كانت هى سابقًا فى شوق لأن تنجب أطفالا، لكن ما إن بلغت الأربعين من عمرها، اختفت هذه الرغبة تماماً. استمرت فى حالة من العراك طوال فترة حملها، وأخبرت زوجها قائلة، "اذهب وابحث لنفسك عن عاهرة، اذهب وابحث لنفسك عن فتاة صغيرة ترحب بك".

كان الجد يشعر بألم بالغ وهو يستمع لمثل هذه الملاحظات، لذا لم يقترب منها بعد ذلك أبدًا، أيضًا توقف عن حبها منذ ذلك الحين. كانت كثيراً ما تغتاظ بسبب تحفظه هذا وسكونه، فهو رجل رقيق وخجول من محبى الاستغراق فى قراءة الكتب. بعد ذلك، أصبح صامتًا بالكلية معها، وأدركت هى أن هذا الحمل حدث بشكل خاطئ غير مخطط، وعندما تتذكر مقدار غضبها منه، تشعر بالذنب يثقل كاهلها ، فما حدث، ليس سوى واحدة من تصرفات الطبيعة لا أكثر، لذا لم يكن هناك داع أن تلقى باللوم على رجلها الكريم.

تنبهت السيدة الكبيرة من تأملاتها وعادت تكرر، "أين هى تلك المرأة؟"

"لم أعثر عليها بعد"

كانت وصيفة الجدة تستمع لكل هذا الحوار، بينما هى تتظاهر بأنها تشرف على راحة سيدتها، مرة بأن تصب لها بعض الشاى، أو أن تحرك المروحة اليدوية على وجهها، ثم ترخى الستارة حتى لا تقع الشمس على وجهها. كانت مدام وو مدركة لما يحدث وأخبرت نفسها أن هذا أفضل، فهو أمر حسن أن يعلم الخدم بكل الحقائق من مصادرها الأساسية.

قالت الجدة بعناد، "سوف يكون من الصعوبة بمكان أن تجدى المرأة المناسبة"

"لا أعتقد هذا، إننى أعلم بالضبط ما هى مواصفاتها"

"مع ذلك، أعتقد أنه واجبًا على أن أوجه لومًا لابنى"

"أرجوك لا تفعلى. إذا وجهت له لوماً سوف يعتقد فى تلك الحالة أنه مخطئ فى أمر ما. فى الحقيقة هو لم يصدر منه أى خطأ. لا يجب أن يتعرض لأى نوع من التأنيب لمجرد أننى قد بلغت الأربعين من عمرى، هذا فيه قدر كبير من الغبن له"

تنهدت العجوز، "يا لتلك السماء، فهى التى جعلت الرجال والنساء عبارة عن أراض مختلفة التربة!"

ابتسمت مدام وو وهى تستمع لذلك، "لك الحق أن تلومى السماء، وأنا لا أستنكر ذلك".

لم يعد هناك ما يضاف من قول، فالجدة تتذكر موقفها المماثل منذ عدة سنوات ماضية. إنها بالطبع كانت سوف تشتعل غضباً إذا تجرأ زوجها أن يتخذ لنفسها امرأة شابة، حتى وهى تصرخ فى وجهه أن يفعل ذلك، لكن هذه المرأة، زوجة ابنها، لعلها أكثر حكمة منها.

تغير فكرها نوعًا، كما يحدث معها الآن وقد بلغت من العمر عتيًا، وأخذت تستعرض ما حولها، "هل سوف تغيرين كل شيء فى هذا الجناح؟"

"لا، لن أغير شيئًا سوى أننى أحضرت الرسم الذى كان بغرفتى القديمة، فأنا مغرمة به". كان الرسم معلقًا بالفعل على الحائط المقابل لمكان جلوسها، لأنه بمجرد انتهاء إفطارها، طلبت من ينج أن ترسل خادمًا لكى يحضر هذه الصورة ويعلقها فى هذا المكان. لقد قررت أن لا تعلق الرسم فى غرفة النوم كما كان الوضع سابقًا، فغرفة النوم للنوم فقط.

وقفت العجوز وسارت حتى الصورة، "هل هو رجل أم امرأة التى تحاول أن تتسلق الجبل؟"

"أنا لا أعلم، لكن هذا لا يهم كما أعتقد"

"إنه وحيد! وحيد وسط كل هذه الجبال! كثيراً ما كرهت أنا الجبال".

"أعتقد أن هذا الكائن لا يهتم بموضوع الوحدة إذا كان هو فى موقعه هذا.

كان من عادة الجدة أنها عندما تشعر بالحزن، فى الحال تشعر بالجوع. وهى الآن تشعر بالحزن، التفتت إلى مدام وو قائلة بضراعة، "إننى أشعر بالجوع، لم أتناول طعاماً منذ ساعات".

خاطبت مدام وو الوصيفة، "صاحبيها إلى جناحها ودعيها تأكل ما تشاء"

عندما ذهبت الست الكبيرة، جلست مدام وو تراجع الحسابات، ولبقية النهار، لم يقترب منها أحد، فطاقم الخدم لم يكونوا راضين وصامتين فى الوقت نفسه. تعجبت هى، هل يا ترى سوف يحضر إليها السيد وو أم لا. شعرت بنوع من الخجل وهى تفكر فيه. لكن هو أيضًا لم يقترب منها هذا اليوم. لقد فهمت ما الذى يحدث الآن فى هذا البيت الكبير. الأبناء وزوجات الأبناء سوف يتحدثون ويكثرون من الحديث نصف هذا النهار، ويتناقشون فيما يجب عمله أو قوله ويتشاورون مع الأقرباء وزوجات الأقرباء، وما دام أنهم لم يتفقوا على شىء محدد، لذا لم يقتربوا منها حتى الآن، أيضًا ما دام أن الكبار لم يحضروا، إذن يجب حجب الصغار أيضًا. أما بالنسبة للخدم، فهم على قدر من الفطنة بحيث يستمروا فى هدوئهم منهمكين فى أعمالهم اليومية إلى أن تصفو الأجواء داخل المنزل. لم يكن هناك سوى ينج التى أشرفت على خدمتها طوال النهار، لكن حديثها معها كان مقتضباً، على الرغم من أن عينيها كانتا حمراوين مجدداً فى كل مرة تحضر فيها لسيدتها، لكن مدام وو تظاهرت أنها لا تلاحظ شيئا. قضت النهار كله مشغولة بالحسابات التى تجمعت بسبب الانهماك فى الإعداد للاحتفال بعيد ميلادها.

الآن هى تفحص وتدقق فى دفتر وراء الآخر، فحصت أولا دفتر حسابات المنزل الذى يحتفظ به رئيس الخدم، ثم دفتر حسابات الملابس الجديدة والمستصلحة، ثم دفتر إصلاح المنزل وصيانته وهى كثيرة فى ذلك المنزل الذى يحتوى على عائلة كبيرة العدد، ثم أخيراً دفتر الأراضى الزراعية، فالأرض الموروثة حجمها ضخم وحسنة الإنتاج وتعتمد عليها العائلة ومعها المحلات المؤجرة فيما تدره من دخل، هذا ولم يحدث أن سعى كل من السيد وو أو أحد أبنائه ليجد لنفسه عملا. فى الحقيقة، بعض من أقربائهم

استقروا فى مدن أخرى وعملوا تجارًا أو فى بنوك، لكن حتى هؤلاء، إذا حدث وهجروا أعمالهم، فإنهم يعودون إلى الأرض لفترة لكى يستردوا أنفاسهم. لقد أدارت مدام وو شئون هذه الأرض بكفاءة كما فعلت مع المنزل، ومرت سنوات عديدة منذ أن اطلع السيد وو على ملخص الحسابات العامة قبل أن تنصرم السنة ويبدأ عام جديد، لكن مدام وو كانت تفحص حسابات المنزل مرتين شهريًا وحسابات الأرض مرة كل شهر. هى تعلم جيدًا مقدار ما تغله الأرض من محاصيل الأرز، والقمح، والخضراوات، والبيض والوقود، ورئيس الخدم كان يبلغها على الفور إذا حدث أى نوع من التغيير أو الكوارث. أحيانًا هى كانت تبلغ السيد وو بمجريات الأمور، لكن أحيانًا لا تفعل ذلك.

فى هذا اليوم، قضت في مراجعة الحسابات من الصباح حتى المساء، لم تتوقف إلا عندما أحضروا الصورة وأشرفت على تعليقها فى غرفة الاستقبال، أو عندما قاموا بقطع الأشجار. حولها، كان المنزل غارقًا فى صمت رهيب، لكن هى بالطبع لا تتمنى أن يحدث هذا كل يوم، فهذا يعنى الوقوع فى حبائل الموت مبكرًا، لكن بعد أربعين عامًا، هو أمر لطيف ومحبب للنفس أن تقضى يومًا واحدًا بمفردها دون أن تسمع أحدًا يسألها عن أى شيء. كانت الحسابات دقيقة ومنتظمة، فالمصروفات أقل بشكل واضح بالمقارنة بالدخل والمخازن ممتلئة بكل المستلزمات، وبعد فترة وجيزة، سوف يتم حصاد المحصول الجديد، أيضًا الكرار ملىء بأنواع الطعام، المملح منها والطازج. لقد تم قطف ثمار البطيخ ووضعت فى آبار عميقة لكى تكون باردة. كتب كبير الخدم بخطه الثعبانى، "١٩ بطيخة، منها ٧ بقلب أصفر والباقى أحمر، معلقين فى الأبيار الشمالية"، ربما هى تجلب واحدة منها اليوم لتأكلها قبلما تنام، فالبطيخ نافع للكلى.

ما إن أغلقت دفاتر الحسابات، وهى مستمتعة بالوحدة الجميلة، شعرت بإعياء يتسلل من أطرافها كأنما هو السم يغادر رئتيها. كانت تشعر بإعياء يفوق التخيل، هو فى الحقيقة إعياء روحى أكثر منه جسدى، ويصعب عليها أن تتحقق من مصدره الصحيح فى خفايا الروح، لكن بالتأكيد، عقلها لم يكن يعانى. عقلها نشط ومتحفز ومتشوق أن يعبر عن نفسه. بدا لها الأمر كأنما هى لم تستخدم عقلها منذ أمد طويل.

لم تستخدمه إلا فى المسائل الروتينية العادية مثل مراجعة حسابات المنزل، التدخل لمصالحة بعض المتخاصمين، تقرير ما إذا كان هذا الولد يدخل هذه المدرسة أم تلك. لا، إن إعياءها مختبئ فى مكان خفى من كيانها، ربما يكون مختبئًا فى بطنها أو رحمها. لقد منحت الحياة لعديد من الأبناء لمدة أربعة وعشرين عامًا، قبل ولادتهم وبعدها أيضًا. الآن هم منشغلون فى منح الحياة لأطفال آخرين. كانت وهى أم أو جدة مهتمة تمامًا بأبنائها. الآن انتهى كل هذا.

فى تلك اللحظة سمعت صوت أقدام آتية. كان الصوت واضحًا ومحددًا تطرق فوق أحجار الممر. تعجبت للحظة – إنه وقع خطوات حذاء جلدى؟ فمن من النساء تلك التى ترتدى حذاء جلديًا؟ لأنها فى الواقع كانت خطوات امرأة. فجأة عرفت، إنها رولان، زوجة ابنها تسيمو التى نشأت فى شانغهاى. تنهدت، وترددت خوفًا من أن تفقد ولو لحظة واحدة من سكونها ووحدتها، لكن أخذت فى تأنيب ذاتها، لا يجب أن يظن أحد أنها قد انسحبت كلية عن تدبير شئون المنزل، بل من الأفضل أن يظلوا على اقتناعهم أنها هى حجر الأساس فى هذا المنزل وأنها هنا لمجابهة أى أمر يحدث.

نادت، "تفضلى يا رولان"، كان صوتها مرحًا ومرحبًا، وما إن رفعت عينيها حتى شاهدت عينى الفتاة السوداويين تحدقان فيها وهى واقفة على عتبة الباب. هى شابة طويلة، نحيفة، فستانها الطويل كان ضيقًا فى الوسط، بالموضة نفسها المنتشرة فى شانغهاى، صدرها منبسط، لم تكن جميلة بسبب عظام وجنتيها المرتفعتين. وجه السيدة وو بيضاوى الشكل مما يمنحها جمالا كلاسيكيًا، أما وجه رولان فهو متسع عند العينين وضيق عند الذقن. فمها مربع الشكل يعبر عن الكآبة.. حاولت مدام وو أن تتجاهل هذه الكآبة قائلة بصوتها الساحر، "تعالى يا ابنتى، لقد انتهيت من فحص الحسابات، إننا مخطوظون، والأرض كانت كريمة معنا".

هذه الفتاة عادية، وإن كان أحيانًا تبرق ببعض اللمحات الجمالية، هذا ما فكرت فيه مدام وو وهى تستقر فوق مقعد. إنها تفتقر إلى كل التصرفات المحتشمة التى تنتهجها كل نسوة الدار، وبدلا من ذلك، يبدو أن هذه الفتاة تجد لذتها الكبرى فى تكون

وقحة ومندفعة. أخذت مدام وو ترقبها باهتمام، فهذه هى المرة الأولى التى فيها تنفرد بها.

قالت مدام وو، "يجب يا ابنتى أن تكونى حريصة على إظهار جمال فمك"

"ما الذى تقصدينه؟"، قالت رولان ذلك وشفتاها ترتعشان.

"إنه فم جميل وهو يرتعد هكذا، لكن على كل حال، فم النساء يتغير شكله مع التقدم فى العمر، سوف يكون فمك أكثر جمالا عندما تنضم الشفتين على بعضهما"

لم ينقل صوتها الحيادى أى نوع من الاهتمام، فقط نقل ما هو متوقع، وربما يكون مفهومه قد وصل لرولان، لكن هى لا تهتم كثيراً بمصير فمها. هذا البرود الذى تعاملها به حماتها أدهشها، لذا لم تفعل شيئاً سوى أن تضغط على شفتيها وتضمهما على بعض للحظات وتقطب جبينها فيتقارب حاجباها سوياً.

تساءلت مدام وو، "هل أتيت لتحادثيننى بشان موضوع ما؟". ثم قامت وغيرت مكان جلوسها واختارت لذلك مقعداً له ظهر مستدير، لكن هى لم تستند على ظهره بل استمرت فى جلستها المنتصبة وانشغلت بملء غليونها الصغير بالتبغ، ثم أشعلت الغليون وسحبت منه نفسين كعادتها.

"يا والدتنا"، بدأت رولان فى الحديث باندفاع كعادتها، بينما يبدو على وجهها نوع من الانزعاج والحيرة كيف تبدأ.

"نعم يا ابنتى"

بدأت رولان مرة أخرى، "يا والدتنا، لقد سببت فى حزننا جميعاً"

"هل حدث هذا فعلا؟"، صوتها كان مليئاً بالموسيقى والتعجب

"نعم. لقد حذرنى تسيمو أن آتى إليك وأفتح الموضوع، قال إن هذا واجب على ليانجمو بصفته هو الابن الأكبر، لكن ليانجمو يرفض، قال إنه لا فائدة، أما منج فهى لا تفعل شيئاً سوى أن تبكى. لكنى أنا لا أبكى أبداً. قلت فى نفسى إنه يجب أن يأتى أحدنا إليك ليحادثك".

"لذا لم يحضر أحد سواك"، قالت مدام وو ذلك وهى تبتسم ابتسامة خفيفة.

لم تجاوبها رولان بابتسامة، وجهها المتجهم كان محتاراً ما بين الخجل والتصميم، "يا والدتى، كثيراً ما شعرت أنك لا تحبيننى، لذا كان من المفترض أن أكون آخر واحدة تحضر إليك".

"يا ابنتى، أنت مخطئة تماماً، فليس هناك إنسان على وجه الأرض أنا أكرهه، ولا حتى تلك المسكينة، الأخت الصغيرة هسيا"

جفلت رولان، "أنت فى الحقيقة لا تحبيننى. أنا أعلم ذلك. إننى أكبر عمراً من تسيمو وأنت تكرهيننى بسبب ذلك، لم أنس أبداً أننا تعرفنا على بعض فى شانغهاى، وأننا قررنا أن نتزوج فوراً بدلا من أن ندعك تدبرين موضوع الزواج".

وافقتها مدام وو، "بالطبع أنا لم أرض عن ذلك فى حينه، لكن ما إن فكرت فى هذا الموضوع ملياً حتى أدركت أن رغبتى الأولى الغالبة هى أن تتحقق السعادة لابنى تسيمو، وعندما رأيتكما، أيقنت أنه بالفعل سعيد، لذا سررت بك. أما عن كونك أكبر منه سناً فهذه حقيقة لا يمكن تغييرها، إنه أمر يدعو للضيق فى منزل مثل منزلنا، لكنى استطعت أن أتغلب على ذلك. يستطيع الإنسان التكيف مع أى شىء يحدث فى حياته".

اندفعت رولان، "لكنى لو كنت مثل منج والآخرين، لما كانت مشاعرى سيئة بسبب ما فعلتيه. أمى، لا يجب أن تدعى والدنا يتخذ لنفسه امرأة أخرى".

قالت مدام وو بأسلوبها الحيادى البسيط، "الموضوع لا يختص فيما أن أدعه أو لا أدعه. لقد قررت أن هذا أفضل شىء يمكن فعله"

صبغ اللون الأحمر خدى رولان، "أمى، هل تدركين ما تفعلين؟"

"أعتقد أننى أعلم ماذا أفعل"

"سوف يضحك الناس علينا، فلا أحد يقتنى محظية فى أيامنا هذه، إنها موضة قديمة".

"ربما يكون هذا محظوراً فى شانغهاى فقط"، قالت مدام وو هذا وصوتها ينقل لرولان أنها لا تهتم إطلاقًا بما يفكر فيه أهالى شانغهاى.

دارت عينا رولان فى مآقيها بيأس قاتل، فوالدة زوجها امرأة جميلة، كاملة، يصعب إغضابها أو زعزعتها. لقد علمت منذ زمن أنها لن تستطيع أن تقف أمام تسيمو بشأنها، كانت سلطتها على ابنها فائقة، بحيث يتعذر عليه أن يثور عليها أو يتمرد. هو مقتنع أن أى شىء تفعله الأم هو فى النهاية سوف يعود لمصلحته. واليوم بالذات عندما ثارت نسوة المنزل بسبب فكرة حضور امرأة جديدة للمنزل، لزم ليانجمو الصمت التام، بينما هز تسيمو كتفيه. كان هو يلعب الشطرنج مع أخيه الأصغر "ينمو".

قال، "إذا أرادت والدتى إحضار محظية، فهى لها أسبابها الوجيهة، فهى لا تتصرف أبدًا بدون سبب أو منطق. "ينمو"، دورك فى اللعب"

كان "ينمو" يلعب دون أن يهتم بهذه الأحاديث، فمن ضمن كل إخوته، هو يحب تسيمو لأنه يلعب معه كل يوم، وبدونه سوف يشعر أنه وحيد فى ذلك المنزل المليء بالنسوة والأطفال.

صاحت رولان باحتقار، "تقول منطق؟"

رد عليها تسيمو بعنف دون أن يرفع ناظريه عن رقعة الشطرنج، "احفظى لسانك".

إنها لا تجرؤ أن تتمرد عليه، على الرغم من أنه أصغر منها، لكنه يتصف بهدوء أمه، وهذا أعطاه القوة أن يقف صامداً ضد ثوراتها وعواطفها المتقلبة، لكن هى قررت أن تأتى لمدام وو سراً.

قبضت يداها على ركبتيها وهى تحملق فى مدام وو، "يا أمى، هل تعلمين أنه إذا اتخذ أحدهم محظية هذه الأيام فإنه يتعرض للمساءلة القانونية"

"أية قوانين هذه؟"

"القوانين الجديدة، قوانين الحزب الثورى"

"هذه القوانين، مماثلة للدستور، ما زالت حتى الآن على الورق"

لاحظت أن رولان اندهشت وهى تذكر الدستور، هى لم تتوقع أن تعرف مدام وو شيئًا عن الدستور.

"لقد عمل الكثير منا لكى ننهى تلك العادة القديمة الخاصة باقتناء المحظيات، وسرنا متظاهرين فى شوارع شانغهاى فى عز الصيف والعرق يسيل مدرارًا على أجسادنا، كنا نرفع الرايات المكتوب عليها إننا مصممون على سيادة نظام زوجة واحدة للرجل كما يحدث فى الغرب. أنا عن نفسى كتبت إعلانًا لونه أزرق بكلمات لونها أبيض قلت فيه "فليسقط نظام المحظيات"، لكن الآن عندما يحدث هذا فى قلب عائلتى، ثم أجد زوج والدتى يساير عادات موغلة فى القدم، وهى عادات..شريرة..هى الشر بعينه، أن نعود إلى تلك العادات الهمجية...".

تساءلت مدام وو بصوتها الحلو الصافى، "يا ابنتى، ما الذى يمكن أن تفعليه يومًا إذا اتخذ تسيمو لنفسه زوجة أخرى، واحدة مثلا أقل نشاطًا وذكاء، لكنها ناعمة ومريحة؟"

قالت رولان بكل فخر، "سوف أطلقه على الفور، إننى أرفض أن أتقاسمه مع أى امرأة أخرى".

أشعلت مدام وو غليونها الصغير مرة أخرى وسحبت نفسين منه، "لعلك لا تعلمين أن حياة الرجل تنقسم إلى عدة مراحل، لكن لن تدرك المرأة تلك الحقيقة إلا عندما تكبر فى السن".

صمتت رولان، ثم اندفعت بالقول، "ما أؤمن به هو مبدأ المساواة ما بين الرجل والمرأة".

"آه، مع ذلك فالاثنان المتساويان ليس هما الشىء نفسه. إنهما متساويان فى الأهمية، فى مسيرة الحياة، لكنهما مع ذلك مختلفان".

"ليس هذا ما نعتقده هذه الأيام، إذا كانت المرأة سعيدة مع رجل واحد، إذن يجب أن يكون هو أيضًا راضيًا بهذه الزوجة الواحدة"

وضعت مدام وو غليونها جانبًا، "أنت ما زلت صغيرة لدرجة أنه يصعب على أن أشرح لك كل أفكارى. اعلمى يا ابنتى أن الإحساس بالسعادة هو أهم من كل شىء – أقصد رضى الرجل ورضى المرأة، وعندما يصل أحدهم إلى قمة السعادة، فهل يمكن لواحد منهما أن يقول للآخر (يجب أن نتوقف الآن لأننى أشعر بالسعادة؟) "

قالت بعنادها الغريب، "لكن ليانجمو أخبرنا أن والدنا لا يرغب فى امرأة أخرى"

فكرت مدام وو، "آه، إذن فقد تحدث ليانجمو مع والده اليوم!". شعرت للحظة بالشفقة على زوجها، فقد أصبح الآن تحت رحمة أبنائه بدون ذنب اقترفه. قالت بلطف، "عندما تعيشين مع رجل لمدة أربعة وعشرين عامًا زوجة له، فأنت تكونين قد عشت ووصلت إلى نهاية المعرفة والإدراك".

تنهدت مدام وو وتمنت فجأة أن تختفى هذه المرأة من أمام وجهها، لكن مع ذلك شعرت بالإعجاب بها أكثر من ذى قبل. فالأمر يستلزم شجاعة نادرة لأن يأتى أحدهم حتى عندها ليحاججها ويتحدث معها بذلك الكلام الشجاع المليء بالغباء.

انحنت ناحية رولان، "يا ابنتى، أعتقد أن السماء كانت رحيمة بالنساء على الرغم من كل شىء، فلا يمكن أن تستمر المرأة فى الحمل إلى نهاية حياتها، لذا نجد أن السماء فى رحمتها تقول للمرأة التى بلغت الأربعين من عمرها (الآن يا ذات الروح والجسد المنهك، باقى حياتك هو لك. لقد قمت بتقسيم نفسك وذاتك مرة ومرات، الآن احتفظى بما تبقى لك وكونى عبارة عن فرد واحد له كيان واحد، لذا تصبح الحياة كريمة معك من أجل شخصك أنت، ليس بسبب ما منحتيه، لكن بسبب ما سوف تحصلين عليه). إننى سوف أقضى بقية حياتى أحاول أن أستجمع شتات نفسى وروحى، وسوف أرعى من اليوم جسدى جيدًا، ليس لكى أرضى رجلا، لكن لأنه هو الذى أسكن داخله وأعتمد عليه".

تساءلت الفتاة، "هل فعلا تكرهيننا جميعًا؟". فتحت عينيها حتى آخرها، لاحظت أن عينيها جميلتان، "إننى أحبكم أكثر من أى وقت مضى"

"حتى والدنا أيضًا؟"

"هو أيضًا، وإلا ما معنى أن أسعى لتتحقق له سعادته الكاملة؟"

"إننى لا أفهمك على الإطلاق، أعتقد أننى لم أفهم ماذا تعنين بكل حديثك هذا"

"آه، هذا بسبب أنك بعيدة عن سنى، كونى صبورة معى يا ابنتى حتى تفهمى ماذا أريد".

تساءلت رولان وقد خامرها الشك، "هل تودين فعلا تنفيذ ما ترغبين فيه؟"

"بالطبع"

"على إذن أن أعود إليهم لأخبرهم، لكن لا أعتقد أن واحدًا منهم سوف يفهم"

"قولى لهم جميعًا أن يكونوا صابرين على"، قالت ذلك وهى تبتسم.

قالت رولان وكلها تردد، "هل أنت متأكدة مما تفعلين..."

"بالطبع متأكدة". غادرت رولان.

شعرت مدام وو مرة أنها سعيدة بوحدتها والصمت الحال حولها عندما رحلت عنها رولان. أخذت تبتسم لنفسها وهى تفكر فى العائلة التى سوف تجتمع بدونها، الكل الآن فى حالة من التركيز، متحيرون ما الذى يمكن عمله للمرة الأولى من معرفتهم بها يكتشفون أنها تفعل شيئا لنفسها. لكن وهى تبتسم شعرت بسلام غامر. بدون انتظار لوصيفتها، وقبل ساعتين من موعد نومها، قامت وأخذت حمامًا ثم ارتدت قميصًا للنوم لونه أبيض واستلقت فوق السرير الكبير الضخم. ما إن حضرت ينج بعد ساعة حتى شملها خوف بالغ بسبب هذا السكون الشامل وأسرعت إلى السرير، وهناك خلف الستائر غير المسدلة، شاهدت سيدتها مستغرقة فى النوم، صغيرة الحجم وساكنة فوق السرير. أخذت تحملق فى هذا الكيان غير المتحرك فى رعب.

"أوه، يا للسماء، لقد ماتت سيدتى!"

لكن مدام وو لم تمت، اكتشف ينج أنها فقط نائمة، بينما هى لم ترها من قبل تنام هكذا، وحتى صيحتها التى صدرت منها عفواً لم توقظ سيدتها. تعجبت ينج، فهى "تلك التى كانت رفرفة جناح حمامة فى الفجر يوقظها!". وقفت ينج للحظات وهى تتأمل فى هذا الوجه الصافى ثم خطت خطوة إلى الخلف وجذبت الستائر الثقيلة. أخذت تتمتم، "إنها تعبة حتى النخاع، ففى هذا البيت الكبير تقوم بتوفير الغذاء للجميع كما لو كانوا مجموعة من الرضع".

توقفت عند باب الجناح وأخذت تنظر بحدة ناحية اليمين واليسار، لكن لا أحد قادم، وبالطبع لن يحضر السيد وو.

* * *

فى جناح ليانجمو، كان هناك اجتماع يضمه هو وزوجته، كذلك أخيه وزوجته، الجميع كانوا يتناقشون حتى أعلنت الساعة المائية انقضاء النصف الأول من الليل. معظم الوقت كان الشقيقان صامتين، كانا يشعران بنوع من الارتباك والخجل من أجل أبيهما، فهو، أيضًا، رجل مثلهم. هل سوف يكون هو حالهم عندما يبلغون منتصف العمر وأن يحدث لهم ولزوجاتهم مثلما يحدث الآن مع أبيهم؟ كانوا مملوئين بالشكوك لكن يخفونها.

بالنسبة للزوجتين، كانت منج الأكثر تحفظًا، فهى تشعر أنها سعيدة فى حياتها ولا يلزم أبداً أن تتعارك مع أحد. هى تنظر لزوجها ليانجمو باعتباره أفضل إنسان وأكثر الشباب أناقة ووسامة. كانت تتدبر فى نفسها قائلة إنها بالفعل إنسانة محظوظة للغاية لأن تحظى بزوجها هذا حتى نهاية العمر، فليس فى طباعه ما يتنافر مع طبيعتها، له جسد قوى وطباع هادئة، حلو فى الأسلوب والتصرفات، حنانه وشفقته ليس لها حدود، ضحكته حاضرة، ويا لها من طريقة يصنعها عندما يضم شفتيه سويًا، ما أحلى انبساط خديه، شعر رأسه السارح الناعم، قوة قبضة يديه – هى تعلم كل هذا وتبتهج به،

لا تجد فيه أى عيب ولا تحتاج معه لأحد، كل ما ترغب فيه أن تكون ملكة، أن ترقد ليلا بين أحضانه، أن تخدمه ليلا، أن تطوى وتحفظ ملابسه، أن تحضر طعامه بنفسها، أن تصب له الشاى وتشعل غليونه، أن تستمع لكل كلمة ينطق بها، أن تشغل نفسها كلية بعلاج صداعه إذا حدث، أن تختبر طعم الأكل ومدى سخونة الخمر، كل هذه الأمور تؤجج أفراحها وتشغلها تمامًا، لكن فوق كل شىء هو أن تحمل له أطفالا. كل رغبتها فى الحياة هى أن تمنحه أطفالا عديدين، فهذا هو وسيلته للخلود.

الآن، كما هو الحال دائمًا، عندما يكون هو موجوداً كانت تفكر فيه وتستمع لأصوات الآخرين من خلال فرحها الغامر بتواجده، وأن يتخذ الوالد له محظية، هذا يجعل زوجها ليانجمو فى نظرها الإنسان الكامل. لا أحد يماثل ليانجمو. إنه أفضل كثيراً من والده، أكثر حكمة، ومخلص، وليانجمو مسرور بها وراض عنها.

عندما تتحدث رولان، تنصت منج وهى تفكر فى ليانجمو، وعندما تطلب منها رولان بقولها، "يا منج، أنت زوجة الابن البكر- ماذا تظنين فى هذه المسألة؟"، هنا تلتفت منج إلى ليانجمو لكى تعرف نوعية أفكارها.

كان متأكداً أن رولان تعلم ذلك، لذلك هى تكن احتقاراً لا حدود له لمنج لأنها لا تتمتع بشخصية مستقلة. هى، أيضًا، تحب زوجها. كانت كثيراً ما تعلن لزوجها تسيمو عندما يكونا بمفردهما أنها تحبه لأنه ليس غبيًا مثل أخيه ليانجمو. أحيانًا كانت تشعر بالحزن لأن تسيمو ليس هو الابن البكر. إنه أكثر قوة من ليانجمو، وأكثر براعة وسرعة، نحيف القوام لكن لسانه سليط. أما ليانجمو فهو يشبه والده وتسيمو يشبه والدته. حتى وهى تتعارك معه كانت مغرمة به وتحبه، لكنها كانت دائمة العراك معه، وكانت تكره نفسها بسبب ذلك. بعد كل عراك، كانت تشعر بندم شديد، ومصدر هذا الندم هو خوف مقيم ومستمر دفين داخل أعماقها، بسبب أنها أكبر منه سنًا، ولعلمها أنها أحبته قبلما يحبها. نعم، هذا هو عارها المخفى - فهى شغلت قلبها به عندما تقابلا للمرة الأولى فى المدرسة، فقلبها هو الذى أرشدها أن تشغله بأعذار وهمية، مثل أن تقول له إنها لا تفهم هذا الكتاب، أو أن هناك محاضرة قد ضاعت منها، وأشياء كثيرة

اخترعتها لكى تقربه إليها. بالنسبة لها، كان هو الصديق الأول لها، ويداها هى الأولى التى لمسته وحضنته.

كل هذه الأمور كانت تجعلها تقدم الأعذار لنفسها، فهى، كما قالت، من طبقة النساء الجدد وليست من المتخلفين. هى لا تخاف من جنس الرجال، بل وتؤمن يقيناً أن ليس هناك فرق ما بين الرجال والنساء. لكن فى قرارة نفسها، هى تعلم، كل الوقت، أن تسيمو هو أصغر منها وأنه لم يعرف امرأة من قبل، وأنه تأثر بمقدار تعلقها به واستسلامه لذلك، لكن ليس بكل كيانه. لذا صاحت فى وجهه، "أنت تخاف من أمك المتخلفة!"

فى مواجهة هذا الاتهام، أجابها بعد تفكير، "إننى بالفعل أخاف منها، لأنها دائماً على صواب".

"لكن لا أحد يكون دوماً على صواب"

"أنت لا تعرفين والدتى، إنها أحكم امرأة فى العالم بأسره".

لقد نطق بهذه الكلمات فى براءة تامة، لكن بنطقها غرس خنجراً حاداً فى قلب رولان، وهو ما زال مغروساً حتى الآن. لذا حضرت إلى منزل عائلة وو وفى نيتها أن تكره وتغير من مدام وو، لكنها استشاطت غضباً من نفسها لأنها لم تستطع أن تكره أو تغير منها، فعطف مدام وو الحيادى مع الجميع لم يتح لها أن تحقق مرادها، وحتى إذا شعرت أن رولان تكرهها، فهى لا تظهر ذلك. لذا أدركت تلك الشابة أن مدام وو لا تهتم إطلاقاً بمن يحبها أو يكرهها.

لا تستطيع تلك الزوجة الشابة أن تشعر بالغيرة، وفى واحدة من معاركها، قالت لزوجها، "لماذا تحب والدتك بهذا الشكل المبالغ فيه؟ هى لا تحبك بهذا القدر".

أجابها تسيمو بكل برود، "إننى لا أرغب أن يحبنى أحد بشكل مبالغ فيه"

هو بكلامه هذا ثبت مكان الخنجر فى قلبها وتركه يتعمق فى جسدها، وهى فى الواقع سريعة التعرض للجروح، قلبها مستعد دائماً أن يتلقى الطعنات، بينما كبرياؤها تتراقص وتحتج.

صاحت فى وجه تسيمو، "لعلك تظن أننى أحبك بشكل مبالغ فيه!"

لكن هو لم يرد على هذا التساؤل، فهو إنسان لطيف، كتفاه عريضان وخصره نحيل. كل أبناء السيد وو يتمتعون بالوسامة والجمال مع عدا "ينمو"، فهو سمين، لكن تسيمو يبدو أكثر نبالة من إخوته، وهذا النبل عذب زوجته رولان، فهل هذه الصفة علامة على سمو روحه أم أنها خدعة من الطبيعة، تلك التى استطاعت أن تجمع ما بين عظام جمجمته وتمده ببشرة صافية ذهبية اللون؟ إنها لا تعلم، وهو يخبئ الحقيقة عنها، أو هكذا ما تظن. كانت تلح عليه باستمرار، "أخبرنى عما تفكر فيه". أحيانًا كان يخبرها وأحيانًا لا يحدث هذا، ويصرخ قائلا، " من فضلك، دعى لى بعض الخصوصية".

فتصيح فيه، "أنت لا تحبنى"

"هل هذا حقًا؟". هذه كانت إجابته، بينما هى تلعن لسانها المتعجل. مع ذلك، كانت تحين أوقات يظهر لها حبًا وحنانًا تشتاق إليه وترحب به، لكن كيف يمكن لها أن تحدد تلك الأوقات؟ هى بمفردها كانت تشعر بثورة عارمة بسبب ما يبدو عليه من ابتهاج دائم وإقبال على الحياة، ثم تضع نفسها فريسة لحبها له، وتود مخلصة أن تتحرر من هذه القيود تلك التى تجعلها تشعر أنها أقل منه قدرًا ودائمًا ما تعتمد عليه. لكن كيف يمكن لها أن تتحرر من قيود هى كبلت نفسها بها؟ روحها كان يغلى فى مرجل وكل الأحلام التى جهزتها لنفسها ماتت. هى تشعر بأنها سجينة داخل هذا المنزل، لكن يا ترى، من هو سجانها سوى نفسها وذاتها؟

فى أتون هذا الإعصار العاتى، عاشت وهى تدارى مخاوفها، لكنه لم تستطع أن تدارى كل شىء، فطباعها حامية واحتقارها ساخن. كانت سريعًا ما تلوم الخدم، لكن هؤلاء لم يكونوا معتادين على من يسىء معاملتهم، لذا كانت خدمتهم لها قليلة، كانوا يضحكون عليها وهم مجتمعون فى المطابخ. وكانت متأكدة أن أحدهم كان يخبرها عن هذا الضحك، كانت دائمًا متذمرة وكثيرًا ما تظن أن كل الأشياء هنا غير مناسبة وموضة قديمة.

كثيراً ما كانت تقول، "نحن فى شانغهاى نتمتع بالمياه والإضاءة التى تأتينا بكل يسر وبلا متاعب. كانت دائمًا ما تشكو من صفائح المياه التى تستخدمها لكى تستحم، أيضًا تضطر أن تستخدم الشمع أو لمبات الزيت. لكن من يهتم بها وبطلباتها؟ هى مجرد فرد واحد ضمن ستين فرداً تحت سقف منزل عائلة وو، وهى لم تنجب حتى الآن.

لذا عندما شكت كثيراً من الوضع الجديد هذا المساء، شعر تسيمو بالإرهاق من حديثها، أخذ فى التثاؤب ويفرد ما بين ذراعيه وينفجر ضاحكًا.

قال بابتهاج، "يا لوالدنا المسكين، فعلى كل حال، هو الذى يحتاج للرثاء إذا استمعنا لمقولتك يا رولان. سوف يأتى وقت نشاهد هذه المرأة الجديدة وهى تمر أمامنا، لكنها سوف تصبح حملا ثقيلا على كتفيه ليلا ونهاراً. كفى أيتها الفتاة. إننا الآن فى منتصف الليل. اذهبى لسريرك واستريحى – دعينى أتمتع بفترة من الراحة".

نهض، هز نفسه، دعك يديه فى شعره، أطلق صفارة من فمه كأنما هو ينادى على كلبه الصغير، واتجه إلى جناحه. ما الذى يمكن أن تفعله رولان سوى أن تتبعه؟

(٣)

فى الصباح، بعد ليلة نوم كاملة وعميقة، صحت مدام وو من نومها. كانت هذه واحدة من البركات التى وهبت لها، فبعد نوم عميق ثم استيقاظ، شاهدت أمام عينيها بكل وضوح الطريق كأنما هو ضوء القمر الذى يسطع فوق مياه بحر قاتم، هو الطريق الذى ارتضت أن تسير فيه حتى نهايته، هو الآن واضح وجلى تماماً أمام عينيها.

ذكرت نفسها، "يجب أن أختار هذه الفتاة فى الحال". المنزل لن يستقر حاله ويهدأ فى ظل هذا الانتظار القلق. لذا هى سوف تبعث للخاطبة العجوز لكى تبحث لها عن فتاة قروية صغيرة مناسبة. بعد ذلك استعرضت فى خيالها كل الفتيات التى تعرفهن، لكن ولا واحدة منهن رأت أنها مناسبة وتوافق اشتراطاتها. جميعهن كن إما فى درجة عالية أو منخفضة، أو بنات ينتسبن لعائلات غنية، مملوءات فخراً وتيها ومشاغبة أيضاً، أو فتيات تلقين تعليماً فى الخارج، وهؤلاء سوف يكون همهن الأول هو إزاحتها عن الطريق كلية، أو إنهن بنات من عائلات فقيرة، هن أيضاً فخورات ومثيرات للمتاعب أيضاً. يجب أن تعثر على فتاة شابة لا تكون من طبقة عالية أو دانية، وتكون خالية من مشاعر الخوف أو الغيرة. فكرت، سوف يكون الوضع أفضل لو أن هذه الفتاة كانت غريبة تماماً، وعائلتها من الغرباء أيضاً، ويا حبذا لو كانت هذه العائلة تقطن فى منطقة نائية، لذا عندما تحضر الفتاة إلى المنزل سوف تصطحب جذورها معها وتزرعها هنا مجدداً.

ما إن حضرت ينج محملة بشاى الصباح والحلويات، قالت لها بعد تبادل التحيات، "ما إن أتناول إفطارى، أريد أن أتحادث مع المرأة العجوز (ليوما)".

قالت ينج بصوت حزين، "حاضر يا سيدتى".

فى صمت، ساعدت ينج سيدتها فى ارتداء ملابسها وشطت لها شعرها الطويل الناعم وجعلته على شكل دوائر فوق رأسها، خرجت بعد ذلك وعادت ومعها إفطار المدام. فى كل هذا الوقت، هى لم تنطق بحرف واحد، كذلك فعلت سيدتها. بعد ذلك، دعت وصيفتها أن تكسوها بالملابس فوق جسدها الرشيق الجميل ذى الأطراف التى تبدو كأنها أطراف عروسة لعبة. ثم تناولت المدام إفطارها بشهية بالغة يكتنفها سرور خفى، وما إن انتهت من آخر كوب من الشاى، حتى حضرت ينج مصطحبة معها الخاطبة ليوما. كن متأكداً يا عزيزى القارئ أن ليوما هذه كانت على وعى كامل بأسباب استدعائها، فهى لها جواسيسها المدفوع لهم فى كل بيت غنى لكى يخبروها عن أى منازعات تكون قد حدثت بين رجال العائلة ونسائها. هذا ويتمتع أنفها المسطح بخاصية رائعة هى التقاط رائحة زواج مقبل، وهى الخاصية نفسها التى يتمتع بها الذئب عندما يشتم رائحة اللحم الطازج، لذا علمت أنه مطلوب العثور على محظية للسيد وو، لكنها كانت من الحصافة بحيث لا تظهر معرفتها بذلك أمام مدام وو، بدلا من ذلك تظاهرت أن سبب استدعائها هو أمر طبيعى، فالمدام تريد أن تخطب عروسة لابنها الثالث "فنجمو".

لكن مدام وو كانت بهذا القدر من الحكمة ومعرفة بطبائع البشر، كانت فى الواقع متأكدة تماماً أن ليوما تعرف كل شىء، فهى تعلم أن الأخبار تنتقل من فم الخدم إلى آذان الخدم الآخرين، لذا سمحت لهذه المرأة أن تظن بأنها قد خدعت بالفعل.

"لقد صحوت مبكراً يا سيدتى"، قالت ليوما ذلك وهى تنهج. هى سيدة قصيرة القوام، سمينة، فى شبابها الغض كانت تعمل فى بيت من بيوت الأزهار، لكن جسدها بدأ فى الامتلاء فى وقت مبكر، حينئذ شعرت فى قرارة نفسها أنها قادرة أن تجلب النساء للرجال أفضل من تقديم خدماتها الشخصية، لذا قبلت أن تتزوج أحد البقالين وأعطته مهراً من النقود التى قامت بادخارها من عملها وكدها السابق، وانتهى بها الأمر أن أصبحت الخاطبة التى تسعى بين العائلات لتقدم خدماتها بالأجر.

أجابت مدام وو برقة، "إننى دائما ما أفضل الصباح المبكر". هى لم تترك مكانها، ما دام أن ليوما هى من الطبقة الدنيا، لكنها أشارت إلى مقعد لكى تجلس عليه هذه المرأة العجوز. قامت ينج بصب الشاى ثم غادرتهما.

أخذت ليوما فى احتساء الشاى بصوت مسموع، ولم تعرب عن اندهاشها لانتقال مدام وو لهذا الجناح، لكنها قالت بصوتها الخشن، "إنك بارعة الجمال، وسيدك محظوظ فعلا بك".

قالت هذا لتفتح موضوع المحظية، فقد توقعت الآن، أن المدام سوف تتنهد وتقول، "وأسفاه، جمالى لم يعد فيه الكفاية"، لكن ما حدث هو أن المدام شكرتها على تحيتها.

أخرجت ليوما قطعة مربعة من القماش القطنى وسعلت فيه. هى تعلم جيداً أنه ممنوع عليها منعًا باتًا أن تبصق على أرضية هذا المنزل، فالكل يعلم أن مدام وو حريصة بالنسبة لهذا الشأن، مماثلة فى ذلك الأجانب، بعدها بدأت ليوما حملتها مرة أخرى:

"أظن أنك تريدين عروسة لابنك الثالث، لذلك أحضرت معى بعض الصور". كان على ركبتيها بقجة مستطيلة ومربوطة بمنديل قطنى أزرق. قامت بفك عقدته. فى الداخل، كانت توجد مجلة أجنبية بها صور لبعض الممثلين والممثلات الأمريكيين. فتحت هى هذه المجلة وسحبت من وسطها بعض الصور، قالت، "لدى هنا ثلاث صور لفتيات صغيرات كلهن يعتبرن مناسبات لمصاهرة عائلتكم".

غمغمت المدام وهى تبتسم، "فقط ثلاثة؟"

هذه المرأة العجوز كثيراً ما كانت تثير الضحك الخفى للمدام، فبضاعتها هى العواطف ما بين الرجال والنساء، تتعامل فيها بصراحة وافتضاح كما لو كانت تتعامل فى بيع الأرز أو البيض أو القرنبيط.

أسرعت ليوما فى القول، "لست أقول إن هؤلاء الثلاثة هن كل ما عندى، فأنا لدى العديد من الزبائن المحترمين، لكن هؤلاء بالذات هن أفضل زبائنى. هؤلاء الثلاثة

ينتمين إلى أغنى العائلات التى تستطيع أن تجزل العطاء المادى وتجهز أفضل أنوا ع الأثاث والثياب".

"دعينى أشاهد هذه المجلة الأجنبية". ما إن حانت لحظة اختيار الفتاة التى سوف تحل بدلا منها، حتى داهمها الخوف، فلعلها ألزمت نفسها أن تصنع شيئاً يفوق معارفها.

قالت ليوما، "لا أستطيع يا سيدتى أن أجلب لكم واحدة ممن صورهن فى تلك المجلة، فهن لسن سوى خيالات كهربائية واردة من أمريكا"

ضحكت المدام ضحكتها الصافية، "أعلم ذلك، فقط أنا مشتاقة أن أعلم ما الذى يظنه الأجانب فيما يختص بجمال المرأة"

ناولتها ليوما المجلة. كانت هذه قذرة لكنها ليست مجعدة لأن ليوما تعتز بتلك المجلة. هما بالطبع لا يعرفان لغات أخرى، لذا لن يعرفا أسماء السيدات المعروضات.

أخذت المدام فى تصفح المجلة وتحدق فى وجوه النساء، غمغمت، "كلهن متشابهات، لكن بالطبع، كل الأجانب متشابهون فى الشكل".

ضحكت ليوما بصوت عال، "بالتأكيد الأخت الصغيرة هسيا لا تشبه واحدة من هؤلاء، إننى أستطيع أن أزوج أى واحدة من هؤلاء، لكن الأخت هسيا، لا بالطبع!". جميع من فى البلدة يعرفون الأخت هسيا ويتبادلون النكات بشأنها. كانت سيرتها تتداول فى المحال والساحات وأماكن شرب الشاى. الكل أجمع على أنها ذات قلب طيب، لكن هذا لا يمنع أن يتبادلوا الضحك بشأنها، ولم يدافع عنها سوى خادمها العجوز.

أحد بائعى السمك أخبر هذا للخادم العجوز الذى حضر ليشترى لهسيا سمكة صغيرة لغذائها، "لا تقل لى إنك تفهم كل ما تنطق به الأخت الصغيرة هسيا".

"لا، أنا أستطيع، وحتى ما سوف تنطق به، وأفهم كلامها بكل سهولة".

قالت المدام وو وهى تخاطب ليوما، "الأخت الصغيرة هسيا هى راهبة، راهبة أجنبية، والراهبات لا يعتبرن من النسوة. من أين أحضرت هذه المجلة؟"

قالت ليوما بفخر، "لقد اشتريتها. فقد سافر أحد أصدقائى إلى شانغهاى منذ خمس سنوات، وأنا التى طلبت منه أن يحضر لى مجلة مثل هذه، لقد دفعت عليها خمس قطع من النقود".

تساءلت المدام، "ولماذا تحتاجين لمثل هذه المجلة؟"

شرحت ليوما، "بعض الرجال يرغبون فى التطلع إلى هذه الوجوه، فهى تثير غرائزهم وتمنحنى أنا الزبائن، ثم هناك الرجال العصريون الذين يرغبون فى النساء العصريات، تجدهم يشيرون على صورة فى هذه المجلة ويقولون "نريد واحدة تشبه هذه، وبالفعل أجد فى مكان ما فتاة تشبه تقريباً تلك التى فى الصورة".

أعطت المدام المجلة إلى ليوما، "دعينى أشاهد الصور الثلاث".

تناولت الصور وهى تتحاشى أن تلمس يد المرأة القذرة، ثم أخذت تحدق فى الصور، قالت باعتراض، "لكن هذه الصور الثلاثة متشابهة!"

"كل الفتيات الصغيرات متشابهات، العيون اللامعة، الشعر اللامع، الأنف الصغير، الشفاه الحمراء – لكن إذا خلعت عنهن ملابسهن، فما هو الاختلاف الملحوظ ما بين امرأة وأخرى؟"، كان بطنها يهتز وهى تضحك داخل فستانها الحريرى الرخيص الواسع، "لكن يا عزيزتى، نحن لا نخبر الرجال بذلك وإلا بارت بضاعتنا، يجب أن نجعل الرجال يظنون أن كل فتاة تختلف تماماً عن الأخرى، كما يختلف اليشم عن اللآلئ– والكل جواهر بالطبع!"

ابتسمت مدام وو خفيفاً ووضعت الصور على المنضدة المجاورة. هذه الوجوه الشابة، اللاتى يتمتعن بالجمال الباهر، والشعر الأسود الطويل، كن ينظرن نحوها، لذا قلبت الصور.

"هل لديك فتاة يعيش أهلها فى منطقة بعيدة؟"

"أخبرينى بالضبط ما هى طلباتك". شعرت ليوما أنهما الآن يدلفان إلى لب الموضوع، وهذا يلزمه أن تركز تماماً.

"فى خيالى توجد مواصفات لتلك الفتاة التى أرغب فيها"، قالت المدام ذلك وهى نصف مترددة

"إذن سوف أعثر عليها وأحضرها لك، ما دام أنها على وجه الأرض ولم تغادر إلى السماء". كانت المدام شبه خائفة، هى ربما لم تحفل عندما أخبرت عائلتها عن تلك الفتاة الجديدة، لكن وهى أمام تلك المرأة العجوز التى تتعامل مع الرجال والنساء كتجارة لها، علمت أنها لن تستطيع إخفاء شىء.

انتظرت ليوما وعيناها الصغيرتان الحادتان تركزان على وجه المدام، أدارت هذه وجهها وأخذت تحدق فى الساحة. إنه يوم جميل، وقد انطبعت الشمس بأشعتها على الأحجار الجديدة النظيفة وظهرت فوقها بألوان قرمزية وزرقاء وصفراء.

"أريد فتاة جميلة، نعم جميلة لكن ليست فائقة الجمال. فتاة – امرأة – فى حوالى الثانية والعشرين من عمرها، ذات خدود مستديرة تكون ناعمة وصغيرة كأنما هى ما زالت صبية، مستعدة أن تحب أى شخص وليس شخصاً معيناً – فى الحقيقة أرغب فى واحدة لا تركز فى حب شخص معين محدد، وأنه عند إهدائها معطفاً أو فستاناً جديداً تنسى الإساءة فوراً – بالطبع يجب أن تحب الأطفال وأخلاقها رضية – ويكون أهلها بعيدين لكى لا تصرخ كل مرة وتطالب بالعودة إلى أهلها.

قالت ليوما بحماس، "لدى بالضبط ما تطلبين"، ثم كشرت قليلا، "لكن للأسف، هذه الفتاة التى أقصدها يتيمة، بالطبع أنت ربما لا ترحبين أن يتزوج ابنك من يتيمة لا نعلم من هما أبواها. لا، لا، هذا سوف يجلب دماً عكراً لهذا المنزل".

استعادت المدام نظراتها من الساحة وحدقت فى وجه ليوما. قالت بهدوء، "إننى لا أبغى زوجة لابنى فنجمو، فأنا لدى خطط أخرى بشأنه.لا، هذه سوف تكون زوجة صغيرة لسيدى".

تظاهرت ليوما بالجزع والرعب، ضمت شفتيها الغليظتين ثم سحبت منديلها القطنى المربع ووضعته فوق عينيها، وأخذت تتمتم،"يا للأسف، حتى هو...!"

هزت المدام رأسها، "لا تفهمينى خطأ، هى فى الواقع فكرتى أنا. هو غير راغب فى ذلك، لكنى أنا المصممة على تنفيذ ذلك"

خفضت ليوما من منديلها ووضعته فى فتحة صدرها الواسعة، "فى هذه الحالة، ربما تكون هذه اليتيمة هى المناسبة، هى فتاة قوية ونافعة..."

قاطعتها المدام، "أنا لا أريد خادمة لى، فالوصيفة ينج تلبى كل احتياجاتى، وهى سوف تقوم بتسميم أى فتاة أخرى تأتى إلى هنا. لا، إذا كانت خادمة، فإنها لن تصلح".

قالت ليوما بانزعاج، "ما أريد قوله هو أنها فتاة ناعمة ولطيفة ومقبولة تماماً..."

قالت المدام بتصميم، "لكن يجب أن تكون بصحة جيدة ومقبلة على الحياة"

"هى هكذا بالضبط، وفى الحقيقة هى فتاة جميلة، ولو لم تكن يتيمة إذن لاستطعت أن أزوجها قبل شهور من الآن، لكن أنت تعرفين الأوضاع هنا يا سيدتى، فالعائلات المحترمة لا ترضى بمصاهرة الدماء العكرة، ومن قد يرغبونها هم أقل شأناً منها. إنها فتاة قوية، لكنها ليست من طبقة دنيئة. فى الحقيقة يا سيدتى، لقد فكرت أن ألحقها ببيت من بيوت الأزهار لمدة بسيطة لتحقيق الغرض نفسه، وهو أن تعثر على رجل كبير فى السن يريدها زوجة صغيرة، لكن يبدو أن السماء تعمل على رعايتها، لأنه فى الوقت الذى هى فى أفضل أحوالها، تبحثين أنت عن مثيلتها"

"هل لديك صورة لها؟"

"للأسف لا، لم أفكر أبداً أن آخذ معى صورتها، وهى أيضاً لم تفكر أن تصور نفسها، فى الحقيقة..."، ثم ظهر المنديل القطنى مرة أخرى لتسعل فيه، "هناك عيب وحيد فى هذه الفتاة، وهو أنها إنسانة بسيطة وجاهلة. يجب على بالطبع أن أكون

أمينة معك وأخبرك بكل شيء. إنها يا سيدتى لا تستطيع أن تقرأ أو تكتب. فى الأيام الخوالى كان هذا يعتبر ميزة وفضيلة، لكن الآن، بالطبع يتوقع أن تعرف الفتاة القراءة مماثلة فى ذلك الولد. إنها العادات الغربية التى زحفت زحفاً على بلادنا".

"أنا لا أهتم ما إذا كانت تجيد القراءة أو الكتابة"

تجعد وجه ليوما من فرط سرورها وضربت ركبتيها بكلتا يديها، "إذن فقد اتفقنا يا سيدتى. سوف أحضرها لك فى أى وقت تشائين، فهى موجودة فى الريف مع المرأة إلى تبنتها".

تساءلت المدام، "ومن هى المرأة التى رعتها؟"

"إنها لا شيء. لن أخبرك من هى. إنها كانت قد عثرت على طفلة يا سيدتى فى ليلة باردة عند أسوار المدينة، أحدهم تركها هناك – بنت لا يرغب فيها أحد. كانت هذه السيدة تسير على قدميها بعد حضورها وليمة أقامها أخوها بسبب بلوغه الثلاثين من العمر، وهو يعمل مشرفاً على سوق فى...لا، لن أخبرك عن اسم البلدة. سمعت تلك السيدة صوت بكاء الطفلة، ولأنها سيدة فقيرة فقد ترددت أولا فى أن تحضر لبيتها فما جديداً، لكن فكرت قليلا، فلعل هذه الفتاة عندما تكبر تصلح لأن تكون زوجة لابنها الوحيد، بذلك تستطيع توفير تكاليف البحث عن عروس له، لكن كيف يمكن لهذه المسكينة أن تعلم أن ابنها هذا سوف يموت قبلما يتزوج؟ لقد كنسه الطاعون، والآن هى لديها هذه الفتاة، لكن لا أحد يتقدم ليتزوجها".

كانت مدام وو تستمع لكل هذا دون أن تحول عينيها عن وجه ليوما، "لكن هذه المرأة، هل سوف تترك الفتاة؟"

"نعم، بل سوف ترحب بذلك، فهى سيدة فقيرة، وعلى كل حال، هذه الفتاة ليست من دمها أو لحمها".

أدارت مدام ووظهرها للساحة، لقد زحفت أشعة الشمس فوق الحائط وقامت بتقصير ظلال البامبو وتكثيفها على الأحجار، وبصوت موسيقى، "الأفضل أن أراها"، ثم وضعت

إصبعها على شفتيها، كما تفعل دائماً عندما تنشغل بالتفكير، "لا، لكن لما أفعل ذلك؟ ليس لك مصلحة فى أن تخدعينى، وكما قلت أنت سابقًا، كل فتاة تشبه الأخرى مادام أننا قد اتفقنا على مواصفات الفتاة".

تساءلت ليوما، "لكن كم سوف تدفعين يا سيدتى؟"

بعد تفكير، "سوف أضطر بالطبع أن أكسوها بالملابس اللازمة"

"نعم، لكن تلك المرأة العجوز التى هى ليست أمها، لا تهتم بما يمكن أن تفعليه فى هذا الشأن، ما ترغب فيه حقاً هو صرة مملوءة بالفضة".

قالت المدام بهدوء، "مائة قطعة من النقود ليست قليلة بالنسبة لفتاة ريفية، لكنى أنا سوف أدفع مائتين".

ردت عليها ليوما، بينما العرق ينضح من بشرتها السمراء بغزارة، "أضيفى خمسين أخرى يا سيدتى، بذلك أستطيع أن أعطى مائتين كاملة لهذه المرأة، بذلك يمكن أن تخلى سبيل هذه الفتاة اليوم"

"إذن فليكن كذلك"، كانت إجابة المدام فجائية، واستطاعت أن تلمح نظرة الأسف الجشعة التى شعت فى عينى ليوما الضيقتين التى كانت مثبتة عليها فى قلق، لذا واستها بالقول، "لا تحزنى كثيراً لأنك لم تطلبى أكثر، فأنا أعلم جيداً ما هى الحدود ما بين العدل والكرم".

"أعلم مقدار حكمتك يا سيدتى". أخذت ليوما فى لملمة الصور، ثم توقفت، "لكن، هل أنت متأكدة أنك لا تريدين عروسة لابنك الثالث؟"

"لا، يمكن لفنجمو أن ينتظر، هو ما زال صغيراً فى السن"

"هذا حقيقى". الآن وقد اكتملت الصفقة، ومن فرحها يمكن لها الآن أن توافق على كل ما تنطق به المدام، "نعم، نعم يا سيدتى، هو الكبير الذى يجب أن لا ينتظر. يجب خدمة الرجال الكبار أولا، أنت دائماً على حق، فأنت خبيرة بكل القلوب".

ربطت ليوما المجلة فى منديلها مرة أخرى وقامت، "هل أحضر لك الفتاة اليوم؟"

"أحضريها هذا المساء فى فترة الغسق".

"حسنًا، هذا أفضل وقت، سوف يكون اليوم بحاله تحت تصرفها بحيث يمكن أن تستحم وتغسل ملابسها وتنظف شعرها".

"أبلغيها أن لا تحضر ومعها أى شىء، لا فى يدها أو داخل صندوق. تحضر فارغة اليدين، فقط بما ترتدى من ملابس"

"أنا أعدك بذلك يا سيدتى، نعم أعدك بذلك". أخذت ليوما فى تكرار هذه الجملة، بينما هى تحاول أن تقوم من مكانها بتثاقل، فساقاها يشبهان قرمة الخشب الكثيفة، ثم خرجت مسرعة.

حضرت ينج وبين يديها براد للشاى. لم تنطق بحرف، وهكذا فعلت المدام وهى تراقبها عن كثب. أخذت ينج فى تنظيف المقعد الذى جلست عليه ليوما ثم تناولت الإناء الذى شربت فيه الخاطبة الشاى كأنما هو نوع من القذارة. أثناء استعدادها للخروج مصطحبة هذا الإناء القذر، خاطبتها سيدتها، "هذا المساء، سوف تحضر هذه الفتاة حتى بوابة منزلنا".

توقفت ينج تنصت وهى صامتة. الإناء القذر ما بين إبهامها وإصبعها.

"أحضريها فوراً لى، وجهزى سريراً من البامبو يكون لها فى هذه الغرفة"

تمتمت ينج، "حاضر يا سيدتى". صوتها تحشرج فى حلقها، ثم أسرعت فى المغادرة.

* * *

تحرك النهار مؤذنًا بحلول الليل. كان من عادة مدام وو أن تلجأ لسريرها بعد الغداء لتنام لمدة ساعة، لكن عندما صعدت فوق سريرها الواسع بعد الظهر، لاحظت أنها لا تستطيع أن تنعس أو تستريح، لكن ليس بسبب أن الغرفة ما زالت غريبة عليها.

فى الحقيقة، هى كانت على سجيتها تماماً وهى داخل هذا الجناح، لدرجة أنها تعجبت من ذلك. عدم ارتياحها هذا لم يكن مصدره جناحها هذا، لكن بسبب شيء ما يدعو للقلق ينخر داخل فؤادها.

خاطبت ينج، "لن أنام على سريرى هذه الظهيرة"

حدقت ينج المخلصة فى وجهها، "بل من الأفضل أن تنعسى هذه الظهيرة يا سيدتى، أنا أشك أنك سوف تستطيعين النوم وهناك إنسانة غريبة داخل جناحك".

"أعتقد أنه ليس لى حاجة للنوم هذه الظهيرة"، لكنها ما إن شاهدت التعبيرات التى ارتسمت على وجه ينج حتى تغيرت مشاعرها، شعرت بالاستياء، فمدت يدها وربتت على ذراع ينج على شكل دفعة خفيفة، "اذهبى الآن يا ينج واتركينى لنفسى. سوف أعثر على كتاب أتسلى به".

"كما تشائين يا سيدتى"، وبسرعة غير عادية التفتت وغادرت الجناح، لكن المدام وهى واقفة فى منتصف الغرفة، لم تلاحظ خروجها. وقفت هكذا واضعة إصبعها على شفتيها وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، ثم بانحناءة من ذقنها تحركت عبر الغرفة فى اتجاه غرفة المكتبة. وهى على الباب، تطابقت أقدامها على الحفرة الخفيفة، وهى الحفرة نفسها التى لازمت أقداماً رحلت منذ زمن وانتهى أمرها.

أخذت تفكر، "لكن هى حفرة سببتها قدم رجل"، ابتسمت وهى تحرك قدميها داخل الحفرة. شعرت بالحرية والشجاعة أكثر من أى وقت مضى – ليس هناك أحد يشاهدها الآن وهى تفعل ما تشاء، إنها تنتمى لنفسها هذه الساعة. حسناً، إذن فقد حان الوقت لأن تقرأ واحداً من الكتب التى كانت ممنوعة عليها.

لم يخبئ عليها الجد العجوز أين موقع هذه الكتب المرصوصة على أرفف. فى الحقيقة، ما إن اكتشف أنها تستطيع أن تقرأ وتكتب حتى قادها بنفسه إلى المكتبة وجعلها تعلم موقع هذه الكتب، رزمة وراء أخرى بأغلفتها القطنية الزرقاء.

قال لها بلهجته الرزينة، "هذه المجموعة من الكتب يا ابنتى ليست مناسبة لك"

"هل بسبب أننى امرأة؟"

هز رأسه ثم أضاف، "لكن أنا أيضًا منعت ابنى أن يقرأها حتى يبلغ الخامسة عشر من عمره ويترك مرحلة الطفولة".

"هل هو قرأها جميعًا؟"

ظهر بعض الإحراج على وجه الجد، "أعتقد ذلك، فأنا لم أسأله أبدًا، لكن أعتقد أن كل الشباب قرأها، لذلك أنا وضعتها هنا، لقد أخبرت ابنى أنه إذا كان من الضرورى أن يقرأ هذه الكتب، فعليه أن ينتظر حتى يبلغ الخامسة عشر، ولا تجعل واحدة من هذه الكتب مخبأة وسط كتبك المدرسية".

سألت سؤالا آخر بأسلوبها الواضح، "يا والدنا، هل تعتقد أن مخى ليس مساويًا فى قدراته لفكر ولد وعقله فى الخامسة عشر؟"

ظهرت علامات الحيرة على وجهه، لكن هو كان رجلا أمينًا، على الرغم من أنه كان عالمًا، لذا تجعدت حواجبه الصفراء الباهتة، "مخك فى أفضل أحواله وعلى الرغم من أنك امرأة، بل أستطيع القول يا ابنتى إنه إذا حل مخك فى جمجمة رجل فإنه سوف يكون فى مقدوره أن يدخل إلى الامتحانات الإمبراطورية وينجح بتفوق ويصبح بعدها حاكمًا من حكام هذا البلد، لكن مخك ليس فى جمجمة رجل، بل هو فى دماغ امرأة، ودماء المرأة يتدفق فيه كذلك قلبها، وهو مختون بما توحيه حياة المرأة من واجبات، وعند المرأة ليس مهمًا أن ينمو عقلها ويتفوق على جسدها".

هى لم تكن حينذاك إنسانة حصيفة، وربما كان السؤال التالى لها وقحًا، لكن هى كانت على ثقة كاملة أن هذا السيد العجوز يحبها ويقدرها، لذا سألت، "هل معنى قولك هذا يا والدنا أن جسد المرأة هو أهم من مخها؟"

تنهد الرجل العجوز وهو يستمع لذلك، ثم جلس على مقعد ضخم من الخشب الأحمر بجوار منضدة القراءة، هى تفكر فيه الآن، لذا جلست على المقعد نفسه واسترجعت ذكرى ذلك اليوم البعيد. شاهدته يحك ذقنه الأبيض، ولمحت فى عينيه ملامح من الأسى،

ثم قال، "لقد برهنت لنا الحياة أن جسد المرأة هو أهم من عقلها، فهى الوحيدة التى تستطيع أن تنبت لنا خليقة جديدة، وبدونها يفنى البشر وينقرض. فى جسدها، وضعت السماء هذه الهبة، لذا فجسدها ثمين بشكل لا يمكن التعبير عنه فى نظر الرجل. بدونه لا تكتمل دورة الحياة إذا لم تنجب. هو لديه البذرة فقط، لكن هى التى تمنحنا الزهور والفواكه على شكل كيان إنسانى مشابه له".

أخذت تنصت باهتمام، يمكن لها الآن أن ترى نفسها كما كانت تبدو حينذاك وهى فى السادسة عشر من عمرها وهى واقفة أمام هذا الرجل الحكيم. ثم قدمت له سؤالا آخر، "إذن لماذا أتمتع أنا بالعقل والفكر على على الرغم من من أننى لست سوى امرأة؟"

أخذ العجوز يهز رأسه بينما يرمقها بعينيه، ثم رمشت تلك العيون بطريقة غريبة، "أنا لا أعلم. أنت فتاة رائعة الجمال، لذا فأنت لست فى حاجة إلى المخ والفكر السديد".

كلاهما ضحك، ضحكها كان يانعًا رقراقًا، بينما ضحكه جاف عجوز، ثم عادت ملامح الجد والاهتمام على وجهه، "لكن ما وجهتيه لى من أسئلة يختص بكل ما كنت أفكر فيه وأظنه منذ أن حضرت أنت إلى منزلنا هذا. لقد قمنا باختيارك زوجة لابننا لأنك جميلة وفاتنة، أيضًا لأن جدك كان هو الحاكم السابق لهذه الولاية، وفى إناء الذهب يمكن أيضًا إضافة الجواهر. مع ذلك، كنت أعلم أنك فى منزلنا لن تحتاجى إلى إعمال قدر كبير من الذكاء، فالقليل منه كاف لكى تسجلى مثلا مصروفات المنزل، وتشرفى على الخدم، وتضبطى تصرفات من هم أدنى منك، لكن اتضح أنك تمتازين بمنطق عال ورغبة فى زيادة التعلم. لكن ما الذى سوف تفعلينه بكل ذلك؟ هذا ما لا أعلمه. ولو كنت امرأة أخرى أقل شأنًا، إذًا ربما شعرت بالقلق وأنت داخل هذه الأربعة جدران التى سوف تصبح عالمك، لكن أنت لست من النوع المثير للقلاقل بسبب تميزك بالحكمة والبصيرة النافذة، وهى حكمة غير عادية يمكن أن تتميز بها فتاة فى هذا السن الصغير، كذلك أنت تستطيعين السيطرة على نفسك".

وقفت أمامه بلا حراك، تذكر هو ذلك فقال، "اجلسى يا ابنتى، سوف تتعبين من وقوفك هذا، أيضًا أنت لست مضطرة أن تقفى فى محضرى".

لكن هى بالكاد كانت تستمع إليه. كانت مشغولة تماماً بتلمس مفاهيم هذا الحوار الذى يدور بينهما. ظلت واقفة ويداها مشبوكتان فى ارتخاء أمامها، لقد تشكل بالفعل سؤالها التالى فى ذهنها، "هل تعتقد أن سيدى سوف يحبنى أقل بسبب ما ذكرته أنت؟"

بدت مظاهر الحزن والاهتمام على وجه هذا السيد العجوز وهو يستمع لذلك السؤال، وتسللت يده مرة أخرى إلى ذقنه البيضاء. تستطيع الآن أن تشاهد اليد القديمة، نحيلة ورفيعة، جلد البشرة مشدود كأنما هى قشرة ذهبية رقيقة فوق العظام، "آه، هو السؤال نفسه الذى كثيراً ما سألته لنفسى!"، ثم تنهد عميقاً، "فى موضوع الذكاء هذا – إنه نعمة عظمى، لكنه أيضاً ثقل يصعب حمله، فالذكاء يختلف عند الغنى والفقير لأنه يعمل على الفصل ما بين البشر ويجعلهم إماأصدقاء أو أعداء. الشخص الغبى يكره الإنسان الذكى ويخشاه، مهما كان صلاح الشخص الذكى، وعليه أن يعلم أنه لن يكتسب محبة من هو أقل منه ذكاء بسهولة".

"لكن لماذا؟"، قالت ذلك وقد شملها خوف غريب، كانت فى تلك الأيام مغرورة ومعتزة بنفسها. هى كانت تعلم نوعية تفكيرها وتثق فى مواهبها، لكن الآن هوذا السيد العجوز يقول إنها ربما تتعرض للكراهة بسبب ذلك.

بدون علامات عاطفية تبدو على وجه العجوز أو اهتزاز فى صوته، قال، "المحبة الأولى التى تبزغ فى قلب الإنسان هى محبته لذاته. لقد فعلت السماء ذلك كعامل أول لأن الإنسان فى حاجة لأن يعيش، على الرغم من كل إحباطاته أو فشله. الآن، عندما يتعرض حبه لذاته إلى العوار والجرح، إذن لا حب آخر يمكن أن يعشش فى قلبه، وعندما يكون الجرح عميقاً وغائراً، تجد أن النفس ترحب بالموت والفناء، وهذا بالطبع ضد قوانين السماء".

"إذن، هل تعتقد أن سيدى (زوجى) سوف يكرهنى؟"

بدون أن يصيغ أفكاره فى كلمات محددة، كان واضحاً أمام هذا العجوز الحكيم أنها أكثر ذكاء من ابنه، لذلك حرص أن يحذرها، "يا ابنتى، ليس هناك رجل يمكن له

أن يتحمل تواجد امرأة ذات حكمة عالية فى منزله وتنام فى فراشه. ربما يعترف بقوله إنه يتعبد فى محرابها، لكن العبادة هى عبارة عن شأن يمكن أن يمضى ويختفى فى مسار الحياة اليومية. لا يستطيع الرجل أن يجعل من منزله محراباً، ولا أن يعتبر زوجته هى معبودته، إنه ليس بهذا القدر من البأس والقدرة"

"يا والدنا، أليس من الأفضل أن أقرأ كتبك الممنوعة؟". كان سؤالها هذا مفاجئا، لدرجة أن الرجل نظر نحوها مبهوتًا، هى نفسها اندهشت ثم أحست بصدمة خفيفة وهى تلاحظ بعض التهيب الذى كسا نظراته. كان ينظر إليها بشكل بسيط، أما الآن فقد أدار وجهه ناحية براد الشاى الموضوع فوق المائدة.

تقدمت إلى الأمام خطوة، "دعنى أصب لك الشاى"، ثم فعلت ذلك. شفط بعض الشاى قبل أن يجيبها وهو ما زال متجنباً النظر إليها، قال، "يا ابنتى، ربما لا يمكن لك أن تفهمينى، لكن أرجو أن تصدقينى دون أن تفهمى. من الأفضل أن لا تطلعى على هذه الكتب، فالرجال يفضلون أن تكون النسوة أقل معرفة فى هذا الشأن. أنت إنسانة حكيمة، وأكثر حكمة بالمقارنة بعمرك الغض. أنت بالفعل لست فى حاجة لهذه الكتب. استخدمى عقلك وهو الآن في عز عنفوانه ونقائه لكى يشعر ابنى معك بالسعادة والارتواء. تعلمى الحب من الأساس وليس من الكتب"

للحظات، بدا الأمر كأنما هو لم يجب على تساؤلها. ثم، وهى واقفة أمام المائدة تنظر إليه، أدركت أنه أحكم إنسان على وجه الأرض، ولكى تساير حكمتها صواب فكره، عليها إذن أن تصدقه، "سوف أطيعك يا والدنا". وبالفعل، أطاعته لمدة عشرين عاماً بل وأكثر.

لكن اليوم، وهى وحيدة فى الغرفة نفسها التى كانا يتناقشان فيها، تجلس الآن على المقعد نفسه الذى كان ملكًا له يوماً. بدا الأمر الآن أن حكمتها قد سايرت حكمته وأن طاعتها قد اكتملت. لقد أصبحت حرة الآن من تعهدها لهذا السيد النبيل تجاه الكتب الممنوعة. كانت تعرف عناوين البعض منها. كانت تعلم أن المثقفين لا يقرأون مثل هذه الكتب التى تعتبر أقل شأنًا ووزنًا. ساءلت نفسها، "لماذا يعتبر ما يعلمه الرجل هو ممنوع على النساء؟"

اختارت عشوائيًا كتابًا منها. كان كتابًا ضخمًا على شكل ملازم مربوطة داخل مجلد كبير من القماش. لقد سمعت من قبل عن عنوان هذا الكتاب، فمن ضمن العشرات الذين عاشوا فى منزل والدتها أو منزل عائلة زوجها، كان هناك عدد كبير من الأشخاص الذين يتسمون بالغلظة والخشونة، لذا كانت قصة "هيسى من شنج مع زوجاته الست" معروفة بطريقة أو بأخرى. عنوان الكتاب هو "زهرة البرقوق فى زهرية من ذهب". كان محتوى العنوان مرسومًا بريشة فنان فوق الصفحة الأولى من الكتاب.

فكرت، "يبدو أن هناك الكثيرين الذين قرأوا هذه النسخة بالذات، ثم ابتسمت بنوع من السخرية المريرة، فهناك أجيال عديدة من رجال عائلة وو قرأوا هذا الكتاب، لكن ربما تكون هى المرأة الوحيدة التى أمسكت بين يديها هذا الكتاب

تناولته ووضعته على المائدة وأخذت أولا تحدق فى الصورة التى رسمها الفنان، كان هناك فن عميق فى تلك الخطوط الحساسة، بالأخص عندما درست وجه "هيسى من شنج" نفسه، لقد أرهق الفنان نفسه وهو يصف من خلال رسومه وهو يشكل الفناء التدريجى لهذا الرجل. أولا ظهر هذا الرجل بوجه الشباب الممتلئ فرحًا وبهجة، ذاك الذى اكتشف التعبير عن شبابه من خلال غرامه بجسد المرأة، ثم تطور شكل سحنته ليصبح كريه الوجه يسير حثيثًا إلى مدارج الفناء والموت. أخذت مدام وو تفكر فى عمق وهى تتفحص كل رسم وتحاول أن تفهم المعنى العميق لهذه القصة. إنها قصة رجل عاش بلا عقل أو روح، هى قصة جسد فيه روح تناضل، تجوع، ثم تموت.

بدأت فى القراءة. مرت الساعات، سمعت ينج وهى تتحرك فى الغرفة المجاورة، لكن هى لا تعلم أن ينج قد تفحصتها وهى واقفة عند الباب ثم غادرت. لم تدرك فوات الوقت إلا عندما حل الظلام وشمل الغرفة ولم تعد ترى شيئًا، ثم أخذت تتطلع حولها كأنما هى لا تدرى أين هى، تمتمت، "ما كان لازمًا أن أطيع هذا الرجل العجوز"، ثم بصوت شبه عال، "كان واجبًا أن أقرأ هذا الكتاب منذ زمن". توقفت الآن عن القراءة ولم تشأ أن تبدأ من جديد، كانت تشعر بنوع من التخمة والقرف. وضعت الكتاب مكانه على الرف ثم وضعت يديها على خديها وأخذت تزرع الغرفة جيئة وذهابًا. لا، إنه من الأفضل،

كما ظنت، أنها لم تقرأ هذا الكتاب عندما كانت أصغر عمراً، لقد أيقنت الآن أن هذا الكتاب هو الشر بعينه، لقد كان الكاتب من العبقرية التى بها استطاع أن يقنع القارئ أنه سوف يجد كل ما يرضيه فى هذا الكتاب ويفضله من شرور، أما من يبحثون عن الحكمة، فإنهم سوف يعثرون بالفعل على الحكمة، لكنها حكمة ذات طعم مر. كان العجوز على حق. وحتى هى، إذا كان قد أتيح لها أن تقرأ هذا الكتاب منذ عشرين عاماً، فهل كان فى إمكانها أن تدرك الحكمة التى فيه؟ أدركها شعور بالامتعاض لدرجة أنه صعب عليها أن تذهب إلى سريرها ليلا وهى راضية. ما زال هذا العجوز هو أحكم من عرفت، فالصغير فى العمر ليس مؤهلا على الإطلاق أن يحصل على مزيد من المعلومات، التى يجب أن تعطى له بشكل متدرج وبطىء، مع ضرورة النظر إلى مدى تطورهم فى مدارج العمر. يجب أن يعيش الإنسان قبلما يعرف بعض الأمور لكى يحصل على الأمان فى حياته.

فى تلك اللحظة من تفكيرها، لاحظت أن ينج واقفة على الباب مرة أخرى، كان ظلها أسود على خلفية من الغسق الرمادى. فى الساحة خلفها كان هناك ظل آخر.

تحدثت ينج، "سيدتى، لقد حضرت العجوز ليوما - الفتاة أتت معها"

صعدت يدا المدام إلى خدها مرة أخرى، لفترة لم ترد، ثم سحبت يديها من خدها وتحركت وجلست على مقعد. بعد ذلك أمرت ينج، "أضيئى شمعة وأحضرى الفتاة بمفردها. لن أرى المرأة العجوز".

تحركت ينج فى صمت، وعند الباب رأت المدام تلك الفتاة واقفة، كان ضوء الشمعة يسقط عليها بلطف. رأت المدام الوجه نفسه الذى تخيلته تقريباً، فالفتاة الواقفة تتفجر صحة، خدودها حمراء، تحدق فيها بعيون تماثل عيون الأطفال المستديرة الواسعة السوداء، شعرها الأسود الطويل ملفوف وينساب على جبهتها على شكل أهداب، وهى الموضة السائدة فى الأرياف، كانت تقبض على بقجة ملفوفة داخلها شىء ما.

سألت المدام، "ما الذى فى يدك هذا، لقد أخبرتهم أن لا تحضرى وبصحبتك شىء".

كانت الفتاة تبدو فى منتهى البراءة، كأنما هى طفل كبير، لذا لم تستطع سوى أن تنطق بتلك الكلمات البسيطة، "لقد أحضرت لكم معى هدية، عبارة عن بعض البيض، ظننت أنك سوف تعجبين بذلك، لكنى لم أحضر شيئًا غيرهم. إنه بيض طازج". صوتها لطيف يصدر من القلب، لكن هى أيضًا خجولة.

"تقدمى نحوى، دعينى أرى البيض"

تقدمت الفتاة بحذر وهى متهيبة الموقف، تسير على أطراف أقدامها كما لو أنها تخشى حالة الصمت السائدة فى الغرفة. نظرت المدام إلى قدميها، "أرى أن قدميك لم يربطا".

بدا على الفتاة نوع من الارتباك، "لم يكن هناك أحد لكى يربطهما، أيضًا كان ورائى عمل دائب على إنجازه فى الحقول".

تحدثت ينج، "لديها أقدام كبيرة يا سيدتى، بلا شك هى كانت تسير حافية كما يفعل أطفال الريف، لذا أصبحت أقدامها خشنة".

ظهرت بعض علامات القلق على وجه الفتاة، ثم أخذت تنقل أبصارها ما بين المدام والوصيفة. أمرتها المدام مرة أخرى، "تقدمى. دعينى أرى البيض".

تقدمت الفتاة ثم وضعت البقجة بحرص على المائدة وقامت بفك عقدة المنديل وأمسكت بكل بيضة تتفحصها، قالت، "ولا واحدة منها مكسورة، كنت أخشى أن أتعثر فى الظلام، إنهم ١٥ بيضة يا...."

توقفت. أدركت المدام وو أن الفتاة محتارة كيف تخاطبها، "يمكن لك أن تنادى على باسم الأخت الكبيرة".

لكن الفتاة كان خجولة لأن تنطق بذلك، لذا رددت، "إنهم ١٥ بيضة، ولا واحدة منها عمرها أكثر من أسبوع، إنهم لك".

"أشكرك، إنهم بالفعل طازجون".

لقد أدركت المدام على الفور عدة حقائق والفتاة واقفة بجوارها. تنفسها كان حلواً نظيفاً، ومن بشرتها لم تصدر سوى رائحة الصحة. أسنانها بيضاء سليمة. اليد التى كانت فكت عقدة المنديل كانت خشنة لكن تكوينها حسن ومتناسق. تحت المعطف القطنى والبنطلون الأزرق، كان جسد الفتاة مستديراً لا تظهر عليه علامات السمنة. رقبتها رقيقة ووجهها جميل كله براءة.

لم تستطع مدام وو سوى أن تبتسم لها، "هل تظنين أنه بإمكانك أن تعيشى هنا؟"، شعرت فجأة بنوع من الرثاء لهذه الفتاة الصغيرة التى تم شراؤها من الريف. لقد اكتشفت فيها قدراً كبيراً من الرقة والطيبة على الرغم من خديها اللذين لوحتهما الشمس وكذلك ملابسها الخشنة.

أدركت الفتاة هذا التعاطف وظهر فى بريق عينيها لمحة من المحبة الفورية، "لقد أخبرتنى ليوما أنك إنسانة طيبة، قالت لى إنك تختلفين عن باقى النساء، وأكدت على أن أحرص على أن أجعلك راضية عنى، وهذا ما سوف أفعله". صوتها صاف كله بهجة ونضارة.

"إذن عليك أن تذكرى لى كل ما تعرفينه عن حياتك، لا تخبئى شيئاً عنى. إذا كنت أمينة معى فسوف أحبك وأقدرك". أدركت المدام هذا الحب والثقة التى شملتها به هذه الفتاة، ولدهشتها شعرت بنغزة من الشعور بالذنب.

"سوف أخبرك بكل شىء، لكن أولا، ألا أستطيع أن أحمل هذا البيض إلى المطبخ؟"

"لا"، قالت المدام هذا وهى تخبئ ابتسامتها. كم سوف تكون دهشة الخدم عندما يشاهدون هذا الزائرة. "سوف تأخذهم ينج التى المطبخ. أما أنت فتجلسين على المقعد المقابل لى هذا وسوف نتحدث سوياً"

ربطت الفتاة منديل البيض وجلست على طرف المقعد. بدت بعض ملامح الانزعاج على محياها. سألتها المدام، "هل تشعرين بالجوع؟"

قالت الفتاة بحرص، "لا، أشكرك". ثم جلست مستقيمة تنظر أمامها.

ابتسمت المدام مرة أخرى، "كونى صادقة، هل تشعرين بالجوع؟"

ضحكت الفتاة فجأة. ضحكاتها رقراقة منطلقة، "لا أستطيع أن أكذب حتى أكون إنسانة مؤدبة. لقد أخبرتنى ليوما أنه يجب أن أقول "لا، أشكرك" إذا سألتنى عما إذا كنت جائعة، حتى لا أبدو جشعة من المقابلة الأولى".

"هل تناولت عشاءك قبل حضورك؟"

تصاعدت دماء الخجل على خدى الفتاة، "نحن ليس لدينا طعام كاف، فوالدتى التى تبنتنى تظن أن....."

قاطعتها ينج، "ينج، أحضرى لها طعاماً"

تنهدت الفتاة وارتخى جسدها واستدارت بحيث تواجه المدام، لكن لم تنظر إلى عينيها.

إذا كان فيها عيب ما، هذا ما فكرت فيه المدام، هو أن حجمها أكبر نوعًا، هذا يعنى أن مصدر دمائها من المناطق الشمالية، ربما كان أهلها لاجئين هاربين من كارثة لحقت بهم، أو ربما فيضان للنهر الأصفر أو مجاعة عامة وكانوا مضطرين أن يتركوا الفتاة لكى تموت فى مكانها. قالت المدام بصوت عال، "أخبرتنى ليوما أنك فتاة يتيمة، هل تعرفين شيئًا عن عائلتك؟"

هزت الفتاة رأسها، "كنت مولودة حديثًا عندما تركونى. إننى أعرف المكان الذى تركونى فيه لأن والدتى بالتبنى كانت تشير نحوه ونحن فى طريقنا إلى السوق، لكن هى أخبرتنى أنها لم تجد معى أى علامة ترشد عنى، فقط هو أننى لم أكن ملفوفة داخل ملابس قطنية لكن بفستان حريرى، لكنه حرير حائل".

"هل معك هذا الفستان الآن؟"

هزت الفتاة رأسها مندهشة، "لكن كيف عرفت ذلك؟"

قالت المدام وهى تبتسم فى عينى الفتاة المستديرة، "فكرت أنك ربما تحضرين معك الشىء الوحيد الذى يعتبر ملكاً خالصاً لك".

أصرت الفتاة، "لكن كيف تعرفين قلب من هو غريب عنك؟"

"دعينى أرى هذا الفستان الحريرى". لم تشأ أن تخبر الفتاة عن معرفتها الحدسية التى تحوزها.

بدون تردد، كما لو أنها حقاً سوف تطيع المدام فى كل أمر، وضعت يدها فى صدرها وأخرجت قطعة القماش الحريرية المطبقة. كانت هذه مغسولة ونظيفة لكن لونها الأحمر الأصلى أصبح بلون وردى. أمسكت بها المدام وفردتها. كانت عبارة عن فستان امرأة، ضيق فى الوسط وله أكمام طويلة.

"إذا كان هذا فستان والدتك، فهى بالقطع كانت طويلة القامة"

صاحت الفتاة، "وأنت تعلمين ذلك؟"

فحصت المدام التطريز، موضة هذا الفستان كانت قديمة وهناك حاشية مطرزة تدور حول الياقة وعلى الفتحة الجانبية، الحاشية نفسها حول الأكمام.

"إنه مطرز بعناية فائقة، ومستخدم فى هذا التطريز غرزة بكين الدقيقة"

قالت الفتاة وهى مقطوعة الأنفاس، "أنت تخبريننى بأمور تفوق كثيراً ما أعرفه"

"لكن هذا كل ما فى مقدورى أن أخبرك به". طبقت المدام الفستان ومدت يدها به إلى الفتاة، لكن هذه لم تتناوله. قالت، "أنت تحتفظين لى به، لست بحاجة إليه هنا".

"سوف أحتفظ به لك إذا شئت، لكن إذا رغبت فى أى وقت فى استرداده فسوف أعيده لك على الفور".

قالت الفتاة بضراعة، "إذا سمحت لى البقاء هنا، إذن فلن أحتاج إليه مرة أخرى"

لكن المدام وو لم تكن مستعدة بعد أن تعدها بشىء، "إنك حتى لم تخبرينى باسمك؟"

تغير وجه الفتاة، أصبح فى شكل طفل خاب أمله، قالت فى جزع، "ليس لى اسم محدد، فهم لا يقرأون أو يكتبون، وأنا لا أستطيع أيضاً"

"لكن هم بالتأكيد كانوا يطلقون عليك اسماً"

"عندما كنت صغيرة، كانت عائلتى المتبناة تطلق على اسم "اليتيمة الصغيرة"، وعندما كبرت كان اسمى "اليتيمة الكبيرة".

"هذا بالطبع ليس اسماً، لكن عندما أعرفك أكثر سوف أطلق عليك اسماً"

قالت الفتاة بتواضع، "وأنا أشكرك"

فى تلك اللحظة حضرت ينج ومعها وعاءان بهما طعام ووضعتهما بعناية على المائدة. أخذت المدام فى فحص الطعام الموضوع فى الوعاءين. إذا كانت ينج قد أحضرت طعام الخدم، إذن لكانت قد أعادتها بها، لكن ينج كانت عاقلة وواعية. لقد أحضرت أطباقاً لا تعتبر مناسبة لإطعام العائلة، لكن بالتأكيد من نوعية أفضل من طعام الخدم. وضعت إناء فيه شوربة وبعضاً من كور الفراخ. الطبق الآخر به لحم وقرنبيط، وهناك أيضاً فنجان خشبى فيه بعض الأرز المطهى، أيضاً براد الشاى ومعه كوب خزفى وعصوان. لم يكن العصوان من النوعية التى تستخدمها العائلة، لم يكن من العاج أو الفضة، لكنه أيضاً لم يكن من البامبو المستخدم فى المطبخ، كانتا من خشب أحمر مدهون مثل التى يستخدمها الأطفال.

أمرت المدام، "أشرفى على إطعامها"

ترددت ينج قليلا، لكنها أطاعت وشفتاها منطبقتان فى صمت. لكن الفتاة لم تلاحظ شيئاً. تقبلت إناء الأرز من ينج بكلتا يديها وهى ترفع من قامتها قليلا بأدب ريفى، فهى تعبر بذلك على أن ما يقدم لها هو أكثر من اللازم. فى الحقيقة، لاحظت المدام أن الفتاة كانت محتارة ما بين الجوع القارص وبين أن تكون مؤدبة، لذا قامت المدام واصطنعت عذراً لكى تغادر الغرفة. قالت، "سوف أعود بعد قليل، فى الوقت نفسه تناولى طعامك هذا كله".

بهذه الكلمات، غادرت المكان واتجهت ناحية غرفة استقبالها، هناك انتصب السرير البامبو الذى سوف تنام عليه الفتاة. أخذت المدام تحدق فى السرير متفكرة. سوف تترك الفتاة تنام عليه عدة ليال إلى أن تتفهم الفتاة وضعها وسط هذه العائلة، كذلك تستطيع هى أن تتفهمها جيداً. يجب أن تتكون رابطة قوية بينهما قبلما تطلقها من هذا الجناح لتدخل إلى الجناح الآخر، وإلا حدثت مشاكل لا حصر لها. هى فى سبيلها لأن تصنع أمراً دقيقاً وحساساً للغاية وصعباً، لذا يجب أن يؤدى بكل حرص وتؤدة. وقفت، وإصبع فوق شفتها السفلى، تذكرت كيف أنها كانت فتاة صغيرة، تحب فى الربيع أن تساعد فى تفكيك شرانق الحرير فى أراضى عائلتها، فعندما تنمو ديدان القز وتتحوصل كل منها داخل الشرنقة، تمر فترة تبرق سريعاً، فيها يجب أن توضع الشرانق داخل أوان بها ماء ساخن، لأنه إذا تركت أكثر من ذلك، فإن الدودة سوف تتحور وتصبح فراشة تخترق الشرنقة وتتلفها. كانت هى بالذات فى استطاعتها أن تحدد ذلك التوقيت بدقة متناهية، وكانت النسوة فى المزرعة يقدرنها من أجل فطنتها هذه. تذكرت الآن مقدار تأكدها بشأن هذا الأمر، ذلك التأكد الذى نبع من لا شىء، مع ذلك هو كل شىء. فجأة كانت تعلن "الآن"، فى الحال يتم إلقاء أعواد الأرز التى تعلقت بها الشرانق فى أوان من الماء الساخن، ثم، هى، بيدها الحساسة، تعثر على نهاية الخيط الحريرى وتقوم بلف الخيط الحريرى حتى نهايته. إحساسها المرهف بدقة التوقيتات بدأ الآن فى الحراك، ودقتها فى هذا الأمر لا يجب أن تخونها هذه المرة، وإلا فإن السيد وو سوف يؤنبها ما بقيت على قيد الحياة.

تحركت ودخلت غرفة نومها وأخذت تسير هنا وهناك فوق البلاط الناعم، بينما سكنت قدماها داخل الخف الساتان.

تبدو هذه الفتاة بسيطة كأنما هى طفل كبير، كل قلبها وطبيعتها واضحة تماماً لكل إنسان، وهذا يعنى أنها لم تتطور أو تتبدل، وكيف يمكن لها أن تتطور؟ لكنها ليست غبية، فعيونها سريعة الحركة تنم عن ذكاء، وشفاهها رقيقة فى امتلاء. هل هى فائقة الذكاء؟ هناك أيضاً موضوع الفستان الحريرى. دماؤها ليست من العامة، إلا إذا

كانت أمها تعمل خادمة فى منزل غنى. نعم، هناك دلائل تؤكد أن هذه الفتاة ابنة خادمة كانت تعمل فى خدمة عائلة غنية، وربما يكون المتسبب فى حملها هو أحد أبناء هذه العائلة، وبذلك حصلت على هذا الرداء الذى استغنت عنه سيدتها، أو ربما يكون رداء فتاة من فتيات بيوت الشاى ووهبته لهذه الطفلة غير المرغوب فيها.

أخذت مدام وو تتمتم لنفسها، "هناك استحالة أن نعرف حقيقة هذه الفتاة"

هل هى ترغب حقاً أن تؤوى فى منزلها مثل هذه الفتاة التى لا يعرف أحد أصلها أو فصلها؟ هى لا تستطيع الإجابة عن هذا السؤال. بعد فترة ذهبت إلى المكتبة، كانت الفتاة تجلس هناك بمفردها، على ملامحها مظاهر الخوف من تلك الغرفة الكبيرة المتخمة بالظلال. كانت قد انتهت من عشائها وأخذت ينج الأوانى. ما إن شاهدت المدام، حتى وقفت وبدت أمارات الارتياح على قسمات وجهها.

تساءلت، "ما الذى أفعله الآن أيتها الأخت الكبرى؟" صدرت منها هذه الكلمات بكل حرارة وثقة، مما جعل المدام تنجذب إليها غصباً، فهى دائماً ما تكون حريصة فى بذل محبتها للآخرين سريعاً. سألت المدام، "ما الذى تفعلينه فى مثل هذه الساعة من يومك؟"

"دائماً ما أذهب لمرقدى ما إن أنتهى من عشائى، فليس هناك مبرر لتبذير الشمع إذا جلس الإنسان بعد حلول الظلام"

ضحكت المدام، "إذن ربما يتوجب أن تذهبى الآن إلى سريرك"، ثم قادتها إلى الغرفة التى انتصب فيها السرير المفرود من البامبو، "هذا هو سريرك، وخلف هذا الباب سوف تجدين الغرفة التى يمكن لك فيها أن تستعدى للنوم"

أجابت الفتاة، "لكن أنا مستعدة بالفعل، لقد نظفت نفسى جيداً قبل حضورى، وليس على سوى أن أخلع ملابسى الخارجية هذه. هذا كل ما فى الموضوع".

"إذن سوف أراك فى الغد".

"إذن إلى الغد، لكن أرجوك أيتها الأخت الكبرى، إذا احتجت إلى أى شىء ليلا، نادى علىّ".

"إذا احتجت شيئًا سوف أنادى عليك"، قالت ذلك وخرجت متوجهة إلى غرفتها.

* * *

مر وقت طويل وهى مستيقظة فوق سريرها، لقد جافاها النوم. حوالى منتصف الليل، قامت من سريرها وذهبت إلى الغرفة الأخرى وأشعلت شمعة وأخذت تحدق فى وجه الفتاة النائمة التى لم تتحرك من مكانها. كانت نائمة على جانبها الأيمن ويد تحت خدها. كانت تتنفس بسهولة، فمها مغلق ووجها وردى. فى نومها هى أكثر جمالا وهى مستيقظة. لاحظت أيضًا أن الفتاة ساكنة، لا يصدر منها أى نوع من الغطيط، وكانت الأغطية منتظمة فوقها وتصل حتى وسطها. نامت فى قميصها الداخلى القطنى، لكنها كانت قد فتحت ياقتها، لذا ظهرت رقبتها المستديرة كذلك جزء من صدرها. كان فى مقدور المدام أن تشاهد ثديًا واحدًا منهما بكل وضوح، كان مستديرًا فتيًا متماسكًا. نومها عميق لا تصدر منها أى حركة، وهذا حسن وجيد. تعتبر مدام وو نفسها من الأفراد الذين يستيقظون من نومهم سريعًا، فهى تصحو من نومها فورًا إذا مثلا استدار السيد وو فى نومه، ثم يجافيها النوم، لكن هذه الفتاة سوف تنام نومًا عميقًا وتصحو نشيطة فى الصباح. حجبت المدام نور الشمعة بيدها واقتربت من وجه الفتاة، ما زالت رائحة تنفسها الحلو يصدر منها! انتصبت المدام وعادت إلى غرفتها وأطفأت الشمعة بواسطة الضغط على الفتيل بإبهامها وإصبعها ثم رقدت على سريرها.

استيقظت المدام قبل الفجر بسبب حركة كانت تصدر من الغرفة الأخرى. كان هناك أزيز يصدر من السرير البامبو. استيقظت بشكل كامل كما يحدث دائمًا معها وظلت مستلقية تنصت. هل تستعد الفتاة للهرب فى هذه الساعة المبكرة؟ نهضت وارتدت معطفها وأشعلت الشمعة واتجهت إلى الغرفة الأخرى. كانت الفتاة جالسة على مقعد تمشط شعرها الطويل. كانت ترتدى ملابسها ومنتعلة حذاءها كذلك ترتدى جواربها القطنية.

"إلى أين أنت ذاهبة؟"

جفلت الفتاة وهى تسمع صوتها وسقط من يدها المشط الخشبى الكبير بينما شعرها يغطى جزءًا من وجهها، "لست ذاهبة إلى أى مكان"، قامت وأخذت تحدق فى المدام بينما عيناها السوداوان يبرقان من خلال ظلال شعرها، "لقد نهضت من نومى".

"لكن لماذا تصحين فى هذا الوقت المبكر؟"

أجابت الفتاة باندهاش، "هذا هو وقت النهوض من النوم، لقد سمعت للتو صوت الديكة".

صدر من المدام ضحكة فجائية غير عادية، "لا أفهم لماذا تستيقظين هكذا مبكرًا، لكن أنت بالطبع فتاة ريفية، لكن هنا يا ابنتى لست أنت ملزمة أن تسيقظى هكذا مبكرًا. حتى الخدم لن يستيقظوا إلا بعد ساعة من الآن، ونحن لا نستيقظ إلا بعد ساعة من استيقاظ الخدم".

"هل يتحتم الآن أن أعود إلى سريرى؟"

"وما الذى يمكن أن تفعليه غير ذلك؟"

"دعينى أكنس هذه الغرفة، أو حتى أكنس الساحة"

"حسنًا، افعلى ما تشائين"

"عودى أيتها الأخت الكبرى واستأنفى نومك، سوف لا أحدث أى نوع من الجلبة"

بهذا عادت المدام إلى سريرها وسمعت صوت حركة المكنسة التى عثرت عليها الفتاة فى الممر واستخدمتها فى تنظيف الساحة والأرضية. صوت خطوها خفيف وحريص. ثم، بدون أن تدرى، استغرقت المدام فى نومها. عندما استيقظت كان الوقت متأخرًا والشمس تبرق على الأرضية، بينما وقفت ينج بجوار سريرها.

استيقظت على الفور وبدأ فى الحال مراسم ارتدائها للملابس، لم تذكر ينج شيئًا عن الفتاة، أيضًا لم تنطق المدام حرفًا. كان هناك صمت كامل يشمل الغرفة.

هذا الصمت كان مزعجًا، لذا أخيرًا اضطرت أن تستفسر، "أين الفتاة؟"

"إنها فى الساحة منهمكة فى الخياطة، كانت مصرة أن تجد أى شىء تفعله، لذا قمت بإعطائها خفًا للأطفال لتعمل على خياطته".

من رنة الاحتقار التى وضحت فى صوت ينج، أدركت المدام أن ينج تحتقر تلك الفتاة التى تنشد أن تكون فى شغل دائب كما لو كانت خادمة. لم تنطق المدام بشىء بعد ذلك، فهى لن تقاد بما يمكن أن تحبه أو تكرهه ينج.

بدلا من ذلك، تناولت هى إفطارها ثم خرجت إلى الساحة، هناك وجدت الفتاة جالسة على مقعد بدون ظهر وله ثلاثة أرجل منهمكة فى خياطة الخف. كانت أصابعها تجاهد لكى تخترق ذلك القماش الكثيف، وقد وضعت فى إصبعها الأوسط خاتمًا نحاسيًا تستعمله بدلا من الكستبان. وقفت منتصبة ما إن شاهدت المدام ولم تبادلها الحديث.

"أرجوك، اجلسى مكانك". هى نفسها جلست على أحد المقاعد البورسلين الخاصة بالحديقة. كانت المدام تجلس وظهرها ناحية بوابة الساحة، لكن الفتاة كانت فى المواجهة. ما إن جلست الفتاة على مقعدها لتستأنف عملها حتى رفعت عينيها لأنها رأت البوابة تفتح ويدخل عبرها شاب صغير. رأت المدام عينى الفتاة وهما تبرقان ثم تهبطان بينما يتعمق اللون الأحمر على خديها. أدارت المدام وجهها متوقعة أن تشاهد شكل رجل، وربما يكون الطباخ. لكن هو لم يكن الطباخ. إنه "فنجمو" ابنها الثالث. كان واقفًا هناك، يده على جانب من المدخل يحملق فى الفتاة.

"فنجمو، ما الذى تريده؟". شعرت فجأة بالغضب يتملكها بشكل غير متوقع، فهذا الابن بالذات، كما تعلم فى قرارة نفسها، هو الأقل فى محبتها. هو شاب عنيد صعب القياد لو قورن بإخوته ليانجمو وتسيمو، وليس مريحًا كأخيه الرابع "ينمو". عندما كان صغيرًا، كان يفضل مصاحبة الخدم أكثر من أفراد العائلة، وهذا ما ظنته يعتبر علامة على مدى انحطاطه. كانت تعامله خارجيًا كما تعامل الآخرين، لكن داخليًا، كانت تعلم

أن محبتها له أقل. بالتأكيد، هو كان يشعر بذلك، لذا كان من النادر أن يكون فى محضرها منذ أن بلغ الخامسة عشر من عمره إلا إذا قامت هى باستدعائه.

سألته مرة أخرى، "فنجمو، لماذا أتيت إلى هنا؟"، لكنه لم يجبها. استمر فى تحديقه فى الفتاة، وهى أدركت ما يفعله، لذا رفعت جفنيها وحملقت فيه، ثم خفضت من عينيها.

تلجلج فنجمو، "أتيت...أتيت لأراك يا أمى"

أجابته ببرود، "أنا فى أفضل حال"

"هناك شىء آخر"

"إذن تعال معى إلى المكتبة"

قادت هى المسيرة وتبعها هو، لكنهما لم يجلسا، بدلا من ذلك، رفع الفتى يده مشيراً إلى الفتاة، "أمى.. هل هى المقصودة؟"

قالت بقسوة، "فنجمو.. هذا الذى أتيت إلى هنا لتسألنى عنه، هذا ليس من شأنك"

"أمى، ما الذى يمكن أن تظنيه بشأنى؟ أصدقائى سوف يضحكون على ويغيظوننى..."

"هل هذا ما جئت لتخبرنى به؟"

صاح، "نعم. كان الموقف من الأساس سخيفًا، أما الآن فقد ازداد الموقف سوءًا بعدما شاهدت الفتاة - هى صغيرة جداً بينما والدى - هو متقدم فى العمر".

أجابت بالصوت القاطع نفسه، "سوف تعود فوراً إلى جناحك، إنه من قلة الأدب أن تحضر هكذا بشكل مفاجئ دون أن ترسل خادماً لتعرف إذا كان الوقت مناسباً أم لا، أما بالنسبة لوالدك، فإن الجيل الأصغر ليس له أن يقرر ما يفعله الكبار".

كانت هى معتادة على عناد فنجمو، لذا اندهشت عندما لاحظت تراجعه. رأت وجهه الوسيم وهو يحمر ويرتجف، ثم، بدون تبادل أى حرف آخر، استدار وغادر الغرفة والساحة دون أن يلقى نظرة خلفه.

شمل المدام ضيق شديد لأن هذين قد شاهدا بعضهما، فعلى الرغم من آن هناك سيل من العادات قد خدشت، وهى لا تتردد لحظة فى كسرها عندما ترغب فى ذلك، فإنها داومت دوما على عادة الفصل ما بين الأولاد والبنات فى سنواتهم الأولى. فى منزلها هذا، كان هذا الفصل يحدث عندما يبلغ الأولاد أو البنات السابعة من العمر، وهى لا تعنف الخدم أبداً إذا أمدوا الأولاد بأى معلومات خاطئة. مرة سمعت فنجمو يسأل رئيس الخدم، "لماذا هو ممنوع من أن ألعب مع بنات عمى؟"

أجابه رئيس الخدم، "ممنوع على الأولاد والبنات أن يلعبوا مع بعض حتى لا تدمى أقدامهم".

لكن مدام وو التى كانت تحرص على عادة تصحيح الأخطاء، دعت هذا يمر.

الآن، هوذا فنجمو وقد شاهد هذه الفتاة قبلما تأخذ مكانها المخطط له فى المنزل، أيضاً رأته الفتاة، إذن من ذاك الذى يمكن له أن يخمن مقدار النيران التى اشتعلت من جراء هذه المقابلة؟

أخذت تزرع المكتبة هنا وهناك. فى كل مرة تعبر أمام الباب، تشاهد الفتاة وهى تعمل بجد ونشاط فى خياطة الحذاء، ويداها الممسكة بالإبرة ترتفع وتنخفض. شعرت فجأة أنها قد توصلت إلى القرار الجازم. يجب حسم الأمر الآن. إنها سوف تحتفظ بهذه الفتاة، لكن يجب أن تدرك هى واجباتها الحقيقية. خرجت بخطوات خفيفة أكثر من المعتاد وجلست مرة أخرى.

قالت بسرعة، "لقد قررت أن يستمر بقاؤك معنا فى هذا المنزل"

نظرت الفتاة، بينما الإبرة مستعدة أن تخترق القماش، لكنها لم تنفذ ذلك، وقفت باحترام أمام المدام وبصوت خفيض منقطع الأنفاس تساءلت، "هل هذا يعنى أننى قد نلت رضاك؟"

"نعم، إذا قمت بواجباتك على أكمل وجه. بالطبع أنت تفهمين – فأنت قد حضرت هنا لتخدمى سيدى – أى أن تحلى بدلا منى فى أمور معينة".

"أنا أفهم"، قالت الفتاة ذلك بصوتها الخافت نفسه وعيناها مثبتة على وجه المدام.

"يجب أن تفهمى أن منزلنا هذا ما زال يقدس العادات القديمة، لذا ليس هناك اختلاط ما بين أجنحة الرجال والنساء.

أجابت الفتاة بسرعة وقد سقط ذراعاها على جانبيها، بينما عيناها لا تتحرك، "أوه، لا".

قالت المدام بلهجة سريعة، لا تتماشى مع أسلوبها المعتاد فى الحديث، "فى هذه الحالة، أرى أنه ليس هناك مبرر لتأجيل أى شىء".

بنبرة قلقة، قالت الفتاة، "لكن، أليس من الأفضل أن أحصل على اسم لى داخل المنزل".

شعرت المدام بنوع من التعاطف والمشاركة مع الفتاة، "نعم، بالطبع يجب أن يكون لك اسم وسوف أعطيك إياه – سوف أدعوك باسم "شيومنج"، هذا يعنى "بهجة الخريف". فى هذا الاسم أنا أوضح مهمتك هنا، فسيدى هو الخريف وأنت البهجة".

أخذت الفتاة تردد الاسم "شيومنج" – واستطعمت الاسم فى لسانها، "أنا شيومنج".

(٤)

طوال هذا الوقت، لم يقترب السيد وو من المدام، وهى دعت ذلك يمر، فبعد معاشرته طوال هذه السنوات كانت تدرك ما الذى يدور فى خلده. إذا لم يكن هو حقيقة غير راغب فى حضور هذه الفتاة، إذن لكان قد حضر منذ زمن ليخبرها بذلك وهو يعبر عن انزعاجه وقراره القاطع، بل ربما وهو يضحك، لكن أن يستمر هكذا بعيداً، هذا يعنى شيئًا وحيداً، هو أنه ليس ممانعًا أن تحضر هذه الفتاة إلى جناحه. إنه يشعر بالخجل من مدام وو لأنه ليس قاطعًا فى رفضه لهذه الفكرة. إنها تفهمه جيداً، لدرجة أنها تعلم مقدار شعوره بالنفور من نفسه، لكن هذا يعتمل داخله بمقدار ضئيل لا يساعده على مقاومة الإغراء. باختصار، هى تفهم كل ما يدور فى ذهنه من أفكار ومشاعر. هو يعلم جيداً ويقدر الخصال النبيلة التى يتحلى بها العظماء من الرجال، لكن مع ذلك، يجد نفسه أسيراً ومقيداً ومسحوراً داخل جدران وجدانه بمطالب الجسد.

لذلك، كما أنه لا يستطيع مقاومة إغراء النهل بشهية من طبق متقن الصنع ولذيذ موضوع فوق المائدة، فإنه لا يستطيع، مهما كان مقدار تشوقه لبلوغ الكمال، أن يمنع نفسه من اغتراف اللذة مع فتاة صغيرة. إنه ليس إنسانًا متزمتًا، كان طوال عمره مكتفياً وراضيًا بمدام وو، وهى كانت تعلم ذلك بلا غرور، ولو كانت هى أقل جمالا أو أقل تمسكًا بالمبادئ الأخلاقية، فربما اكتشف مكانًا آخر يرضيه. كانت هى دائمًا حريصة على استمرار رضائه فى كل الأمور، إذا احتاج لأى معلومة مقرها الكتب، هى تقوم بالاطلاع عليها ثم تخبره بها، وإذا كان يتشوق أن يعرف شيئًا يختص بالأمم والدول الأجنبية، فإنها تحاول معرفة هذه المعلومة وتدله عليها. فى كل سنوات معيشتهم سوياً، لم يرغب فى شىء ولم يحصل عليه، لكن هى تعلم بلا أى شعور بالألم، أن هذا كان

يحدث لأنها درست رغباته جيداً، وعندما كانت هذه غامضة، فإنها بكل حرص وذوق تساعده على استيضاح ذلك بلا أى مشقة، وعندما تكون هذه الرغبات عاجلة أو صعبة، فإنها لا تضيع أى وقت لتحقيق رضاه. إنها زوجة صالحة بكل المقاييس.

حتى عندما تكون راضية عنه، فإنها لا تعرب أبداً عن ذلك أمامه. كانت أولا تنظر أولا إلى فضوله العنيد كحركة عقل يهدف للمعرفة لأن والدته هى التى ساهمت فى عرقلة نموه الفكرى بسبب تعلقه الكبير به. السيدة العجوز لم تسمح أبداً لوالده أن يتحكم فى ابنهم الوحيد، فهو جوهرتها الغالية الذى بقى على قيد الحياة بعد عدة ولادات فاشلة. فى البداية، اصطدمت بعنف مع السيد العجوز لأنه حاول أن يربى ابنه ويشرف على تعليمه. حدث هذا عندما كان الصبى فى السابعة من عمره. حتى ذلك الوقت، وطبقًا للعادات فى مثل تلك العائلات، سمح للصبى أن يعيش فى جناح والدته، لكن عندما بلغ الغلام السابعة من عمره، أخبر زوجته أن الوقت قد حان لأن يعيش الولد معه فى جناحه.

بعذر أو بآخر، كانت الأم تعرقل إتمام هذا الانتقال، أولا بحجة أن الغلام يعانى من حلق ضعيف، لذا هو فى حاجة دائبة إلى مراقبة مستمرة ليلا، وأخرى أن شهيته للأكل ضعيفة، لذا يجب الضغط عليه باستمرار حتى يأكل، وعندما يصمم السيد العجوز أن ينفذ هذا الانتقال مهما كانت الأسباب، تنخرط هى فى البكاء والعويل، وعندما يعبر عن مزيد غضبه، تزداد درجة غضبها منه. لكن السيد كان راسياً كأنما هو الصخر، لذا اضطرت أخيراً أن تستجيب لطلبه مرغمة، وعندما بلغ الغلام التاسعة من عمره، انتقل إلى غرفة صغيرة مجاورة لغرفة نوم والده، وفيها باشر الوالد مهمة تعليم ابنه وتربيته.

لكن للأسف، كان لتلك الغرفة باب جانبى، لذا كان هذا الولد الوسيم العنيد يزحف ليلا ويتسلل إلى جناح والدته! وحاول الوالد بكل صبر وتؤدة أن ينصح ابنه، لكن بلا فائدة، لأنه بدلا من مبادئ التربية والنظام التى حاول الوالد أن يغرسها فى ابنه، نجد أن الوالدة، من فرط حبها لابنها، كانت تساعد الغلام على أن يلعب بدلا من أن يدرس.

وتمده بأطايب الطعام الغنى اللذيذ، وعندما تمتلئ معدته ويعانى من ذلك، كانت تشجعه على تدخين غليون به تبغ وأفيون لكى يتغلب على آلام معدته. ولم ينقذ الولد من الوقوع فى حبائل الأفيون الشيطانية سوى ضعف صحته وعدم تركيزه فى شيء، لذا ما إن بلغ الولد العشرين من عمره، حتى أدرك السيد العجوز أن زوجته قد كسبت المعركة، ولم يجد بدًا فى النهاية سوى أن يسلمه لها بالكامل.

كان تحذيره النهائى لابنه قوله، "يا ابنى، لقد اخترت النساء على الرجال، اخترت أمك بدلا من أبيك، اخترت الراحة بدلا من تحقيق الذات. إذن دع الأمر عند هذا الحد، ولم يتبق فى جعبتى، لمصلحة بيتنا، سوى أن نعثر لك عن زوجة فاضلة تستطيع أن تقوى من ضعفك".

شعر الشاب بالخوف من ثقل قول أبيه، وكما كان يفعل دائمًا فى حالة شعوره بالخوف، أسرع نحو حضن والدته، فى لحظات بسيطة، عاد إليه الشعور بالأمان.

وفدت مدام وو إلى هذا المنزل بعد ذلك بوقت قصير، وبعد اليوم العشرين من زواجهما، أرسل لها حماها السيد العجوز لتوافيه فى مكتبته وتحدث معها بشأن ابنه هذا قائلا، "هو سوف يصبح كما تستطيعين أن تصنعى منه، بعض الرجال يصنعون أنفسهم بأنفسهم، لكن هو سوف يكون دائمًا من صناعة النساء. مع ذلك، لا تدعيه أبدًا يعلم ذلك. لا تحاولى أبدًا أن تعنفيه بسبب ضعفاته، لأنه فى هذه الحالة سوف يصبح هو الضعف بعينه. لا تجعليه يشعر أبدًا أن لا نفع منه إطلاقًا، لأنه إذا علم هذا، فسوف يصبح بالفعل بلا نفع. يجب أن تبحثى عن نقاط القوة فيه وتحاولى أن تنسجى حولها الخيوط، لكن عندما تكون الخيوط ضعيفة، فلا تثقى فيه أبدًا. عليك أن تعدى ما يلزم بشكل سرى".

كانت هى صغيرة السن فى ذلك الحين، وعريسها كان شابًا وسيمًا مرحًا، وهى سعيدة بهذا الزواج ولم تكن خائفة من شيء.

قالت للسيد العجوز بكل بساطة، "أنا أحبه".

نظر إليها الرجل باستغراب، فلم يكن من المألوف أن تعبر المرأة هكذا عن رأيها بكل هذه الجسارة، لكن الصوت الذى نطقت به هذه الكلمات غير العادية ناعم وجميل، كانت رقيقة وفى منتهى البراءة، لذا صعب عليه أن يؤنبها.

وبدلا من أن يشرع فى تأنيبها، هز رأسه قائلا، "أنت لديك أمضى سلاح تمتلكه المرأة".

مضت تقريباً عشر سنوات قبل أن تتفهم المدام وو زوجها الذى اقترنت به وأخلصت له الحب كاملا. حدث هذا بشكل بطىء متدرج، لذا لم تشعر بألم خيبة الأمل فى زوجها. لقد أدركت حدود قدراته وإمكانيات عقله وروحه، كانت المسافات بين تلك الحدود بسيطة للغاية، فالأسئلة والاستفسارات التى انهال بها عليها، أدركت بعد لأى أنها جميعاً بلا أساس قويم. لم تكن تلك الاستفسارات سوى وسيلة لقطع الوقت بلا فائدة محددة. أحياناً، وفى لحظة، تجده وقد سئم من محاولة تفهم الإجابة عن سؤال معين ويتركه نهائياً، لذا كان عليها فى هذا الشأن أن تكتشف الطريق الذى سوف تهب منه الرياح.

أدركت مع مرور الزمن أنها هى نفسها قد عبرت بعيداً عن خطوط حدوده، ثم دعت حدودها تمتد وتنتشر إلى أقصى أبعادها، لكن هى لم تخبره بذلك. فى الحقيقة، لما يتوجب أن تفعل معه ذلك مادام أنه لم يعد يفهم ما تنطق به؟ لكن مع ذلك، كان هناك جزء كاف من حدودها متاح ضمن حدوده، لذا ظن هو أنها ما زالت فى مجال حضوره. لكنها ما فتئت تحلم ببلوغها سن الأربعين وتخطط لما سوف تفعله فى ذلك الحين.

الآن قررت أن تذهب بنفسها لتخبر السيد وو أن شيومنج أصبحت جاهزة له. بالطبع هو سمع كل الأخبار عن طريق الخدم، لكن ما زال لازماً أن تذهب بنفسها لتخبره، ولا يجب أن يحدث أى تأخير مادام أن فنجمو قد شاهد الفتاة. ربما تكون مشاهدة فتى لفتاة ليس فيها أى شىء، لكن هناك أوقات معينة فى مقتبل العمر، عندما يحدث مثل هذا اللقاء، مهما كان بالصدفة، يكون حينذاك مفعماً بالخطورة. لذا إذا كان

السيد وو فى حالته الطبيعية، فإنها بسرعة سـوف ترسل له شيومنج عندما تعدها تماماً للمقابلة.

كانت شيومنج تتفجر سعادة فى ذلك الصباح الصيفى، فقد أرسلت المدام وصيفتها ينج لتشترى قماشاً قطنياً من نوعية ممتازة وقماشاً حريرياً من نوعية متوسطة، كذلك كل لوازم الخياطة. من تلك الأقمشة، اختارت المدام ما يكفى لعمل ثلاثة فساتين لشيومنج. كانت تود أن تبعث بالسرور فى قلب الفتاة، لذا دعتها أن تختار اللون والنقشة التى تفضلها. سرت المدام لأن الفتاة اختارت ألوانًا هادئة ونقوشًا بسيطة، وزاد سرورها عندما جلست الفتاة على الفور لكى تفصل ملابسها بنفسها.

وقفت شيومنج أمام المنضدة المربعة وفـردت القماش القطنى عليه، ثم توقفت وهى تقبض على المقص الحديدى، ثم سألت المدام، "هل أقص القماش ليصبح مشابهاً لفساتينك يا أختى الكبرى؟ ملابسها الخاصة كانت واسعة الأكمام والمعطف قصير طبقًا لعادات أهل الريف.

قالت المدام، "سوف تساعدك ينج فى تفصيل ملابسك لتصبح مشابهة لملابسنا هنا فى المنزل".

قامت ينج على الفـور بوضع العلامات المناسبة باستخدام حجر جيرى أبيض، ثم قصت القماش بحيث يتناسب مع جسم شيومنج المستدير.

بينما كل هذا يحدث، وقفت الفتاة وقد بدا على ملامحها السعادة الغامرة، غمغمت، "طوال حياتى لم أحصل أبداً على معطف من قماش جديد"

عندما تم فصل قطع القماش، لضمت هى إبرتها ووضعت خاتمها النحاسى فى إصبعها الكبير وجلست وهى تطير فرحًا وبهجة، ثم أخذت بكل حرص تحيك، بينما وقفت ينج بجوارها تدقق فى مسألة صغر مسافات الخياطة واستقامة الخطوط، والمدام تراقب شيومنج. لقد شعرت مرة أخرى بنغزة الشعور بالذنب، شعرت كأنما هى سوف تلحق ضرراً بهذه الفتاة. قررت أنه يلزم فى الحال أن تخاطب السيد وو، لذا استدعت

ينج لكى تحادثها فى غرفة أخرى. هناك، وبعيداً عن أسماع الفتاة، قالت، "يجب أن تساعديها، تأكدى أنها قد أنجزت تفصيل ثلاثة قمصان داخلية وعلى الأقل فستان خارجى، فربما يتم إرسالها غداً، وهذا يعتمد على ما سوف يظهر اليوم".

"نعم يا سيدتى". كانت ينج تحرص على أن لا يبدو على وجهها أى علامة تبين ما إذا كانت حزينة أو فرحة.

الآن غادرت المدام جناحها للمرة الأولى منذ أن انتقلت إليه. رأت أنه من الواجب أن تزور السيدة العجوز أولا. وجدتها فى صحة جيدة، جالسة خارج غرفتها فى الشمس. كانت مبتهجة لأن هناك خادمة منهمكة فى دهان ساقيها وركبتيها وتدليكهما. كانت أطرافها أقل تورماً اليوم. قالت، "سبب تورم ساقى هو كثرة تناولى للكبوريا، لكن مادام أن موعد نزولى القبر قد قرب، فكيف يمكن أن أرفض الكبوريا فى طعامى؟ على أية حال، كل من ساقى وركبتى لم يعد لهما نفع كبير، وأنا دائمًا ما أعب من الخمر حتى أعادل السم الموجود فى الكبوريا".

يبدو أن السيدة الكبيرة قد نسيت تمامًا غضبها من زوجة ابنها بخصوص موضوع المحظية، أيضًا لم تذكرها مدام وو به. توقفت هى وفحصت ساقى السيدة الكبيرة وركبتيها وأوصت الخادمة أن تدهن وتدعك من أسفل إلى أعلى حتى يصعد الدم بدلا من أن يهبط، ثم تابعت مسارها.

توقعت أن تجد السيد وو فى جناحها القديم أكثر من أن يكون فى جناحه الخاص، لذا اتجهت مباشرة إلى هناك. فعلا وجدته جالسًا داخل الغرفة مرتديًا ملابسه الواسعة المريحة. وبسبب اشتداد الحر، كان يرتدى بنطلونًا حريريًا أبيض واسعًا عند الركبتين، وجاكتًا مفتوحًا فوق صدره الناعم. كان يروح عن نفسه مستخدمًا مروحة حريرية مرسومًا فوقها شجيرات من البامبو الأخضر، وممسكًا فى يده بقدح الشاى الخزفى، بينما الأطباق التى تناول فيها إفطاره ما زالت فوق المائدة. لاحظت أن هناك علامات من الخجل والاكتئاب مرسومة على وجهه الوسيم، وبحكم العادة، تحدثت معه بكل الود.

"أعتقد أن الوقت قد حان لأن نعيد زراعة أشجـار الريح فى ساحة هذا الجناح، ما رأيك فى ذلك يا والد أبنائى؟"

"إننى لا أهتم إطلاقًا بشجيرات الأوركيديا، أفضل دائمًا بأن أتمتع بتنوع الألوان أمام عينى".

"سوف أدعوهم أن ينزعوا الأوركيديا ويحضروا بعض الأصيص بها شجيرات الريح لكى تنمو بلا إزعاج".

تقدم هو إلى الساحة إلى أن وقف مجاوراً لها، وأخذ يتأمل فى شجيرات الأوركيديا، "أريد نبات الريح بألوانه المختلفة. بلون أحمر وقرمزى وأبيض".

"هذا ما سوف يحدث، لكن أين ابننا الأصغر "ينمو"؟

سألت ذلك لأن ابنها الأصغر دائمًا ما يكون متواجداً بجوار والده.

"لقد أرسلته بالأمس إلى الريف، إنه أصغر من أن يشاهد المسألة الغريبة التى تجرى فى منزلنا".

"هذا عين العقل. أنت بالفعل إنسان حكيم". نظرت نحـوه بكل الود، فـهو رجل طويل القامة، سمين نوعًا لأنه مغرم بالطعام. سألته، "كيف هو حالك اليوم؟ أنت تشبه أميراً من الأمراء".

"طبعـًا أنا فى أفضل حـال". لكن هـى لاحظت تواجـد نوع من نفـاد الصـبـر فى لهجته، فابتسمت.

"إننى لم أنسك أبداً". كان صوتها مفعمًا بالحنية والرقة.

زمجر، "أشعر أنك بالفعل قد أهملتينى". فتح الجاكت حتى آخره وأخذ يهوى بقوة لفترة، "كنت أشعر بوحدة قاتلة، منتظراً كل الوقت أن تقررى لنفسك. أننى زوج صالح، ورجل آخر ربما ما له أن يصبر بسبب هذا البعد والانفصال طوال هذه الأيام الماضية! يكفى هذا، ذلك ما أقوله".

"إننى لم أنسك ولو لحظة واحدة، لقد قضيت وقتاً طويلا أبحث فيما يسرك ويبهجك، وأخيراً هوذا الفتاة هنا فى انتظارك".

انتشر اللون الأحمر على وجه السيد وو، "أرجوك، لا تتحدثى عن هذا الموضوع معى مرة أخرى".

"بالتأكيد أنت علمت أن الفتاة موجودة هنا بالفعل"، قالت ذلك بصوتها الواضح الرقيق.

"أنا لا أهتم إطلاقًا بتخرصات الخدم". قال هذا بأسلوبه السيادى، لكن هى تفهمه جيداً وتعلم أنه يرسم لنفسه صورة مزيفة. إنه دائمًا ما يستمع لأقاويل خادمه ويضحك لنكاته، فخادمه هذا هو عبارة عن مهرج ويعلم أن سيده مغرم بالضحك.

تحركت المدام بخفة ولطف وجلست على مقعَد فى الحديقة، "في الحقيقة، هذه الفتاة مناسبة تماماً. هى بصحة جيدة، صغيرة، جميلة، وبريئة...".

قاطعها معنفًا، "ألا تشعرين أبداً بالغيرة؟". بينما هو واقف هكذا، سطعت عليه الشمس بوضوح، وابتهجت من الصورة التى رسمتها له - شعر أسود لامع، بشرة ناعمة ذهبية اللون، شفاه رائعة التكوين وعين واسعة جريئة.

قالت مبتسمة، "إنك فى قمة الوسامة ويمكن بالفعل أن أشعر بالغيرة لو لم تكن هذه الفتاة مجرد طفلة غريرة، وتعتبر فى الواقع أقل من لا شىء يفصل بينى وبينك".

"لا أفهم أبداً كيف أنه بين ليلة وضحاها أصبحت بهذا القدر من البرود تجاهى. الأسبوع الماضى كنت....كما كنت دائماً، لكن هذا الأسبوع....".

"الأسبوع الماضى عبرت أنا حاجز سن الأربعين"، قالت ذلك وهى تبتسم، ثم انتقلت إلى المقعد المجاور له، "تعال اجلس بجوارى".

ما كاد أن يحتل مقعده حتى شاهدت فنجمو يعبر الباب. نظر، ولاحظ أن والديه يجلسان سوياً، لذا انسحب سريعاً.

نادت عليه، "فنجمو"، لكن الولد لم يسمعها ولم يعد.

قالت لزوجها، "يجب أن نعمل على تزويج ابننا الثالث هذا، ما رأيك لو أننى قمت بمخاطبة مدام كانج - ربما فى الغد - لكى نطلب يد ابنتها "لين يى".

"أنت دائمًا التى تختارين زوجات أبنائك"

ذكرته، "لكن تسيمو هو الذى اختار زوجته بنفسه، أود أن أتجنب حدوث هذا الخطأ مع فنجمو".

"هذا أفضل بالطبع". شعرت بمزيد من الراحة وهى تلاحظ أنه ليس مهتمًا بالآنسة لين يى. لقد نسيها. إنه لا يفكر فى أحد سوى نفسه. قررت أن تتحدث معه بشكل مباشر، كما لو أنها قد أمرت بتجهيز سترة جديدة له أو زوج من الأحذية، "لكن فى حالة عدم ممانعتك، سوف أرسل لك الفتاة غدًا".

عاد اللون الأحمر يصبغ خديه، ثم وضع إبهامه وإصبعه داخل جيب الجاكت الصغير وأخرج علبة سجائر أجنبية، وسحب من العلبة سيجارة وأشعلها، "أعلم تمامًا أنك إنسانة عنيدة للغاية، لدرجة أنه يمكن أن أقتل نفسى وأنا أناضل ضد رغباتك"، ثم غمغم وسط سحب الدخان، "لكن لماذا أقتل نفسى؟"

"هل حدث مرة أن قللت من درجة سعادتك بعنادى هذا؟"، صوتها كان ضاحكًا، "ألم أكن دائمًا عنيدة من أجل تحقيق مصلحتك؟"

"لا تتحدثى معى فى هذا الموضوع"، نفث دفعة كثيفة من الدخان، "أبدًا لا تذكرى هذه الفتاة أمامى مرة أخرى".

"ليس هناك مبرر من أتحدث بشأنها، سوف أرسلها لك ليلة الغد".

شاهدت شكلا آخر يتحرك عند بوابة الجناح. تعرفت عليه، إنه ابنها الأكبر ليانجمو، هو أيضًا كان مارًا، أو هكذا بدا الأمر.

نادت عليه، "ليانجمو"، لكن هو أيضًا اختفى ولم يعد.

قام السيد وو سريعًا، "لقد تذكرت أننى وعدت أن أقابل رجلا فى بيت الشاى - المشرف على أراضينا الزراعية يعتقد أنه يتوجب علينا أن نشترى قطعة الأرض التى قام جدى منذ ثلاثة أجيال ماضية بمنحها إلى أحد خدامه لأنه أنقذ حياته. أحفاد هذا الرجل مستعدون الآن لبيعها، بذلك تستعيد كل الأرض الزراعية القديمة المملوكة لنا شكلها الأصلى".

"شىء حكيم أن تفعل ذلك، لكن لا يجب أن تكلفنا أكثر من خمسة وسبعين دولارًا لكل فدان".

"ربما نعطيه ثمانين".

"سوف أكون سعيدة لو لم يكن السعر أكثر من ثمانين".

"نعم، لا أكثر من ثمانين". استدار بعد ذلك ليخرج. هى أيضًا استعدت للخروج. عند الباب توقف السيد وو والتفت ناظرًا نحوها صائحًا، "أنا لا أتحمل إطلاقًا أن يلومنى أحد".

"ومن سوف يلومك؟ بهذه المناسبة أنا لم أذكر لك اسمها، إنه شيومنج، فهى سوف تكون البهجة فى خريف عمرك".

سمع السيد وو ذلك. فتح فمه، ثم أغلقه وذهب فى طريقه.

أخذت مدام وو تشمل بناظريها نباتات الأوركيديا الذابلة متفكرة، "لقد أراد أن يلعننى، لكنه لم يعرف كيف ينطقها".

شعرت فجأة أنها محرجة. رغبت بقوة أن تعود إلى جناحها، لكنها أدركت أنه من الواجب أن تزور أجنحة أبنائها الذين يتوقعون ذلك. عليها أن تزورهم جميعًا.

عثرت على ليانجمو فى الجناح التالى الذى يحوى داخله عائلته وبيته. إنه بيت يطفر بالسعادة والهناء. كان ابن ليانجمو الصغير يلهو مع مربيته فى الساحة. أتى مسرعًا عندما شاهد مدام وو قادمة. أخذت تداعب خديه ثم انحنت تشم بشرته الحلوة.

سمع ليانجمو صوتها فخرج من داره، كان مرتدياً ملابس الخروج، "هاأنذا يا والدتى، كنت مستعداً أن أخرج لأرى أحوال زراعة الأرز، حان الوقت لأن نقدر حجم المحصول".

"أجل ذهابك قليلا يا ابنى". مد يده فأمسك بها وقادها هكذا إلى مقعد فى الحديقة تحت تعريشة شجرة من البلوط.

"لقد أتيت لأطلب منك أن تذهب لأبيك فى بيت الشاى. إنه يفكر أن يسترد بالشراء قطعة الأرض التى فى حوزة عائلة "يانج" منذ ثلاثة أجيال سابقة. كما تعلم، الابن الأخير مدمن على تعاطى الأفيون، وتلك فرصة سانحة أن تعود إلينا هذه الأرض وتصبح ملكًا لنا. يجب أن تذهب لتتأكد أنه لم يعرض ثمنًا لها أكثر من سبعين دولار. والدك حدد السعر بكونه ثمانين، لكنى أعتقد أنه من الممكن أن نحصل عليها بسبعين. يحاول الناس أن يسرقونا بحجة أننا من الأغنياء، لكن نحن لسنا بهذا القدر من الغنى بحيث نتعرض للسرقة".

"بالطبع سوف أذهب يا والدتى". لاحظت تردده، أدركت على الفور أنه يود أن يتساءل عن موضوع شيومنج، لكن هى كانت قد قررت أن لا تتحدث عن الفتاة لأى واحد من أبنائها. ليس من اللائق أن يسمح لجيل أصغر أن يناقش الجيل الأكبر.

سألت، "أين زوجتك منج، إننى لم أشاهدها منذ الاحتفال بعيد ميلادى. أريد أن أسألها – كذلك أنت يا ابنى – ماذا تظن فى مسألة أن نطلب يد لين يى لتصبح زوجة لأخيك فنجمو؟"

"لين يى؟". لم يفكر ليانجمو فى هذا الأمر من قبل، "لكن هل سوف يسمح لك فنجمو أن تقررى له؟"

"إذا لم يحدث، إذن سوف أتركه ليقرر بنفسه أن يتزوج لين يى". قالت ذلك بصوتها الساحر ضاحكة، "أنا لا أرغم أحداً أن يفعل ما لا يرضيه".

فى تلك اللحظة خرجت منج. العيب الوحيد فيها هو أنها تبدو ناعسة فى الصباح وغير متوازنة لفترة تمتد إلى مدة ساعة أو أكثر بعد قيامها من النوم. فى هذا الصباح، عندما سمعت صوت مدام وو، كانت جالسة بملابسها الليلية تمشط شعرها، لذا أسرعت إلى الغرفة الداخلية ووضبت نفسها. الآن قد ظهرت وهى تبدو كأنما هى زهرة، لكن ليست على هيئة برعم أو متفتحة بالكامل، فقد جعلها الحمل الجديد رقيقة وسريعة الإعياء. عيناها الواسعتان تبرقان، شفتاها منفرجتان، فى أذنيها شبكت الحلق الذى وهبته إياه مدام وو.

قالت وهى تحيى حماتها، "أمى، مرحبًا بك"

"هذه اللآلئ تناسبك تمامًا"، ثم التفتت الأم إلى ابنها، "اذهب يا ابنى"، قالت له ذلك بسلطان لطيف، "أنا ومنج سوف نتحدث سويًا قليلا".

ما إن خرج حتى أخذت تستعرض منج من الرأس إلى القدم، " هل تعرضت لقىء الصباح بعد؟"

"لقد بدأت حالا فى هذا الدور، يحدث أن أشعر بالميل إلى القىء، لكنه لا يكتمل"

"بعد مرور عشرة أيام سوف يحدث هذا، فالطفل الصحيح، إذا كان ولداً، يجعل الأم تقىء لمدة ثلاثة شهور".

"هذا الشقى الصغير فعلها معى من قبل". قالت ذلك وهى تضغط على شفتها السفلى وتشير ناحية ابنها الصغير الذى امتطى ظهر مربيته كأنما هى حصان.

دائما ما كانت مدام وو تستغرق وقتًا حتى تفتح حواراً مع منج. ولا واحد من أبناء مدام كانج لديه سعة الأفق والبدن التى تتحلى بها أمهم. فكرت هى فى ذلك عندما كانت تستعرض الوجه واليدين الصغيرتين لزوجة ابنها. يبدو أن صديقتها قد قسمت نفسها إلى تسعة أجزاء وأعطت كل ابن جزءاً منها. لكن هى لم تشعر فى ولاداتها أنها جزأت نفسها، لقد شاركت فى خلقتهم جميعًا ثم ينفصلون عنها بمجرد ولادتهم، لكن صديقتها ميتشن لم تكن منفصلة أبدًا عن أبنائها، كانت مرتبطة وملتحمة بكل واحد منهم كأنما هو جزء منها.

"منج يا ابنتى، لقد حضرت إليك باحثة عن طلب النصح منك. ما رأيك أن نسأل والدتك لكى نخطب لين يى إلى فنجمو؟ إنهما تقريبًا فى العمر نفسه، وأختك، كما أعرف، هى أقل فى العمر من فنجمو بأربعة شهور. إنها فتاة جميلة وكذلك فنجمو وكلاهما يتمتع بصحة جيدة. إننى لم ألجأ بعد لاستشارة النجوم، لكنى أعلم أن شهور ولادتهم مناسبة، فهو ماء وهى حجر".

صاحت منج، "سوف أكون سعيدة بالطبع إذا حضرت أختى إلى هنا". أخذت تصفق بيديها وقرطها يتراقص فى أذنيها، ثم سقطت يداها فجأة، "لكن يا أمى، يجب أن أخبرك بشىء. لين يى تعتقد أن فنجمو موضة قديمة".

ردت مدام وو باندهاش، "لكن لماذا؟"

"إنه لم يذهب لمدرسة، لقد كبر هنا داخل المنزل"

"كان واجبًا على أمك أن لا تسمح لابنتها أن تلتحق بتلك المدرسة فى شانغهاى فى تلك السنة التى قضتها هناك". قالت ذلك وقد انقبضت الخطوط الجميلة التى حول فمها.

"بالطبع يمكن لفنجمو أن يذهب إلى المدرسة"، ثم أخفت ميلا للتثاؤب خلف يدها.

"أنا لن أرسل فنجمو بعيداً فى وقت لم يكتمل فيه تكوينه. أرغب دائمًا أن يقوم منزلنا بتشكيل أبنائى، وليست المدرسة الأجنبية".

منج من النادر أن تعارض، "هل أسأل لين يى؟"

"لا"، قالت ذلك وملامح الجد على وجهها، "سوف أخاطب أمك بنفسى".

للحظات، شعرت مدام وو أنها غير مرتاحة مع منج، لكن قبل أن تتمعن فى هذا الشعور، عبرت نظرة اندهاش فوق وجه منج الطفولى، قالت، "يا للسماء!"، ثم وضعت يدها فوق بطنها.

"ماذا حدث؟"

"هل يمكن أن تكون تلك حركة الطفل التى أشعر بها - بهذه السرعة؟"

"إنه ولد ذكر آخر، دائمًا الولد هو الذى يبكر فى الرفس"

ليس من المناسب أن تسمح لنفسها أن تضيق بمنج فى هذه المرحلة بالذات، لذا حاولت أن تسيطر على نفسها، ففى النساء الصغيرات لا يطلب الإنسان منهن سوى أن يوفوا بما حبتهن به الطبيعة، وهذا ما تفعله منج، "يجب أن تشربى شوربة دافئة يا ابنتى، وشوربة الأرز هى الأفضل، فعندما يتحرك الطفل، فهذا يعنى أنه جائع".

"سوف أفعل ذلك على الرغم من أننى فى التو أنهيت إفطارى، لكنى أشعر بالجوع ليلا ونهارًا يا أمى".

"إذن كلى وكلى حتى تشعرى بالامتلاء أنت وطفلك".

غادرتها، وأثناء مرورها عبر الأجنحة المختلفة الجميلة، شعرت كأنما هى قد غادرت جسدها وأنها محمولة داخل تيار عات من عائلة وو التى انضمت إليها منذ سنوات طوال، زواج، ولادة، ثم ولادة جديدة، والتيار يستمر فى جريانه. لما تشعر أحيانًا بالسأم من منج، بينما هذه الأخيرة لا تفكر فى شىء سوى أن تحبل وتلد؟

أخبرت نفسها، "أنا أيضًا يا أبنائى قد حققت نصيبى فى نهر الحياة. مهمتى الرئيسية الآن هى أن أحتفظ بالتدفق نقيًا وغير ملوث". رفعت رأسها وأخذت تستنشق هواء الصباح، فبخلاف هذا الواجب، هى تشعر بحرية مطلقة.

لكن الآن، هناك تسيمو، هى لن ترى فنجمو إلا بعد أن تعرف رأى لين يى، أما الابن الأصغر "ينمو" فهو غير موجود حاليًا داخل المنزل. وما إن تحيى كلاً من تسيمو ورولان، فإنها سوف تستأنف باقى أعمالها اليومية.

جناح تسيمو هو الأقل إمتاعًا. عندما توقفت فى تلك الساحة المشوشة، ندمت لأنها انتقمت منه يومًا بسبب زواجه. يتكون جناحه من غرفتين فقط يواجهان الشمال، لذا لم تكن الشمس قادرة أن تبث فى أجسادهما الدفء فى الشتاء، وفى الصيف كانا يغرقان فى عرقهما.

وجدت تسيمو فى غرفته الرئيسية. كان يمسح بعض الحبر الذى سُكب من زجاجة من الحبر الأجنبى. لاحظت على الفور أنه فى غاية الاستياء، وهذا الابن دائماً ما ينخرط فى هذه الحالة. فمه الرائع ملتو، عيناه تطق الشرار، وهذه هى حالته اليوم.

توقفت مدام وو عند الباب، "حسنًا يا ابنى، هل أنت بمفردك؟"

"رولان مريضة"، قال ذلك وهى يلقى بالممسحة على الأرض.

"مريضة؟ لم يخبرنى أحد بذلك"

"لا يبدو عليها أنها بصحة جيدة، لذا طلبت منها أن تظل فى سريرها"

"سوف أدخل إليها لأطمئن"

جذبت الستارة الحريرية الحمراء التى تفصل ما بين الغرفتين ودخلت. كانت تلك هى المرة الأولى التى فيها تدخل تلك الغرفة منذ أن حضرت رولان. لاحظت أن الغرفة قد تغير شكلها. لم تكن هناك ستائر حول السرير، بدلا من ذلك كانت هناك ستائر فوق النافذة، مع بعض الصور الأجنبية المعلقة فوق الجدران، وضمن الكتب الموضوعة على الرف، كان هناك بعض من الكتب الأجنبية.

على السرير العارى رقدت رولان ورأسها فوق مخدة عالية. شعرها القصير كان بعيداً عن وجهها، بذلك ظهرت أذناها الصغيرتان الجميلتان كأنهما لؤلؤتان صغيرتان ولاحظتهما مدام وو على الفور.

قالت بحنان، "إننى لم أشاهد أذنيك من قبل، إنهما جميلتان ويجب أن يزينا بالأقراط، سوف أرسل لك زوجًا ذهبيًا منهما".

أدارت رولان عينيها اللامعتين ناحية مدام وو، "أشكرك يا أمى"، قالت ذلك بوداعة غريبة. شعرت مدام وو بالانزعاج بسبب هذه الوداعة، صاحت، "أخشى أنك مريضة للغاية".

"أشعر بتعب وإرهاق"

"ربما يحتوى داخلك على ما يسعدنا"

هزت رولان رأسها، "أنا فقط أشعر بالتعب"، ثم أخذت تطوى الغطاء الحريرى بأصابعها البنية.

"إذن استريحى يا ابنتى، ليس هناك فى هذا المنزل ما لا يمكن أن ينجزه الآخرون".

هزت المدام رأسها مبتسمة ثم رجعت مرة أخرى إلى تسيمو. كان يكتب حروفًا أجنبية، واحداً بعد الآخر، بينما هناك قلم أجنبى فى يده. قام عندما أتت والقلم ما زال فى يده.

"ما الذى تكتبه؟"

"إننى أتمرن على كتابة اللغة الإنجليزية"

"من علمك إياها؟"

تلون قليلا، "إنها رولان". أدركت على الفور أنه يشعر بالخجل، لذا غيرت الموضوع على الفور، "رولان تشعر بالتعب. يجب أن تستريح".

"سوف أرغمها على ذلك. هى نشيطة الحركة. بالأمس حضرت اجتماع جمعية إعادة بناء الوطن القومية فى مبنى الاستشارية الرئيسى لبلدتنا، وتم اختيارها رئيساً، وعندما عادت للمنزل، شعرت بهذا التعب".

"مرة أخرى جمعية إعادة بناء الوطن؟ آه، بالطبع هذا متعب جداً"

"وهذا ما أخبرتها به"

هزت رأسها وغادرت بسرعة متجهة ناحية جناحها. هناك وجدت شيومنج جالسة فوق المقعد تحيك فستاناً آخر. توقفت مدام وو بجوارها. حاولت الفتاة أن تقف، لكن المدام دفعتها برفق فوق كتفها لتجلس، "أكملى الخياطة، غداً هو اليوم الموعود. يجب أن تستعدى لذلك".

جلست الفتاة وأمسكت بالإبرة التى كانت قد سقطت منها والفتلة معلقة فيها. لم تنطق بحرف وهى منحنية هكذا. استمرت فى غرز إبرتها بسرعة غير عادية، وبينما تلاحظ المدام هذا الوجه المنحنى الشاب، لاحظت تدفق اللون الأحمر كأنما هو لون زهور الخوخ ينتشر ما بين أكتافها ثم واصل ارتفاعه حول رقبتها المستديرة حتى وصل إلى أطراف شعرها الأسود الناعم.

* * *

مع نهاية اليوم التالى، قررت مدام وو الطريقة التى سوف تدخل بها شيومنج جناح السيد وو. سوف يحدث أقل قدر من الضجيج إذا حدث هذا ليلا وبهدوء، وليس هناك مبرر للاحتفال بذلك، فهذا شأن يختص بجيلها وجيل السيد وو، ولن يسمح لجيل أبنائها بالتدخل، فهذا سوف يدعو إلى مزيد من الإحراج لهم.

لذا فى اليوم التالى، نبهت على ينج أن تساعد الفتاة على معرفة بعض تفصيلات زينتها المطلوبة، وهذه بالطبع أمور تجهلها شيومنج. أما هى، فقد قضت يومها داخل المكتبة. لم يكن لديها رغبة فى أن تتصفح الكتب المنوعة. الآن، وفى الحقيقة، شعرت أنها غير ملزمة أن تتصفح هذه النوعية من الكتب، فما الذى يمكن أن تفعله مع جنس الرجال؟ بدلا من ذلك، اختارت كتاباً يتحدث عن التاريخ يشرح بداية الأزمان عندما كانت الأرض والسماء غير منفصلتين، لكنهما مختلطان بشكل عفوى.

مر النهار كما لو أنها قد غادرت جسدها وسافرت فى الفضاء. لم يقترب نحوها أحد - كانت تعلم أن الجميع ينتظرون كيف سوف يكون تصرفها، لذا إلى أن تستقر شيومنج فى مكانها الطبيعى. لا أحد يفكر فى زيارتها هنا. لم يعرف أحد كيف يتحدث مادام أن الأمور لم تستقر بعد. كان زائرها الوحيد هو المشرف على الأراضى الزراعية، الذى أرسل ظهراً أنه يود أن يخبرها عما حدث فى موضوع شراء الأرض ، لذا أعطت الأوامر بأن يأتى إليها. عندما ظهر عند مدخل الجناح، نظرت نحوه وهى ما زالت ممسكة بالكتاب المفتوح وطلبت منه الدخول. دخل ووقف أمامها ثم سحب ورقة من صدره.

"يا سيدتى، لقد أحضرت حجة بيع الأرض المشتراة من عائلة يانج، لقد دفعنا ثمانين دولاراً لها، ولو لم يتدخل سيدى، فربما استطعنا أن نشتريها بسبعين، لكن هو تذكر أن تلك الأرض كانت هدية ولم يشأ أن يكون قاسياً معهم".

"سوف أتسلم حجة الأرض"، قالت ذلك دون أن تعلق على احتجاجه على تصرفات السيد وو، لذا قام بتسليم الورقة.

تساءلت، "هل هذا كل شيء" - بلا شك، هذا الرجل يعلم بما يحدث داخل المنزل، لاحظت أنه يحرك عينيه فى كل الاتجاهات كأنما هو سوف يصادف رؤية وجه جديد.

رددت، "هل هذا كل شىء؟"

استرجع عينيه، لكن لأنه فلاح خشن، لم يكن يسيراً عليه أن يخبئ أفكاره. لاحظت هى ارتخاء أركان شفتيه الغليظتين وحركة عينيه الدائبة وقرأت أفكاره بكل وضوح كما لو أنها تقرأ كتاباً ممنوعاً.

تساءلت بحدة، "حسنًا؟"

مع تلك الحدة، سقطت عيناه، "لا شىء أكثر من ذلك يا سيدتى، فقط لو سمحت، سوف أزرع الأرض الجديدة بالفول، فالوقت متأخر عن زراعة أى شىء آخر".

"نعم، الفول أولا ثم القمح بعد ذلك"

"هذا ما فكرت فيه"

هزت رأسها ثم أدركت أنه يتوقع الحصول على هدية صغيرة بسبب شراء الأرض. وقفت وأخرجت مفتاحًا من جيبها الداخلى ودفعت به فى صندوق خشبى موضوع بجوار الحائط، عندما فتحته أخرجت صندوقًا خشبيًا صغيراً فتحته وأخرجت منه بعض الدولارات الفضية، عدت عشرة منها وقدمتها له.

قالت له بكل أدب، "بهذا أنا أعبر عن شكرى لمجهوداتك".

رفع يده احتجاجًا، وتراجع قليلا وهز رأسه رافضًا. ثم أخيرًا أخـذها، "أشكرك يا سيدتى"، كرر ذلك عدة مرات ثم تراجع وخـرج. وهو يسير فى الساحة، شاهدته وقد انتصبت قامته وهو ينظر يمينًا ويسًارا أثناء مروره حتى البوابة.

شعرت هى بالسرور لأن شيومنج لم تشاهده. لقد فضلت الفتاة أن تختفى عن الأنظار، وهذا فضل منها. قفلت المدام صفحات الكتاب الذى كانت قد تركته مفتوحًا على المائدة ثم وضعته على الرف وذهبت إلى غرفة الاستقبال. كانت ينج قد أحضرت عشاء سيدتها كذلك عشاء شيومنج. فحصت المدام ذلك الطعام الذى سوف تتناوله الفتاة، ثم انحنت وأخذت تتشمم.

سألت ينج، "أنت بالطبع لم تضيفى ثومًا أو بصلاً أو أى شىء له رائحة قوية فى هذا الطعام".

قالت الوصيفة باختصار، "إننى أعلم تمامًا ما الذى يجب عمله"

أصرت المدام، "لم تضيفى الفلفل الأسود بالطبع، فهو يحدث حرقة القلب"

"لم أضف أى شىء يمنع طفلا من تناول هذا الطعام". جعلت ينج من وجهها الصبوح مكفهرًا وغير مهتم لكى تبين لسيدتها أنها لن تنثنى عن رأيها فى هذا الموضوع. ابتسمت مدام وو وهى تحدق فى تلك العيون الغاضبة والفم المطبق لوصيفتها.

"ينج، أنت بالطبع مخلصة، لكن إذا كنت راغبة فعلا أن تخدمينى، إذن اعلمى أننى دائمًا أفعل ما أرغب فيه".

لكن ينج لم تتجاوب مع هذا الحديث، قالت باختصـار، "سيدتى، طعام عشائك فى غرفتك.

ذهبت المدام إلى غرفتها وتناولت طعامها بمفردها بطريقتها البطيئة الدقيقة وتمهلت فيه ثم أشعلت غليونها الصغير. بعد ذلك، خرجت إلى الساحة حيث كان الجناينى طوال اليوم منهمكًا فى زرع الأوركيديا ونباتات الريح، وكانت هى قد حددت له الأماكن التى ترغب أن تكون هذه مزروعة فيها. الآن فقط انتهى العمل، كان هو قد شذب الأشجار وقطع الأوراق الخارجية.

عندما حل الظلام، انتظرت لمدة ساعة. بعد ذلك، عادت إلى المنزل مرة أخرى، كانت شيومنج قد أخذت حمامها ومشطت شعرها وارتدت الملابس الجديدة. الآن هى جالسة بانتصاب على السرير الضيق ويداها مشبوكتان فوق حجرها. كان وجهها الفتى ثابتًا، لا ينبئ عن أى شىء، لكن تحت شعرها الناعم فوق أذنيها، استطاعت المدام أن تلاحظ انسياب بعض من قطرات العرق، لذا جلست بجوار الفتاة.

"لا يجب أبدًا أن تشعرى بالخوف، إنه إنسان عطوف"، ألقت عليها الفتاة نظرة سريعة من تحت جفنيها المنسدلين، ثم خفضت من أنظارها مرة أخرى.

"يجب أن تطيعيه فى كل شىء". لكن المدام شعرت أنها قاسية حتى وهى تنطق بهذه الكلمات، لكن لماذا تشعر بأنها قاسية؟ فالبنت لم تعد طفلة، فذلك الفتى الذى كاد أن يتزوجها توفى مبكرًا، ما الذى يمكن أن تأمله فى معيشتها الريفية سوى أن تتزوج، كما تفعل كل الأرامل، إلى فلاح آخر تكون زوجته قد ماتت وتركت له العديد من الأبناء؟ بالتأكيد مصيرها الحالى هو أفضل كثيرًا من ذلك! بكل هـذه الأفكار الداخلية، كانت مدام وو تقسى نفسها، أما الفتاة فإنها رفعت يدها خلسة ومسحت العرق الذى انسال على خدها واستمرت فى صمتها.

بسرعة خاطبت المدام وصيفتها بلهجة متعجلة، "من الأفضل أن تأخذيها الآن"

تقدمت ينج إلى الأمام وأمسكت بكم الفتاة ما بين إبهامها وإصبعها، "تعالى"

نهضت شيومنج، فمها الأحمر منفرج، أخذت تنهج وتتراجع قليلا وظهرت نظرة وحشية فى عينيها السوداويين.

قالت ينج بقسوة وهى تدفعها إلى الأمام، "تعالى معى وإلا لماذا حضرت إلى هذا المنزل؟"

أخذت الفتاة تنقل أنظارها ما بين ينج والمدام، ثم عندما وجدت فى وجوههم ما لا يمكن أن يشجعها على الهرب، أحنت هامتها وتبعت ينج وخرجت متباطئة من الغرفة ثم من الساحة.

وهى بمفردها، جلست المدام فترة بلا حـراك، ولم يخطـر أى فكر على بالها. كانت تجلس فى ظل مشاعر ميتة، ودعت تلك المشاعر تسرى فى تيارها. هل هى تشعر بالألم؟ هى تعلم أنها ليست هكذا. هل هى تأسف لما فعلت؟ لا، إنها لا تعانى من ذلك قطعًا، ففى هذه المرحلة من الخـواء فإن الروح الشـامخة تكتشف أن كيانها قد فقد فى غياهب الموت.

أخيرًا رفعت رأسها، فمها كان يرتعش، أليست تلك الروح التى لم تبعث بعد ومقامها فى الرحم تشعر أيضًا بمشاعر الخواء تلك؟ لذا، هى، أيضًا، ربما تستطيع أن تولد من جديد. نهضت وخرجت إلى السـاحة. رفعت وجهها نحـو السماء السوداء، كان الليل رفيقـًا أسـود، وكان مربـع السماء فـوق الساحة مغطًى بالغيوم بحيث لا يظهر نجم واحد. سوف تمطر السماء قبـل الصباح، لكن هى دائمًا ما تنام بعمق فى الليالى الممطرة.

حضرت ينج وعبرت مكان المدام دون أن تنتبه لوجودها فى الساحة، دخلت إلى الغرفة الخالية واندهشت عندما اكتشفت خلوها. سمعتها المدام تغمغم، "أوه، أيتها السماء! أين ذهبت هى الآن؟"، ثم أخذت تصيح، "سيدتى.. سيدتى!"

"أنا هنا يا غبية، لقد خطوت إلى السـاحة لأرى ما إذا كانت سوف تمطر الليلة أم لا".

كانت ينج فى قمة رعبها وقد وضعت يدها على قلبها، "أوه، لقد ظننت...ظننت..."

ضحكت المدام وو، "إذا فقط توقفت يومًا عن التفكير، إذن لأصبحت فى أفضل حال. اتركى التفكير لى، أنت لست فى حاجة إليه".

تنهدت ينج وسقطت يداها على جانبيها، "هل تودين الذهاب الآن إلى سريرك كالمعتاد يا سيدتى؟"

"لم لا؟"، تساءلت المـدام بصوتها المرح نفسه، "لقد بدأ سقوط المطـر، أستطيع سماع سقوطه فوق السطح".

بعد ساعة من الزمان، صعدت فوق سريرها العالى الضخم وقد أخذت حمامًا وارتدت قميص نومها الأبيض واستلقت على السرير.

أخذت ينج تنهج فجأة، "من هى العروس التى يمكن أن تكون أكثر جمالا منك"

وضعت المدام رأسها فوق المخدة، ثم رفعت رأسها، "كيف تسمحين لنفسك أن تبكى وتنهنهى بينما أنا لا أفعل ذلك؟"

بينما كانت ينج تبتلع تنهداتها، أرخت ستائر السرير، بينما شبكت المدام يديها فوق صدرها وأغلقت عينيها. فوق السطح المبلط سمعت الصوت المنتظم لسقوط الأمطار.

* * *

خطت شيومنج فى الظلام نحو اتجاه هو غريب عليها، فهى لم تترك المدام وو لحظة واحدة منذ أن وفدت إلى هذا المنزل. الآن هم أرسلوها بعيداً. شعرت بأنها حقًا شريدة ويتيمة مثلما وضعتها أمها تحت أسوار المدينة وتركتها هكذا فى الطل والبرد. فى ذلك الحين، هى لم تدرك مصيبتها، أما الآن فهى تدرك. لكن هذا كان مسار حياتها دومًا، لذا تعلمت أن تلتزم الصمت باستمرار، لأن لا صوت سوف يغيثها إذا طلبت النجدة. كانت ينج ما زالت تقودها وقد أمسكت بطرف كمها بإبهامها وإصبعها، شعرت أن هذه الدفعة البسيطة هى التى تقود خطواتها، لكن هى لم تتبادل ولا كلمة مع ينج، وتبعتها وهى تدلف بها من جناح إلى آخر. جناح السيدة العجوز كان ساكنًا، فهذه العجوز تلجأ إلى سريرها ما إن تغرب الشمس. من مكان جهة الغرب، صدر صوت بكاء طفل، إنه حتمًا ابن ليانجمو. من جهة الشمال، خيل إلى ينج أنها تستمع لصوت امرأة تنتحب، لذا توقفت لتستمع، قالت فى نفسها، "يا ترى، من تلك التى تبكى فى جنح الظلام؟" ثم تركت شيومنج قائلة، "لكن لعله هو هديل بعض الحمام".

استمر سيرهم مرة أخرى، بدأ قلب شيومنج يدق بعنف، وكل إحساس فيها زاد من نبضه. شعرت أن الهواء أصبح رطبًا على بشرتها. نعم، إنها سمعت بالفعل صوت نحيب امرأة، لكن من تلك التى تبكى فى هذا المنزل الواسع. هى لم تسأل، فما الذى يمكن أن تفعله إذا عرفت؟عجزها انتصب أمامها وجعلها ترتعد خوفًا، لذا شعرت أنها هى أيضًا ترغب أن تنتحب. يجب أن تعثر على من يستمع لها، يجب أن تتواصل مع روح حية، حتى ولو كان هو صوت هذه الخادمة.

قالت وهى تلهث، "شىء غريب أن يطلب واحدة مثلى، كنت أظن أنه يطلب فتاة تعمل فى بيت من بيوت الزهور، واحدة كما تعلمين تعرف كيف... إننى لم أعش سوى فى الريف..."

قالت ينج فى برود، "سيدتى تمنع دخول هذه النوعية إلى منزلنا هذا"

قبل أن ترد شيومنج، كانا قد وصلا. كانت الساحة مليئة بأشجار الريح وهناك مصباح يشع فوقها، لذا برقت هذه الشجيرات فى الظلال.

أعلنت ينج، "لا أحد هنا". ثم قادت الطريق وتبعتها شيومنج. شاهدت الأخيرة غرفة واسعة. هى أوسع غرفة شهدتها من قبل. كل الأثاث فاخر وقاتم اللون وهناك صور معلقة على الجدران. على الباب، كانت الرياح تحرك الستائر أمامًا وخلفًا، لون الستائر قرمزى على جدران بيضاء. خطت شيومنج بخجل. هنا سوف تعيش - إذا استطاعت أن تبعث السرور إلى قلبه. لكن أين هو؟

هى لم تسأل، أيضًا ينج لم تتحدث. بأسلوبها البارد نفسه أخذت تعدها للنوم. فقط ما إن جلست الفتاة على السرير، حتى شعرت ينج ببعض التعاطف.

قالت بصوت عال، "يجب أن تتذكرى أن هذا بيت محترم. إذا صنعت ما أنت مكلفة به فليس هناك ما تخشينه. إنه إنسان طيب، وهى إنسانة حكيمة وطيبة أيضًا. أنت بالفعل محظوظة، لذلك لم أنت خائفة هكذا؟ فهل لديك بيت آخر يؤويك أو أم تحتضنك مرة أخرى؟"

هزت شيومنج رأسها، وانتشر اللون الأحمر على خديها. استلقت على السرير وأغمضت عينيها. ثم أسدلت ينج الستائر وخرجت.

رقدت شيومنج على السرير وحيدة مرعوبة، فخلال ساعة أو اثنتين، ما الذى سوف يحل بها وهى محبوسة فى هذا المنزل الكبير. من مكان بعيد داخل المنزل، سمعت صوت إلقاء زهرى اللعب، ربما كان الخدم يقامرون، أو لعلهم الأبناء؟ أو لعله هو يلعب مع أصدقائه؟ هل حدث مرة وحضرت محظية إلى هذا المنزل ولم تره؟ يبدو الأمر كأنما هى زوجة وليست محظية، لكن الأخت الكبرى هى الزوجة وليست هى، وكيف يمكن أن تضارع هذه السيدة فى الرقة والجمال، كيف يمكن أن تبعث فى قلبه بالسرور بعد هذه الزوجة التى ينبعث من كل لمحة من لمحاتها جمال فائق؟

فكرت، "إننى كلى خشونة، حتى يدى". رفعت يديها فى الظلام ثم دعتهما يسقطان مرة أخرى. كانتا فى منتهى الخشونة لدرجة أنهما اشتبكا فى الأغطية الحريرية.

تذكرت نحيب هذه المرأة. من هم الآخرون فى ذلك المنزل؟ بالطبع هم الأبناء وزوجات الأبناء. يجب أن تسالمهم جميعًا وإلا كرهوها. ثم هناك المئات من الخدم، هل سوف يكونون رحماء بها مماثلين فى ذلك الوصيفة ينج؟ ما يمكن أن يدعو الإنسان هؤلاء الخدم؟ وهى التى ليس معها أى نقود لكى تمنحها لهم مقابل أى خدمة، وهل يسمح لها أن تخدم نفسها؟

أخذت تئن، "كنت أتمنى لو كنت الآن راقدة على فرشتى فى قريتنا". لقد نامت طوال حياتها فى ركن صغير بجوار غرفة والدتها بالتبنى. سريرها كان عبارة عن عارضة خشبية ، فى الليل، كان باستطاعتها أن تستمع لخوار الثور ورفرفة أجنحة عدد قليل من الدواجن. فوق العارضة كان هناك غطاء ممزق تلتف به وتستخدمه أيضًا مرتبة. أحيانًا كان تصحو من نومها فجأة بسبب مخلفات الطيور التى تقع على وجهها من العصافير التى كانت تعشش بين عروق السقف.

فكرت بعد ذلك فى ذلك الفتى الذى نما معها، وهو ابن المرأة التى تبنتها، لكنه لم يكن أبدًا أخاها. منذ بداية معرفتها بأمور الحياة، فهمت أن هذا الولد سوف يكون

يومًا زوجًا لها. لم تكن تحبه لأنها عرفته كاملا. إنه ولد فلاح مماثل للآخرين فى القرية. هى ترى الآن خدوده المنتفخة عندما كانت تفكر فيه، كما كان هذا هو حاله وهو صغير فى السن، ثم نما ليصبح طويلا ونحيلا، لكن ما بدأت فى الشعور بالخجل من رؤيته حتى داهمه الموت، ولم يتح لها الزمن حتى أن تفصل فستانًا واحدًا للزواج. لقد توفى وهو فى ريعان الشباب، حتى قبل أن تفكر فيه زوجًا لها. وعندما قضى، ألقت عليها أمه كل اللوم وهى تقول، "لقد حملت معك لعنة عندما حضرت إلى منزلنا. كان من المفروض أن أدعك تموتين وأنت ملقاة بجوار سور المدينة، أنت لم تكونى مقسومة لابنى".

تذكرت كيف أن هذه الكلمات كانت تنغز فى قلبها وتؤذيها، فهذه المزرعة هى بيتها الوحيد، وهذه المرأة هى أمها الوحيدة. هذه المرأة لم تكن قاسية تمامًا معها، لكنها عندما نطقت بتلك الكلمات، أدركت شيومنج أنها ليست سوى لقيطة ولا تنتمى لهذا المنزل. لذا عندما حضرت الخاطبة ليوما وتمت إجراءات هذه الصفقة، لم تنطق هى بحرف واحد.

ساءلت نفسها، "إذن ما الذى كان فى إمكانى أن أفعله سوى أن أحضر إلى هنا؟"

فى تلك اللحظة سمعت أصوات أقدام. فى الحال توقف سريان الدم فى عروقها. اختطفت اللحاف وغطت به نفسها حتى ذقنها وأخذت تحدق فى الستائر المسدلة. فتحت الستائر فرأت وجهًا وسيمًا، ثقيلا، ليس شابًا أو عجوزًا، وجهه أحمر بسبب ما شربه من خمر، وانتشرت رائحة الخمر حوله. أخذ يحدق فيها لمدة دقيقة كاملة، ثم أسدل الستائر مرة أخرى بهدوء.

لفترة طويلة لم تسمع شيئًا. هل غادر؟ لم تجرؤ أن تتحرك. رقدت فى الظلام منتظرة. إذا لم تعجبه، فسوف تطرد فى الصباح. لكن إلى أين تذهب؟ وإذا تم طردها، هل سوف يمنحونها بعض النقود؟ ما الذى يحدث للمحظيات اللاتى لا يعجبن أحدًا؟ غمرها خوف مقيم من أن تتعرض لهذا المصير. قد بدا الأمر الآن من أن حدوث أى شىء آخر هو أفضل من ذلك.

جلست بعجل وسحبت الستائر بيد ونظرت. هو جالس هناك فوق مقعد ضخم. لقد خلع معطفه الخارجى وليس عليه سوى قميصه الداخلى الحريرى. لكن كيف تحرك هكذا سريعًا ولم تسمعه؟ أخذت تنظر إليه وهو إليها، ثم أسدلت الستائر سريعًا ورقدت بينما تغطى وجهها بكلتا يديها. إنه آت! سمعت صوت قدميه فوق بلاطات الأرضية. جذب الستائر كأنما هو ينزعها انتزاعًا، ثم شعرت بيده تجذب يديها من فوق وجهها.

(٥)

استيقظت مدام وو من أعمق فترة نوم عهدتها فى حياتها. إنه الصباح الآن وهى استغرقت فى النوم ولم تستيقظ ولو مرة واحدة. هى لا تتذكر أنها فعلت ذلك من قبل. ما زالت الشمعة الجديدة التى وضعتها ينج على المائدة مساء الأمس كما هى بفتيلها الأبيض.

كانت مشاعرها الأولى هى أنها حصلت على راحة كاملة والتعب قد غادر بدنها وروحها أيضًا، لكن كان هناك شىء غير مألوف، أيضًا، فى هذا الشعور بالابتهاج، لذا قامت بالتراسل مع ذاكرتها القديمة التى ضمت داخلها كل الذكريات. هذا ما كانت تشعر به عندما حملت بكل واحد من أبنائها، ففى كل مرة، خلال العشرة شهور القمرية، كانت تشعر أن الحمل الذى يكبلها قد أصبح أكثر وطأة وأكثر هجومًا، إلى أن تتدخل قدراتها العجيبة فى التحكم بالذات، وهى التى تجعلها قادرة أن تحتفظ بتوازن معين ملائم لها. ثم تحدث ولادة الطفل. هذا الحدث، لا تنظر إليه كأنه ولادة، بل هو استخلاص واسترداد لبدنها الحقيقى، وأول فكرة تخطر على ذهنها عندما يتوقف الألم سريعًا، ثم تستمع إلى تلك الصرخة الثاقبة لذلك الطفل الذى انفصل عنها، تشعر حينئذ أنها قد استردت حريتها مرة أخرى. وعندما يتم إحضار الطفل إليها، وقد تم تنظيفه وتقميطه، تبدأ فى بذل الحب له كما هو الآن وليس لأنه كان جزءًا منها يومًا. فى الحقيقة، هى لا ترغب على الإطلاق أن تستغنى عن جزء منها أو تقبل تقسيمها إلى أجزاء، كل ما ترغب فيه هو أن تتكامل مرة أخرى.

لذلك، شعرت هذا الصباح مشاعر التكامل نفسها، لكن أكثر عمقًا وتناسقًا. كل واجباتها الآن قد تم الوفاء بها، لا يوجد أحد فى المنزل يحتاج إلى شىء منها.

...لكن فجأة، خطر على بالها خيال ابنها الثالث فنجمو. يا للأسف، فهو إلى أن يتزوج، لن تشعر أبدًا باكتمال حريتها!

نهضت عندما خطر هذا الفكر فى ذهنها ووضعت قدميها الصغيرتين فى الشبشب الساتان الأسود الذى تضعه ينج دائمًا على المنضدة الطويلة المجاورة للسرير. إن أقدام مدام وو أصغر من المعتاد. حدث هذا عندما بلغت الخامسة من العمر، حيث أصرت أمها أن تربط قدميها. فى تلك الأيام، كان والدها دائم السفر للبلاد الخارجية برفقة الأمير لى هنج شانج، وكانت هى دائمًا ما تحدق فى صور والدها وهو فى زيارة الأقطار الأجنبية، وقد أخبرتها المربية أن والدها رجل طيب وحكيم، أيضًا أمها كانت تتحدث عنه كثيرًا ، لكن تلجأ إلى ذلك لكى تصحح بعض مظاهر عنادها، كانت تقول لها، "ما الذى يمكن أن يقوله أبوك الآن؟. كانت هذه هى المقولة الخالدة للأم، لكن الفتاة لا تستطيع أن تجيب على هذا التساؤل مادام أنها لا تعرف، كانت تترك عنادها فى الحال. عندما استدعتها الأم يومًا، وشاهدت الطفلة تلك الأربطة القطنية، بدأت فى النحيب، فمنذ أن شاهدت أختها الأكبر، تلك الأخت التى كانت تطفر وتجرى هنا وهناك بكل الفرح والمرح، أما الآن فهى تجلس ساكنة فى مكانها تعمل فى تطريز الملابس، ولا ترغب إطلاقًا أن تقوم من مكانها وتحجل دائما على قدميها المتألمتين المربوطتين.

توقفت الأم من البحلقة فى وجه ابنتها الثانية، وقالت لها معنفة، "ما الذى يمكن أن يقوله أبوك عندما يعود ويجد قدميك مفلطحتين هكذا كأنهما يخصان فلاحة فى المزارع؟

تحولت نهنهة الفتاة إلى نشيج، ثم سمحت للأم أن تربط قدميها. إلى هذا اليوم، تذكر مدام وو شهر العذاب الذى فيه ربطت قدماها، ثم ورد خطاب من والدها بأنه قادم، لذا تحملت هذا العذاب لمدة نصف شهر آخر من أجل خاطر أبيها، وما إن حضر بالفعل، حتى اضطرت أن تسير متجهة نحوه باستخدام تلك الأقدام الصغيرة. ومن الأكيد أنه ليس هناك فرح يعادل ما حدث لاحقًا! فقبلما تشاهد وجهه وتدعوه بالاسم، صاح صيحة كلها غضب واستهجان وحملها بين ذراعيه، أمر زوجته:

"انزعى هذه الأربطة على الفور من قدمى الطفلة!". حدث بعد ذلك نوبات متعددة من البكاء والاحتجاجات. هى لا تتذكر كلمة واحدة من المعركة التى دارت بين الكبار، لكنها لا تنسى أبداً العاصفة التى حلت على المنزل. صرخت الأم، أما جدتها فقد بكت غاضبة، حتى جدها كان يصيح ويعترض، لكن والدها جلس واضعًا إياها فوق ركبتيه وبيديه نزع الأربطة وحرر قدميها. هى تتذكر حتى الآن الألم، ثم الفرح بقدميها المحررتين اللتين أخذهما بين يديه وأخذ يدعكهما برفق لكى تسرى الدماء فيهما مجدداً. هذا الدم السارى كان يؤلمها أولا ثم تشعر بالابتهاج والانتعاش بعد ذلك.

غمغم هو، "أبداً، لا يحدث هذا مرة أخرى"

تعلقت برقبته باكية، "ما الذى كان يحدث لى لو تأخرت فى حضورك للمنزل!"، ثم أخذت تنهنه وتتعلق فى صدره. لقد أتى فى الوقت المناسب لينقذها. تستطيع هى الآن أن تجرى مرة أخرى فى ظرف عدة شهور قليلة، لكن الوقت متأخراً بالنسبة لأختها، فقد كسرت العظام.

بعد ذلك، لم يحدث فى المنزل سوى سلسلة متوالية من الاضطرابات استمرت مدة ثلاث سنوات، فقد تعلم والدها سبلا جديدة للمعيشة بسبب تعرفه على البلدان الأجنبية، وأصر أن تتعلم ابنته هذه القراءة، لكن عندما توفى فجأة بسبب وباء الكوليرا فى فصل حار بعد ثلاث سنوات، كان الوقت متأخراً لأن يربطوا قدميها مرة أخرى، أيضاً فات الوقت لأن تعود مرة أخرى وتصبح جاهلة، فقد تعلمت بالفعل القراءة والكتابة، بل وسمح لها أن تواصل قراءاتها لأنها كانت قد خطبت حينذاك، والسيد العجوز كان فى منتهى السرور لأن زوجة ابنه تعرف القراءة وأقدامها لم تربط. وقالت أمها، "نحن محظوظون لأننا عثرنا على عائلة غنية ومتساهلة أيضاً ترضى أن تناسبنا".

الآن هى تتذكر والدها أثناء قيامها بوضع أقدامها الصغيرة فى شبشبها. شعرت أن هناك قدراً من الحرية قد استيقظ فى داخل وجدانها. ابتسمت، أتت ينج، ضبطتها تبتسم، قالت بلهجة لوم، "أنت يا سيدتى تبدين سعيدة للغاية هذا الصباح!"، وعلى الرغم من أنها عاهدت نفسها أن تكون مؤدبة مع سيدتها ، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام، "أنت تبدين كالطفل الشقى".

بصوت مرح، قالت سيدتها، "لا تحاولى أبداً أن تفهمينى أيتها القلب الطيب، لماذا تنزعجين وتتضايقين؟ دعينا فقط أن تكون أحوالنا كالسابق. أخبرينى، هل اليوم صحو؟"

"يبدو الجو كأن لا أمطار كثيفة قد تساقطت بالأمس"

"إذن دعينى أرتدى ملابس الخروج، سوف أذهب لمقابلة مدام كانج بمجرد أن أنتهى من إفطارى، لدى شأن معين أريد أن أناقشه معها. ما رأيك أن نخطب ابنتها لين يى إلى فنجمو؟

"إنهما عقدتان فى الحبل نفسه، شىء عظيم بالفعل يا سيدتى، ومن الأفضل أن يكرر الإنسان الشىء الحسن ويبتعد عما هو مسىء، فسيدى ليانجمو سعيد مع زوجته ابنة كانج الكبرى، لكن السيد الثانى ضرب زوجته بالأمس".

صاحت المدام، "تسيمو ضرب رولان؟"

"سمعتها تنشج، بالتأكيد هى التى ضربت"

تنهدت مدام وو، "يظهر أننى لن أتمتع أبداً بالسلام الكامل تحت سقف هذا المنزل".

أكلت طعام إفطارها سريعًا، ثم توجهت إلى جناح تسيمو، لكن يبدو أن تسيمو قد استيقظ مبكراً وخرج. كانت رولان فى سريرها نائمة، وهذا ما أخبرت به الخادمة. بالطبع هى لن تسأل خادمة لماذا ضرب سيدها زوجته، لذلك قالت، "أخبرى ابنى أننى أود رؤيته هذه الليلة".

ذهبت بعد ذلك إلى المطابخ وأجنحة العائلة لتفتش كالمعتاد، وعندما انتهت من ذلك، وهى تمدح هذا وتصحح ذلك، عادت إلى جناحها.

بعد ساعتين خرجت من البوابة الرئيسية. كان السيد وو قد اشترى سيارة أجنبية منذ عامين، لكن الطرق فى المدينة كانت ضيقة، لذا لم ترغب أبداً فى استخدامها.

كانت تكره مشاهدة المواطنين وهم يحشرون أنفسهم ملاصقين للجدران بينما السيارة الكبيرة تمرق فى الشارع. أيضًا هى لم تعجب بعربة الحمالين المفتوحة (الركشة) التى أهداها لها السيد وو يومًا، إنها ما زالت مغرمة بالكرسى العتيق المحمول المقفل والذى كان جزءًا من أثاثات زواجها. لذا أمرت ينج أن تتبعها فى عربة الركشة، ثم قام واحد من حماليها الأربعة بإزاحة ستائر الكرسى فخطت إلى الداخل وأسدلت الستائر، ومن النافذة الصغيرة الموجودة فى الستائر، أمكن لها أن ترى ما يكفى من الشارع وترضى فضولها، لكن لا أحد يشاهدها.

لذا وهى محمولة هكذا وسط الشوارع المزدحمة، شعرت أنها لا تسىء لأحد. كان وزنها خفيفًا على الحمالين الأربعة، والكرسى حجمه بسيط لا يزاحم أحدًا فى سيره فى الشارع. أكثر من ذلك، كانت هى مسرورة وهى تستمع لكبير الحمالين وهو ينادى فى سيره، "من فضلكم..من فضلكم". بالفعل، يجب أن يكون الأغنياء مؤدبين مع الفقراء، وعلى المرتفع أن يقدر من هو أقل منزلة عنه. إن المدام وو لا تتحمل إطلاقًا أى نوع من التجبر مهما كان نوعه، ومنذ أن أصبحت سيدة منزل وو، لم يضرب عبد أو تم توجيه لوم لخادم. ورغم أن الظروف كانت تدعو أحيانًا إلى طرد خادم غير أمين أو غير كفء، لكن هذا لا يحدث أبدًا لهذه الأسباب، لكن يتم التحجج بأسباب أخرى، التى يعلم المسىء إنها زائفة، لكنها تراعى سمعته أمام زملائه. لذا هى شعرت بانزعاج بالغ عندما أخبرتها ينج أن تسيمو قد ضرب زوجته رولان.

فكرت، "لا يمكن أن أصدق ذلك قبل أن أعلم الحقيقة"، ثم حاولت أن تطرد هذا الموضوع من فكرها وتنساه.

المسافة ما بين منزل وو وكانج ليست بالمسافة القصيرة، فهى فى الحقيقة عبر عرض المدينة كلها، لكن مدام وو ليست فى عجلة من أمرها. كانت تستمتع بأشعة الشمس الساقطة التى تفرش الشوارع التى بللتها مياه الأمطار التى هطلت بالأمس. كانت الأحجار البيضاء المغسولة تلمع والناس يشعرون بالابتهاج بتلك السماء الوضاءة.

كانت الأسواق تشغى بالحركة والنشاط، فقد حضر الفلاحون بعرباتهم المحملة بالخضراوات الطازجة من كرنب وقرنبيط، وسلال مليئة بالبيض، وأحمال من الأعشاب التى تصلح وقوداً. كل هذه المناظر المفعمة بالحياة تشرح قلب مدام وو. ففى هذه المدينة، لا يمثل عائلة وو سوى منزل واحد، وهى تشعر بالسرور البالغ عندما تتخيل كل هذه المنازل حيث يعيش الرجال والنساء سوياً وينجبوا أولادهم وأولاد أولادهم، وفى تلك الأمة، هناك العديد من المدن المتشابهة، وفى العالم كله تنتشر الأمم المختلفة، وبطرق مختلفة ومتنوعة يعيش الرجال مع النساء. كانت دائماً ما تشعر بالسعادة عندما تستغرق فى مثل هذه الأفكار والتخيلات، فحياتها البسيطة تمثل جزءاً بسيطاً من المنظومة الكلية، فما هو الشأن فى حزن وحيد ضمن الملايين من الأحزان، وما وزن فرح واحد فى عالم متخم بكل هذه الأفراح؟

بعد حوالى الساعة، توقف الركب أمام بوابة منزل عائلة كانج، وبالطبع، كانت ينج قد أرسلت خادماً ليبلغ بقدوم مدام وو، لذلك كانت مدام كانج فى الانتظار. أسرعت ينج ونزلت من عربتها لكى تساعد مدام وو فى النزول من كرسيها، وكانت تحمل تحت إبطها الشنطة الصغيرة التى تحتوى داخلها على مستلزمات زينة مدام وو، فربما تحتاج أن تمشط شعرها أو تضع البودرة على وجهها.

بعد ذلك، عبرا بوابة المنزل، لكن ما إن وصلا إلى الجناح الأول حتى شاهدا مدام كانج التى أسرعت لكى تحيى صديقتها. كلتاهما تصافح بحرارة.

صاحت مدام كانج بانفعال، "يا أختى، هذا فضل عظيم منك!". كانت هى فى شوق بالغ أن تعرف شيئاً من فم صديقتها عما حدث. هى فى الواقع تعلم الكثير من الوقائع، فهناك نوع من الخلطة ما بين خدام المنزلين، لذلك عرفت أن صديقتها قد نفذت خطتها، بل وتعلم أن الفتاة قد نامت بالفعل فى جناح السيد وو بالأمس.

أجابت مدام وو، "لقد أتيت إليك لكى نتحدث فى أمور كثيرة، لكن يبدو أننى قد حضرت مبكرة وسببت إزعاجاً لك".

"كيف تقولين هذا!"، أخذت تطيل النظر فى وجه صديقتها الصبوح، إنه لم يتغير إطلاقًا. العيون الهادئة نفسها، والفم المكتمل رائع الجمال، البشـــرة اللؤلؤية الصافية، كل شىء فى تمامه.

"كم أنت رائعة الجمال"، قالت مدام كانج ذلك برقة متناهية، وكانت على وعى، لكن بلا أى غضاضة، بشعرها المنكوش المشوش.

"لقد استيقظت مبكرة، الآن دعينا ندخل غرفتك بينما تقومين أنت بتسريح شعرك. سوف أنتظر".

"لا تهتمى أبدًا بشعرى، أنا دائمًا ما أهتـــم به بعد الظهـــر، فترة الصباح دائمًا ما تمر سريعًا".

أخذت مدام كانج تنظر حولها ضاحكة وهى تتحدث، فقد انبثق من خلفها عشرات الأطفال الذين برزوا من لا مكان، فأولادها وأولاد أولادها اختلطوا مع بعض. انحنت وحملت بين يديها أصغر الأطفال الذى لم يمش على قدميه بعد. كان الطفل قذرًا على الرغم من ملابسه الساتانية، لكن هى كانت تتشممه بكل الحب والشوق، كما لو أنه قد أخذ حمامه فى التو واللحظة.

سارا وعبرا جناحين إلى أن وصلا إلى جناح مدام كانج، هناك وضعت الطفل أرضًا، وكانت قد حملته كل هذه المسافة، ثم أشارت بيديها السمينتين نحو الأطفال ورعاتهم من الخادمات الصغيرات الذين تبعوها جميعًا قائلة، "والآن، مع السلامة أنتم جميعًا"، لكن ما إن شاهدت خيبة الأمل التى ارتسمت على وجوههم، حتى أخرجت من جيب معطفها السائب حفنة من النقود الصغيرة ووضعتها فى يد أكبر الخادمات سنًا قائلة، "اذهبى واشترى لهم جميعا فول سودانى". ثم أضافت، "الفول يكون بقشره، لكى يستغرقوا وقتًا أطول فى أكله".

صدرت منها ضحكتها الغنية وهى تشاهد تدفق الأطفال وتزاحمهم فى الخروج إلى الشارع، ثم أمسكت بيد مدام وو مرة أخرى وقادتها حتى غرفتها ثم أغلقت عليهما الباب.

"الآن نحن بمفردنا". جلست بمجرد جلوس مدام وو، ثم انحنت إلى الأمام ويداها فوق ركبتيها، "أخبرينى بكل شىء".

لكن المدام كانت تنظر إلى صديقتها وعلامات الدهشة على وجهها، بعد ثوان من التوقف، قالت، "إنه موضوع غريب، لكنى أشعر أنه ليس هناك ما يمكن أن يقال".

صاحت صديقتها، "وكيف يكون هذا، إننى ممتلئة بالأسئلة كأنما أنا دجاجة مليئة بالبيض. الفتاة- من هى- هل أحببتها؟ هل أعجبته؟"

"إننى أستلطفها". لقد علمت الآن، عندما توقفت صديقتها، أنها كانت تمنع نفسها من التفكير فى السيد وو وشيومنج هذا الصباح. هل أعجبته؟ اضطرت هنا أن لا تفكر فى هذا التساؤل الذى برز هكذا كأنما هو ثعبان يود أن ينفذ إلى قلبها، "لقد منحتها اسماً، إنه شيومنج. هى فتاة عادية، لكن لا بأس بها، أنا متأكدة أنها سوف تعجبه، والجميع سوف يحبونها لأنه لا شىء يخصها يمكن أن ينفر الناس منها، أيضًا لا أحد فى المنزل سوف يشعر بالغيرة منها".

صاحت مدام كانج بتعجب، "يا للسماء! وأنت تذكرين كل هذا كما لو قمت باستخدام مربية جديدة لحفيدك! لماذا، عندما حاول أبى أن يتخذ لنفسه محظية، أخذت أمى تبكى وتنوح، بل وحاولت أن تشنق نفسها، واضطررنا أن نلاحظها ليلا ونهاراً، وعندما اتخذ والدى له محظية ثانية، بلعت المحظية الأولى قرطيها، واستمر هكذا الحال حتى المحظية الخامسة. كلهن كرهن الأخريات، وناضلت كل واحدة لتحتفظ به لنفسها".

انطلقت الضحكة الصاخبة لمدام كانج مضيفة، "كن دائمًا ما يسرقن حذاءه - فهو كان يضع حذاءه عند المحظية التى سوف يزورها هذه الليلة، لذا تقوم محظية أخرى بسرقة حذائه. فى النهاية لكى يحل السلام، قسم وقته بينهن بالعدل".

قالت مدام وو بهدوء، "بالتأكيد، هؤلاء المحظيات كن مجموعة من النسوة الغبيات، أنا بالطبع لا أقصد والدتك يا متشن، من الطبيعى أنها تؤمن وتصدق قلب الرجل، لكن المحظيات!"

"بصراحة، ولا امرأة تشبهك أنت، على الأقل، قولى لى- هل استطعت أن تنعسى ليلة الأمس؟"

"ليلة الأمس نمت بعمق بسبب صوت الأمطار التى كانت تتساقط فوق السطح"

"أوه، الأمطار التى كانت تتساقط! "، ثم استغرقت فى دفعات من الضحك الصاخب، لدرجة أنها اضطرت أن تمسح دموعها بطرف كمها.

انتظرت مدام وو أن ينتهى ذلك وهى تبتسم، ثم قالت ومظاهر الجد على وجهها، "عندى موضوع أود أن أكلمك فيه يا متشن".

تغير وجه مدام كانج، وبدت مظاهر الجد على وجهها وهى تلاحظ نبرة صوت صديقتها، "سوف أمنع نفسى من الضحك، ما هو الموضوع؟"

"أنت بالطبع تعرفين ابنى فنجمو، هل تعتقدين أنه من الصواب أن أرسله إلى مدرسة؟"

كان هذا السؤال بارعًا. إذا أعلنت مدام كانج أن هذا ليس ضروريًا، إذن هى فى الحال سوف تطلب يد لين يى، لكن من جهة أخرى إذا.....

"هذا موضوع يختص بما يود أن يفعله هذا الولد بنفسه". وجهها المستدير تحول إلى خطوط.

"إنه لم يظهر لى أبدًا ماذا يود أن يصنع بنفسه. كل ما يفعله الآن هو أنه يكبر، لكن ما إن يبلغ الولد سن السابعة عشر حتى يتحتم على الأم أن تراقبه جيدًا"

"بالطبع". وافقت مدام كانج على ذلك وضمت شفتيها وفكرت فى الولد فنجمو، فى جسده الذى يبدو كأنه حد الموسى ورأسه الفخور.

"خذى عندك، لماذا لا أتحدث معك بكل الصراحة؟ لقد فكرت أن نصب دماءنًا فى المجرى نفسه مرة أخرى، أقصد فنجمو ولين يى، ما رأيك؟"

صفقت مدام كانج مرتين، "هذا أمر حسن وجميل"، ثم دعت يديها السمينتين تهبطان، "لكن المشكلة كلها فى لين يى. يمكن لى بالطبع أن أعبر عن ابتهاجى باقتراحك هذا، لكن ما هو رأيها هى؟"

"ما كان واجباً أن تدعيها تدخل المدرسة الأجنبية، لقد أخبرتك بذلك فى حينه"

"نعم، أنت على حق. ليس هناك شىء ما يعجبها الآن. إنها تشكو من كل شىء وتتعارك مع والدها إذا بصق على أرض الغرفة، يا له من مسكين. إنها تريد منا أن نضع أوان على الأرضية مخصصة فقط للبصق، لكن الأطفال يمسكون بهذه الأوانى ويفرغون محتوياتها ويكسرونها. إنها دائمًا غاضبة لأنها تريد كل الأطفال يرتدون ملابس تكون محكمة فوق مؤخراتهم، لكن مع تواجد ثلاثة عشر حفيداً فى هذا المنزل، فإنه يصعب التحكم فى بولهم، كيف يمكن أن نلبسهم هكذا جميعًا؟ لقد علمنا الأجداد الحكمة عندما استخدموا البنطلونات التى بلا حجر، فهل نحن أفضل منهم فى حكمتهم، بينما نحن ليس لدينا سوى ثلاث خادمات لغسيل الملابس؟

"عندما تفد إلى منزلنا، لن تجد هى أطفالا صغاراً، ما عدا الحفيد الوحيد، وبنفسها سوف تتعلم الحكمة".

كانت مدام وو من الرقة بحيث لم تخبر صديقتها أنها تناصر لين يى فى هذا الشأن. فالمربيات فى هذا المنزل دائمًا ما يشجعن الأطفال على قضاء حاجتهم من البول على الأرض، لدرجة أنه يصعب على المرء أن يخطو من مكان إلى آخر. مدام وو لا تسمح بهذه الأمور أن تحدث فى بيتها، فهى دائماً ما تنبه على المربيات أن يصطحبن الأطفال إلى أماكن مخصصة خلف الأشجار.

نظرت مدام كانج إلى صديقتها فى شك، "سوف أسعد للغاية أن تأخذيها، فهى فى حاجة فعلا للزواج الآن ليتم إصلاح ما فى ذهنها من أفكار، لكن أعتقد أنها سوف تطلب أن يكون فنجمو ملماً بلغة أجنبية إذا رغب الارتباط بها، ربما سوف تشعر بالعار إذا لم يكن عارفًا للغة أجنبية".

"لكن مع من سوف يتحدث هذه اللغة الأجنبية؟ هل سوف يجلسان سوياً ويتحدثان هذه اللغة الأجنبية؟ هذا شئ سخيف".

"بالطبع لا، لكن هو موضوع يختص بإحساسات العظمة والتميز، فالفتيات الصغيرات فى أيامنا هذه يفضلن أن يتناقشن بلغة أجنبية".

أخذت كل واحدة من السيدتين تحدق فى الأخرى متفكرة، ثم قالت مدام وو بكل بساطة، "إما أن تكون لين يى راضية بفنجمو كما هو، أو أن أصرف النظر عن هذا الموضوع كله. فالحرب على الأبواب، لذلك لا أحبذ أن يذهب أبنائى إلى مدن تقع على الشواطئ، فنحن بعيدون للغاية عن البحار".

"انتظرى!"، شعرت مدام كانج بابتهاج مفاجئ، "لقد توصلت إلى حل مناسب. يوجد هنا قس أجنبى فى مدينتنا هذه. لماذا لا تستخدميه معلماً لفنجمو؟ وبذلك عندما أتحدث مع لين يى، يمكن لى أن أخبرها أن فنجمو شرع فى تعلم اللغة الأجنبية".

رددت مدام وو بنوع من التشكك، "رجل أجنبى؟ لكن كيف يمكن أن ندعوه للحضور إلى منزلنا ولا تحدث مشاكل؟ لقد سمعت أن كل الغربيين يتميزون بالعنف وقوة شهوتهم".

"إنه قس، بذلك هو ليس فيه هذه الصفات التى تخشينها"

أخذت مدام وو تفكر بعمق فى هذا الموضوع، أخيراً قالت، "حسناً، إذا أصرت لين يى على ذلك، فهذا الحل أفضل كثيراً من إرساله إلى مدرسة أجنبية بعيدة".

"إذن اتفقنا"

نهضت مدام وو، "إذن عليك أن تتحدثى مع لين يى وأنا مع فنجمو"

"وإذا رفض فنجمو؟"

"هذا لن يحدث، لأننى سوف أختار الوقت المناسب. فمع الرجل، سواء أكان شاباً أو عجوزاً، أهم شئ هو اختيار الوقت المناسب".

غمغمت مدام كانج، "معرفتك لا حدود لها"

وقفت السيدتان واليد فى اليد وخرجتا من الغرفة. كان الشاى جاهزًا فى الساحة وبجواره الكعك. تساءلت مدام كانج "ألن تظلى وقتا هنا لكى تروحى عن نفسك قليلا يا أختى؟"

لكن المدام هزت رأسها، "أرجو أن تعذرى قلة ذوقى. سوف أعود إلى منزلى، ربما يكون اليوم هو أنسب الأيام لكى أتحدث مع فنجمو".

لم تشأ أن تخبر صديقتها بما يمكن أن يكون قد حدث من اضطراب فى نفسية فنجمو عندما شاهد شيومنج قبل إرسالها لجناح أبيه. ودعت بعد ذلك صديقتها بعدما تركت بعض النقود إلى الخادمة التى أعدت الشاى، وحضرت ينج من مكان تجمع خدم بيت كانج حيث كانت تثرثر، بذلك عادت مدام وو إلى منزلها.

مع ذلك، كان أول شخص تراه عند عودتها لم يكن هو فنجمو، لكن هى الأخت الصغيرة هسيا. وعلى الرغم من أن خدم كل البيوتات المحترمة فى البلدة يعرفون بكل ما يجرى داخل بيوت عائلة وو وعائلة كانج، باعتبارهما أهم عائلات المدينة، أيضًا عرفت مدام وو أن تلك الأخبار قد وصلت إلى آذان الأخت هسيا عن طريق طباخها.

ما كادت هسيا تعبر الساحة الكبرى التالية للبوابة الرئيسية، حتى شاهدت مدام وو قادمة. قالت على الفور، "أوه، مدام وو، لقد استمعت إلى أخبار غريبة- لا يمكن بالطبع أن تكون صحيحة؟"

قالت لها المدام بلطف بالغ، "تفضلى، إنه ليس يومًا صحوًا، والهواء لا يكون فى تمام صفائه فى هذا الموسم. سوف نجلس سويًا فى الساحة وسوف تحضر لنا ينج شيئًا نأكله. أعتقد أننا الآن فى وقت الظهر".

ثم قادت الأخت هسيا عبر الساحة الكبرى حتى وصلا إلى الساحة التى كانت لها سابقًا.

"أرجوك اجلسى. يجب أن أتوجه إلى غرفتى للحظات، لكن كونى على راحتك وتمتعى بضياء النهار".

وهى تبتسم وتصنع انحناءات لطيفة، انسحبت المدام وو وذهبت إلى جناحها تتبعها ينج، هذه الأخيرة كانت تتمتم وهى تنفخ، "يظهر أن الأمطار سوف تهجم علينا مرة أخرى، فالشيطان فى الخارج الآن".

"اسكتى". جلست المدام وو أمام المرآة وهى تبتسم، عدلت من وضع خصلة شعر ووضعت بعض البودرة على خديها، ثم استبدلت قرطيها الذهبيين بزوج من اليشم على شكل الزهور، بعد ذلك غسلت يديها وخرجت إلى الساحة مرة أخرى.

كان وجه الأخت هسيا الشاحب مليئاً بأمارات الرثاء والإشفاق ، ثم وقفت من مقعدها مع دخول المدام بالارتباك المعهود نفسه فيها.

تنهدت، "أوه، يا صديقتى العزيزة، يا لها من تجربة رهيبة تتعرضين لها! لم أحلم يوماً أن... كنت أظن أن السيد وو صنف مختلف من الرجال، لكن....".

بابتسامتها الجذابة قالت المدام، "أنا سعيدة للغاية لأنك قمت بزيارتنا هذا الصباح. أنت من الممكن بالفعل أن تساعدينى".

جلستا، مالت الأخت هسيا بجزعها إلى الأمام وقد شبكت يديها، ثم غمغمت، "مستعدة لأى شىء يا عزيزتى مدام وو، أحياناً ينزل الله عقاباً على من يحبونه....".

فتحت المدام عينيها على اتساعهما، "هل تودين أن تلقى على مسامعنا عظة اليوم، إذا كان هذا هو هدفك، فسوف أؤجل ما أود طلبه منك".

"كل ما أهدف إليه هو أن أعزيك وأصبرك"

"لكن أنا فى أفضل حال"، قالت ذلك وهى مندهشة.

"لقد سمعت... ظننت أن.."ظهر عليها الارتباك والإحراج.

قالت المدام بلطف بالغ، "لا يجب أن تسمحى لنفسك سماع تقولات الخدم، فهم دائمًا ما يبالغون وهم يروون حكاياتهم، وإذا سلكنا مسارهم نفسه، إذن فنحن سوف نمرض اليوم ونموت غداً، ثم نقوم فى اليوم الثالث".

نظرت نحوها الأخت هسيا بحدة. هل هى تهزل؟ قررت فى الحال أن لا تغضب، ثم سألت، "إذن فالأمر لم يكن حقيقيًا؟"

"أنا لا أعلم ما هو حقيقى أو غير حقيقى، لكن أؤكد لك أن لا شىء يحدث فى منزلنا هذا بدون علمى وموافقتى".

شعرت المدام بالإشفاق على هذه المسكينة التى تلون خداها، "أنت دائمًا إنسانة رقيقة أيتها الأخت، لكن هل من الممكن أن تساعدينى؟"

هزت الأخت رأسها وفردت من ذراعيها، بينما ظهر ظل من خيبة الأمل مرتسمًا فوق شفتيها وعينيها. ربتت المدام بمنديلها الحريرى المعطر على خديها وأضافت، "أشعر أن ابنى الثالث فى حاجة إلى المزيد من التعليم"، قالت ذلك بأسلوبها الناعم الذى يبدو أنه يزيح مسافة شاسعة ما بينها وبين من تخاطبه، "لذلك قررت أن يتم تعليمه بواسطة رجل أجنبى يتحدث لغة أجنبية ويقرأ كتبًا أجنبية. على كل حال، ما كان كافيًا لجدودنا، لم يعد كافيًا لنا نحن الجيل الأحدث، فالبحار لم تعد كافية لتفصل ما بين الشعوب، ولم تعد السماء هى مظلتنا نحن فقط. هل من الممكن أن تخبرينى عما إذا كان هناك رجل أجنبى هنا فى المدينة يمكن أن يباشر عملية تعليم فنجمو؟"

تعجبت الأخت هسيا من هذا الطلب الذى لا يمت بأى صلة بما سمعته من أخبار، لذا خرصت للحظات.

استمرت المدام فى حديثها، "لقد سمعت أن هناك قسًا أجنبيًا، هل يمكن أن تخبرينى عنه شيئًا؟"

غمغمت هسيا، "قس؟"

"هذا ما سمعته"

ظهرت بعض أمارات الشك على وجه هسيا، "إذا كان من أفكر فيه هو من تقصدين، فأنا أعتقد أنك لن تقبلى أن يكون مدرساً لابنك".

"هل تعليمه ناقص؟"

"وما هى مقدار حكمة أى إنسان؟ إنه تقريباً إنسان ملحد"

"لم تقولين هذا؟"

قالت هسيا بحزن، "لا أعتقد أبداً أنه مؤمن حقيقى"

"ربما يكون له اعتقاد خاص به"

"ليس هناك سوى اعتقاد واحد حقيقى"

ابتسمت مدام وو، "هل تتفضلين وتطلبين منه أن يقابلنى؟"

اندهشت مدام وو وهى تلاحظ تلك السحابة التى صبغت الوجه البسيط لهذه الآنسة.

"إنه قس غير متزوج، ولا أعلم ما الذى يمكن أن يظنه إذا قمت بزيارته"

مدت مدام وو يدها ولمست الأصابع العظمية للأخت هسيا التى رقدت فى حجرها، "لا يمكن لأحد أن يشك إطلاقاً فى فضائلك وقوة أخلاقك".

هذا العطف الجميل ذوب الخجل الذى اكتنف هذه الفتاة الأجنبية، لذا قالت، "عزيزتى مدام وو، سوف أفعل أى شىء فى مقدورى لكى أساعدك".

ثم بدت مظاهر الجد على ملامح الأخت الصغرى هسيا، وكانت مدام وو تكره دائماً انبثاق مثل هذه المظاهر، لذا بادرتها بالقول، "أنت إنسانة طيبة"، ثم صفقت بيديها فأتت ينج محملة بصينية فوقها الشاى والكيك.

لمدة نصف ساعة، انشغلت المدام بهذا الأمر، ثم شرعت فى اتخاذ الخطوات اللازمة لرحيل الأخت هسيا. قالت بصوتها الجميل الجذاب، "الآن، هل يمكن أن تقدمى لنا صلاة قصيرة قبل رحيلك".

"هذا ما يسعدنى"

أغمضت الأخت هسيا عينيها وانحنت برأسها، وانطلق صوتها يخاطب شخصًا غير مرئى، بينما جلست المدام صامتة وهى تجرى أمامها، لكنها لم تغمض عينيها بل أخذت تتفحص قسمات وجه هذه الأخت الصغيرة بتمعن. يا لها من روح فارغة، وحيدة، بعيده تمامًا عن بيتها وأهلها! لقد عبرت البحار لكى تفعل ما هو حسن فى نظرها. الجميع هنا يعلم ما تفعله، عن اجتماعها الأسبوعى لكى تعلم المتسولات والبنات الفقيرات كيف يحكن الملابس. الجميع أيضًا يعلمون أن معيشتها ضنك، ودائمًا ما تمنح الآخرين ما تمتلك، لكن ما هو مقدار شعور هذه المرأة بالوحدة فى هذا الكيان الهش! اشتعلت فى قلب مدام وو فجأة مشاعر مفعمة من التعاطف مع هذا القلب الوحيد. بالطبع، هذه الأخت الصغيرة ليست سوى امرأة جاهلة، ويمكن للمرء أن لا يستمع لما ترغى فيه، لكن هى على كل حال إنسانة طيبة ووحيدة أيضًا.

عندما فتحت هسيا عينيها، بدا الاندهاش على وجهها من تلك المشاعر الدافقة التى تشع من العيون الجميلة لمدام وو. للحظات، ظنت أن صلواتها قد استجيبت بشكل إعجازى، فلعل الله قد مس قلب هذه المرأة الكافرة؟

لكن المدام وو قامت مندفعة لتودع هسيا، "طبعًا سوف ترسلين لى هذا القس سريعًا؟"، كان هذا الطلب فى هيئة أمر، وبدون رغبة منها، وجدت هسيا نفسها تعد بذلك.

قالت مدام وو بكل أدب واحتشام، "لا أعرف كيف أشكرك أيتها الأخت الصغيرة من أجل تعطفك لترتيب تواجد هذا المدرس من أجل ابنى الثالث. أرجوك صلى عنى فى أى وقت تشائين". بذلك صرفت ضيفتها.

* * *

طوال يومها، لم تنس مدام وو ما ذكرته ينج، من أنها قد سمعت صوت نحيب رولان ليلا، لكن هى كانت على وعى كامل أن أمور العائلات الكبرى يجب أن تعالج واحدة بعد أخرى وبنظام، وهذا النظام هو منهجها الأول. لقد أرادت أن تقابل تسيمو،

لكن السماء وقفت فى سبيل ذلك، لذا فالوقت لم يكن مناسباً. وكما تدربت، فإنه بينما تفكر فى علاج المسائل الكبرى، عليها أيضاً أن تعمل فى فك العقد الصغرى.

لذا أرسلت إلى كبير الطباخين لكى يحضر ومعه دفاتر الحسابات الشهرية، تلك التى تأخر تقديمها يومين بسبب سلسلة الارتباكات التى شملت المنزل كله. قرأت المدام وفحصت كل الحسابات، ثم أبدت ملاحظة فيما يختص بارتفاع سعر شراء أعشاب الوقود.

الآن، كانت ينج حريصة دائماً أن تكون حاضرة عندما يتم فحص هذه الحسابات بالذات، فهى تؤمن أن زوجها، على الرغم من أنه طباخ ماهر، لكنه ليس كذلك بالنسبة لأمور أخرى. عندما تحدثت المدام عن موضوع الوقود، أدركت ينج على الفور أن هناك خادمة أخرى قد أثارت هذا الموضوع، بل وخمنت من هى بالضبط، فهى تعلم يقيناً مشاعر هذه الخادمة المتوسطة فى العمر والتى حاولت مراراً أن توقع كبير الطباخين فى حبائل غرامها، لكن زوجها كان يعلم جيداً أنه محظور عليه أن يلعب بذيله وينظر إلى امرأة أخرى، لذا ازداد غضب هذه الخادمة وحاولت باستماتة أن تتصيد أى أخطاء تنسب إلى ينج أو زوجها.

عندما ذكرت المدام موضوع الوقود، صاحت ينج فى زوجها، "أيتها العظام البالية، كم مرة أنبه عليك أن لا تشترى أعشاب الوقود من سوق البوابة الغربية، هناك الأسعار مرتفعة".

قالت مدام وو، "ما كان واجباً أن تشترى هذا الوقود فى ذلك الوقت المبكر من السنة، فالأعشاب التى تنتجها مزارعنا تكفينا حتى الشهر الثامن، وبعدها يتم حصاد المحصول الجديد".

أجاب الطباخ، "لقد حرث المشرف على الأرض الزراعية الكثير من الأراضى المخصصة لإنبات أعشاب الوقود".

أدركت المدام أنه ليس هناك داع قوى للخوض أكثر من ذلك فى هذه المسألة. لقد تقبلت أعذاره مادام قد فهم حقيقة زجرها له، لذا أقفلت الدفاتر وسلمتها له. بعد ذلك، اتجهت ناحية صندوق المال الخاص بها وأخرجت ما استحق خلال الشهر الماضى وأيضاً ما يكفى من الصرف على مستلزمات الشهر التالى، فالمنزل يحتوى بين جدرانه أكثر من ستين نفساً، لذا هذا المبلغ الأخير لم يكن قليلا.

حضر بعد ذلك الخادم المسئول عن الملابس وإصلاحها تصحبه المرأتان المسئولتان عن الحياكة فى المنزل. ناقشت المدام معهم مسائل تفصيل الملابس الصيفية الجديدة سواء للخدم أو لأفراد العائلة، والتغييرات اللازمة للملاءات والفرش. عندما انتهت من هؤلاء، حضر النجار ليعطى حساباً عن إصلاح سطحين مخلخلين فى المنزل، كذلك مسألة إنشاء مخزن خارجى جديد.

فى كل هذه الأمور، كانت المدام تركز كل فكرها وجهدها، فهى تتميز بأنها قادرة على التركيز فى كل مسألة بكل كيانها وفكرها وتنسى كل شىء آخر، وعندما تنتهى شئون مسألة ما، تركز على التالية وهكذا. لذا خلال هذا اليوم، تنقلت من مسألة إلى أخرى وعملت فى الجميع بكل مهارة واقتدار. ما إن حلت فترة الغسق، حتى كانت قد انتهت من بحث كل الأمور المنزلية، وعادت إليها أفكارها الخاصة، وتركزت حول فنجمو.

فكرت، "لقد تقدمت اليوم خطوات لا بأس بها فى شأن تحديد مسار حياته". لم تغادر مقعدها الكبير الذى شغلته طوال نهارها، لقد ثبت الآن فى فكرها أنه من الضرورى أن يتزوج ابنها هذا من لين يى. مع ذلك، يجب أن تتحدث معه وتعطى له بعض الحرية فى أن يتمرد ويعارض قليلا، لذ استدعت ينج التى كانت مشغولة فى الغرفة المجاورة تعد سرير النوم.

"اذهبى على الفور وأخطرى فنجمو أن يأتى إلى"، ثم ترددت قليلا وأضافت، "عندما تستدعين ابنى، اطلبى من السيدة الثانية أن تحضر الليلة مائدة العشاء العائلى".

حزمت ينج شفتيها وخرجت. جلست المدام وو وإبهامها وإصبعها فوق شفتيها تنتظر. بالطبع فنجمو فى غرفته الآن، مادام أن وقت تقديم العشاء قد قــرب. إذا كان فنجمو فى حالة طيبة ومتجاوبًا بما سوف تقترحه عليه، إذن هى سوف تشارك العائلة العشاء، بدلا من أن تتعشى بمفردها كما كان هو حالها خلال الأيام القليلة الماضية. لقد حان الوقت لأن تظهر أمامهم وتستعيد مكانها وسطهم مرة أخرى.

بعد عدة دقائق، استمعت لخطوات فنجمو. إنها تستطيع أن تميز بين خطوات أبنائها، خطوات ليانجمو بطيئة وراسخة، بينما خطوات تسيمو سريعة وغير منتظمة، أما الولد ينمو فهو دائمًا ما يجرى فى كل مكان. لكن فنجمو يسير برتم معين، ثلاث خطوات أولى أسرع ثم الرابعة. ظهر أمام باب المكتبة مرتديًا ملابسه المدرسية الزرقاء الداكنة، وعلى رأسه غطاء للرأس باللون نفسه ومكتوب على مقدمتها اسم مدرسته، المدرسة الإعدادية لإعادة بناء الوطن.

ابتسمت مدام وو لابنها وهى تشير له بأن يتقدم قائلة، "ما الذى يعنيه إعادة بناء الوطن؟"، قالت ذلك بلهجة لاهية.

"إنه مجرد اسم يا أمى"، جلس على مقعد جانبى وخلع غطاء رأسه وأخذ يديره بكلتا يديه كأنما هو ممسك بعجلة.

"أليس لها معنى محدد فى ذهنك؟"

"بالطبع نحن جميعًا نتمنى إعادة بناء الوطن"

بالروح الساخرة نفسها قالت، "دون أن تعلم ماذا يعنى ذلك؟"

ضحك فنجمو، "فى هذا الوقت بالذات أنا أعانى من تفهم علم الجبر. لذا عندما أتغلب على هذه المشكلة، حينئذ سوف أحاول أن أتفهم معنى إعادة بناء الوطن"

"الجبر؟ أنا أعلم أن هناك عــديداً من الدراســات القيمة نشــأت أولا فى الهند، ثم وجدت طريقها لاحقًا إلى أوروبا".

ظهرت علامات الاندهاش على وجه فنجمو، لم يكن يدرى أن أمه متبحرة هكذا فى مجال زيادة معارفها عن طريق الكتب. هى أيضًا كانت تعلم ذلك، وشعرت بسرور داخلى من اندهاشه.

قالت له فجأة، "تبدو شاحبًا، هل ما زلت تتناول دواءك الخاص بمسحوق قرون الغزلان؟"

امتعض فنجمو، "طعمه يبدو أسوأ من طعم السمك العفن"

ابتسمت مدام وو ابتسامتها الخلابة نفسها، "إذن لا تتعاطاه، لماذا تتناول شيئًا تكرهه بهذا الشكل؟

"أشكرك يا أمى"، لكن هو ما زال مندهشاً.

انحنت مدام وو قليلا إلى الأمام وقد ضمت يديها على حجرها، "فنجمو، لقد حان الوقت لنتحدث قليلا عن حياتك".

"حياتى؟"، حملق فيها فنجمو وتوقف عن ترقيص طاقيته.

"نعم حياتك، لقد تناقشنا أن ووالدك مليًا فى هذا الموضوع"

قال بحرارة، "أمى، لا تظنى أبدًا أننى سوف أرضى على قيامك باختيار زوجة لى".

قالت هى بسرعة، "بالطبع، هذا لن يحدث أبدًا، كل ما سوف أفعله هو أن أذكر لك بعض أسماء الفتيات المناسبات لك وأنت الذى تختار من تعجبك. بالطبع أنا أعرف ذوقك، أيضًا أعرف مركز كل عائلة. بالطبع استبعدت اسم واحدة مثل الابنة الثانية لعائلة "شين" تلك التى تم تربيتها باتباع العادات القديمة المتوارثة".

"أنا لا يمكن لى أن أتزوج مثل هذه الفتاة"

"بالطبع لا، لكن هناك مشكلة أخرى"، قالت ذلك بأسلوبها الهادئ، "لقد لاحظت أن فتيات الجيل الحديث يطلبن الكثير فى أزواجهن، لم يعد الأمر كما كان فى أيامنا،

فعندما كنت أنا صغيرة، تركت كل شئونى لتدبرها والدتى، ثم قام عمى بتدبير شأنى بعد وفاة أبى. لكن الآن، تجد أن الفتيات، من النوعية التى تفضلها يا فنجمو، لا يرغبن فى الزواج بشاب لا يعرف على الأقل لغة أجنبية واحدة"

قال فنجمو بفخر، "إننى أدرس بعضًا من اللغة الإنجليزية فى المدرسة"

"لكن أنت لا تستطيع أن تتحدث بها بطلاقة، أنا عن نفسى لا أفهم شيئا فيها، لكنى لاحظت أنك تتلجلج وتتردد عندما تحاول أن تنطق ببعض الكلمات الإنجليزية. أنا بالطبع لا ألومك، لكن هذه هى الحقيقة"

قال غاضبًا، "من تلك الفتاة التى يمكن أن ترفضنى لهذا السبب؟"

صعدت مدام وو على الفور فوق تلك اللمحة الغاضبة، كأنما هى تمتطى ظهر قارب فوق لجة عالية لتصل به إلى الشاطئ، "ابنة مدام كانج الثالثة، لين يى". فى الحال ظهر على وجهه الاهتمام.

"هذه الفتاة! إنها تبدو دائمًا فخورة بنفسها، إننى أكره مظهرها هذا"

"إنها بالفعل فتاة جميلة، لكن ليس هو المهم فى الموضوع. أنا لا أتحدث عنها سوى لأنها تمثل الأخريات. وإذا كانت لين يى التى تعرف عائلتنا ومركزنا فى هذه البلدة يمكن أن تعترض عليك، فما هو القول بالنسبة لمن هن أعلى منها مقامًا؟"

قال شغوفًا، "إذن أرسلينى إلى مدرسة أجنبية بعيدة"

"سوف لن أفعل ذلك بالقطع"، أجابت بصوتها الساحر نفسه، "سوف تحدث حرب شاملة طاحنة تشمل العالم كله بعد سنوات قليلة، وفى مثل هذه الأوقات أنا دائمًا ما أفضل أن يكون أبنائى بجوارى".

نظر نحوها مبهوتًا، "كيف عرفت كل هذه الأمور يا أمى؟"

"أنا لست غبية، على الرغم من أن العالم كله من حولى يحفل بالأغبياء، فعندما يتخذ البعض خطوات معينة ولا يمنعهم أحد، حينئذ يقومون باتخاذ خطوات أخطر".

ظل الولد ساكنًا مثبتًا أنظاره نحو وجه والدته، بينما يدير عيونًا واسعة سوداء لكن ليس لها الأعماق نفسها التى يمكن أن نلاحظها عند أمه. هو ما زال فتى صغيراً، لكنه لم ينطق. يبدو أنه يحاول أن يتفهم كل هذه الأمور التى تنطق بها والدته.

استمرت هى فى الحديث، "لقد سمعت أن هناك قساً فى مدينتنا هذه، هو رجل متعلم، وربما إذا عرضنا عليه أجراً مناسبًا يرضى أن يدرسك بعض اللغات الأجنبية، فهل ترضى بذلك؟ إن تعلم اللغة الأجنبية من الممكن أن يفيدك يومًا، ليس فقط فى موضوع الزواج الذى أفكر فيه، فالأيام القادمة تنضح بكثير من التغيرات والتبدلات".

كان صوتها واضحًا موسيقى النبرة، مع ذلك يحفل بكثير من الإنذارات والتنبيهات. فنجمو يحب والدته، لكنه يخشاها أيضًا، هى بالنسبة إليه دائمًا على صواب، وفى المرات القليلة التى عصى فيها توجهاتها، هى لم تعاقبه، لكنه تلقى العقاب من مصدر آخر، لذا هو تعلم ببطء وصعوبة أن كل أقوالها تحفل بالحكمة والتعقل، لكنه، لأنه ولد، كان تظهر منه كثيراً علامات التمرد والعصيان.

"قس؟ إننى لا أؤمن بهذه الأديان"

"وأنا لا أطلب منك أن تؤمن بدين معين، وليس هذا هو الموضوع الذى نتحدث فيه"

"سوف يحاول أن يؤثر فى، وعندك الأخت هسيا التى تحاول جاهدة أن تغير معتقدات أهل منزلنا، وكلما مرت بى تعطينى نبذة من الإنجيل".

"هل أنت من النوع الذى يخضع للتغيير بسهولة؟ هل أنت إنسان ضعيف؟ عليك أن تأخذ من أى شخص أفضل ما عنده وتترك الباقى. حاول أن تتعامل مع هذا القس لمدة شهر فقط، وإذا رغبت أن تتوقف عن تعلم اللغة الأجنبية، إذن أنا سوف أوافقك على الفور".

كان هذا هو سر قوتها فى هذا المنزل، فهى لا تسمح أبدًا لإرادتها وسلطانها أن يتبدى واضحًا فى هذا المنزل، فهى تعطى أمدًا لازمًا مع تحديد نهاية معينة، ثم تستخدم هذا الزمن لكى تشكل كل ما كانت تهدف إلى تحقيقه.

بدأ فنجمو يدير طاقيته مجدداً، "إذن هو شهر فقط، لكن ليس أكثر من شهر إذا لم يعجبنى ذلك".

قالت له، "نعم، هو شهر فقط. الآن يا ابنى سوف نذهب سوياً إلى مائدة العشاء العائلى، فربما يكون والدك قد بدأ بدوننا".

فى منزل عائلة وو، يتناول الرجال والنساء عشاءهم على موائد منفصلة، لذا عند الباب المتسع لصالة الطعام، انفصل فنجمو عن والدته واتجه إلى المائدة الأخيرة حيث جلس والده وإخوته وأبناء عمومته، بينما اتجهت المدام وو بحركاتها الرشيقة نفسها ناحية مائدة النساء. الجميع وقف تحية لها. وهى تقترب، لاحظت على الفور أن شيومنج قد اتخذت لنفسها مكاناً وسطهم. جلست الفتاة يكسوها الخجل وبعيدة نوعًا عن الأخريات، بينما أمسكت بطفل صغير وضعته على ركبتيها. وهى ما زالت تحتضن الطفل قامت وهى تحاول أن تخبئ وجهها بالطفل، لكن مدام وو استطاعت أن تلمحها قبل أن تفعل ذلك. كانت الفتاة مرتبكة، لكن هذا أمر طبيعى فى مواجهة مثل هذا الموقف فى بيت غريب بالنسبة إليها، وكان كافياً أن تكون وسطهم الآن.

قالت المدام وو وهى توجه الحديث للجميع، "من فضلكم اجلسوا"، ثم التقطت عصويها. كانت ينج تخدم الأخريات، لذا وضعت المدام عصويها على المائدة وخاطبت ينج، "قدمى لى الطعام يا ينج، لقد كنت مشغولة طوال النهار بإدارة شئون المنزل، وأنا متعبة للغاية".

انحنت إلى الخلف مبتسمة، وبأسلوبها المعتاد نفسه تبادلت بعض الكلمات مع زوجتى ابنيها وأخذت تداعب طفل منج الصغير الذى كانت تحمله مربية. كان الطفل يتململ، لذا قامت باستخراج قطعة صغيرة من اللحم بعصويها ووضعتها فى فمه، ثم خاطبت شيومنج بشكل مباشر وبصوت كله حنان، "أيتها السيدة الثانية، يجب أن تأكلى ما تفضلينه من طعام، وأوصيك بالسمك لأن طهوه دائمًا ما يكون جيداً".

رفعت شيومنج عيونها وقد احمر خداها، ثم قامت وانحنت قليلا بينما الطفل ما زال عالقًا بين ذراعيها ثم جلست ولم تنبس بحرف واحد، وعندما وضعوا أمامها طبقًا للأرز، قامت أولا بإطعام الطفل.

لكن بهذه التسمية التى أطلقتها المدام، أعلنت بذلك مركز هذه الفتاة داخل نطاق العائلة، وأن على الجميع أن يتقبلها بهذه الصفة. الجميع سمع هذه الكلمات البسيطة. تبع ذلك فترة من الصمت، ثم تحدث الخادم مع الخادمة والمربية مع الطفل لكى يتم كسر فترة الصمت هذه.

تقبلت مدام وو الطعام الذى وضع أمامها وأخذت تمضغ طعامها بأسلوبها البطىء المتأنى نفسه، أما الحفيد الذى سعد بقطعة اللحم فإنه أخذ يشير الآن بأنه يود أن يجلس على حجرها، لكن أمه منج حاولت أن تمنعه برفق قائلة، "أنت وجهك ويداك قذرتان!"

أخذت مدام وو تنظر أمامها كأنما هى فى حلم وتساءلت، "هل يود أن يجلس معى؟"

قالت منج، "لكن هو قذر يا أمى"

"هو مصمم أن يحضر إلى"، لذا مدت يديها وتناولت الطفل السمين وأجلسته على ركبتيها، ثم برقتها المعهودة، أمسكت بعصوين نظيفين وعثرت على قطعة لحم صغيرة وسط الطبق وأعطتها للطفل، ولم تتحدث، لكن كانت تبتسم مع كل مضغة.

أيضًا لم يبادلها الطفل الابتسام، بل جلس وهو فى قمة السعادة، يفتح فمه الصغير ويمضغ اللحم بمسرة صامتة – وهذا هو تأثير مدام وو الدائم على الأطفال، فبدون جهد بالغ تستطيع أن تجعلهم يشعرون بالسعادة وهم قريبون منها – هى تشعر بالسعادة وهى بقرب حفيدها، ففيه، هى تشعر أن واجبها تجاه أسرتها قد كمل. فيه أيضًا، شعرت أن وحدتها السرية قد تحققت. لكنها تعرف الآن أنها وحيدة، وإذا ذكر لها أحد ذلك، فهى سوف تنكر وتبدى عظيم دهشتها لهذا التفسير المغلوط. لكن هى فى الواقع كانت وحيدة، ويصعب على أى إنسان أن يصل إلى أعماق روحها وكيانها، فروحها تفوق على حياتها، وحامت تلك الروح بعيدًا عن محددات تلك الجدران الأربعة التى تحصر جسدها. إنها تسبح فى محيط العالم كله، واستطاعت أن تصل إلى أعماق الماضى،

أيضًا صعدت فوق عتبات المستقبل. أفكارها المتنوعة كانت تتلاعب مع تلك الرحلات الدائبة، لكن بين الحين والآخر، كانت روحها تعود وتجد لنفسها مستقرًا فى هذا المنزل. وهى حاضرة الآن.

فجأة شعرت بإحساس كامل بهذا الطفل، فهاهى الأجيال تتحرك إلى الأمام، هى فى نهاية حبل الجيل وهو فى بدايته.

أخذت تغمغم، "يا ابن ابنى"، ثم استمرت فى وضع قطع اللحم الصغيرة فى فمه الدقيق، وكان هو يطاوعها فورًا ويفتح فمه. وعند اكتمال شبعه، أعطته لأمه.

لكن قبل ما ينتهى الجميع من طعامهم، كانت هى قد انتهت، لذا نهضت وقدمت لهم رجاء أن يستمروا، وسارت بخطواتها البطيئة لتخرج من الغرفة. قام السيد وو وأبناؤها بتحيتها، وقاموا نصف قومة من مقاعدهم. ابتسمت لهم وصنعت حركة بسيطة برأسها ثم تابعت مسيرتها.

فى هذه الليلة أيضًا، استغرقت فى نوم عميق ولم تقلق ولو للحظة واحدة.

* * *

لكن بالنسبة إلى شيومنج، فقد كان حضور مدام وو العشاء الذى استمر مدة نصف ساعة هو الاحتفال الرسمى بزواجها. الليلة الماضية كانت هى فى قمة الارتباك والحيرة. يا ترى، هل أرضته أم لا؟ لم ينطق السيد وو بكلمة يوجهها لها، وقد تركها مع بزوغ أنوار الفجر، ونامت هى باستغراق ولم تستيقظ إلا ظهرًا. لم يقترب منها طوال فترة الظهيرة سوى خادمة. ثم حضرت إليها ينج لتطلب منها أن تنضم إلى مائدة عشاء العائلة، لذا أسرعت ووضبت نفسها لحضور هذا العشاء، وعندما حان الوقت، تسللت إلى غرفة الطعام متأخرة، ثم أسرعت بأخذ أحد الأطفال من مربيته. إنه لم يبك، لأن الأطفال لا يبكون أبدًا معها، ففى القرية كانت هى ترعى عديدًا من أطفال القرويات هناك. واحدة بعد أخرى، من هؤلاء الذين أصبحوا من أقربائها الآن، أخذوا يحيونها

بلا اكتراث أو بخجل. هى لم تفعل شيئا سوى أن تحنى رأسها بشكل بسيط، أيضاً صعب عليها أن تتناول طعامها.

لكن ما إن رحلت مدام وو وغادرت غرفة الطعام، حتى شعرت بالجوع القاتل، لذا أدارت وجهها لكى لا تواجه أحداً وأكلت طبقين من الأرز بأسرع ما يمكن.

عندما انتهت وجبة العشاء، انتظرت فى مكانها وكلها خجل حتى ترحل كل من منج ورولان. لكن منج الطيبة بقيت للحظات لتتحدث معها، "سوف أحضر إليك غداً لنتحدث أيتها السيدة الثانية". ردت عليها شيومنج بصوت واهن، "أنا لا أستحق ذلك"، ولم تستطع أن تثبت عينيها فى عيون منج، لكن هى شعرت بالسرور والراحة. رفعت عينيها، لكن منج أدركت ما تعانيه تلك الروح الوحيدة، لذا قدمت لها وعداً، "سوف آت إليك ومعى ابنى".

تحركت شيومنج بعد ذلك وسط النسوة والأطفال، محاولة قدر الإمكان أن تختبئ عن أنظار الرجال، لكنهم كانوا يحدقون فيها، كل بطريقته السرية.

هذه الليلة، حضر السيد وو مبكراً. هى لم تكن قد نامت بعد على السرير. كانت منهمكة فى إتمام حياكة بعض من ملابسها عندما سمعت صوت خطواته. عندما دخل عليها وقفت وحولت وجهها. جلس هو وأخذ يسلك زوره واضعاً يديه على ركبتيه ناظراً إليها:

"أنت"، لم يحاول أن ينطق باسمها، "لا يجب أبداً أن تخافى منى". لم تجبه بشىء. قبضت على القماش بقوة بينما وقفت هكذا كأنما هى من الحجر الصوان

بدأ السيد وو مرة أخرى، "فى هذا المنزل، كل شىء موجود لكى يشعرك بالسعادة، ووالدة أبنائى هى سيدة طيبة، وزوجات أبنائى من الشباب، كذلك زوجات أبناء أخى، وهناك العديد من الأطفال. أنت تبدين بأخلاق متواضعة وأنت بالتأكيد إنسانة مطيعة، سوف تسعدين هنا".

ما زالت لا ترد سعل السيد وو وفك حزامه قليلا، لقد تعشى بشهية هذه الليلة، وهو بالكاد يستطيع أن يتنفس الآن، لكن هو لم ينته بعد من كل ما يود أن يقوله، لذا استمر:

"بالنسبة لطلباتي، فأمامك واجبات بسيطة. أنا أحب أن أنام متأخرًا، ولا أحب أن يوقظني أحد. في الليل، أنا أحب احتساء الشاي إذا كنت متيقظًا، ولا أحب أن أشرب الشاي الأحمر. أنا دمي حار وأسخن سريعًا، ولا أستطيع أن أستخدم لحافين حتى في عز أيام الشتاء، هذه الأمور وأخرى سوف تدركينها مع الوقت".

سقط القماش من يدها. نظرت نحوه ونسيت خجلها تمامًا، "إذن - أنا مقبولة؟". قدمت له هذا التساؤل رغبة منها أن تعثر على مكان تستطيع فيه أن تأوى تحت سقف السماء.

"بالتأكيد، ألم أقل لك ذلك؟". ابتسم، ثم اشتعل وجهه الوسيم وظهرت عليه علامات الرغبات الحارة. نظرت هي إليه وفهمت. لكن هذه الليلة، هي لن تخاف. إنه ثمن بسيط تدفعه، ثمن بسيط للغاية تدفعه لإنسان طيب، على الأقل لأنه يهدى لها منزلا وسكنًا.

(٦)

كانت الأخت هسيا دقيقة فى الوفاء بتعهداتها، لكن المدام وو لم تتوقع سرعتها هذه فى أداء ذلك، لأنه بعد سبعة أو ثمانية أيام حضرت ينج وهى تجرى، عيناها المدورتان تلمعان اندهاشاً ورعباً.

صاحت، "سيدتى، سيدتى!"

كانت المدام تتنزه وسط شجيرات الأوركيديا الخاصة بها، لذا توقفت غاضبة، "ينج، سدى فمك، إنك تبدين كسمكة فى شص. أخبرينى، ماذا جرى؟"

أطاعتها ينج، لكنها بدأت بعد ذلك من جديد، "هو أكبر الرجال حجماً – رأته عيناى – رجل أجنبى! يقول إنك قد أرسلت له".

"أنا طلبته؟"، ثم تذكرت، "ربما هذا ما قد حدث"

قالت ينج مؤنبة، "يا سيدتى، إنك لم تخبرينى بأمره، لقد أخبرت البواب أن لا يدخله، فنحن لم نستقبل من قبل رجلا أجنبياً فى هذا المنزل".

"أنا لا أخبرك بكل شىء. دعيه يدخل على الفور"

ذهبت ينج غير مصدقة، واستمر سير المدام بين زهورها. بعد وقت بسيط استطاعت هذه الأوركيد أن تنتعش بعد إعادة زراعتها، إنها سوف تصنع ظلالا رائعة فى هذه الساحة، وتعجبت مما إذا كانت أشجار الريح قد فلحت أيضاً أم لا. فى تلك اللحظة سمعت صوتاً مجلجلا يصدر عند باب جناحها، "مدام!".

كانت هى تتوقع هذا الصوت، لكنها لم تكن مستعدة لنوعية قوة هذا الصوت. نظرت فوق شجيرات الأوركيديا فوجدت رجلا طويل القامة ، عريض المنكبين، يرتدى جلباباً طويلا لونه بنى وقد ربط وسطه بحبل. إنه القس.

قالت له بصوتها الفضى، "أنا لا أعلم كيف أخاطبك لكى أرد تحيتك. من فضلك ادخل". أحنى هذا الرجل رأسه العظيم وعبر الباب ليدخل الجناح، تابعته ينج من الخلف، بينما وجهها مملوء رعباً واندهاشاً.

قالت المدام، "اتبعنى إلى المكتبة من فضلك"، ثم وقفت جانباً ليعبر هو، لكنه أشار نحو الباب مبتسماً، "فى بلدى، السيدة هى التى ندعها تدخل أولا".

غمغمت، "إذاً هو هكذا، لكن أفضل أن أتبع عوائدنا".

دخلت هى وجلست على مقعدها الخاص و أشارت إليه ليجلس على المقعد عبر المائدة. زحفت ينج إلى الباب ووقفت تنظر، نصف خائفة. رأتها مدام وو، "ينج، اخرجى". ثم التفتت إلى القس بنصف ابتسامة، "هذه المرأة الغبية لم تر من قبل رجلا فى حجمك، ولم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إليك. أرجوك سامحها"

أجاب الرجل بتلك الكلمات الغريبة، "ربما يكون الله قد منحنى هذا الشخص الضخم لكى يبتهج ويندهش من يشاهدنى. حسناً، إن الضحك عمل مفيد". كان صوته العظيم يدمدم حول الغرفة.

قالت ينج بصوت واهن، "أيتها السماء، صوته يشبه الرعد"

"ينج، اذهبى وأحضرى شاياً ساخناً"، أمرتها بذلك لكى تهدأ، لذا بادرت ينج بالرحيل كأنما هى قطة مذعورة.

جلس القس بلا حراك، جسده الضخم يملأ كل فراغ المقعد، على الرغم من أنه يميل إلى أن يكون نحيفاً، هذا ما أدركته مدام وو. لونه أسمر، عيونه السوداء تبدو واضحة، حزينة فى محجريها العميقين. شعر رأسه لم يكن طويلا أو قصيراً، كان مجعداً قليلا. له لحية شعرها أسود ناعم، ومن خلال هذه اللحية ظهر فم أحمر قان.

استفسرت مدام وو، "كيف أخاطبك؟ نسيت أن أسأل الأخت هسيا عن اسمك"

"ليس لى اسم معين، لكنهم أطلقوا على اسم أندريه، وهو اسم جيد كأى اسم آخر. البعض يدعوننى باسم الأب أندريه، لكنى أفضل أن أدعى باسم الأخ أندريه.

لم ترحب مدام وو بأن تدعوه بهذا الاسم، لكنها سألته سؤالا آخر، "ما هى ديانتك؟"

"دعينا لا نتحدث عن ديانتى اليوم".

ابتسمت مدام وو لهذه الإجابة، "كنت أظن أن كل القسس يريدون التحدث عن ديانتهم".

نظر إليها الأخ أندريه بنظرة متعمقة، وعلى الرغم من القوة البادية فى عينيه، لكنها لم تكن نظرة مقتحمة، كانت فى نظرها كأنما هى مصباح وضاء رفعه أحدهم إلى أعلى لكى ينير الطريق لآخر فى طريق مجهول.

"قيل لى إنك تودين الحديث معى يا مدام"

"آه، نعم"، ثم توقفت. أدركت فى الحال أن ينج قد نشرت الأخبار فى كل المطابخ أن عندهم داخل المنزل وحشًا، لذا سمعت همهمات وشعرت بحركات تحدث بجوار الباب، ومن حيث هى جالسة، استطاعت أن تشاهد ملامح بعض الأطفال، فنادت بصوتها المرحب، "تعالوا يا أولاد، تعالوا وانظروا إليه!"

فى الحال، ظهرت فصيلة من الأطفال وتجمعت عند الباب، كان شكلهم يشبه زهور الصباح تحت أشعة الشمس! كانت المدام فخورة بهم.

شرحت له الأمر، "إنهم يريدون أن يشاهدوك"

"لم لا؟"، ثم استدار نحوهم، فتقهقروا نوعًا، لكن عندما ظل فى مكانه مبتسمًا، تشجعوا واقتربوا منه.

قالت لهم، "إنه بالتأكيد لا يأكل الأطفال، ولعله يشبه ذلك البوذى الذى يأكل فقط الفواكه والخضراوات".

"وهذا حقيقى"

سأله أحد الأطفال وهو مقطوع النفس، "كيف أنت بهذه الضخامة؟"، كان هذا الولد هو حفيد ابن العم.

"لقد صنعنى الله هكذا!"

قالت المدام وو، "لكنى أعتقد أن والديك أيضًا كانوا ضخامًا أيضًا"

قال بلطف، "لا أتذكر والدىَّ الآن"

"ما هو وطنك؟"، كان هذا تساؤل أحد الأولاد الذى كان ملتحقًا بمدرسة تعلم شيئًا عن الأوطان.

"ليس لدى وطن معين، أى مكان أستقر فيه هو وطنى"

قالت المدام، "لقد قضيت وقتًا طويلا هنا، فأنت تتحدث لغتنا بطلاقة"

"أنا أتحدث عديداً من اللغات، لكى أتمكن من مخاطبة أجناس متعددة"

أصرت هى، "لكن أنت قضيت وقتاً طويلا فى بلدتنا هذه". لقد ازدادت درجة فضولها فيما يختص بهذا الرجل.

"فقط هى سنة واحدة"

أصبح الأولاد أكثر جرأة وجسارة وتزاحموا حوله. قال أحدهم وهو يشير بإصبعه الدقيق الذهبى، "ما هذه السلسلة التى فوق صدرك؟"

"هذا صليب"، ثم رفعه أمامهم

سأل أحد الأولاد، "هل يمكن لى أن ألمسه؟"

"إذا أردت"

قالت المدام بحدة بالغة، "لا، لا تلمسه يا ولد"

التفت أندريه نحوها، "لكن يا مدام، هو لن يؤذيه"

لكن قالت ببرود، "قلت أن لا يلمسه"

ترك الأخ أندريه صليبه يهبط على صدره مرة أخرى وشبك يديه الكبيرتين فوق ركبته وصمت. حضرت ينج محملة بصينية الشاى، وأخذت تشق طريقاً وسط الأطفال، قالت بصوت عال، "أمكم تنادى عليكم، اذهبوا!"

قالت المدام بصوتها الهادئ، "عودوا يا أولاد إلى أمهاتكم". فى الحال استدار الأولاد وغادروا المكان.

نظر نحوها الأخ أندريه نظرة إعجاب وتقدير صدرت من عينيه الثاقبتين، "إنهم لا يخافونك، لكنهم يطيعونك".

"إنهم أولاد مطيعون". وسعدت بتفهمه هذا.

قال بهدوء،" أنت إنسانة ممتازة، لكنى لا أعتقد أنك سعيدة"

هذه الكلمات التى صدرت بهدوء، صدمت المدام وو، شعرت كأن هناك سكيناً مخبأة اخترقت قلبها دون أن تدرى من أين الجرح. بادرت إلى القول على الفور، "بل على العكس، أنا سعيدة للغاية. لقد نظمت حياتى بالضبط كما أرغب، وأنا لدى أبناء....".

رفع عينيه الثاقبتين العميقتين، لكن لم ينطق، لكنه كان يستمع إليها باهتمام. كان هذا الصمت الذى حل عليه وذلك الاهتمام البالغ سبباً فى أن تتلجلج، "هذا يعنى..نعم يعنى، أننى فى الواقع سعيدة، فقط أحياناً أشعر، أشعر أننى فى حاجة إلى التزود بمعلومات معينة، لكن ما نوعها، هذا ما لا أعلمه".

"ربما لا تكون المسألة مختصة بمعلومات إضافية أكثر من كونها عملية تفهم أكثر لما تعرفينه".

كيف حدث هذا، أن تتحدث مع هذا الغريب عن نفسها ومشاعرها؟ أخذت تفكر فى هذا للحظات، ثم قررت أن تغير الموضوع، "فى الواقع لم ندعوك من أجلى، لكن من أجل ابنى ، فأنا أرغب أن يتعلم التحدث بلغة أجنبية".

"أى لغة؟"

"اللغة الأفضل"

"اللغة الفرنسية هى الأجمل، الإيطالية هى لغة الشعر، اللغة الروسية هى الأقوى، اللغة الألمانية هى اللغة الراسخة، لكن معظم الأعمال فى العالم تتم باللغة الإنجليزية أكثر من أى لغة أخرى".

"إذًا عليه أن يدرس اللغة الإنجليزية"، قالت هذا بتحديد واضح، ورفعت عينيها تستجلى وجهه الأسمر، "ما الذى سوف تقتضيه كأجر؟"

قال بهدوء، "أنا لا أقتضى أى أجر، فأنا لا أستخدم النقود فى شىء"

"قس ولا يستخدم النقود؟"، كانت ابتسامتها تحمل قدرًا من السخرية

أكد لها الأخ أندريه، "فعلا أنا لست فى حاجة إلى النقود"

"لكن أنت بذلك تضعنى فى وضع أدنى عندما أتسلم منك خدمة معينة بلا مقابل، ألا يمكن لى أمنح نقودًا لديانتك لتصرف على بعض الأعمال الحسنة؟"

"لا. إن دينى أفضل هكذا بدون نقود". أخذ يفكر قليلا ثم أضاف، "ربما يكون من الأفضل من وقت لآخر أن يتم عمل مفيد من أجل مصلحة بلدكم هذا– ربما لو فكرنا فى إنشاء دار لإيواء اللقطاء واليتامى سوف يكون هذا أفضل. لقد رعيت أنا عددًا من هؤلاء وكنت أرعاهم حتى أجد لهم آباء يرعونهم، لذا عندما سوف أعثر على أحد هؤلاء اللقطاء، سوف أحضر إليك، ومساعدتك لى سوف تكون هى جائزتى".

"لكن هذه الأمور التى تحدث فى مدينتنا لا تعتبر عطية لك. هل هناك شىء ما يمكن أن أحققه لك أنت شخصيا؟"

"هذه هى مكافأتى الوحيدة". أخذ صوته يجلجل فى الغرفة، صعب عليها أن تعارضه. أما ينج التى انسحبت إلى الساحة، فإنها حضرت ونظرت داخل الغرفة ثم انسحبت، وكررت ذلك عدة مرات.

سألت المدام، "متى سوف تعطى ابنى تلك الدروس؟"، لم تجد فى نفسها القدرة أن تعارض هذا الرجل.

"الآن، إذا رغبتى. كل الأوقات مناسبة بالنسبة لى"

"هل سوف تأتى لنا كل مساء؟ ابنى يذهب إلى مدرسته صباحًا"

"فى أى وقت تشائين"

قامت واستدعت ينج، "أخبرى فنجمو أن يأتى إلى هنا". وقفت على باب الغرفة، الحديقة على جانب وباب المكتبة على الجانب الآخر. شعرت للحظات أنها محشورة داخل عالمين. خطت إلى الساحة وتركت القس وحيداً. وقفت مكانها تتسمع، كما لو أنها تتوقع أن ينادى عليها، لكنها لم تسمع شيئاً. على الجدران المحيطة، تجمعت طيور العندليب كما يحدث كل مساء فى تلك الساعة نفسها، وبكل بطء بدأت الطيور تنشد أربعة ألحان واضحة، ثم شاهدوها تتحرك فطاروا. كانت تقريبًا تشعر بالأسى لأنها استدعت هذا الأجنبى لبيتها، فهناك الكثير من الأمور الغريبة التى من الممكن أن يدرسها لابنها بتلك اللغة الأجنبية! لقد تسرعت. رجعت إلى الباب وأخذت تنظر. هل يعتبر من قلة الذوق أن تتركه هكذا بمفرده؟ لكن ما إن نظرت نحوه حتى وجدت أن رأسه الضخم قد مال على صدره وعيناه مغمضتان. إنه نائم! لكن شفتاه تتحركان. تراجعت وقد أمسك بتلابيبها نوع خفيف من الخشية والرعب، ثم شعرت بالسعادة تغمرها وهى ترى فنجمو قادم نحوها، نادته، "فنجمو!"

أدارت رأسها، فوجدت رأس الرجل قد اعتدلت وعيونه السوداء تلمع.

"فنجمو، تعال إلى هنا!"

"أنا قادم يا أمى". كان بجوارها فى لحظة، فهو خفيف الخطو ودقيق الشكل بالمقارنة بهذا القس الضخم. أصابها الاندهاش عندما لاحظت أن ابنها هذه دقيق الحجم هكذا بينما كانت تظنه دائمًا طويل القامة. أمسكت بيده وقادته إلى المكتبة، ثم خاطبت الأخ أندريه، "هذه هو ابنى الثالث، فنجمو".

ردد القس، "فنجمـو". كان من المفترض تأدبًا أن يقول "السيد الشاب الثالث"، لكنه بكل بساطة ردد اسم الولد.

قال، "اسمى الأخ أندريه"، ثم جلس، "اجلس يا فنجمو، لقد أمرتنى والدتك أن أدرس لك لغة أجنبية وأكدت على أن تكون هى اللغة الإنجليزية"

قاطعته المدام، "لكن فقط اللغة".

الآن سوف يبدأ الدرس. أخذت تسائل نفسها، هل هى قد ارتكبت خطأ عندما سلمت عقل ابنها لهذا الرجل، فلكى يتثقف عقل ما إذن يحتم الأمر التحكم والسيطرة على هذا الذهن.

ردد أندريه، "نعم، فقط اللغة". أدرك فى التو تلك المخاوف التى جاست فى ذهن المدام وو، لذا أضاف، "لا يجب أن تخافى يا مدام، إننى رجل شريف، وذهن ابنك وعقله هو شىء مقدس فى نظرى"

شعرت مدام وو بالإحراج لأن هذا الأجنبى تفهمها. لم تتوقع أن يصدر هذا من ذلك البدن المشعر. هى لم تتعرف من قبل على أجانب من أى نوع – ما عدا الأخت هسيا، وهى ليست سوى امرأة طفلة. لذا أحنت رأسها قليلا وخرجت إلى الحديقة مرة أخرى.

بعد ساعة، ظهر القس على باب المكتبة، كان يخاطب فنجمو بكلمات غير مفهومة. كان ينطق بها بوضوح وببطء. كان فنجمو يستمع إلى هذه الكلمات كما لو أنه لا يستمع فى العالم كله إلا لهذه الكلمات. سألت المدام، "هل علمته هكذا سريعًا؟". كانت جالسة على مقعدها تحت الأشجار ويداها فوق حجرها.

أجاب أندريه، "يا مدام، هو لا يفهم معناها الآن، لكنى أنا أعلمه نطق اللغة. بعد عدة أيام سوف أستخدم هذه الكلمات لتكوين جمل كاملة مفهومة، ثم استدار ناحية فنجمو قائلا، "إلى الغد"، ثم انحنى للمدام وو واتجه نحو البوابة بخطوات بطيئة.

ما إن اختفى هذا القس الضخم، حتى عاد كل شىء أمامها إلى مقاييسه المعتادة المعروفة.

"حسنًا يا ابنى؟"

لكن يبدو أن فنجمو ما زال غائبًا عن الوعى، لذا قال، "لقد علمنى الكثير خلال تلك الساعة".

أخذت تلح عليه، "ردد على الكلمات التى علمها لك"

فتح فنجمو شفتيه وأخذ يصدر تلك الأصوات الغريبة

قالت، "ماذا يعنى هذا الكلام"

هز فنجمو رأسه واستمر فى حالة اللاوعى، "أنا لا أعلم - هو لم يخبرنى بمعناها".

"فى الغد، يجب أن يخبرك"، قالت هذا بإصرار عميق، "أنا لا أسمح أن ينطق بكلمات داخل منزلنا وهى غير مفهومة لنا ولا أحد يعرف معناها".

* * *

خلال كل أبهاء هذا المنزل الكبير، انتشرت أخبار زيارة هذا القس الأجنبى الضخم، ووصلت بالفعل إلى أسماع السيد وو. لذا حوالى منتصف نهار اليوم التالى، رأته مدام وو قادمًا اتجاهها. كانت هى فى ذلك الوقت تقيس قماشًا حريريًا وبجوارها الخادمة المختصة بالحياكة.

ما إن اقترب السيد وو حتى صاح، "أرسلى هذه المرأة بعيدًا". لاحظت المدام أنه غاضب، لذا وضعت القماش على المائدة وأمرت الخادمة، "اذهبى الآن واحضرى بعد ساعة أو ساعتين".

غادرت الخادمة وجلس السيد وو وأخرج غليونه وأشعله، "لقد سمعت أنك قد تعاقدت مع رجل أجنبى ليعلم فنجمو وذلك بدون أن تخبرينى بكلمة عن هذا الموضوع."

قالت بصوت رقيق، "فى الحقيقة، كان واجباً أن أخبرك، إنها غلطة فى حقى، لكنى بشكل ما أدركت أنك لا تريد أن تزعج نفسك بهذه الأمور. أنا فى الواقع كنت مهتمة بأن يحدث ارتباط ما بين فنجمو ولين يى"

"لماذا؟"

منذ زمن بعيد، تعلمت أن لا شىء يفيد فى كل زمان سوى أن تنطق بكل الحقيقة لرجلها. وهى لم تخدع السيد وو فى أى وقت من الأوقات، ولن تفعل ذلك الآن.

"حدث أن فنجمو شاهد شيومنج فى ذلك اليوم الذى كانت هنا معى. لا أعتقد أن هناك مشاعر قد اشتعلت بينهما، لكن كما تعلم فنجمو فى أوج فترة شبابه، وأن هناك أموراً معينة تحدث فى قلوب الشباب سواء أكانوا فتياناً أو فتيات يتمتعون بالشباب والجمال، لذا حاولت أن أغير الدفة إلى اتجاه آخر، فسوف يكون الأمر محرجًا إذا حدثت مشاكل معينة فى المنزل".

كالعادة، فإن الحقيقة تحير وتربك السيد وو. لاحظت أن العرق بدأ ينز من جذور شعره، لذا قال، "أرجو أن لا تتصورى مثل هذه الأمور بهذا القدر من السهولة، فأنت فى حالة مستمرة من الاهتمام بتوفيق الرجال مع النساء. لديك فكرة غير سوية فيما يختص بالرجال. أنا أشعر بذلك، بل وأظن أنك استطعت أن تحولينى إلى جدى عجوز".

"إذا كنت قد جعلتك تشعر هكذا، إذن فأنا إنسانة غبية، وأرجو أن تسامحنى"، قالت ذلك بصوتها الفضى. جلست هكذا بشكل يصعب وصفه، جعلها تبدو بعيدة عنه، كأنما هى خارج نطاق هذه الغرفة، وهى تدرك ذلك حقاً. لقد أدركت منذ زمن بعيد أنه لكى يبدو الإنسان مستسلمًا فهو وضع أقوى بمراحل من إبداء شكل المقاومة، وأن اعتراف الشخص بالخطأ هو الذى يحقق الاستفادة الكاملة.

لكنها أدركت أنه ما زال يشعر بالمهانة، وهى فى داخلها تشعر بالذنب من أنها كانت على هذه الدرجة من الغباء بحيث سببت له أن يعانى من هذه المشاعر. قالت له وهى تبتسم، "أعتقد أننى لم أشاهدك من قبل بكل هـذه الوسـامة، إنك تبدو أصغـر من عمرك بأكثر من عشر سنوات".

احمر وجهه وانطلق ضاحكًا، "فعلا أنا هكذا؟"

لاحظ هو تلك الرقة التى كست ملامحها وعينيها، فانحنى نحوها عبر المائدة التى تفصل بينهما، "يا أيلين، ما زال لا أحد يشبهك"، ثم صاح، "كل النساء بلا طعم بالنسبة لى، وما فعلته لم يحدث إلا لأنك أنت صممت على ذلك".

"أنا أعلم ذلك، وأشكرك على ذلك. على مدى كل حياتنا سويًا، كنت أنت تفعل كل ما يرضينى، والآن عندما طلبت منك أن تفعل ما هو أكثر، أنت تجاوبت معى".

"لقد أحضرت لك هدية". وضع يده فى جيبه وأخرج شيئًا ملفوفًا بورق خفيف، فتحه وأخرج حليتين للشعر على شكل فراشات وزهور ومادتها من اليشم وحصوات اللؤلؤ والذهـب، "لقد شهدت هـاتين بالأمس، هذا جعلنى أفكـر فيك، لكنى أنا دائمًا ما أفكر فيك"، مسح جبهته التى تجمع فيها العـرق، ثم غمغـم وهو لا ينظر إليها، "حتى فى الليل أيضًا".

تجهمت قليلا عندما استمعت لذلك، "لا يجب أبدًا أن تفكر فى ليلا، فهذا يظلم شيومنج. فعلى كل حال، كل حياتها الآن تتركز عليك".

استمر فى مظهره غير السعيد.

قالت بصوتها الحلو، "ألم تسر بها؟"

"أوه، إنها لطيفة، لكن أنت.. أنت متباعدة عنى هذه الأيام. هل سوف نقضى بقية عمرنا هكذا بعيدين عن بعضنا؟ وأنت التى عشت فى قلب حياتى...."، أخذت شفته السفلى ترتعش.

تأثرت مدام وو من مظهره، لذا دون أن تدرى نهضت واتجهت نحوه، فأمسك بها بين ذراعيه وأسند وجهه فى جسدها. شىء ما ارتعد وتحرك فى داخلها، شعرت بالانزعاج، وليس هو السبب بل هى، فهل لحظة الضعف هذه قادرة بأن تهدم كل ما فعلته؟

غمغم، "أنت لؤلؤتى..لا يمكن أن أنسى رائحة خشب الصندل، ورائحة..."

سحبت نفسها برقة من أحضانه، ولم يتبق سوى يديها على كتفيه، "سوف تكون أكثر سعادة مما كنت عليه فى السابق".

"هل من الممكن أن تعودى لى؟"

وعدته، "سوف يحدث هذا لكن بشكل آخر". لقد مرت اللحظة، والآن تستطيع أن تلمح وجهه وقد ارتخت الخطوط المستقيمة حول شفتيه، بمجرد أن شاهدت ذلك، حتى شعرت أن جسدها قد تحول إلى لوح من الرخام البارد، لذا انسحبت وأبعدت حتى يديها.

قالت، "أما عن فنجمو، لا تتعب نفسك بشىء. أما عن هذا المعلم، فأنا أظن أن لين يى ترغب أن يكون من سوف يتزوجها إنساناً يستطيع أن يتحدث لغة أجنبية. هى وصفت فنجمو من قبل أنه دقة قديمة. لكن أقول لك، هو سوف يكون مستعداً للزواج من هذه الفتاة فى مدى شهر من الآن. وتأكد من حديثى هذا!"

قال وهو يضحك، "أنت المختصة بالتخطيط وحبك المؤامرات فيما يختص بحياة الرجال!". عاد إليه إحساسه بتذوق الفكاهة مرة أخرى، ثم نهض وهو يضحك ويهز رأسه، ثم خرج.

بعد عدة دقائق، عادت ينج لتجد المدام وو فى واحدة من حالات الصمت التام. ما إن شاهدت ينج حتى رفعت رأسها:

"ينج، خذى معك بعضاً من الصابون المعطر الذى أستخدمه وأعطيه لشيومنج، على ألا تستخدم غيره". بدأت مظاهر الصدمة تتبدى على وجه ينج.

قال المدام، "لا تنظرى لى بهذا الشكل، هناك المزيد عليك أن تفعليه. خذى واحداً من أمشاطى المصنوعة من خشب الصندل وأعطيه لها، كذلك انثرى بعضاً من رماد خشب الصندل ما بين ملابسها الداخلية"

قالت ينج وهى حانقة، "فليكن ما تريدين"

فى تلك اللحظة شاهدت المدام وو غليون السيد وو، لقد وضعه على جانب من المائدة وهو يخرج. أدركت فى التو واللحظة أنه قد تركه متعمداً علامة على أنه سوف يعود. إنها علامة قديمة بين الرجل والمرأة، وهو ترك الغليون فى مكان نوم المرأة.

أشارت هى نحوه عندما استدارت ينج. كان صوتها اللطيف حاداً، "ينج، لقد نسى هو غليونه. أعيديه إليه". استدارت ينج وبدون أى كلمة، التقطت الغليون وغادرت.

* * *

عندما انتهت مدام وو من تجهيز القماش الحريرى، كان الظلام قد حل وصعب عليها أن تميز الألوان. ما كادت تنير الشموع حتى حضر إليها فنجمو. لقد خلع ملابسه المدرسية وارتدى سترة طويلة من الحرير السمنى المطرز وقد مشط شعره القصير إلى الخلف بعيداً عن جبهته المربعة. عندما حيته أمه، عبرت أيضاً عن إعجابها به.

"هذه السترة أفضل كثيراً من البنطلونات"، ثم أخذت تراقب جبهته أثناء حديثها. هى جبهة رائعة التكوين، لكن لا يستطيع المرء أن يخمن نوعية المخ الساكن تحتها. لقد بدأ فنجمو الآن فى عبور منطقة الرجولة.

"هل تستطيع أن تتذكر الكلمات التى كنت ترددها بالأمس؟". سألت ذلك وهى تبتسم.

قام هو بإشعال سيجارة أجنبية، والتى كان هو وأخوه تسيمو يشعلان الكثير منها، وكانت تعرجات الدخان الصادرة منه تناسبه تماماً. لم يجلس، بل أخذ يسير فى أنحاء المكتبة. فجأة توقف عن المسير وأخذ يكرر الكلمات التى حفظها بكل وضوح.

"ألم تفهم بعد معناها؟"

هز رأسه، "لا، لكن سوف أسأله الليلة عن معناها"

توقف ليتسمع، ثم صاح، "إنه آت"

سمعا صوت الخطوات الثقيلة للحذاء الجلدى على الأحجار، ثم شاهدا الأخ أندريه واقفًا على الباب وبرفقته البواب، هذا الذى انسحب فور مشاهدته لمدام وو.

قالت المدام فى مجمل ترحيبها بالضيف، "هل تناولت طعامًا؟"

"إننى أتناول طعامًا فى منتصف النهار فقط". كان يبتسم ابتسامة خجولة. مرة أخرى، شعرت هى أن كل ما فى الغرفة، بما فيها هى، قد انكمش وصغر بالمقارنة بهذا العملاق، لكن هو لم يكن واعيًا سواء بحجمه أو حتى بنفسه.

"كان فنجمو يردد تلك الكلمات التى قمت أنت بتعليمه إياها بالأمس، لكن نحن لا نعرف معناها"، قالت ذلك وهى تجلس.

"لقد أعطيته كلمات نطق بها رجل إنجليزى من مواطنى إنجلترا، عاش ومات هناك، لكن روحه تجولت فى كل مكان"

توقف قليلا كما لو أنه يفكر، ثم ترجم الكلمات بشكل غنائى ملحن:

ليس عن طريق النافذة الشرقية فقط،

ينفذ إلينا ضوء النهار، ثم بعدها يحل الضياء،

أمامنا، تتسلق الشمس بطيئة، ويا له من بطء،

لكن من جهة الغرب، انظر، الأرض تسبح فى الضياء

استمعت مدام وو وابنها لهذه الكلمات، وبدا عليهما كأنهما يحتسيان هذه الكلمات.

تساءلت مدام وو بنوع من التشكك، "هذا ليس قولا دينياً؟"

"إنه شعر. إننى أدرس ابنك أولى الكلمات الإنجليزية التى تعلمتها. أنا لم أفهمها عندما استمعت إليها للمرة الأولى، عندما كنت ولداً صغيراً فى إيطاليا".

"إذن فهذه الشمس نفسها تنير كل العالم"، قالت ذلك ضاحكة، "سوف تضحك على أيها الأخ أندريه، لكن على الرغم من أننى أعلم الكثير، لكنى كنت على وعى كامل أن الشمس تخصنا نحن فقط".

"الشمس لنا جميعًا، ونحن الذين نعكس ضياءها ، واحد للآخر، فى الشرق والغرب، فهى تشرق ثم تغرب".

بدا الأمر وكأن جدران الغرفة قد اختفت عن الأنظار؛ أيضًا جدران الساحات بدأت تتراجع، شعرت هى بلحظة من الصفاء والضياء والرؤية الخالصة، تخيلت عالمًا مليئا بالأراضى والناس تحت سقف السماء نفسها. وفى البحار السبعة، الأمواج نفسها التى تعلو ثم تهبط هادرة.

كانت شغوفة أن تظل برفقتهما لكى تستمع إلى الدرس الثانى، لكنها كانت على وعى من أن فنجمو لن يكون فى حالته الطبيعية إذا بقيت فى مكانها، لذا نهضت، "من فضلك، علم ابنى"، ثم غادرت.

* * *

سألت هى مدام كانج، "يا ترى، ما هى مشاعر لين يى وقد علمت الآن أن فنجمو يتعلم اللغة الإنجليزية؟"

كانت صديقتها قد حضرت إليها فى وقت متأخر فى أمسية ما، بعد نهاية مشاغل اليوم الطويل. هنا كان واضحًا نوع الصداقة التى تربطهما سويًا، فزيارات مدام وو لصديقتها فى منزلها تعد على أصابع اليد الواحدة خلال العام، لكن المدام كانج كانت تزور صديقتها مرتين أو ثلاثة خلال الأسبوع الواحد، لكليهما، كان هذا أمراً طبيعياً.

أجابت مدام كانج، "أنا أتعجب من ابنتى هذه. قالت إنها سوف تتزوج فنجمو إذا أعجبت به بعد تقابلهما سويًا عدة مرات، وذلك بعدما أصبح مواظبًا على تعلم اللغة الإنجليزية. يا له من أمر مخجل ومحرج أن تطلب مقابلات مثل هذه! مع ذلك، أنا أتذكر وأنا فتاة صغيرة، أن دفعتنى واحدة من الخادمات أن أنظر من فرجة صغيرة فى النافذة على مستر كانج، الذى أتى مع والده لزيارتنا بمناسبة بداية العام الجديد. ولم أذكر هذه الواقعة لزوجى بعد ذلك إلا بعد ولادة ابنى الأول. طوال هذا الوقت، كان يجثم على قلبى خجل فظيع من عملتى هذه، معتبرة أننى قد ارتكبت معصية".

صدر من مدام وو ضحكتها الرقراقة، "بلا شك أن الضرر قد وقع بمجرد حدوث هذه النظرة المختلسة".

"لقد وقعت فى غرامه من النظرة الأولى". إنها تعترف بذلك الآن بلا خجل.

"آه، يا لها من لحظات. ربما تلاحظين أن على المرء أن يكون مستعداً لها، فقلوب الشباب هى كالنار التى تود أن تلتهب وتشتعل، مادام أن الشعلة والوقود على قرب. لكن كيف يمكن لنا أن نرتب لقاء أو اثنين بين هذين، أو حتى عدة لقاءات؟"

كانت الصديقتان تجلسان وهما تستمتعان بنسمة المساء، على المائدة وضعت ينج شرائح من البطيخ ذات القلب الأصفر الحلو المزين باللب الأسود اللامع. اقتربت مدام من صديقتها وجلست بجوارها، "خذى من هذا البطيخ، سوف ينعشك، يبدو على وجهك علامات الإرهاق والتعب".

ظهرت بعض علامات الإحراج على وجه مدام كانج وهى تستمع إلى تلك الكلمات الرقيقة. فى الحال أخرجت منديلا معطراً من صدرها وفردته على وجهها وأخذت فى العويل والنحيب، هى لم تمنع صدور هذا الصوت مادام أنهما بمفردهما.

باندهاش قالت مدام وو، "الآن يا متشن، ممكن أعرف لماذا تنهنهين؟"

جذبت مدت مدام وو المنديل من وجه صديقتها، لاحظت أنها تبكى وتضحك فى آن واحد. قالت مدام كانج، "أشعر بخجل شديد يا عزيزتى أيلين، لا أستطيع أن أخبرك. يمكن لك أن تخمنى..".

قالت مدام وو بقسوة، "أنت لست....."

"نعم. هذا ما حدث"، كانت عيناها الصغيرتان المرحتان، يتبدى فيهما كل عناصر المأساة.

صاحت فيها مدام وو، "أنت، في سنك هذا، وعندك كل هؤلاء الأولاد والبنات!"

"أنا من نوعية النساء اللاتى يحبلن حتى لو وضع رجلها حذاءه ملاصقًا لها على السرير".

عجزت مدام وو عن النطق، كانت رحيمة بصديقتها لذا عجزت حتى أن تلومها، لأنها لا تماثلها. قالت مدام كانج وهى تهرس وتعصر منديلها الذى امتلأ بالدموع، "الشىء العجيب هو أننى لا أهتم بتعليقات أبنائى سوى ابنتى لين يى، هى التى دائمًا ما تعيرنى بأننى سمينة، وأننى لا أمشط شعرى على الموضة، وإنه مما يدعو للرثاء أننى لا أعرف القراءة أو الكتابة، المنزل قذر، البيت يشغى بالأولاد الصغار والبنات. إذا استمر بقاء هذه البنت عندى، فإننى سوف....".

قاطعتها مدام وو، "يجب أن تأتى لين يى إلى هنا بأسرع وقت ممكن". فى أعماق ضميرها ، كانت تتساءل، هل من الحكمة جلب تلك الفتاة العنيدة إلى منزلها، تلك التى تنتقد أمها بهذه القسوة؟

قالت مدام كانج وأمارات الأسى على وجهها، "أعتقد أنها تخاف منك، ولو أنها لا تخاف منى أو من أبيها".

فجأة انطلقت ضاحكة وسط دموعها عندما تذكرت زوجها، "يا له من رجل مسكين. عندما أخبرته هذا الصباح، أخذ يشد فى شعر رأسه قائلا، "المفروض أن أرحل إلى مدينة أخرى أبعد فيها عنكم وأستأنف فيها تجارتى".

لم تعلق مدام وو، وطال الصمت، لذا أضافت مدام كانج بنوع من المكر، "ربما تكونين أنت يا صديقتى أوفر حظًا لأنك لا تحبين زوجك".

شعرت مدام وو على الفور بنغزة قوية تخترق قلبها، هى لم تتعود على هذا الأسلوب الصادم من صديقتها.

أجابت، "ربما لا يكون الفرق بيننا هو الحب، لكن فى إمكانية ضبط النفس"، ثم تناولت شريحة بطيخ، "أو ربما أنا من النوع الذى لا يتحمل أن يضحك عليه أحد، فأنت ، قبل كل شىء أقوى منى بمراحل".

"أرجوك لا تغضبى منى"، ثم وضعت ثقل ذراعها السمين فوق اليد النحيفة لمدام وو، "نحن نعانى سويًا من المشكلة نفسها يا أيلين، وكل النساء يتعرضن لذلك. أنت قمت بحل مشكلتك بطريقة ما، وأنا فعلت ذلك بطريقة مختلفة".

"لكن هل يعتبر ما فعلتيه حلاً؟"، شعرت أن حبها الدائم لصديقتها بدأ فى ترقيق مشاعرها نحوها، لذا شبكت أصابعها النحيفة مع تلك الأصابع الكثيفة المستديرة.

أجابت مدام كانج، "أنا لا أستطيع أن أفعل ما صنعتيه أنت. ربما أنت إنسانة حكيمة، لكنى أنا لست متسلحة بهذه الحكمة إذا كان الأمر يتطلب جلب امرأة تقف ما بينى وبين رجلى العجوز".

من كان يظن أن قلب مدام وو سوف ينفطر فى تلك اللحظة، وتشعر بألم ممض يمسك بتلابيبها. شعرت فجأة أنها وحيدة بالكامل، على الرغم من أن يدها كانت متشابكة فى يد صديقتها، شعرت أنها تقف فوق قمة جبل يحيط بها الثلج والبرد من كل جانب وتشعر بالضياع والوحدة. أرادت أن تصرخ، لكن الصوت لم يطاوعها، انحشر فى زورها، لقد أخفاها الغسق، لذا لم تستطع مدام كانج أن تلحظ ذلك البياض الذى كسا وجهها، لم تلاحظ جسد مدام وو وهو يتشنج فى حالة من الخوف الغريب.

فى وسط هذا الرعب، شاهدت الأخ أندريه قادمًا. ظهر بجسده العملاق، فغطى وكسا شعورها بالوحدة وترجم نفسه فى رغبة قوية أن تتحادث معه.

قالت شاكرة، "الأخ أندريه، تفضل، سوف أستدعى ابنى على الفور"

تركت قبضة صديقتها وقدمت هذا الرجل لها، "متشن، هذا هو مدرس فنجمو، هو الأخ أندريه. وهذه هي صديقتي التي أعتبرها أختًا لي".

أحنى الأخ أندريه رأسه دون أن ينظر إلى مدام كانج، لكن وجهه كان طيبًا. ثم دخل غرفة المكتبة، وهناك تحت الشمعة، شاهدوه وهو يبرز كتابًا من جيبه ويبدأ في القراءة.

صاحت مدام كانج في همس، "يا له من عملاق، ألا تخافين منه؟"

"إنه عملاق صالح. تعالى، سوف يحضر فنجمو بعد لحظات. لا يجب أن يبدو علينا أننا نتحدث بشأنه. دعينا ندخل هذه الغرفة".

"لا، يجب أن أعود إلى منزلي، لكن قبلما أعود، هل سوف تتقابل لين يي مع فنجمو أم لا؟"

"سوف أتحدث معه، وإذا أبدى رغبته في ذلك، سوف أحضر به إلى منزلكم المرة الأولى، وفي يوم آخر من الممكن أن تحضري أنت ومعك هي. أعتقد أن مرتين فيهم كل الكفاية لأن يفهما بعضهما".

"أنت محقة دائمًا". قالت مدام كانج هذا وهي تشد على يد صديقتها، ثم غادرت.

* * *

قامت مدام وو بالإبقاء على فنجمو فترة بعد انتهاء الدرس. لقد استمر بقاء الرجلين فترة أطول من المعتاد منكبين على كتبهم. كانت مدام وو تعبر أمام الباب غير مرئية بسبب الظلام، وتلقى بنظراتها على الداخل. شيء ما في مظهر فنجمو المصغي، وشيء من هذا التركيز العميق الذي يبديه الأخ أندريه، جعلها تشعر بالخوف، فهل يقوم هذا القس بالتأثير والتغلغل في روح هذا الولد بقوة شخصيته وكيانه؟

جلست على مقعد من البامبو وقد حل عليها نوع من الضعف الغريب، تشعر بالراحة في هذا الظلام الحالك، وأخذت تفكر، "كيف يحاول الإنسان أن يفعل الحسن، وكم مرة

يفشل! كيف كان فى إمكانى أن أقوم باستدعاء هذا القس لكى يدرس لابنى، وأنا لا أعلم أن هذا الرجل معبأ بإلهه، لدرجة أنه يبرق ويلمع ويجذب الكل نحوه وإليه؟

أدركت الآن أن روح فنجمو، فى تلك اللحظة، فى فترة يقظته تلك، عندما لا تسحره امرأة، ربما يجابه سحر إله. هى بالطبع لا ترغب أن يصبح ابنها قسًا، هذا لأسباب كثيرة؛ لكن أهم هذه الأسباب هو أن جسد القس عقيم، والسماء تكره العقم فى كل شىء. عندما يقوم إله بجذب الروح من الجسد، فإن هذا الجسد ينتقم لنفسه ويدمر الروح ويتلفها. الجسد والروح هما شريكان، ولا يجب أن يهجر أحدهما الآخر. إذا حدث بعد خمسة وعشرين عامًا من الآن أن استطاع فنجمو أن يخلف الأولاد والبنات، هنا من الممكن أن يصبح قسًا، ويفعل كما يفعل هؤلاء فى معابدهم، فى تلك الحالة يمكن أن تدعه يخدم روحه، مادام أن جسده قد نال شبعه، لكن الآن!

هل يتحتم عليها أن تدخل عليهما الآن وتكسر هذا السحر الذى بدأ ينسج خيوطه؟ ترددت وهى واقفة أمام الباب غير مرئية، ثم انسحبت. فهى الأم، مجرد الأم، وهى ليست بهذا القدر من القوة بحيث يمكن لها أن تقف صامدة أمام هذا القس العظيم. ولكى يوضح أنه مستقل عنها، وليس لأى سبب آخر، فإن فنجمو سوف يقف ضدها. لا، يجب عليها أن تبحث حالا عن امرأة فتية، فتاة مرحة، قطعة جميلة من اللحم والدم تساعدها. يجب أن تحضر لين يى بأقصى سرعة.

ما إن انتهت ساعة الدرس، حتى نادت وهى فى ظلام الخارج، "الأخ أندريه، أشكرك لأنك تتعب نفسك فى التدريس لابنى العـزيز وبشكل ممتاز. إلى الغد إذن، ومع خالص تحياتى".

تقدمت ودخلت إليهما وهى تنطق بهذه التحيات. كل من الرجلين توقفا كما لو أنهما قد فوجئا بحضورها المفاجئ. أحنى الأخ أندريه رأسه، ثم خرج برشاقة، بينما يلقى رداؤه الطويل ظلالا خلفه، لكن مدام وو وضعت يدها على كوع فنجمو، وعندما حاول أن يتتبع القس، أمسكت به بقوة.

"يا ابنى. امكث معى قليلا، لدى أمر غريب أود أن أخبرك به".

شعرت بحركة رفض تبرز من ذراع فنجمو، لذا رفعت يدها، "ابني الحبيب، أشعر أحياناً بنوع من الوحدة الغريبة، والليلة فقط، هل تبقى معي وقتاً قليلا؟"

أي ابن ذاك الذي يمكنه رفض هذا الصوت؟ وضعت ذراعها مرة أخرى على ذراعه مرة أخرى وجذبته برفق، "تعال واجلس معي في الظلام البارد في الخارج. هل تسمح لي أن أتحدث معك؟لكن أرجو أن لا تجيب قبل أن أنتهي من حديثي بالكامل.

"كما تشائين يا والدتي"، لكن هي لاحظت أنه يود أن ينفلت منها ويتحرر. آه، نعم، هي تفهم هذه العلامات جيداً!

انطلق صوتها بعد ذلك يغرد في الظلام، "لا أدري كيف أخبرك"، ثم صدرت منها ضحكة محرجة، "لقد كبرت أنت الآن...أصبحت رجلا. أعتقد أن من الواجب أن أتوقع.... حسناً، لا يجب أن أكون أنانية. لين يي تود أن تتحدث معك. مثل هذه الأمور ما كان من الممكن أن أنطق بها عندما كان أخوك الأكبر ليانجمو في سني عمرك، ولا أظن أن منج كانت قادرة أن تطلب منه ذلك، لكن أختها لين يي مختلفة عنها، أنت أيضاً مختلف عن ليانجمو.

تدفق هذا الصوت الجميل في رحاب الليل، كان من الصعب أن يصدق أن هذا هو صوت والدته، كله فتوة، به لمحات من الخجل، نصف ضاحك، متقطع بوقفات معينة.

تساءل بسرعة، "وكيف علمت بذلك؟"

"هذا اليوم، أخبرتني والدتها بذلك"

هكذا وقد استندت مدام وو على ظهر مقعدها، وقد رفعت وجهها ناحية تلك السماء السوداء الناعمة، كانت تقيس كل نغمة تصدر من صوت فنجمو. شعرت بنوع من الاستثارة، كما لو أنها تدافع عن نفسها ضد قوى ربما تكون أقوى منها، لكن هي مع ذلك سوف تنتصر، فهي لديها فنجمو الجسد، والجسد أقوى من الروح في الرجال.

"ربما أكون قد ارتكبت خطأ ما"، قالت ذلك كما لو أنها مبتئسة بسبب صمت فنجمو، "كانت فكرتي الأولى بسبب هذه الجرأة التي أبدتها لين يي - هو أنني لا أرغب أن تحل في منزلنا هنا على الدوام".

كانت هذه هى الكلمات الصائبة، فقد أجابها فنجمو مندفعًا وسط رحم الظلام، وهو ينحنى نحوها، وشعرت بأنفاسه الشابة على وجهها.

"أنت يا أمى لا تفهمين!"

"حقًا"، شعرت بالاطمئنان مـــرة أخرى بسبب تلك الكلمات المـــألوفة للشباب، فهذا ما ينطق به الجميع لأمهاتهم.

"هناك الكثير من الشباب والشابات يتقــابلون سويًا هذه الأيام، ولم يعـد الأمر كما كنت أنت صغيرة، وحتى عندما تزوج ليانجمو"

تنهدت، "ربما تكون على صواب، كل ما أرغبه فى حياتى هو أن تكون سعيداً، هذا كل ما فى الأمر. أنا لن أرحب بلين يى إذا لم ترغب أنت فيها، من الممكن أن أبلغ أمـها أنها لا تناسبنا، بذلك تدرك أمها أنك لست مهتمًا بهذه الفتاة".

"بالطبع سوف أقابلها"، قال ذلك بلهجة سيادية، "ولمـاذا أعترض على ذلك؟"

"فنجمو"، قالت ذلك بلهجتـها التوسلية نفسـها، "أرجوك أن لا تدع لين يى تتخيل أشياء معينة، فهناك الكثير من أجمل الفتيات اللاتى يرغبن دخول منزلنا هذا. الآن أنا أفكر فى شيء معين يختص بهذه الفتاة، أعتقد أنها إلى حد ما حولاء".

"إذا كانت هكذا، فسوف أكتشف أنا ذلك"

"إذن هل يمكن أن أخبر والدتها أننى أنا وأنت سوف نحضر إليهم بعد أيام قليلة لكى...."

تساءل بكل وضوح، "ولمـاذا أنت يا أمى؟"

أجابت بحدة، "فنجمو، أنا لا أستـسلم بسـهولة، كيف يمكن أن ترى تلك الفـتـاة هكذا بمفردك؟"

قال بلهجة غاضبة، "بالطبع سوف أراها بمفـردها، فـهل المفـروض أن تقودينى كما لو كنت طفلا صغيراً؟"

قالت بانفعال، "ماذا إذن إذا قلت إنك لن تذهب على الإطلاق؟"

"أمى، لا تقولى هذا، أنا لا أود أن لا أطيعك"

حل الصمت بينهما الآن. قامت هى من مقعدها ، "إذن فأنت تصر أن تذهب إلى لين يى بمفردك؟"

"نعم، هذا ما سوف أفعله"

"اذهب إذن"، ثم انسحبت عبره ودخلت غرفتها. هناك وجدت ينج فى انتظارها. لقد سمعت ينج الصوت العالى الغاضب، "سيدتى، ماذا...". لكن المدام رفعت يدها، "انتظرى!"، ثم همست، "اسمعى!"

وقفتا يتسمعان، فم ينج فاغر، عين مدام وو تلمع بوجه ضاحك. سمعا صوت أقدام فنجمو الغاضبة وهو يغادر الساحة. أخذت مدام وو تدور متراقصة وتضحك.

"يا سيدتى، ما الموضوع؟"

"أوه، لا شىء"، قالت ذلك بمرح، "لقد رغبته أن يفعل شيئًا معينًا، وهو سوف يفعله، هذا كل ما فى الأمر"

* * *

لم يقترب نحوها فنجمو اليوم التالى، لكن فى صباح اليوم التالى حضرت إليها مدام كانج، وتصافحا سريعًا. قالت الضيفة، "لقد تقابل كل من فنجمو ولين يى".

ابتسمت مدام وو، "وكيف كان اللقاء؟"

"لقد ضحكت وبكيت فى الوقت نفسه"، قالت ذلك وهى تبتسم، "جلست بعيدًا عنهما متظاهرة بأننى ولا أنا هنا. كانا يرغبان أن أختفى كلية عن أنظارهما، لذا لم يتحدثا بسببى. كانا ينظران نحو بعضهما فى عمق. لم يتحرك أيهما، فقط كانا يحدقان هكذا. غبت عنهما عدة دقائق ثم عدت فوجدتهما كما كانا يحدقان. فجأة وجدته يقف ويقول لها، "إلى أن نلتقى مرة أخرى"، ثم خرج.

تساءلت مدام وو، "فقط نطق بهذه الكلمات العامة؟"

"لكن كيف كان ينطق بها؟ سوف تضحكين يا أيلين. لكن هذه الكلمات جعلتنى أسرع لأجلس بجوار رجلى العجوز".

"لعله ظن أنك على نياتك وإنسانة ساذجة"، قالت ذلك وهى تبتسم.

"آه، نعم"، كانت تضحك، "لم أخبره بالطبع عن شىء، لم أود أن أثيره مرة أخرى"

"ما الضرر الذى يمكن أن يحدث من جراء ذلك؟"

"آه يا أيلين، لا تضحكى، سعدت عندما شاهدت هؤلاء الشباب كلهم سعادة وإقبال على الحياة، لكن هناك بالطبع مخاطر قد تحدث، ولا يستطيع المرء أن يخبر الشباب بالحقائق".

"إذن يجب أن يتم هذا الزواج بأسرع وقت ممكن"

"بالطبع كلما كان الموعد قريبًا كان هذا أفضل، فمن الخطأ الجسيم أن تشعلى النار تحت إناء فارغ".

لم يقترب فنجمو من أمه سواء هذا اليوم أو التالى، ولم تره إلا عندما حضر الأخ أندريه ليلا. هى كانت تمر كالمعتاد أمام الباب، وتفعل ذلك عدة مرات. كان فنجمو يسأل أستاذه عن كلمات إنجليزية جديدة. أراد أن يكتب خطاباً. نظرت هى نحو وجه أندريه، كان الرجل عطوفًا وصابراً على تلميذه، كان محتاراً وهو يتهج الكلمات لفنجمو مرة ومرات ويكتبها له. استمعت مدام وو إلى كلمات الخطاب دون أن تفهم لها معنى، فهى كلمات غريبة، لكن أن لا تفهمها، فهذا لا يهم، فنجمو يفهمها، أيضًا لين يى سوف تفهم. كان فى شوق بالغ أن يكتب لها خطاباً باللغة الإنجليزية. أخذت مدام وو تضحك فى سرهاوهى فى الظلام، لكنها شعرت بالعار أمام الأخ أندريه بسبب السهولة التى انتصرت فيها، لذا تركت مكانها ولم تره هذه الليلة. بدلا من ذلك ذهبت مبكرة إلى سريرها واستغرقت فى نوم عميق.

(٧)

في يوم صحو رائق في نهاية الشهر التاسع، حضرت لين يي إلى المنزل عروسًا، كان الموسم مناسب لعقد مراسيم الزواج، والمحاصيل جاهزة للحصاد، والأرز ثقيل فوق فروعه. لقد توقف مسار الصيف بينما الخريف لم يصل رسميًا بعد.

تجمعت العائلتان بكل البهجة للاحتفال بهذا الارتباط الثنائي بين العائلتين، وكان كل من ليانجمو ومنج هما أكثر الحاضرين سرورًا وابتهاجًا. جسد منج كان يختال بحملها الجديد، وهي الآن دائمًا ما تشعر بحالة من الجوع المستمر ليلا ونهارًا، وقد غادرها إلى الأبد أوجاع قيء الصباح. بدت في قمة الجمال تتفجر سعادة وهي ترحب بأختها العروس. كل من أم العروس والعريس اتفقا أن يستجيبا لرغبة العروسين ، من أن لا ينهمكا في عرض طويل لمراسم الزواج، كما حدث عندما تزوج كل من ليانجمو ومنج، فقضاء ثلاثة أيام لإتمام الزواج هو وقت طويل في نظر العرسان الجدد. إنهما يرغبان في ذلك الزواج السريع الذي يناسب أوقاتنا الحديثة وأن يتم النطق بالعهود أمام الكبار، وهذا كل ما في الأمر.

وهذا ما حدث. حرصت مدام وو على أن لا تغضب أهالي مدينتها من الأقارب. والأصدقاء الذين استاءوا من اختصار احتفالات الزواج المعتادة، لذا قامت باستئجار خدمات مطعم كبير لمدة ثلاثة أيام. هذا بالطبع كان في مصلحة المنزل حتى لا يدمر بسبب الأقدام المتزاحمة داخله.

بعد نهاية يوم الزواج، علقت مدام كانج بقولها، "بصراحة هناك فوائد جمة من اتباع الطرق الحديثة لإتمام الزواج". مرة أخرى تجمع الرجال في جناح السيد وو

والنساء فى جناح مدام وو، ثم تم تقديم الفطائر والحلوى للنساء، واللحوم الفاخرة للرجال، بينما انسحب كل من فنجمو وعروسه إلى جناحهما الجديد. للحظ الحسن، كان أحد أبناء العمومة قد توفى منذ شهر سابق وترك غرفتين خاليتين، وبناء على أوامر مدام وو، تم إصلاح هاتين الغرفتين ودهانهما، وأمنت مدام وو على ذلك بقولها، "بالتأكيد نحن لم نكن مضطرين أن نرمم أثاثًا مكسورًا أو أرضية مهشمة، كما حدث معنا عندما تزوج كل من ليانجمو ومنج".

كانت هى سعيدة للغاية هذه الليلة ، كما هو الحال معها دائمًا عندما تتم تسوية أى شأن منزلى معلق، شعرت أيضًا أنها قد اكتسبت المزيد من حريتها. ولمدة أسبوع، بناء على رغبة فنجمو، لم يتلق دروسه، لذا لم يحضر الأخ أندريه، ولم تعارض مدام وو، فهذه هى ساعة قضاء مطالب الجسد. إنها الآن لا تخشى قوة الأستاذ، وأن يحضر الآن أو لا يحضر، هذا لا يهم. لقد أنقذت فنجمو ذخرًا للعائلة.

كانت الساحة مضاءة بمصابيح عليها أوراق حمراء، وهذه جذبت نوعية من الحشرات الغريبة من رحم الظلام، كثير منها كانت بلون رمادى وأذناب بلون ترابى، لكن بين الحين والآخر، تظهر نوعية عملاقة لها ذيل لونه أخضر باهت وأجنحة بلون أسود وذهبى، هنا صرخت النسوة ولم يهدأن إلا بعدما أمكن حبس هذه الحشرة ثم القضاء عليها وتثبيتها على الباب بدبوس. الجميع أشاد بجمالها بينما هن يجلسن على راحتهن يأكلن أنواع الحلويات المختلفة. أكثر الحاضرات تمتعًا بما يحدث هى السيدة العجوز التى ما فتئت تصفق بيديها فى سرور.

واحدة من تلك الحشرات أمكن القبض عليها عندما حضرت شيومنج إلى الساحة، وقد لمحتها مدام وو فى التو واللحظة، وكالمعتاد لم تبد أى علامة أو حركة زائدة. اتخذت هذه الفتاة مكانها فى هذا المنزل ما بين اليوم والتالى، فى صمت وخشية، لا أحد يحادثها، سواء بخير أو شر، لكن مدام وو كانت دائمًا على وعى بتواجدها، أحيانًا هى عندما تستيقظ ليلا تتعجب من ذلك – ثم تستبعد هذا التعجب.

الآن، عندما حضرت شيومنج، رأتها مدام وو. بدت تلك الفتاة نحيلة وشاحبة نوعًا، لكنها جميلة فى رقتها، ويبدو عليها شىء من التأنيب الصامت، لذا حدثت المدام وو نفسها، "يجب أن أسال عنها. بعد انتهاء مراسم هذا الزواج سوف أرسل أستدعيها"

مرة أخرى، كما اعتادت أن تفعل، قامت باستبعاد صورة شيومنج من ذهنها. فى الوقت نفسه، جعلت شيومنج من نفسها مشغولة بأداء الواجبات مثل صب الشاى للضيوف. لقد استطاعت أن يكون لها دور فى أحداث هذا اليوم، لكن بطريقة هادئة غير ملحوظة مثل تقديم الأطعمة أو رعاية الأطفال أو ما شابه. كان بين الحين والآخر، تنادى إحداهن، "أيتها السيدة الثانية، استريحى قليلا!"، فيكون رد شيومنج الجاهز دائمًا، "أنا لن أفعل أزيد مما أنا مشغولة به الآن".

الآن وهن مشغولات فى الحملقة على الحشرة الجديدة، هى، أيضًا، ذهبت لتنظرها. كانت هذه الحشرة بلون أصفر مماثل للون الليمون المسمى باسم "يد بوذا"، لها أيضًا ملمس أسود طويل. هذه الحشرة أخذت ترتعش عندما ثبتت بالدبوس، وأخذ الجناحان الواسعان يرفرفان بينما ظهرت عليه بقع سوداء وخضراء وذهبية للحظات، ثم سكنت.

قالت شيومنج فجأة، "سريعًا هكذا تموت!"

التفت الجميع على صوتها، وكما لو أنها أدهشت نفسها بهذا الحديث، لذا انكمشت على نفسها متراجعة.

ثم وهى تبتسم ابتسامة يتبدى فيها بعض الألم وبعض الخجل، وقفت حتى جلس الجميع، وفى سكون، تسللت خلف الأخريات حتى وصلت إلى حيث تجلس مدام وو، ثم صبت لها كوبًا من الشاى قائلة، "لقد برد الشاى فى كوبك، سوف أدفئه لك".

"أشكرك". جلست المدام ساكنة، بينما انحنت شيومنج لتؤدى هذه المهمة، وبينما هى فى هذا الوضع، تنسمت المدام رائحة خشب الصندل، وهى تفعل ذلك، كانت تحدق فى وجه الفتاة. كان هناك ملمح من الانكسار والهم منطبعًا فى وجهها.

قالت تلك بصوت خفيض، "هل أستطيع أن يكون لى معك كلمة أيتها الأخت الكبيرة؟"

"بالطبع يمكن ذلك"، لم يكن أمامها سبيل غير هذا، وإلا كيف لها أن ترفض؟ لكنها شعرت أن التعاطف الذى صبته على هذه الفتاة قد فارقها، فما هى تلك المتاعب الجديدة التى تلوح ظلالها فى الأفق؟أخذت تحتسى الشاى بتؤدة صامتة إلى أن غادر كل الضيوف.

غادر هؤلاء، وظلت باقية كل من شيومنج وينج.

قالت المدام، "غادرى الآن يا ينج. عودى بعد فترة"

لم تشأ هى أن تأخذ شيومنج إلى جناحها، فالهواء فى الساحة كان بارداً ومنعشاً، بينما الأوركيديا الزرقاء تزدهى بلون قرمزى تحت أضواء المصابيح. كانت منج قد أحضرت للمدام أوائل القطفات من حبوب اللوتس، واللحم الداخلى فى اللب كان بلا رائحة وطعمه لذيذ.

جلست هكذا بعد خروج كل الضيوف، ثم تناولت واحدة من هذه الثمار الطرية الكبيرة، بينما وقفت أمامها شيومنج كلها تردد وخشية. قالت مدام وو، "كنت دائمًا مشتاقة إلى أكل حبوب اللوتس هذه، لذا دعينا نتحدث ونحن نأكل منها".

لكن شيومنج قالت، "أنا لن آكل منها، أشكرك"

"إذن سوف أسلى نفسى بها وأنا أنصت لك". بيديها الرقيقتين كانت تفصص هذا اللب. تبدو يدا المدام وو كأنما تفتقر للقوة، لكن هى فى الواقع قوية، فغلاف هذا النوع من اللب كان من قشرة صلدة، لكنها استجابت سريعًا لضغط أصابعها، وتناولت من داخلها العديد من الحب الداخلى بواسطة أسنانها الصغيرة الحادة، التى كانت سليمة وبقوتها نفسها منذ أن كانت فتاة صغيرة، وبها استطاعت بسهولة أن تفصل القشرة الخضراء للحب للوصول إلى اللب الأبيض الداخلى اللذيذ.

ناشدتها شيومنج، "دعينى أقشر لك بعضًا منها".

لكن مدام وو شعرت بنوع من الاشمئزاز من يدى شيومنج التى سوف تمسك بها الحب الأبيض، لذا قالت، "لا، دعينى أفعل ذلك بنفسى". وكأنما استشعرت الفتاة معانى خاصة من وراء هذه الإجابة، لذلك لم تكرر العرض.

بينما تقف شيومنج تشاهد عملية فصل اللب من القشر، وبينما هى تستمع لأسنان المدام وهى تهرس اللحم الطرى، كلاهما لم ينطق حرفاً، ثم فجأة، وكأنما شعرت المدام أنها قد شبعت، قامت بإلقاء المخلفات فوق الأحجار، ثم قال سريعاً، "أنت حامل إذن"، واستخدمت الكلمة العامية للتعبير عن ذلك، تلك التى يمكن أن تفهمها المرأة من العامة. نظرت نحوها شيومنج قائلة، "أحمل سعادة داخلى"، لقد صححت لها الجملة، واستخدمت التعبير الذى تنطق به نسوة البيوتات المحترمة عندما يتوقعن وصول وريث.

لم تحاول مدام وو أن تصحح مقولتها الأولى أو مقولة شيومنج، قالت باللهجة نفسها الحادة، "أنت كنت سريعة فى إنجاز هذا الموضوع"

لم تجب شيومنج، أحنت رأسها وجلست وقد وضعت يديها مبتعدتين فوق حجرها وقد رفعت كفهما إلى أعلى وأصابعها متفرقة.

"قالت مدام وو بأسلوبها الحاد نفسه، "أعتقد أنه شعر بالفرح وهو يستمع لتلك الأخبار".

نظرت إليها شيومنج بعينيها الواسعتين الأمينتين، "إنه لا يعرف. لم أخبره"

"شىء عجيب". كانت تشعر بالغضب من شيومنج، تعجبت أيضاً من غضبها هذا، لقد أحضرت شيومنج إلى هذا المنزل لهذا الغرض نفسه، والفتاة قامت بالوفاء بتعهدها، إذن لم تشعر بالغضب منها؟ لكن هذا الغضب ظل مكنوناً فى قلبها كأنما هو ثعبان أخضر ملتف حول نفسه، استطاع أن ينفث السم داخلها، "المحظيات دائماً ما يسرعن بإبلاغ رجالهن بهذه الأخبار السعيدة، لم أنت مختلفة عنهن؟"

امتلأت عينا شيومنج بالدموع، وبواسطة الضوء الذى شع من المصابيح التى وضعت فوق رأسها، استطاعت المدام أن تلمح تلك الدموع التى كانت تلمع فى مآقيها.

قالت شيومنج بصوت خفيض، منكسر نوعًا، "لقد أردت أن أخبرك أنت أولا، كنت أظن أنك سوف تفرحين، لكننى لا ألاحظ الآن سوى أنك غاضبة. الآن أنا أرحب بتدمير نفسى".

هذه الكلمات اليائسة، أعادت إلى لمدام وو صوابها، فقد كان معروفًا أن المحظيات فى البيوت الكبيرة يقدمن على الانتحار بأن يشنقن أنفسهن أو يبلعن خواتمهن، أو يأكلن الأفيون الخام، لكن كل هذه الأمور تلحق عارًا بالبيوت الكبرى، لذا تراجعت سريعًا، فهذا هو ديدنها على الدوام، أن تحرس بيتها، "أنت تتحدثين بكل عبط، لم تريدين أن تدمرى نفسك وأنت لم تفعلى شيئًا سوى أنك قمت بأداء واجباتك؟"

"كنت أظن أنك لو شعرت بالسرور الداخلى من هذا الخبر، إذا لشعرت أنا أيضًا بالسرور". تابعت الفتاة حديثها بنفس مكسورة، "كنت أظن أنه فى إمكانى أن أدفئ من نارك، لكن الآن، أى نار تلك التى تنفع معى؟"

بدأ الخوف يتسلل إلي قلب مدام وو، كانت هى تنظر إلى شيومنج باعتبارها من العوام، فتاة ريفية ساذجة، يمكن أن ترحب بمعيشتها كما يفعل الحيوان الذى عثر على من يعتنى به. فالبقرة لا تفكر فى سيدها، لكن فى العجل الوليد. ولو كانت قد فكرت فى حياة شيومنج نفسها، إذن لكانت قد شعرت بالراحة لأنها فكرت أن الفتاة سوف تهنأ بولادة الطفل وتسعد به.

لذا راجعت نفسها قائلة، "الآن ماذا؟ ألا تشعرين بالفرح داخلك؟ سوف تحصلين على لعبة تخصك، شىء تضحكين له ومعه، شىء رقيق وصغير ترغبين فيه. إذا كان ولدًا، فسوف ترتفع منزلتك داخل هذا المنزل، لكن أنا أعدك، حتى إذا كانت بنتًا، فإنك لن تعانى من تأنيب يمكن أن أصبه عليك، فأنا أرحب بكل الأولاد والبنات فى بيتى، وعندما ماتت ابنتى الوحيدة قبل أن تستطيع الكلام، بكيت عليها بحرقة كما لو أن من مات لى هو ولد وليس بنتًا".

لم تجب الفتاة عن ذلك، بدلا من هذا، ركزت عيونها الحائرة على مدام وو وأنصتت لها. أضافت المدام، "لا يجب أبداً أن تتحدثى عن تدمير نفسك، ارجعى الآن واصعدى فوق سريرك وأخبريه عندما يحضر أن لديك أخباراً مفرحة".

فى النهاية، كانت تتحدث مع الفتاة بكل برود، تهدف فقط أن تعيدها إلى جادة الصواب، لكن فى صميم قلبها، كانت تشعر بقشعريرة، وقمة الجبل الزاحف تود أن تغطيها مرة أخرى. اشتاقت فى تلك اللحظة أن تكون بمفردها، لذا نهضت، لكن شيومنج سبقتها فى الوقوف وأمسكت بطرف ردائها.

توسلت، "دعينى أقضى ليلتى هنا، كما فعلت فى ليلتى الأولى، وأنت - أنت تخبرينه. توسلى إليه - توسلى إليه أن يتركنى لوحدى!"

الآن دب الذعر فى قلب مدام وو، "أنت مجنونة بالتأكيد". قالت ذلك بكل قسوة، "تذكرى من أنت، لقد حضرت إلى هنا بلا أب أو أم، لقيطة، تم التقاطك من الشارع بيد امرأة فلاحة، وأصبحت أرملة بلا زواج، واليوم أنت السيدة الثانية بعدى فى هذا المنزل، أغنى عائلة فى المدينة، عائلة تتمنى أى عائلة محترمة أخرى أن تناسبها، ارتديت هنا الحرير والديباج، تتحلين بالأقراط الذهبية. بالطبع لا يمكن أن تعودى إلى جناحى هذا، كيف يمكن أن أشرح ذلك لكل من فى المنزل؟ ارجعى حالا إلى الجناح الذى تنتمين إليه على أن تفى دوماً بالغرض الذى بسببه تم شراؤك".

تركت شيومنج طرف الرداء، رفعت نفسها وتراجعت خطوة وراء خطوة فى اتجاه البوابة. فجأة تبددت مظاهر القسوة التى تعاملت بها مدام وو عندما تحققت من ذلك الوجه اليائس، لذا تابعتها بصوت فيه قدر كبير من الرقة والحنان، "عودى يا ابنتى، لا تخافى أبداً، دائماً ما تخاف الفتيات مع قدوم الطفل الأول، على الرغم من أننى لم أتوقع أبداً حدوث ذلك منك وأنت الفتاة الريفية. حاولى أن تنعسى مبكرة ولا تستيقظى عندما يحضر. أنا أعلم أنه عندما يدرك أنك مستغرقة فى النوم، هو لن يوقظك. إنه إنسان طيب، ألا أعرفه أنا؟ سوف أفعل ذلك لك - نعم، سوف أخبره فى الغد، على الرغم من أن هذا كثير على".

كأنما تأثرت شيومنج من هذا الحديث الطيب، لذا همست ببعض التشكرات وخرجت من الجناح. أخذت المدام فى إطفاء المصابيح واحداً تلو الآخر إلى أن حل الظلام الكامل. كانت تشعر بتعب بالغ، ويثقل قلبها هم مقيم. رجعت متثاقلة إلى غرفتها، ثم حضرت إليها ينج وجهزتها للنوم. لم تشأ ينج أن تستفسر عن شىء وهى تشاهد تلك النظرة على وجه سيدتها نظرة مفعمة بالحزن والبرود.

جذبت عليها الستائر فى صمت وعادت إلى جناح الخدم الصاخب. هناك تجمع الرجال والنساء والأطفال، يأكلون ما تبقى من مأكولات الاحتفال. ينج أحبت طعامها، قامت بملء طبقها بعديد من أنواع الحلويات وذهبت لتجلس على عتبة باب وأخذت تأكل بشهية بالغة، تستمع إلى الأحاديث والمسامرات الذى تصدر من فم العديد من الخدم فى آن واحد. كانت هى أكثرهم منزلة بعد "بنج إر"، وهو خادم السيد وو. هذا الرجل جلس أيضًا يأكل، بينما وجهه السمين يلمع بالعرق. على ركبتيه، جلست ابنته الصغيرة، وهى طفلة فى الثانية أو الثالثة من العمر، وكلما توقف ليلتقط أنفاسه، تحركت هى بقوة، فيقرب هو الطبق إلى فمها ويدفع بالطعام إلى فمها بواسطة عصويه.

سألت واحدة من الخادمات، "يا بنج إر"، هل ينام السيد كل ليلة فى جناح نبات الريح؟"

صاح هذا مجاوبًا، "أنا أحمل إليه صينية الشاى هناك كل صباح"

الخادمة نفسها سألت ينج بصوت عال مرح، "وماذا يحدث فى جناح الأوركيديا؟"

لكن ينج استهجنت أن ترد على هذا التساؤل. أنهت طبقها بسرعة وصبت قليلاً من الماء من إناء كبير ومضمضت فمها ثم بصقت الماء فى الظلام فى اتجاه ذلك الصوت القادم.

فى الحال تفرق الرجال والنساء والأطفال مع هذه العلامة. إنهم جميعًا يخافون ينج، فهى فى ذلك المنزل تجلس قريبًا من العرش.

* * *

استيقظت مدام وو. شعرت بحمل ثقيل ينوء بحمله فؤادها، وتحت تأثير هذا الحمل، أخذت تصارع عملية الاستيقاظ. لم تكن تلك الليلة مريحة. لقد نامت ثم استيقظت ثم نامت مرة أخرى، وأبداً لم تنس ما يقلقها، فهى قلب المنزل، وكثيراً ما كانت تمر عليها أحياناً ليال تشعر فيها بكل سكان المنزل، كما يشعر القلب بما يعانيه الجسد. الآن تذكرت، الليلة الماضية كانت هى ليلة زفاف ابنها فنجمو، وليالى الزواج دائماً ما تدعو للقلق. هل تزاوج العروسان؟ هل حدث هذا بسهولة أم جرت بعض الصعوبات؟ لن تعرف شيئاً حتى تقابلهما، لكن هى لن تتسرع فى مقابلتهم، ليس قبل أن تسير الأمور فى مسلكها المعتاد، وأن يتحول النهار ليصبح ليلا، حينئذ تسعى لتعرف الأحوال.

تنهدت، تذكرت الهم الثانى، لقد وعدت شيومنج، هى تتمنى الآن لو استطاعت أن تتراجع عن تعهدها هذا، لكن كيف يتسنى لها ذلك؟ لا شك أن الفتاة تمسكت بهذا الوعد كأنما هى تقبض على طوق النجاة. ثم، وكأنما لم يكفها هذا القدر من المتاعب، حضرت إليها ينج مسرعة تخبرها، "السيدة العجوز مريضة، تقول إنها ابتلعت صرصاراً فى طعام احتفال الأمس، وأنه يزحف الآن فى بطنها. هى تشعر به كأنما هو فأر يجلس فوق كبدها ويحك قلبها بقرون استشعاره. بالطبع هو ليس بصرصار، فلا أحد مهما كانت درجة إهماله يسمح لصرصار أن يدخل فى الطعام".

تمتمت المدام، "يا للسماء، كما لو أن ما لدى من هموم ليس فيه الكفاية!"

لكن هى دائماً ما تحرص على أداء واجباتها، لذا أسرعت، وتجرى وراءها ينج، وبعد دقائق قليلة كانت داخل الجناح المجاور لها حيث رقدت السيدة الكبيرة عالياً فوق الوسائد، ما إن شاهدتها، حتى أدارت محجرين معتمين لعينيها تجاه زوجة ابنها، "افعلى شيئاً سريعاً من أجلى، سوف أموت"، قالت ذلك بصوت واهن ضعيف.

شعرت مدام وو بالخوف وهى ترى منظر الجدة هذا الصباح. بالأمس كانت كلها فرح وتلعب كأنما هى طفل صغير، وتتفاخر لأنها كسبت جولة فى لعبة أل "ماه - جونج"، وأخذت تعب فى أى طعام يتصادف وجوده أمامها.

سألت مدام وو خادمة السيدة الكبيرة، "لماذا لم يخبرنى أحد بحالتها قبل ذلك؟".

أجابت هذه لتبرر نفسها، "لم يحدث أن تحولت سيدتى إلى اللون الأخضر إلا منذ ساعة تقريباً".

"هل تقيأت؟"

ردت على ذلك السيدة العجوز نفسها، "لقد تقيأت أكثر مما حدث معى فى ثلاثة فترات حمل، كل مصارينى نزلت فى وعاء الليل. املأينى مرة أخرى بالطعام يا زوجة ابنى. فى داخلى لا يوجد سوى المياه والرياح".

"هل تستطيعين أكل أى طعام؟"

"يجب أن أمتلئ بأى وسيلة كانت"، أعلنت العجوز ذلك بصوت واهن لكنه جسور.

هذا شجع مدام وو، لذا أصدرت تعليماتها بأن يتم إحضار شوربة الأرز، وبحضور هذا قامت بتخريط رأس زنجبيل أخضر فيها وغرفت ملعقة ناولتها للعجوز.

حالة هذه العجوز تدعو للرثاء عندما تكون مريضة، حيث يبدو فمها بريئاً ضعيفاً كأنما هو فم طفل صغير، كانت مدام وو تحدق فيه مع كل ملعقة تحشرها فيه، لم يتبق ضرس فيه، ولثتها نظيفة حمراء، وكم هو عدد ضخم من الكلمات التى نطق بها هذا اللسان القرمزى، الذى انكمش الآن وصغر حجمه. كانت طباع هذه السيدة دائماً حادة ومستفزة، وعندما تغضب تنهال الشتائم من فمها بالكوم، فهذا اللسان كان هو سلاحها البتار، وحتى السيد العجوز كان يخشاه ويعمل له حساباً، أما ابنها، السيد وو، الذى كان هو جنة حياتها، فقد تعلم منها الأغنيات الشجية وشاركها الضحكات الصاخبة، من هذا الفم العجوز نفسه.

تنهدت أخيراً السيدة الكبيرة، "أنا أشعر بتحسن الآن. كل ما يلزمنى دائماً هو أن أكون ممتلئة، ففى عمرى المتقدم هذا، لم يعد جسمى بقوته السابقة، والحياة الآن بالنسبة لى تشبه تلك الحشائش التى تشتعل عندما يتم تغذيتها بالوقود".

أخذت المدام وو تطبطب عليها، "ليس عليك الآن سوى أن تنامى وتنعسى"

نظرت إليها العجوز نظرة نارية، "لماذا تواصلين قولك أن أنام، أنا قريبًا سوف أنام إلى الأبد".

شعرت المدام بصدمة بالغة عندما شاهدت بعض الدموع تسح من عين هذه العجوز وتطفئ حدة نظراتها. السيدة الكبيرة تبكى، ثم سمعتها تتمتم، "ابنتى، هل تظنين أن هناك حياة أخرى بعد هذه؟"

ثم وضعت مخلبها وقبضت بقوة على يد مدام وو الرقيقة، هذا المخلب كان ساخنًا ويشتعل من الحمى. مدام وو، التى كانت قد نهضت، اضطرت أن تجلس مرة أخرى. طوال حياتها، كانت السيدة العجوز تهتم بمطالبها الجسدية، فهى كانت امرأة سعيدة فى حياتها، دائمًا ما تستبعد من فكرها أى شىء لا تفهمه، غنية، ترتدى أفخر الثياب، قوية الشكيمة داخل هذا المنزل العظيم، وما احتاجت أبدًا شيئًا ما، لكنها الآن ترتعد عندما تشاهد هذا الجسد وهو يضمحل وينزوى، فإلى أين المصير عندما يخونها هذا الجسد؟

قالت مدام وو بحرص، "أرجو أن يكون هناك حياة أخرى بعد هذه". كان فى إمكانها أن تخدع هذه العجوز كما تخدع طفلا صغيراً، لكن هى لم تستطع فعل ذلك، فالسيدة العجوز ليست بالطفل، بل هى عجوز تقترب حثيثًا نحو حافة الموت.

قالت العجوز، "هل تؤمنين بأننى سوف أولد من جديد وأحل فى جسد آخر، كما يقول لنا كهنة المعبد؟"

لم يحدث من قبل أن تحدثت مدام وو فى مثل هذه المسائل، لذا أخذت تبحث فى أعماق ضميرها عن الإجابة الأمينة، لكن من ذاك الذى يستطيع أن يكشف الستار عن هذه الغوامض؟

قالت أخيراً، "لا أستطيع أن أؤكد لك يا أمى. لكنى أؤمن تمامًا أن الحياة لن تنتهى أبداً".

لم تضف إلى ذلك شيئا، وأيضًا لم تخبر بما تؤمن به حقًا، وهو أن من عاشوا من أجل الجسد سوف ينتهون مع هذا الجسد. هى فى إمكانها أن تتصور الأخ أندريه وقد عاش بدون جسده، لكن ليس هذه السيدة العجوز.

دخلت السيدة الكبيرة حالا فى مرحلة النوم، على الرغم من جهادها لأن تظل مستيقظة. جفونها المكرمشة التى تشبه جفون الطائر العجوز، غطت عينيها وبدأت تصدر تنفسًا عميقًا، بينما سقطت يداها العظميتان عن يد مدام وو الناعمة. تحركت المدام لتخرج ثم توقفت وهمست للخادمة، "هى سوف تصح هذه المرة، لكن دعى الطعام الغنى صعب الهضم بعيداً عن أنظارها حتى لا تشتاق إليه".

قالت الخادمة مدافعة عن نفسها، "إنها عنيدة للغاية، وأنا أخاف من غضبها"

ردت عليها المدام بحدة، "يجب أن تطيعينى أنا"

لكن وهى تقترب من جناح السيد وو، شعرت بالسرور من أجل انبثاق ما هو حسن من ثنايا ما هو ليس كذلك، فمرض السيدة العجوز أعطاها المبرر لأن تحضر إلى هنا مخفية السبب الحقيقى للزيارة. هى كانت قد أرسلت ينج قبلها لتعلن عن حضورها، وعندما وصلت إلى باب الجناح، وجدت ينج فى انتظارها لتخبرها أن السيد وو كان قد خرج لإنجاز موضوع معين وأنه وصل منذ لحظات وهو فى الداخل يغير ملابسه الخارجية.

لذا وهى فى الانتظار، ذهبت إلى الساحة التى كثيراً ما قضت فيها السنوات العديدة من عمرها وشبابها. كانت أشجار الريح تنمو وتتوغل بغزارة، البراعم متفتحة والأوراق كثيفة وممتلئة وداكنة. فى البركة، أحدهم زرع نبتة لوتس، وكانت الأزهار العريضة لهذا النبات متفتحة فوق سطح الماء، فى منتصف كل زهرة، كانت سداة الزهرة تهتز استعداداً ومغطاة بدقيق لونه ذهبى، رائحته زاعقة ملأت كل أرجاء الساحة، لذا اضطرت هى أن تخرج منديلها وتضعه فوق أنفها. عبرت بعد ذلك الساحة كلها ودخلت الغرفة الرئيسية. الأثاث كان كما تركته بالضبط، لكن كان هناك بعض الأشياء التى أضيفت،

فهناك كثير من زهريات الزرع، وبعض الرسوم الأجنبية المعلقة على الجدران، لكن لا شيء من النظافة التى كانت تحرص عليها. شعرت بالحزن وهى تلاحظ كمية الأتربة التى تجمعت فى الأركان وتحت المقاعد. قامت وذهبت إلى واحد من الأبواب وأخذت تنتظر خلفه.

حضر السيد وو فى تلك اللحظة وهو ما يزال يزرر سترته الحريرية الرمادية، تقدم نحوها قائلا، "هل يوجد شىء ما خلف الباب يا والدة أبنائى؟"

نظرت نحوه وقد احمر وجهها نوعًا، "نعم، يوجد هنا غبار وتراب. يجب أن أتحدث مع رئيس الخدم. كل هذه الغرفة فى حاجة إلى تنظيف".

أخذ السيد وو ينظر حوله كأنما هو يرى الغرفة للمرة الأولى، "ربما يكون هذا صحيحاً، فهذه الغرفة فى حاجة شديدة إليك". قال ذلك وهو يضحك ساخراً. أما هى فقد كانت متجهمة نوعًا.

جلسا، أخذت تدرس وجهه دون أن تبدى ذلك، يبدو عليه أنه يتغذى جيداً، والتعرجات حول فمه قد عاد إليها المرح مرة أخرى. هذا ما كانت تريده وتخطط له، إذن لم تحركت فى قلبها رغبة أكيدة أن تؤذيه؟

قالت سريعًا، "والدتك مريضة، هل ذهبت لزيارتها؟"

اختفت ابتسامته، "للأسف كان من الواجب أن تكون تلك هى مهمتى الأولى هذا الصباح، لكنى لم أتمكن من...."

"إنها مريضة جداً"

"لا تعنين أنها..."

"لا، ليست هذه المرة، لكن النهاية ليست بعيدة. لقد بدأت روحها فى تلمس معرفة ما سوف يحل بها لاحقًا. سألتنى عما إذا كنت أعتقد فى وجود حياة أخرى بعد هذه. كل هذه التساؤلات تعنى أن الجسد بدأ فى الانحلال والروح فى حالة من الخوف".

سأل، "ماذا كانت إجابتك على أسئلتها"، ظهر على وجهه الاهتمام.

"قلت لها إن هذا ما أرجوه، لكن كيف يمكن لى أن أعرف يقينًا؟"

شعر بالغضب يهز كيانه، "الآن، أنت بالفعل كنت قاسية معها! فلهذه الروح العجوز، كيف تظهرين أمامها كأنك متشككة بالنسبة لهذا الموضوع؟". فك زر رقبة سترته وأخرج من خلفه مروحة يدوية أخذ يهزها أمامه بقوة.

سألت، "ما الذى يمكن أن تقوله أنت فى هذا الموقف؟"

صاح، "كنت أؤكد لها، أنه ليس فى انتظارها سوى السعادة الخالصة التى سوف تتمتع بها وهى بقرب الينابيع الرقراقة الصفراء، كنت أقول لها..."

"ربما من الأفضل أن تذهب وتخبرها ذلك بنفسك". عندما تغضب هى لا يتبدى عليها ذلك، لكنها تصب فى صوتها كمية من الفضة المذابة، والآن هذه تتدفق وتشتعل، لكن هو مد من شفته السفلية قائلا، "حقًا، سوف أخبرها بذلك".

جلسا فى سكون للحظات، كلاهما يحاول أن يهدئ من نفسه مرة أخرى. ظلت هى ساكنة تمامًا، يداها لا تتحرك من فوق حجرها، وجهها منحنٍ قليلا. هو صامت فيما عدا استخدامه للمروحة التى كانت تتحرك بانتظام، كلاهما تعجب من غضبه من الآخر، كلاهما لا يدرى لماذا.

تحدثت هى أولا، "لدى أمر آخر أود أن أخبرك به"، ما زال صوتها فضيًا

"ماذا؟"

اختارت أن تذكر له الحقيقة مباشرة، "أتت إلى شيومنج بالأمس وطلبت منى أن أخبرك أنها حامل". مرة أخرى اختارت استخدام التعبير الدارج. لم ترفع رأسها ولم تنظر إليه، لكنها ظلت فى مكانها ساكنة كلها رقة ولطف.

سمعت المروحة تتوقف عن حركتها. ظل ساكنًا لفترة طويلة، لذا اضطرت أن تنظر نحوه. كان يحملق فيها وهناك ابتسامة حائرة على وجهه ويده اليمنى تدعك قبة رأسه

فى دوائر متتابعة. هى تفهم معنى هذه الحركة، هى فيها خليط من - الاستثارة، الكسوف والابتهاج.

عندما تقابلت عيونهما، أغرق فى الضحك الصاخب، "سمميني، ضعى شيئًا فى الأرز المقدم لى، اخلطى تراب الذهب فى الخمر الذى أحتسيه. أنا لست خجلا، لكن، يا أم أولادى، لم أفعل شيئًا سوى أن أكون مطيعًا لك - لا أكثر ولا أقل"

ضد إرادتها، انطلق ضحكها الصادر من عمق أحشائها، أركان فمها انفرجت وارتعشت جفونها، قالت وسط ضحكها، "لا تتظاهر بأنك لست سعيداً بهذا الخبر. أنت فخور بإنجازك"

"للأسف، ما زلت قادراً"

تشاركا فى الضحك كما كان يحدث فى حياتهما المشتركة سويًا، ومن خلال سيل الضحك الجارف تقابلا، ومن ثنايا هذا الضحك تأكدت من شىء محدد، هى فى الواقع لا تحبه! كانت صديقتها متشن على حق. إنها لا تحبه، لذا كيف يمكن لها الآن أن تكرهه؟ بدا الأمر أمامها الآن كأن آخر قيودها التى تكبل روحها قد سقطت. هى بين الحين والآخر كانت تمسك بهذه القيود وتكبل نفسها بنفسها، لكن الآن هذه هى النهاية، وليس هناك حاجة لفعل أى شىء، أخيراً استطاعت أن تتحرر منه تحرراً كاملا.

ما إن انتهى مشوار ضحكهما، قالت، "أنصت لى، يجب أن تكون عطوفًا معها"

أصر هو، "إننى دائمًا ما أكون عطوفًا مع كل إنسان"

"أرجوك. كن جاداً للحظة. إنه مولودها الأول، والآن لا تؤذيها. ابتعد عنها مادام هى قد أدارت وجهها نحو الحائط".

هز رأسه فى اتجاهها، "ربما تكون محظية واحدة ليس فيها الكفاية"، كان يغيظها بالطبع، وقد وضع طرف لسانه ليصل حتى شفته العليا.

لكن هو لن يستطيع أن يغضبها أو يؤذيها فيما بعد، فقط ابتسمت، "الآن، يمكن لك أن تذهب لتزور والدتك، وبدلا من أن تتحدث معها عن روحها، أخبرها بأنك سوف تنجب طفلا جديداً".

* * *

لكن السيدة الكبيرة لم تسر بهذه الخبر الجديد الذى حمله إليها الابن، فما كادت مدام وو تصل إلى جناحها، وكانت قد توقفت قليلا لتداعب بعض الأطفال، شاهدت ينج تجرى نحوها.

"لقد ساءت حالة السيدة الكبيرة، هى مرعوبة وتطلب أن تراك يا سيدتى. سيدى موجود هناك وهو يرجوك أن تسرعى بالحضور.

استدارت مدام وو على الفور وأسرعت نحو جناح السيدة العجوز، هناك وجدت السيد وو يدعك يدى أمه التى تكاد الحياة أن تغادرها.

صاح عندما شاهدها، "هى عملت استدارة فجائية، اختارت أن تسلك الطريق الهابط".

ظهرت لمحة تعرف فى عينى هذه السيدة العجوز، لكنها لم تنطق بحرف واحد، لكن بدلا من ذلك جعدت من ملامح وجهها كما لو أنها على شفا البكاء، لكن لا صوت أو دموع طفرت وهى تنظر نحو زوجة ابنها وعلى وجهها مظاهر حزن وأسى.

أدركت مدام وو أن الجدة الآن فى أشد حالات رعبها، لذا غمغمت مخاطبة ينج التى تبعتها، "أحضرى بعض الخمر، على أن تدفئيه – يجب أن تشعر بجسدها، أحضرى بعضًا من خمر كانتون، ودفئيه سريعًا وأرسلى البواب يحضر الطبيب"

استمرت الجدة فى النظر ناحية مدام وو، تتوسل لها أن تساعدها، ووجهها عليه ملامح الإشراف على البكاء. قالت لها مدام وو بصوتها الحنون المؤثر، "أرسلت ينج لتحضر لك قليلاً من الخمر الدافئ، سوف تشعرين بالتحسن والقوة، لا تخافى يا أمى.

ليس هناك ما يخيف، كل شيء يسير في مجراه المعتاد حولنا، الأولاد يلعبون خارجًا تحت أشعة الشمس، والخادمات يكنسن ويمسحن كل أرجاء المنزل. في المطبخ، يحضر الطباخين وجبة العشاء، الحياة تسير في نهجها المعتاد، وسوف يستمر ذلك دومًا. جدودنا هم الذين ابتنوا هذا المنزل الكبير، ونحن الذين أشرفنا عليه لسنوات طوال، وأولادنا سوف يخلفوننا. الحياة تسير هكذا على الدوام يا أمي".

صوتها المعزى الموسيقى النبرة كان ينطلق غنيًا واضحًا في أرجاء الغرفة الساكنة. كانت السيدة العجوز تستمع إليه، تدريجيًا لانت الخطوط في وجهها واختفى قناع البكاء من ملامحه. ارتعشت شفتاها مرة أخرى وبدأت في التنفس. عندما كان القناع فوق وجهها، بدا التنفس كأنما قد توقف تمامًا.

في الحال، ظهرت ينج مصطحبه معها الخمر داخل جرة لها بزبوز طويل. رفعت المدام الجرة وعبر شفاه السيدة العجوز الذي انفرجت قليلا صبت هي القليل من الخمر، مرة ومرتين وثلاثة مرات كانت الجدة تبتلع الخمر، ونوع من الارتياح كسا عينيها، ابتلعت المزيد ثم غمغمت ببعض العبارات، "أنا..أستطيع الآن أن..."

ثم صدرت منها نظرة اندهاش وغضب في عينيها، وعلى الرغم من أن هذه الخمر قد سرت في بطنها، فإن قلبها العنيد توقف فجأة عن الدق. ارتعشت، انبثق الخمر من فمها ولوث اللحاف. بذلك ماتت السيدة العجوز.

أخذ السيد وو في الأنين، "أوه، أمي!"

أمرت مدام وو خادمتها بحدة، "خذي الجرة"، ثم انحنت وبواسطة منديل حريري أخرجته من كمها أخذت تمسح شفتي العجوز، ثم رفعت رأسها بكلتا يديها، لكن الرأس كان بلا حراك، لذا وضعته برفق فوق المخدة.

"لقد فارقت روحها"

أخذ السيد وو ينوح مرة أخرى، "أوه، أمي!". بدأ في البكاء والعويل بصوت عال، دعته هي في حاله. هناك أمور كثيرة يجب أن تؤدى لهذه المتوفاة. في شخص مماثل

للسيدة الكبيرة، فإنه ليس من المتوقع أن تخرج السبعة أرواح فى التو واللحظة. من الضرورى أن يتم إخراج كل هذه الأرواح مع حبسها، وإلا انطلقت هذه الأرواح وسببت إلحاق الضرر بسكان هذا المنزل. يجب أن تدعو لحضور كهنة المعبد. فى أعماق قلبها هى لا تؤمن بما يفعله هؤلاء الكهنة ولا تؤمن بآلهتهم. وقفت تنظر، بينما استمر السيد وو فى الربت على يدى الفقيدة وهو مستمر فى البكاء. اندهشت عندما شعرت أنها فى حاجة ماسة لأن تستدعى الأخ أندريه هنا وأن تعطى له مهمة إخراج الشر من المنزل، لكن هذا بالكاد يستطيع أن يرضى أفراد العائلة، فلو بعد عام واحد من الآن، وقع أحد الأطفال فريسة للمرض تحت سقف هذا المنزل، فإنها سوف تلام لأن لا أحد اهتم بأرواح هذه السيدة العجوز. لا، من أجل مصلحة العائلة يجب أن تتابع الطرق القديمة.

التفتت إلى ينج، "اذهبى وأحضرى معك الكهنة، ودعى المكفنين يحضرون أيضاً".

"سوف أهتم بكل شىء يا سيدتى"، هذا ما وعدت به ينج ثم خرجت.

"تعال معى يا والد أبنائى، دعنا نتركها قليلا، سوف تقوم الخادمات بتغسيلها وتلبيسها، وسوف يحضر الكهنة لإخراج باقى أرواحها، والمكفنون سوف يؤدون واجباتهم، يجب أن تأتى معى".

نهض مطيعاً، وخرجا سوياً، وسارت هى بجواره فى بطء، استمر هو فى عويله وبكائه بينما يمسح دموعه بكمه. هى تنهدت دون أن تبكى، لقد مرت سنوات طوال منذ أن دمعت عيناها، يبدو أن عينيها قد جفتا. لكن هو ما إن استمع لتنهداتها، حتى قبض على يدها، وهكذا سارا يداً بيد حتى جناحه، هناك جلس ودعته يحكى كل ذكرياته عن والدته، كيف أنها كانت دائماً ما تنقذه من تأديب والده، كيف أنه عندما أرغمه والده أن يستذكر دروسه، كانت أمه تتسلل إلى غرفته محملة بالخمر والحلويات والمكسرات، كيف أنه فى الإجازات كانت تصطحبه إلى المسارح والملاهى، وعندما مرض أحضرت له المهرجين لكى يسلوه بجوار سريره، وعندما يتوجع من أسنانه، تجعله يدخن غليوناً محشواً بالتبغ والأفيون لكى تهدأ آلامه.

هو يخبرها الآن، "هى أم طيبة، دائمًا مرحة، وتسعد عندما تجدنى مسرورًا، علمتنى كيف أستمتع بحياتى".

لكل هذا، كانت تستمع إليه مدام وو فى صمت، وأخذت تشجعه لكى يأكل ويشرب الخمر. إنها تكره الخمر والسكارى، لكن هناك أوقات تكون للخمر فوائد عندما تستطيع أن تحنى حواف الحزن والأسى. لذا قام هو باحتساء كل الخمر الدافئة التى أمرت بإحضارها . أثناء احتسائه، بدأ حديثه يتثاقل، وأخذ يكرر القول نفسه مرارًا وتكرارًا، إلى أن سقط رأسه على صدره.

حينئذ قامت هى، وبخطوات خفيفة، دخلت غرفتها التى كانت لها سابقًا. نظرت خلف الستائر المسدلة على السرير، هناك وقد تدحرجت حتى التصقت بالحائط الداخلى، رأت خلفية رأس شخص ما والخطوط الخارجية لكتفين نحيلين.

نادت بصوت ناعم، "شيومنج، هل أنت نائمة؟"

استدارت شيومنج وشاهدت المدام وو، بينما عيناها تلمعان وسط الظلال.

"شيومنج، ليس لك حاجة فى أن تنامى هذه الليلة هنا، لقد رحلت جدتنا الكبيرة إلى الينابيع الصفراء، وهو سكران بالخمر والحزن. انهضى يا ابنتى".

أتت شيومنج زاحفة على السرير، صامتة مطيعة.

قالت بخضوع، "أين سوف أذهب؟"

ترددت مدام وو، ثم قالت، "أعتقد أنه فى إمكانك أن تحضرى إلى جناحى، أما عن نفسى فأعتقد أننى لن أنام هذه الليلة. يجب أن أهتم بالسيدة الكبيرة".

همست شيومنج، "أوه، دعينى أنا أراقب أيضًا، لا أريد أن أنام"

"لكن أنت صغيرة، ويجب، بسبب ما تحملينه فى أحشائك، أن لا تظلى يقظة طوال الليل".

"دعيني أكن بجوارك"

لم تستطع مدام وو أن ترفض، "حسنًا، فليكن"

لذا عندما تأكدت أن السيد وو قد تم تقديم المساعدة له لكي يرتقي سريره، جذبت الستائر عليه، ثم تحركت لتحتل مركزها في المنزل هذه الليلة. هؤلاء الذين ظلوا مراقبين، ذهبوا جميعًا ليناموا، لكن الخدم أو أبناء العم الكبار لم يناموا. تم تغسيل السيدة الكبيرة وتلبيسها. وقفت مدام وو تراقب كل هذه الأمور واطمأنت أن كل الواجبات قد أديت كما يجب. كانت شيومنج بجوارها، صامتة، دائمًا مستعدة أن تناولها هذا أو ذاك. كانت الفتاة متحركة وسخية، ودائمًا ما تقرأ ما هو مطلوب قبل النطق به. مع ذلك، استطاعت مدام وو أن تدرك أن تلك الفتاة لا تشعر لا بالحزن أو بالأسى، لأنه بالنسبة لها، هذا ليس موتًا. وجهها كان عليه مسحة من الجد وليس الحزن، لم تمثل البكاء كما فعلت الأخريات. وهي تلاحظها، فكرت المدام وو، "قلبها ليس في هذا المنزل حتى الآن، لكن عندما يحضر مولودها فإنه سوف يربطها بهذا المكان.

إذن فقد رحل جيل كامل من هذا المنزل، وأصبحت مدام وو هي الرئيسة داخل هذا الصرح الكبير، كما أصبح السيد وو هو رئيس الخارج. لم يتم دفن السيدة الكبيرة فورًا، فعندما تم استشارة النجوم، أعلنت فيه أن أول يوم من منتصف فصل الخريف هو أول أيام السعد. لذا، عندما تمت المراسم المعهودة، نامت السيدة العجوز في مخدعها المحكم من خشب السرو، وتم نقل التابوت ليستقر في معبد العائلة داخل حدود المنزل، ولا واحد، حتى الأطفال، شعروا أن السيدة الكبيرة بعيدة عنهم. كان الأطفال يطلقون عليها "جدتنا العظيمة" ثم يقتربون من المعبد ويهمسون لها، "يا جدتنا العظيمة – هل تسمعينا؟"، ثم ينصتون. أحيانًا لا يسمعون شيئًا، لكن أحيانًا، عندما تكون الرياح شديدة في هذا اليوم، يخبر أحدهم الآخر أنه استمع لصوت الجدة ترد عليه من داخل تابوتها.

مرة سألت مدام وو فتاة صغيرة، هي ابنة ابن العم، "ما الذي نطقت به؟"

قالت الفتاة ومظاهر الجد على ملامحها، "هى قالت، يا أولاد يا صغار، العبوا – كونوا سعـداء، لكن أيتهـا الأخت الكبرى، هـل هى سعيدة وهى محبـوسة هكذا فى الصندوق؟"

"بالطبع هى سعيدة، والآن أطيعوها – اذهبوا العبوا وكونوا سعداء"

بعد رحيل السيدة الكبيرة، بدا الأمر كأن هناك حالة من السكون قد حلت على المنزل كله، وكأن كل جيل ينتهى يعرف نفسه أكثر سواء من ناحية الزمان أو المكان. بموت الجدة، قفزت الحياة درجات عدة إلى الأمام، لذا بدت كل الأشياء وكأنما هى تقترب إلى نهايتها. وعندما أنهى السيد وو مراسم إعلان حزنه وخلع الأردية المصنوعة من قماش الخيش، لم يعد كما العهد به. ظهر وجهه أكبر من عمره وأكثر حزنًا. الآن، هو كثيرًا ما يحضر إلى جناح مدام وو، وكلاهما يبحثان أمور العائلة وشئونها حيث أصبحا هما رئيسا تلك العائلة. إنه يتعب نفسه الآن، لأنه يظن أنه لم يكن ابنًا بارًا كما يجب أن يكون. وعندما كانا يتناقشان فى الموضوعات الخاصة بالمحصول الزراعى، أو الضرائب الشريرة التى يفرضها أسياد البلد أو الحكومة، أو مسألة الإنفاق على شأن معين، وعندما يبحثان المسائل المختصة بالأولاد والأحفاد، هنا يجد السيد وو الفرصة متاحة لأن يذكر بعضاً من محاسن والدته.

"أنت دائمًا ما كنت طيبة معها يا أم أولادى، لكنى أنا الآن، كثيرًا ما أنساها"

ثم لكى تخفف عنه، تقول له، "كيف يمكن لرجل أن ينسى والدته؟ هى التى أنجبتك، وعندما تتنفس فأنت تتذكرها بالطبع. هى التى منحتك هذا الجسد، وعندما تأكل وتشرب وتنام، مهما كانت استخدامات جسدك، هى جميعًا أعمال تؤدى لأن تتذكرها. أنا لا أطلب من أولادى أن يحضروا إلى قائلين، "يا أمى، نفعل هذا أو ذاك". أنا أنال كل مكافأتى عندما أشاهدهم أصحاء متزوجين وسعداء، ثم عندما ينجبـون الأولاد، هنا حياتى تكتمل بهم، وهكذا الأمـر بالنسبة للسيدة الكبـيرة، فهى تعيش فيك وفى أبنائك".

"هل تظنين ذلك؟". كان يشعر براحة عميقة وهو يستمع لتحليلاتها. ثم تركها لتستمتع بوحدتها.

الآن وهى وحيدة، هى تفكر فى أمور كثيرة. الآن، أكثر من أى وقت آخر تعتبر أن حياتها قد انقسمت إلى جزأين – هذا الجزء الذى يعيش داخل المنزل، وذلك الجزء الذى يعيش داخل ذاتها. أحيانًا يتغلب جزء على آخر. عندما تسير أمور المنزل بسلاسة، تشعر بالسعادة بوحدتها هذه، لكن عندما تثور الزوابع الداخلية من أى نوع، فإنها تقتحمها وتفعل ما فى جهدها لحل المشاكل.

* * *

فى منتصف موسم الخريف، لاحظت هبوب عاصفة مشاكل سوف تلحق بالمنزل، وهى مسألة تعرف أنها سوف تزداد شقتها إذا لم تتخذ الإجراءات التصحيحية على الفور. لقد بدأ كل من فنجمو ولين يى فى الشجار المتكرر سويًا. يومًا، بالصدفة، شاهدت طباعها الخشنة عندما كانت تفتش على المنزل، فعلى الرغم من جمالها، فإن لين يى إنسانة مهملة للغاية داخل جناحها. لم تشأ مدام وو أن تتحدث فى هذا الموضوع، أولا لأن لين يى هى ابنة صديقتها، وهى تعلم أن مدام كانج بعائلتها الكبيرة، لا تستطيع دومًا أن تحافظ على نظافة منزلها ونظامه، لذا كان من المتوقع أن يكون أبناؤها أقل اهتمامًا بهذه الشئون.

لكن منج هى أيضًا ابنة مدام كانج، وهى الأفضل لأن تنصح أختها، لذا ذهبت إليها مدام وو لتتشاور معها.

هناك وجدت منج تمشط شعرها فى فترة الصباح. كان اليوم رماديًا ومعظم سكان المنزل شبه نائمين. لم تجد مدام وو أن الوقت مناسب لأن تؤنب منج لأنها فى هذا الوقت بالذات منشغلة بتمشيط شعرها، لكن هى فكرت أنه ربما أن هذا يفيد الأخت الكبرى إذا لاحظت أن الأخت الصغرى محل انتقاد.

بسرعة أمسكت منج بشعرها عندما شاهدت مدام وو، قائلة، "أنا أشعر بالخجل لأننى لم أمشط شعرى قبل ذلك! سوف أجمعه"

"لا يا ابنتى، افعلى ما أنت معتادة أن تفعليه مع شعرك". جلست المدام، بينما استمرت الخادمة فى تمشيط شعر منج الطويل الناعم. كل من لين يى ورولان شعرهما قصير، لكن منج تحتفظ بشعرها طبقًا للتقاليد القديمة.

سألتها المدام، "كم يومًا تبقى عليك حتى تلدى؟"

"أحد عشر يومًا قمريًا، أرجو يا أمى أن تنصحينى، أنت تعلمين كم عانيت أثناء ولادتى الأولى"

قالت الخادمة ببشاشة، "عندما ولدت أولادى، ولدتهم جميعًا فى الحقل حيثما يكون، حيث أكون فى ذلك الوقت مع زوجى أساعده فى حرث الأرض"

هذه الخادمة هى امرأة تعمل فى الحقول المملوكة لعائلة وو، وهم يعرفونها منذ زمن، وحتى الآن هى تعود فى الصيف إلى الأرض. وما إن يتم حصد المحصول حتى تعود هى إلى المنزل الكبير لتخدم طوال فترة الشتاء. كانت تفعل ذلك لأنها أرملة الآن ويجب أن تجد من يهتم بها، لكن مع ذلك، هى تحب الأرض ومن الضرورى أن تعود إليها مرة كل عام.

قالت مدام وو لمنج، "لن تعانى الكثير فى ولادتك الثانية، لكن ليس من المتوقع من امرأة تلد داخل المنزل أن تلد بسهولة كما تفعل من تعيش على حريتها".

سألت منج بكل براءة، "هل سوف تلد لين يى بطريقة أسهل منى؟"

قالت الخادمة، "لا طبعًا، هذا لن يحدث، فهى من فئة المتعلمين"

ضحكت مدام وو، "هذا صحيح إلى حد كبير أيتها الروح الطيبة"، ثم أضافت، "ربما يكون تعليمى موازيًا لتعليم لين يى، لكن أولادى أتوا بسهولة مطلقة، لكن على أية حال، كنت دائمًا محظوظة فى حياتى".

أمنت الخادمة على حديثها، "آه، أنت واحدة من اللاتى تضع السماء عليهن علامة"

قالت منج بشكل فجائى، "تقول لين يى إنها لا ترغب أن تنجب الأطفال، هى تقول أيضًا إنها تمنت لو لم تتزوج فنجمو".

نظرت إليها مدام وو وهى مصدومة، "منج، كونى على حذر من حديثك هذا!"

"إنه الحق يا أمى"، ثم خبطت الخادمة فى جانبها، "أنت، جذبتى شعرى بعنف يا غبية".

أجابت الخادمة، "وجهى اللوم لأختك التى بثت الرعب فى قلبى، لم أسمع من قبل عن امرأة لا ترغب فى إنجاب الأطفال سوى المحظيات اللاتى يخشين أن يفسد شكل قوامهم، لكن فى هذا المنزل بالذات، حتى المحظيات يلدن".

مدام وو لا تنصت أبدًا لأحاديث الخدم.

"منج، لقد أتيت إليك لأننى لاحظت أن أختك مهملة فى نظافة جناحها، وقصدت أن أطلب منك إرشادى عما سوف أقوله لها. لكن ما تذكرينه الآن هو أكثر خطورة من مجرد وجود غبار تحت المناضد. كان من المفترض أن أسأل عن أخبار هذا الزواج فى وقت مبكر عن ذلك، لكنى كنت مشغولة بموضوع وفاة السيدة الكبيرة، أخبرينى بكل ما تعرفينه".

"لقد أخبرتنى لين يى بنفسها". كل من السيدتين لم يفكرا فى هذه الخادمة التى تستمع لكل شىء. فى الحقيقة، ما هو الشىء الذى يمكن إخفاؤه؟ فكل ما يسوقه الزمن ويصبه على هذا المنزل هو مكشوف للجميع، والخدم لهم مكانهم أيضًا فى هذا المنزل.

"أخبرينى بالضبط ما الذى أخبرتك به لين يى"

"قالت هى إنها تكره المعيشة فى أى منزل كبير مثل هذا، تقول إنها كانت تتمنى لو لم تكن قد تزوجت فيه. تقول إن فنجمو ينتمى للعائلة أكثر مما ينتمى إليها، وأنها تنتمى لهذا المنزل رغمًا عنها. هى تود أن تترك هذا المنزل ويكون لها منزل مستقل تعيش فيه هى وزوجها فقط".

لم تفهم مدام وو ما تسمعه.

"منزل مستقل؟ لكن كيف يصرفون على أنفسهم ويجدون ما يأكلونه؟"

"تقول إنه من الممكن أن يعمل فنجمو ويحصل على مرتب من عمله، فقط إذا عرف المزيد من اللغة الإنجليزية".

"هل تريده أن يعرف المزيد من هذه اللغة؟"

"لكى يحصل على دخل يكفيه هو وزوجته"

"لكن لا أحد يزعجهما هنا"، شعرت بالغضب يتملكها، أن يحدث هذا التمرد السافر تحت سقف منزلها.

"حسنًا، هى تعترض على الأساليب والعادات السارية داخل المنزل، مثل أيام الاحتفالات، أيام الجنازات، أيام الاحتفال بأعياد الميلاد والواجبات المفروضة على زوجات الأبناء، وعلى الخدم الذين يأخذون الأطفال، وكل هذه الأمور. هى تقول إن فنجمو يفكر فى العائلة أكثر من تفكيره فيها هى".

"وهذا ما يجب أن يفعله، وأيضًا ما يجب أن تفعله هى، هل هى عاهرة لكى ترى نفسها غير منتمية لهذا المنزل؟"

ظلت منج ساكنة. لقد لاحظت أن مدام وو لم تعجب بحديثها. أيضًا، الخادمة، وقد شعرت أن الأمور أصبحت أعمق من أن تصل لأسماع خادمة، لذا بسرعة أنهت عملها فى شعر سيدتها ونظفت الشعر من المشط ولفته على إصبعهاثم خرجت وهى تطيره فى الهواء.

أصبحت المدام ومنج بمفردهما. سألت هى منج بلهجة قاسية، "هل أنت أيضًا تراودك هذه الأفكار نفسها؟"

ضحكت منج، "أمى، أنا إنسانة كسولة". اعترفت بذلك بلا مواربة، "إننى مغرمة بالمعيشة فى هذا المنزل، حيث يتم تنظيف كل ما لدى وترتيبه دون أن أمد يداً، وأنا أكون فى منتهى السعادة عندما يبكى طفلى فتأخذه الخادمة منى. أنا سعيدة طوال يومى. أنا لم أذهب للمدرسة، لذا لست مشغولة دائمًا بقراءة الكتب، وزوجى يخبرنى بكل ما أشاء معرفته، وما هو الذى أود معرفته أكثر مما يريدنى هو أن أعرفه؟

"هل معاملة ليانجمو لك طيبة؟"

احمرت خدود منج، "هو طيب معى فى كل شىء، لن تجدى إنسانًا أفضل منه، أشكرك يا أمى".

"هل فنجمو لا يعامل لين يى معاملة حسنة؟"

ترددت منج، "من يمكنه أن يدل على اليد الأولى التى امتدت بالضربة الأولى؟ لكن أعتقد أنه خطأ رولان، فهى دائمًا تجدينها بصحبة لين يى، وكل واحدة منهما تضيف أخطاء زوجها على الأخرى".

تذكرت مدام وو نحيب رولان الذى استمعوا إليه منذ عدة ليالى طويلة، "هل رولان أيضًا غير راضية بحياتها هنا؟"

هزت منج كتفيها، "لين يى هى أختى، أنا لا أتحدث مع رولان"

صاحت مدام وو، "إذن أنت لا تحبين رولان!". بدا الأمر أمامها كأنما هى تشق طريقها وسط متاهة لا نهاية لها، وأنها تغطس عميقًا فى شىء لم تنتبه إليه داخل منزلها هذا. يا له من أمر مريع أن يتعارك هؤلاء الذين سوف يصبحون يومًا رؤساء هذا المنزل بعد رحيلها هى والسيد وو.

قالت منج بصوت عادى ليس فيه أى لمحة كراهية، "أنا فقط لا أحب رولان"

قالت المدام بصوت قاس، "وهل من الضرورى أن تتعارك النسوة؟"

هزت منج كتفها مرة أخرى، "أن لا يحب إنسان شخصًا ما، هذا لا يعنى أنه يتعارك معه. إننى لا أحبها لأنها تظن أنها على حق وكل الآخرين على خطأ، وهذه هى طريقة معاملتها لتسيمو يا أمى. أنا أتعجب كيف لم تلاحظى ذلك. أنا قلت لزوجى إنه من الواجب أن يخبرك بذلك، لكن هو دائمًا ما يخبرنى أنه لا يود أن يزعجك، لكن جدتنا الكبيرة كانت تعلم بذلك، وكثيراً ما كانت تصفع رولان".

"تصفع رولان! لماذا لم يخبرنى أحد بذلك؟"

"تسيمو لا يدع رولان تخبر أحداً". ظهر على منج أنها مستمتعة بهذا الحديث، "رولان سيدة متعلمة، وهى أكثر تعليمًا من لين يى، لذا أختى تستمع لها. هى دائمًا ما تتحدث فى أمور لا يجب على النسوة أن يخضن فيها".

"أى أشياء تلك؟"

"مثل إعادة بناء الوطن دستوريًا ووطنيًا، والمعاهدات المجحفة، وكل هذه الأمور الغريبة".

ظهر ظل ابتسامة على وجه المدام، "يبدو أنك أنت تعلمين شيئًا عن هذه المسائل".

"ليانجمو يعلم، لكن أنا لا"

"ألا تريدين أن يكون لديك معارف ليانجمو نفسها؟"

"هناك أشياء كثيرة متنوعة يمكن أن نتحدث بشأنها سويًا"

"مثل ماذا؟"

هى لم تجب على هذا السؤال، لكن ظهر على خديها نغزتى الابتسامة ونظرت بعيداً.

لم تشأ مدام وو أن تضغط عليها أكثر من ذلك. قامت بعد قليل وعادت إلى جناحها، وفى جعبتها كل هذه المآسى الطازجة التى ترعى داخل منزلها، لكنها كانت تشعر بنوع غريب من التعب والإرهاق يكبلها هذا اليوم، شعرت كأنما هى متسابق يجرى

فى الحلبة وهو جوعان. فهؤلاء الشباب، من رجال ونساء الذين يعتمدون عليها فى معيشتهم، هى ليست فى كامل قوتها لكى تجابههم وتصلح المعوج فيهم. حكمتها من النوع القديم من وجهة نظرهم - حكمة الطريق الإنسانى الذى لا يتغير مساره منذ الولادة حتى الممات. فكرت فجأة فى الأخ أندريه. أنه يمتلك نوعًا من الحكمة تفوق ما هو موجود داخل تلك الجدران. هى سوف تستدعى فنجمو وتدعوه أن يستأنف تعلم اللغة الإنجليزية، وعندما يأتى هذا الرجل، سوف تتشارك معه متاعبها مع هؤلاء الشباب الذين يعتمدون بالكامل عليها.

أرسلت ينج تستدعى فنجمو، وهذا حضر على الفور، فهو ليس لديه ما يفعله، وتصادف أنه كان داخل المنزل. كانت عيناه تلمعان بنظرة لم تعجب بها مدام وو، فلو لم يكن هو راضيًا فى زواجه، إذن لقالت عنه والدته إنه أصبح شابًا منحلا وعابثًا، وبدا على وجهه أيضًا بعض ملامح الحزن وعدم الرضى، لكن مع ذلك كان يبدو شبعانًا وممتلئًا.

قالت بصوتها المرح، "يا ابنى فنجمو، لقد كنت مشغولة تمامًا طوال الفترة السابقة ومنذ وفاة جدتك، لذا لم أطمئن على أحوالك، كنت أهفو دائمًا أن تحتل أنت ولين يى مكانكما المناسب داخل إطار العائلة، ولم أنظر إليك وحدك قط. الآن تحدث معى يا ابنى".

قال بعدم اهتمام، "ليس هناك ما يمكن أن نتحدث عنه يا والدتى"

"ما أخبارك أنت ولين يى؟"

"نحن فى أفضل حال"

نظرت إليه فى صمت. هو شاب طويل القامة، نحيف الوسط، له ساعدان وساقان قويان، خفيف الوزن لكنه قوى العضلات. وجهه مربع، شفتاه ممتلئتان ومن السهولة أن تكتئب.

ابتسمت له، شكلك نفسه وأنت صغير. شيء غريب أن الرجال لا يتغير شكلهم كثيراً منذ ولادتهم، لكن النساء يتغيرن بطريقة عجيبة. عندما أنظر إليكم، أظن أنكم لم تتغيروا كثيراً عما كنتم وأنتم أطفال في أحضاني".

"أمي، لماذا نحن ولدنا في الأساس؟"

هي كانت تسأل نفسها السؤال نفسه كثيراً، لكن عندما يتقدم واحد من أبنائها ويسأل السؤال نفسه، هي في الحال سوف تشعر بالانزعاج، لذا أجابت، "أليس من الواجب أن ينجب كل جيل الجيل التالي له؟"

أصر هو، "لماذا يتواجد الإنسان أصلا على ظهر الأرض؟"

"هل يمكن أن نتوقف عن الوجود، ونحن قد وجدنا بالفعل؟"

"لكن مستريحة"وجدت لأنجب الجيل الثاني، وعلى الجيل الثاني أن ينجب الجيل الثالث وهكذا، إذن ما الفائدة التي تعود على أنا شخصيًا؟"، استمر في حديثه وهو لا ينظر إليها، "هناك من يدعى باسم "أنا" وهذا ليس له أدنى صلة بمن يدعى باسم "أنت"، أيضًا ليس هناك صلة بين "أنا" وذلك الطفل الذي سوف أنجبه".

شعرت بالخوف يمسك بتلابيبها، فهذه المشاعر والتساؤلات هي ذاتها التي كانت دائمًا ما تشغل فؤادها، لكنها لم تحلم يومًا أنها قد تستقر في وجدان واحد من أبنائها.

صاحت، "للأسف، يبدو أنني كنت أمًا سيئة، أبوك لم تخطر على باله أبداً مثل هذه الأفكار، لذا يبدو أنني قد صببت في دمائكم هذا السم".

"لكن أنا دائمًا ما تخطر هذه الأفكار في ذهني"

"لم تخبرني بذلك من قبل"

"كنت أظن أنني سوف أنساها مع مرور الزمن، لكني ما زلت أفكر فيها"

بدا على وجهها بعض ملامح الحزن، "أرجو أن لا يعني هذا أنك أنت ولين يي لستما على وفاق كامل".

تجهم وجهه قليلا، "لا، أنا لا أعرف ما الذى تريده لين يى. إنها غير مستريحة".

"أنت تقضى وقتاً طويلا معها، ليس من الأمور المستحسنة أن يظل الزوج طويلا فى معية زوجته. لاحظت أيضاً أنها لا تحضر لتجلس وسط النسوة كما تفعل منج، هى دائمًا جالسة داخل جناحكما، بالطبع هى سوف تشعر بالضيق من أجل ذلك، وتشعر بالكسل....".

"ربما"، قال ذلك بلا اهتمام.

استمرت نظراتها نحوه قلقة، "فنجمو، دعنا نستدعى الأخ أندريه إلى هنا مرة أخرى، عندما كان يدرس لك، كنت أنت سعيد".

"ربما لا يحدث هذا الآن"

قالت بحزم، "تعال"، لقد تعلمت منذ زمن بعيد أن عدم الاهتمام يجابه دائمًا بالحزم، "سوف أدعوه للمجىء".

لم يجب.

"فنجمو، إذا رغبت أنت ولين يى أن تهجرا هذا المنزل فأنا لا أمانع، فكل ما أهتم له هو سعادة أبنائى. أنت على حق عندما تتساءل لماذا تكون أنت حلقة الوصل بين الأجيال المتتابعة، أنا لدى أبناء آخرون. إذا رغبت أن تذهب، تحدث معى وأخبرنى".

"أنا لا أعلم بالضبط ما أريد أو أرغب"، قال ذلك بنغمة عدم الاهتمام نفسها.

"هل أنت تكره لين يى؟ هذا يعنى أنك تعيس للغاية. منذ متى تزوجت؟ فقط هى ثلاثة شهور. هى ليست حاملا، وأنت متثاقل وفاتر الهمة، فما الذى يعنيه هذا كله يا فنجمو؟"

"أمى، لا يمكن لك أن تقيسى أمورنا بهذه الطريقة"

"لن أقيس الأمور بهذه الطريقة فقط، لكن أنا على يقين أنه إذا لم يتزاوج كل من الرجل والمرأة بدنيًا فى الأساس، فلن يحدث أى نوع من التزاوج الآخر. إذا حصل الجسد على تزاوجه البدنى السليم، حينئذ تتحقق أنواع التزاوج الأخرى، فالجسد هو أساس المنزل الذى يبتنيه كلاهما، أما الروح والعقل وما شابه فهى سقف المنزل وزينته وكل شىء ظريف يضيفه الإنسان إلى منزله، لكن كل هذا يفشل ولا قيمة له إذا لم يتوافر الأساس".

نظر نحوها فنجمو، "كيف حدث أن والدى حصل على محظية؟"

إنها لا تتقبل منه هذه الوقاحة، "هناك زمن لكل شىء"، ثم أضافت بقسوة، "وكل زمن يمر، إنما يمر خلف زمن آخر"

أدرك أنه قد تخطى حدوده بوصفه ابنًا، لذا أخذ يدعك شعره القصير، ثم هبط بيده إلى خده، "حسنًا، دعى الأخ أندريه يحضر"، أخذ يفكر قليلا ثم أضاف، "هو سوف يكون مدرسى الوحيد، سوف أتوقف عن الذهاب إلى المدرسة الوطنية".

"إذن اتفقنا".

(٨)

بهذه الطريقة، عاد الأخ أندريه مرة أخرى إلى منزل السيد وو. هو لم يذكر شيئًا عن الوقت الذى قضاه منذ أن حضر إلى هنا آخر مرة، أو عن الأحداث التى جرت منذ ذلك الوقت. حضر فنجمو فى المساء وأخذ الدرس ثم خرج، لكن بينما كان الأخ أندريه فى طريقه للخارج ، نادت عليه مدام وو بكل لطف ورقة. كانت هى جالسة فى مكانها المعهود داخل المكتبة، فهى تمكث فى الداخل عندما تشعر ببرد الخريف. كان الجو بارداً هذه الليلة، وكانت ينج تشكو من كثرة مكوثها فى الخارج، والآن فى المكتبة، كان هناك إناء بداخله الفحم المشتعل.

نادت، "أيها الأخ المحترم أندريه"

توقف الأخ عن المسير والتفت نحوها: "هل ناديت علىَّ يا مدام؟"

"نعم"، قامت وهى تتحدث، "إذا كان لديك بعض الوقت، أرجو أن تشرفنى قليلا، أود أن أتحدث معك قليلا فيما يختص بأحوال ابنى الثالث، إننى لست سعيدة بأحواله".

هز الأخ أندريه رأسه الكبير.

"أحضرى الشاى يا ينج، وامكثى معنا للإشراف على الفحم". تذكرت أن الأخ أندريه هو قس، وكانت هى لا ترغب فى أن تجعله محرجًا بسبب بقائه بمفرده مع امرأة.

إذا لم يكن مستريحًا، فهذا لم يتبدَّ فى ملامحه. جلس على المقعد الذى أشارت إليه منتظراً. عيناه العميقتان مركزة عليها، لكن هى تعلم أنه لا يفكر فيها، وربما أن هناك عيونًا من السماء تتطلع نحوه.

قالت مباشرة، "لماذا يبدو فنجمو غير سعيد؟"

قال ببساطة، "لأنه شاب كسول"

"كسول؟ لكن هو لديه واجباته التى عليه أن يؤديها. فى بداية كل عام، أقوم أنا بمهمة تكليف كل ابن بعمل معين، وكذلك زوجاتهم. هذا العام اعتبرت ابنى الأكبر مسئولا عن متابعة أراضينا الزراعية، أم تسيمو فهو مسئول عن موضوعات البيع والشراء، فنجمو مسئول عن متابعة المحلات التى تشترى منا المحاصيل الزراعية، ومنذ أن ترك المدرسة، هو مشغول فى هذا الموضوع لعدة ساعات يوميًا".

"على الرغم من ذلك هو يشعر بالكسل. فنجمو له عقل متفتح يقظ وروح وثابة. هو يتعلم بسرعة بالغة. لقد عهدت لى أن أعلمه الإنجليزية، لكن هو يتعلم هذه اللغة وأيضًا يتعلم أمورًا أخرى. اليوم أدركت أنه لم ينس شيئًا، فالمعلومات التى أعطيتها له منذ عدة شهور قد ثبتت جذورها فى أعماقه وأنبتت فروعًا كأنما هو كرم العنب، فالشجرة هناك تبحث بفروعها فى الهواء عن أى شىء تتشبث به لكى تزهر وتعطى الثمار. سوف يظل فنجمو كسولا وخاملا، على الرغم من أنك ربما تشغلين له كل ساعات نهاره، إلى أن يعثر على ذلك الشىء الذى يرضى عقله وروحه".

أخذت تنصت باهتمام، "يبدو أنك تود أن تحثنى على أن يتبع عقيدتك الدينية"

"أنت لا تعلمين ما هى عقيدتى الدينية"

"أنا أعلم، فالأخت الصغيرة هسيا، كثيرًا ما كانت تقرأ لى من كتبكم المقدسة، وتشرح لى طرقكم الغريبة فى الصلاة، ومثل هذه المسائل".

"عقيدتى ليست هى بالضبط عقيدتها". هذه كانت إجابة هذا الرجل الغريب.

"اشرح لى أسس عقيدتك أنت"

"لن أستطيع ذلك، يمكن للأخت هسيا أن تقرأ لك من الكتب، أو تعلمك طرق الصلاة، لكن هذه جميعًا ليست هى طرقى أو سبيلى. أنا أقرأ العديد من الكتب وليس لى طريقة محددة أو ثابتة فى الصلاة".

"إذن أين توجد طريقتك الخاصة بالعبادة والاعتقاد بدين محدد؟"

"أجد ذلك فى الخبز والماء، فى النوم واليقظة، فى تنظيف منزلى وتشذيب حديقتى، فى توفير الغذاء للمشردين والأطفال اليتامى الذين أعثر عليهم وأرعاهم داخل منزلى، فى الحضور لإعطاء الدروس لابنك، فى أن أجلس بجوار المرضى، فى أن أساعد من هم على شفا حفرة الموت لكى يموتوا فى سلام واطمئنان".

قالت فجأة، "لقد تمنيت لو كنت قد أحضرتك يوم أن ماتت الجدة الكبيرة. كان لدى رغبة قوية أن أفعل ذلك، لكنى كنت أخشى من ذلك، لأن باقى العائلة كانوا فى انتظار وصول كهنة المعبد".

"أنا ما كنت قد استبقيت هؤلاء الكهنة بعيداً. إننى لا أمنع أى إنسان يستطيع أن يمنح الآخرين السلام والراحة. نحن جميعًا فى حاجة لمن يبث فى قلوبنا الراحة ويبعث بالسرور فى قلوبنا".

سألت بفضول، "وهل أنت فى حاجة لمن يبعث بالراحة فى قلبك؟"

"بالطبع أنا كذلك"

صاحت، "لكن أنت إنسان وحيد! ليس أحد من جنسك بجوارك"

"كل إنسان هو من جنسى، ليس هناك فرق ما بين دم ودم"

"هل الدم الذى يسرى فى عروقك يشبه ذاك الذى يسرى فى؟"

"ليس هناك أى اختلاف، كل دماء البشر من المادة نفسها"

"لكن لماذا اخترت أن تكون قسًا؟". كانت تعلم أن هذا السؤال فيه قدر من الوقاحة والتهجم، لذا بادرت على الفور فى الاعتذار، "اعذرنى من فضلك، أنا فقط متعجبة، أعلم أنه ليس مناسبًا أن يسأل المرء قسيسًا لم أصبح كذلك، فأنا لا أعتقد أنك قد ارتكبت جرمًا معينًا، وبالتالى أنت محتاج إلى مكان بعيد تختبئ فيه".

"ليس هناك داع للاعتذار. في الحقيقة، أنا بالكاد أستطيع أن أتحقق في أمر لماذا أصبحت قساً، فقط ربما لأنني كنت مهتماً أولا بدراسة النجوم".

"إذن أنت لك معرفة بالنجوم"

"يا مدام، لا أحد يعرف بالضبط ما هي النجوم، إنما أنا كنت أدرس مسألة نشأة النجوم وأفولها، وحركة سيرها في السماء".

"وهل تفعل ذلك الآن". كانت تشعر ببعض الإحراج من كثرة أسئلتها عن أحواله الشخصية، لكن مع ذلك لم تستطع أن تكبت رغبتها.

"مدام، عندما ينتهي عملي اليومي، وإذا لم تكن السماء ملبدة بالنجوم في هذا اليوم، حينئذ أفعل ذلك". كان أسلوبه صريحًا وهادئًا. هذا أثارها، فهو يجيب عن أسئلتها لأنها تسأله، أيضًا لأنه ليس هناك ما يحاول أن يخفيه عنها.

قالت بسرعة، "أنت بالفعل إنسان وحيد. في النهار تعمل وسط الفقراء وفي الليل تعمل وسط النجوم"

قال بهدوء، "هذا حقيقي"

" ألم تفكر يومًا أن يكون لك زوجة وأولاد؟"

"يا مدام، يومًا ما أنا أحببت امرأة، وكان من المفترض أن نتزوج، ثم دخلت في مرحلة حب الوحدة والتفرد. شعرت أنني لم أحبها أو في احتياج لها".

"أظن أن هذا عمل أساء إليها كثيراً"

"نعم، هذا ما حدث وهو ما شعرت به، لكن لم يكن في استطاعتي سوى أن أخبرها بالحقيقة. بعدها أصبحت قساً لكي أتابع حياة الوحدة"

"لكن ما هي حقيقة تفصيلات إيمانك؟"

نظر نحوها عميقاً، "إيماني؟ إيماني ينحصر في الفضاء والأثير، في الشمس والنجوم، في السحب والرياح".

"أليس هناك إله؟"

"نعم يوجد، لكنى لم أر وجهه"

"إذن كيف تؤمن به؟"

"هو متواجد فى كل ما هو حولنا. إنه موجود فى الهواء والماء، فى الحياة والموت، فى كل البشر".

"لكن لقطاؤك – إذاً كيف أنت مغرم هكذا بالوحدة، لماذا أنت حريص على جمع كل هؤلاء اللقطاء". أخذ ينظر إلى يديه الضخمتين اللتين بدت عليهما آثار الأعمال اليدوية، "هذه الأيادى أيضاً، يجب أن تعيش وتشعر بالسعادة". كان يتحدث وهو ينظر إلى يديه كأنهما جزء منفصل عنه ولا تخصه فى شيء، "بشرتى أيضاً، يجب أن تستخدم أيضاً إذا كان الهدف هو أن تشعر الروح بكل حريتها وانطلاقها".

حملقت فيه وقد ازدادت درجة فضولها، "هل هناك رجال آخرون يشبهونك؟"

"ليس هناك رجل يشبه الآخر بشكل متطابق تماماً". كان وجهه الذى لوحته الشمس يبدو مبتسماً كأنما هناك ضوء يشع من خلاله، "لكن ابنك يا مدام، أقصد الشاب فنجمو، أعتقد أنه من الممكن أن يصبح مثلى، وربما يصبح يوماً مثلى".

قالت بلهجة حاسمة وقاطعة، "أنا أمنع ذلك وأعارضه!"

"آه"، ابتسم واشتعلت ومضة خاطفة فى عينيه، ثم ودعها وخرج.

جلست هى تحملق فى عدد من النجوم فوق ساحة جناحها، ومرتان حضرت إليها ينج لتؤنبها. أخبرتها المدام، "اتركينى فى حالى، لدى بعض الأمور أود أن أفكر فيها".

"ألا يمكن أن تفكرى فيها وأنت فى سريرك بدلا من جلوسك هكذا فى البرد والطل؟"

عندما لم تجبها مدام وو، ذهبت ينج وأحضرت لها لباساً من الفرو ووضعته فوق ركبتيها – لم تتحرك المدام قيد أنملة. أسندت ظهرها على مقعدها، تحملق فى النجوم. كانت هذه الساحة تقطع شكلا مربعاً من السماء، لذا رحلت أفكارها ما بين فوق وتحت، من الأمام وإلى الخلف، واستغرقت فى تفكير عميق.

فى أسفل الأرض، تهبط جذور الإنسان - هى جذور لا ترى ولا تعلم شيئاً عن أفراد عائلة وو الذين عاشوا. هنا هم ولدوا وهنا ماتوا، ولم تهتز الأساسات أبداً. لكن مع ذلك، كان هناك قبلهم آخرون. لقد أخبرها الجد الكبير ما كان قد سمعه من والده، وهو الذى سمع ذلك من والده، هو أنه عندما تم إنشاء منزل وو هذا، فإن الأيادى التى حفرت لتضع أحجار الأساس، لم يضعوا تلك الأحجار على الأرض نفسها، لكن وضعوها فوق أنقاض وكسر البورسلين والبلاط، أخبرها السيد العجوز، "لا يستطيع أى منزل أن يصل إلى نهايته الحقيقية، فهناك مدينة بنيت فوق مدينة، وجدودنا ابتنوا خمس مدن فوق بعضها بعضًا، وهناك رجل بنى فوق ما بناه رجل سابق، وآخرون سوف يأتون ليبتنوا فوقنا".

بعد عدة آلاف من السنوات القادمة، فإن منزل وو هذا سوف تصبح حجارته هى الأساس لبناء منازل أخرى، وهناك عيون أخرى سوف تحملق فى هذه النجوم نفسها. إنها تتفهم الآن نوعية الوحدة التى يعيش الأخ أندريه فى ظلالها، وهى تدرك الآن لماذا هو سعيد بها. أخذت ترتعش وهى على حواف هذه الوحدة وهى تنظر نحو هذه النجوم.

صاحت ينج من داخل المنزل بشكل يائس، "مدام وو!"

لكن مدام وو لم تستمع لهذا الصوت.

أصاب ينج الفزع أخيراً، لذا زحفت حتى مكان مدام وو وأخذت تتفرس فى وجهها، كان هذا نقياً، بارداً وثابتاً فى مكانه. عينها ظلت مثبتة ترقب السماء. وفى الظلام الذى كسا تلك الساحة ولا ينيرها سوى شمعة بعيدة موضوعة فى غرفة المكتبة. كان وجهها يبدو نصف شفاف فى بياضه.

غمغمت ينج، وهى تضع يداً على فمها، "يا للأسف، لقد هربت روحها!". تراجعت فى خوف مما رأته وأخذت تتسحب على أطراف أقدامها فى الساحة.

سمعت مدام وو حركاتها بشكل عارض، دون أن تهتم أو تحاول أن تعرف لماذا تملك هذا الخوف على قلب ينج. إنها الآن قد تحررت من أسر هذه الجدران المحيطة بها.

إنها لم تكن كما ظنت، تسير عالياً حتى تصل إلى السماء وتقطع مربعًا فيها، بدلا من ذلك، عندما ارتقت فوقًا، شاهدت العالم كله يرقد تحت قدميها، البحار السبعة والأقطار المختلفة والشعوب التى سمعت عنها فقط فى الكتب، القطبان الشمالى والجنوبى وجبال الثلج التى لا تذوب أبداً، خطوط العرض والحياة الرائعة التى تشغى وتنشط فى كل أنحائها.

فكرت، "هناك فوق النجوم، كل شيء يمكن أن يشاهد"، للمرة الأولى فى حياتها اشتاقت أن تنهض وتهجر هذه الحوائط الأربعة وتسافر بعيداً إلى كل مكان على وجه الأرض لترى كل شيء وتتعرف على كل شيء.

فكرت، "لكن سوف تبقى النجوم، كيف يمكن لها أن تصل إلى النجوم؟"

فكرت فى الجدة العجوز، الآن هى قد تحررت وأصبحت روحها تحتفل بالحرية، لكن بالتأكيد، روح هذه السيدة العجوز تحوم الآن فوق هذا المنزل.

فكرت، "ما إن أتحرر من قيودى، وما إن أترك هذا المنزل، حتى أسير قدمًا إلى أعلى حتى أحاول أن أتعرف على نوعية المادة التى تكونت منها هذه النجوم".

وهكذا، وهى فى خضم أحلامها العجيبة، نسيت أن ينج كانت قد عبرت أمامها واختفت، وهى الآن قادمة وبصحبتها أبناؤها الثلاثة. أتوا جميعًا مسرعين ووقفوا طويلا أمامها يحملقون. تحدث ليانجمو أولا:

"أمى". جعل صوته رقيقاً، كان يخشى أن تكون روحها قد غادرت جسدها، وعندما يحدث هذا يجب هنا التودد والتقرب إلى الروح بكل حذر حتى لا تخاف، وإلا ما عادت أبداً، فالجسد هو القفص والروح هى العصفور، وما إن يترك القفص مفتوحاً، حتى يطير العصفور طلباً للحرية، إذن لماذا يعود إلى القفص؟ لذا يجب أن يعود باستخدام الحيلة والخداع.

قال ليانجمو بلغة أرق، "يا والدتى العزيزة، أولادك هنا...أولادك فى انتظارك....".

لكن مدام وو كانت فى حالة عجيبة من التجلى، لذا لم تسمعهم. أخذ الكل ينظر للآخر فى رعب. طلب ليانجمو من تسيمو أن يذهب لإحضار الوالد. بالفعل أسرع تسيمو، بعد قليل، بينما الآخرون واقفين منتظرين فى خوف وصمت خوفًا من الهروب النهائى لروح والدتهم، أتى السيد وو مسرعًا وخلفه، غير ملحوظة، شيومنج.

سأل هو ينج، "كيف حدث هذا؟"

"القس الأجنبى تركها وهى فى هذه الحالة"

أخذوا يتبادلون النظرات فى خوف مقيم.

قال السيد وو بصوت رقيق، "يا أم أولادى!"، وجهه العريض كان فى بياض الورق.

لم تجب مدام وو.

نادى مرة أخرى، "أيلين"، لم يجرؤ على لمسها، يداها تدلتا كأنهما أزهار بيضاء متخشبة.

لم تنطق شيومنج بحرف، لكن ركعت بجوار قدمى مدام وو وجذبت خفها الساتان الخفيف وكذلك الجوارب الحريرية، ثم أخذت فى تدليك قدميها العاريتين وتضعهما على صدرها.

قال السيد وو متعجلا، "سوف تعملين على إيقاظها سريعًا"

"لا، لأنها لا تخاف منى". وهى راكعة، كانت تحدق فى الرجل وأبنائه الثلاثة، وفى ذلك المنزل الذى دفعت السماء بها إليه.

قال السيد وو بكل وقار، "إنها لا تخاف من أحد"

قالت شيومنج، "إنها لا تخاف منى، لأنها لا تهتم بى". كان قولها هذا غريبًا، لذا اكتفت بالتحديق فى تلك الأقدام العارية.

فى تلك اللحظة خفضت مدام وو عينيها من النظر إلى النجوم فشاهدت أبناءها الثلاثة.

"أنتم الثلاثة؟ ما الذى تريدونه؟"

فى الحال قامت شيومنج بإعادة الجوارب والخف، لكن ظهر أن مدام وو لم تشعر بها. وقعت أنظار المدام على وجه زوجها.

قالت ببرود، "لماذا أنت هنا؟"

لاحظ الجميع أن روحها تعصى وتأبى العودة.

قال ليانجمو بسرعة، "أمى، أعتقد أن منج زوجتى قد قاربت على ولادة طفلها"

قال تسيمو، "أمى، أود أن تعلمى رولان كيف تصنع كعكة العسل"

قال فنجمو فى صوت خفيض، "اليوم يا أمى...أنا أخبرتك بكذبة"

واحد بعد الآخر كان يدعو روحها لتعود.

وقد حان الآن الدور على السيد وو، "أم أبنائى، المنزل فى حاجة ماسة لك، ويبدو أنك قد نسيت أن الوقت قد حان لتخصيص حبوب القمح المطلوبة للزراعة".

أخيراً عادت، وغمغمت، "ألا يمكن أن تنصرفوا وتتصرفوا فى مشاكلكم بأنفسكم؟"

أجاب ليانجمو، "لا، ولن يحدث هذا أبداً"

كانت مرتبكة وهى تجمع الرداء الذى كان فوق ركبتها، لذا قامت ودعته يقع على الأرض. لقد عادت من رحلة النجوم، والآن هى داخل المنزل. أخذت تنظر حولها فى اندهاش.

قالت، "أين ينج؟ أنا تعبانة جداً – يجب أن أنام، إلى الغد، نعم إلى الغد"

تراجع الرجال الأربعة ودعوا ينج تقودها إلى سريرها، فقط هى شيومنج التى تسللت فى جنح الظلام، لكن الرجال ظلوا فى غرفة استقبال مدام وو وهم فى حالة من الصمت الكامل، ينظر كل واحد منهم إلى الآخر فى صمت كامل يتسمعون. حضرت ينج لتخبرهم، "أنها فى أمان الآن، لقد استغرقت فى النوم".

رحلوا جميعاً.

فى طريقهم سأل ليانجمو والده، "هل يمكن أن تفسر لنا يا والدنا ما حدث؟ روحها لم تغادر منزلنا من قبل، أليس كذلك؟"

تجهم وجه السيد وو، "أنا لا أدرى ما الذى جرى لها. منذ عيد ميلادها الأربعين كانت كل تصرفاتها غريبة"

لكن فنجمو هز رأسه قائلا، "لا أحد فيكم يفهم والدتنا مثلى. أعلم كيف هى تشعر. هى تشعر أن لها أجنحة لكن لم يتح لها أحد الفرصة لأن تطير - هذا هو حقيقة شعورها".

كل من أبيه وليانجمو وتسيمو نظروا إليه كأنما هو معتوه. فى اللحظة التالية تبادلوا تحيات المساء وهم متجهمون.

* * *

نهضت مدام وو من نومها صباحًا وفى قلبها خوف وخشية من أحداث الليلة الماضية. لم يحدث فى حياتها من قبل أن شعرت بهذا القدر من الاستمتاع والحرية الكاملة عندما غادرت روحها جسدها. كانت تعلم أن هذه الحرية من الممكن أن تكون هى ما تفضله الروح من مشارب، لا تستطيع أن تهجره كما يفعل السكير مع الخمر. هى الآن لا تنظر إلى أى شىء آخر، وتشعر أن كل الواجبات والأحمال التى تنوء بحملها لإدارة هذا المنزل الكبير قد سقطت عن كاهلها، لقد ألقتها بعيداً كما تفعل الراهبة التى استطاعت أن تهرب من مشاكل الحمل والولادة، وكذلك القس الذى يهرب من الالتزامات المفروضة على الرجل. شعرت هذا الصباح بنوع من الغضب الجامح من الأخ أندريه لأنه حفزها لأن تبحث عن حريتها. هى كانت خائفة من نفسها لأنها استجابت لهذا الإغراء، وعندما استيقظت كان شعورها بالذنب ثقيلا، كما لو أنه قد أهداها إلى حبيب سرى.

استيقظت على الفور، وهى تقسو على نفسها. استدعت ينج ووجهت إليها ملاحظات حادة وتافهة فى الوقت نفسه. أشارت إلى الغبار الذى يسرح خلف مقعد كبير من النادر أن يتحرك من مكانه، وعن خيوط العنكبوت التى تعلقت فوق السقف المدهون. بعد إفطارها، استدعت الطباخ وأرشدته إلى الأمور الخاصة بنوعية الطعام الذى سوف يقدم للعائلة ويكفى لمدة عدة أيام تالية. قالت له، "الآن وقد قرب موعد حلول فصل الشتاء، توقف عن تقديم مشروبات البطيخ والخيار ومثل هذه المرطبات، لقد حان الوقت لأن تقدم قطع اللحم المحمرة والخضراوات المطبوخة، ووضع اللحم فى هذه الخضراوات".

فتح هو عينيه الصغيرتين على اتساعهما وهو يستمع لذلك، "أين كنت تأكلين يا سيدتى ولم تشاهدى أننى بالفعل بدأت فى تقديم ما تشيرين به؟ وبعد مرور هذه السنوات الطوال، هل يلزم أن يتم تذكيرى بما يتم تقديمه أو عدم تقديمه مع دخول المواسم؟"

كان مندهشاً من حدة السيدة وو، فهو طباخ ماهر وله مركزه المحمود الواثق فى هذا المنزل. أحياناً هو يتطاول فى الحديث عندما يشاء، وهذا يحدث كثيراً، لأنه يتمتع بطباع كل الطباخين المتازين فى عملهم. لكن مدام وو لم تخفف من حدتها، "اذهب بعيداً عنى، لا تخبرنى عما كنت تفعله أو لا تفعله".

هى لم تخصص لنفسها وقتاً هذا اليوم، فما إن يحضر أحدهم ويخرج حتى يحضر التالى. ما إن انتهت من الطباخ حتى أتى السيد وو. دخل إلى جناحها فى وقت مبكر عن موعد استيقاظه المعتاد.

قالت له، "تعالَ يا والد أبنائى، كان أحاسب الطباخ. أحياناً أفكر فى تغييره، أصبح من عادته كثيراً أن تفلت من لسانه عبارات غير لائقة".

"لكن هو الطباخ الوحيد الذى يطبخ الكبوريا كما أرغب فيها"، قال ذلك بانزعاج، "تعلمين كيف أننى بحثت فى سبع أو ثمانى مدن حتى وجدته، بعد ذلك جعلته يتزوج وصيفتك حتى أضمن بقاءه".

"ينج أيضاً أصبحت قليلة الأدب"

لم يكن هذا أسلوبها المعتاد، لذا شعر السيد وو بمزيد من الانزعاج. جلس ثم سحب غليونه من كمه وأشعله، "الآن يا والدة أبنائى، أنت لا تشعرين أنك على ما يرام هذا الصباح، عيناك غائرتان".

"أنا فى أفضل حال"

سحب السيد وو نفسين من الدخان ثم خفض غليونه، ثم بصوت خفيض وهو ينظر يميناً ويساراً ليتأكد من أن لا أحد يستمع إليه، "أيلين، أنت فعلت خطأ جسيماً عندما قررت أن تفصلى نفسك عنى - فى الحقيقة، لن يتمتع أى من الرجل أو المرأة بصحة جيدة عندما يفترقا. وليس الموضوع مختصاً بالإنجاب، إنه أمر يختص بتحقيق التوازن. أنت لم تفقدى أسنانك بعد، وشعرك ما زال بلونه الأسود كما كان دائماً، كذلك بشرتك متماسكة ودماؤك حارة، هل نسيتى كم كنا فى الماضى....".

قالت بحزم، "توقف من فضلك. أنت تعلم أننى لست امرأة متغيرة وقد نظمت أسلوب حياتى، فهل تشعر الآن بعدم الرضى وأتيت لتتحدث معى هكذا؟

قال بصراحة، "فى الحقيقة، أنا أرجو أن ترجعى لى، فأنا أحبك أكثر من أى امرأة أخرى وهذا سوف يستمر حتى أموت، لكن أنا لا أفكر فى نفسى".

أصرت هى فى القول، "وليس لك أن تفكر فى أيضاً".

"يجب أن أفكر فيك"، ثم خطرت على باله فكرة مريعة. لعل بتدخل نوع من انحراف الطبيعة، أصبحت هى متعلقة بهذا القس الأجنبى، لكنه كان يشعر بالخجل من أن يعبر عن ذلك لها. هو يعلم مقدار حزمها فى كل الأمور، وبعيداً عن كون الرجل قسيساً فهو أيضاً أجنبى. لقد كان السيد وو فى شبابه متعجلا فى موضوع مطارحة الغرام، لكن هو تعلم مع الوقت أنه يجب أن يتماسك قليلا ويأخذ حماماً وأن يتأكد من أن أنفاسه قد أصبحت حلوة قبل أن يقترب منها. لكن الأجانب يتمتعون بخشونة البشرة وأنفاسهم غير مستساغة وشعور رءوسهم خشنة. أحنى هذه الأفكار السيئة تلك جانباً، وإلا استطاعت هى بسحرها الغامض وقدراتها أن تنقلب عليه وتتهمه بأمور متعددة.

لذلك كله، فضل أن يعود إلى الشىء الوحيد المضمون الذى يمكن أن يلفت أنظارها. عليه إذن أن يمثل أنه هو أيضاً لم يعد بصحته المعهودة، "آه، أنا أصبحت كذلك متقدماً فى العمر، معدتى الآن كثيراً ما تدمدم، لذا أصحو من نومى ليلا مرتين وثلاث مرات، وفى الصباح أشعر بتعب شديد".

لكنها ما زالت بقسوتها نفسها، "حاول أن تتناول فى عشائك قليلاً من الشوربة، وحاول أن تنام بمفردك عدة ليال".

لم تنجح محاولته، لذا جلس وقد مد شفته السفلية إلى الخارج، أما هى فقد خبطت قدمها على الأرض الحجرية، ثم قامت لتصنع له كوباً من الشاى. شاهد هو أصابعها ترتعش وهى ممسكة بيد الفنجان، لكنه لم ينطق بشىء. شرب هو من كوبه وفعلت هى مثله، ثم نهض ينتوى الخروج، وما إن تجاوز عتبة الباب حتى نادت عليه بصوتها الرائق الحاد نوعاً، "لقد نسيت مرة أخرى غليونك هنا"!

التفت إليها ووجهه بلون قرمزى، "فى الحقيقة، أنا لم أنسه".

لكن هى وقفت على عتبة الباب تشير إلى الغليون كأنما هو شىء قذر، عاد كأنما هو تلميذ خائب وخطف غليونه، ثم تجاوزها وشفتاه مضمومتان وخدوده حمراء. للحظات أخذت تراقبه وهو يسير خارجاً، كانت تشعر بنغزة فى قلبها كأنما قد تلقت ضربة موجعة فيه، لكن قبل أن تركز فى هذا الموضوع، فمن يحضر فى هذه الساعة بالذات سوى الأخت الصغيرة هسيا؟ فمن دون كل الساعات، شعرت مدام وو أن هذا الصباح بالذات هو آخر زمن يمكن أن تظهر فيه هذه المرأة الشاحبة المسكينة ويتم الترحيب بها، لكن ما الذى يمكن أن تفعله سوى أن تدعوها للدخول لتجلس؟

قالت الأخت هسيا بلهجتها السريعة المكسرة، "لم أرك منذ وقت طويل". انحنت مدام وو لتلتقط كلماتها غير المفهومة، فالأخت هسيا ليس لديها أى نوع من التحكم سواء فى نفسها أو فى لسانها، لذا تضاربت الأقوال الصادرة منها، فتصدر منها أصوات المفترض أن تكون حادة لكن هى تنطق بها برخاوة، والعكس، ودرجة الهبوط فى رتم صوتها ليس له أدنى صلة بما تنطق به.

تساءلت مدام وو، "هل كنت مريضة أيتها الأخت هسيا؟"

"لا..لكن إلى حد ما...المرة الأخيرة..شعرت أننى ربما...أننى كنت متداخلة نوعًا"

غمغمت المدام بأدب، "وهل فى استطاعتك أن تكونى متداخلة؟"

"أنت إنسانة طيبة"، فى براءة تقبلت منها هذا الأسلوب المؤدب، "هذا اليوم أنا حضرت لأعرض عليك شيئًا مخصوصًا.. عزيزتى المدام، أرجوك، أنا لدى خطة معينة، إذا وافقت عليها...".

"ما هى تلك الخطة؟"

"هل تعرفين هذا القس؟"

"هو كان يعلم ابنى"

"هو لديه بيت لإيواء اللقطاء، وقد شعرت منذ فترة أنه يلزم تواجد امرأة هناك، فهو ليس لديه سوى خادمة عجوز، لكن هؤلاء اللقطاء يجب أن يحصلوا على نوع من التعليم، ألا تظنى كذلك؟ كنت أتعجب ما إذا كان فى إمكانك أن... ربما، أود بعد موافقتك، أن أتقدم متبرعة بخدماتى لهذا البيت وأكون مدرسة هناك".

"لماذا لا تسألين عن ذلك بنفسك؟"

"يجب أن تعلمى أن عقيدتى الدينية ليست هى عقيدته"

"كم هى عدد الاعتقادات المتنوعة التى عند الأجانب؟ دائمًا ما أسمع عن ظهور نوع جديد".

"ليس هناك سوى إله واحد حقيقى"

"هل تؤمنين بوجود إله؟"

فتحت الآنسة هسيا عينيها الباهتتين ورفعت ذراعيها لتعيد خصلة شعر باهتة من على خدها، "لماذا إذا تظنين أننى تركت بلادى لكى أرحل إلى هذا البلد الغريب؟"

"هل بلادنا غريبة؟"، قالت ذلك باندهاش بالغ.

"بالنسبة لى هى بلاد غريبة"

" هل أخبرك إلهك أن تحضرى إلى هنا؟"

"نعم، هذا ما حدث"

"هل سمعت صوته"

احمر وجه الآنسة هسيا ووضعت يديها الشاحبتين فوق صدرها، "أنا شعرت بها – استمعت لكلماته هنا".

أخذت المدام تحملق فيها، "لكن ألم يحاول والداك أن يسعوا لأن تتزوجى؟"

أخذت الأخت هسيا تضم يديها على صدرها بشكل أقوى، "فى بلادى، لا يسعى الوالدان أبدًا لتزويج أبنائهم. يتزوج الرجال النساء بعد نشأة الحب بينهما"

سألتها مدام وو بعد ذلك بصوتها الهادئ، "وهل أحببت أنت رجلا من قبل؟"

سقطت يدا الآنسة هسيا فى حجرها، ببساطة قالت، "طبعًا"

"لكن لم تتزوجا؟"

قال الأخت بوضوح، "فى بلادى، على الرجل أن يسأل المرأة الزواج"

الآن، صمتت مدام وو، كان من السهل عليها أن تسأل السؤال المنطقى التالى، لكن هى كانت رحيمة بها وطيبة معها. علمت على الفور أنه لم يتواجد ذلك الرجل الذى يمكن أن يطلب من الآنسة هسيا الزواج.

رفعت الآنسة هسيا عينيها فى شجاعة، على الرغم من أنهما كانتا غائمتين، "كان له خطط أخرى بشأنى". صوتها كان رائقًا.

ابتسمت لها المدام بكل حنان، "إننى أعرفك جيداً أيتها الأخت!"

تناولت بعد ذلك غليونها الدقيق وأشعلته وأخرجت نفسين ثم وضعته جانبًا، "هنا فى بلدى، نحن لا نترك موضوعًا مهمًا كالزواج فى يد الرجل أو المرأة أو حتى الله، فالزواج يشبه الأكل والشرب والسكن، يجب أن يحدث تجهيز وتدبير له، وإلا فإن أحدهم سوف يحصل على الكثير والآخر يجوع. أنا هنا فى منزلى أرتب موضوع الأكل والطعام حتى بالنسبة للخدم. كل فرد له الحق فى أن يحصل على نصيبه الذى يكفيه. بالطبع هناك أنواع من الأطعمة هى المفضلة عند كل فرد عن غيرها، فإنه إذا تُرك الطعام لاختيار الأطفال مثلا، فإنهم لن يأكلوا سوى الحلويات، وزوجى لن يأكل سوى الكبوريا واللحم السمين. بعض الخدم يتميزون بأنهم جشعون ومستعدون أن لا يتركوا شيئًا لغيرهم الذين سوف يعانون من الجوع. لقد خصصت لكل خادم كمية محددة، كذلك لكل فرد من أفراد العائلة، لذلك يتم إطعام الجميع تحت رعايتى ومراقبتى".

كانت أصابع الأخت هسيا تتشابك وتتعقد فى بعضها، "أنا لا أدرى كيف انجرفنا فى الحديث فى كل هذا. لقد حضرت لكى أطلب منك معروفًا – فى الحقيقة أنا نسيت لماذا أنا حضرت".

"لقد نسيت لأن ما أتيت به لم يكن هو ما كان يشغل بالك. أنا سوف أجيبك. أيتها الأخت الصغيرة هسيا، دعى الأخ أندريه بمفرده، أنا أؤكد لك أنه كالصخرة الصلدة الصامدة لأنها عالية. يجب أن لا تنطحى هذه الصخرة، سوف تجرحين وتتمزق بشرتك وقلبك سوف يدمى. سوف يتفكك مخك ويتبعثر، وهو لن يدرى بذلك. أشغلى نفسك فقط بإلهك – هذا ما أنصحك به".

ازداد شحوب الآنسة هسيا حتى وصل إلى شفتيها، "أنا لا أدرى ماذا تقصدين، أحيانًا أفكر أنك إنسانة شريرة. أنت تفكرين فى أمور... وتضعين أفكارًا فى مخى... وأنا قطعًا لست فى مجال هذه الأفكار...".

قالت لها المدام بحنان، "لا تخجلى أبدًا من أفكارك، إنها أفكار جيدة، لأنك أنت امرأة صالحة. لكن يجب أن تكونى بمفردك. هذا هو قدرك.الحياة لم تمدك بالكثير، فأنت تنتمين إلى بلاد قاسية، حتى والداك لم يهتما بك، كذلك لم تهتم الحياة نفسها بك.

أيتها الأخت هسيا، أنا بنفسى كان من الممكن أن أدبر لك زواجًا، لكن للأسف لا يوجد هنا رجل من جنسك".

أخذت الأخت هسيا تصغى لها، الآن فمها فاغر حتى نهايته، يفتح ويغلق، ثم أخذت تلهث، فجأة انخرطت فى بكاء مر غاضب، "أنت إنسانة بغيضة، أنتم.. أنتم. أنا لست مثلكم، كلكم متشابهون أيها الصينيون، دائمًا ما تقتصر أفكاركم فقط على هذه الأفكار الفظيعة".

كان اندهاش مدام وو عميقًا، "أيتها الأخت هسيا، أنا أتحدث عن الحياة نفسها، حياة الرجل وحياة المرأة، أنا أشفق عليك، أود أن أساعدك إذا كان ذلك فى إمكانى....".

نهنهت الآنسة هسيا، "أنا لا أريد مساعداتك، أود فقط أن أخدم الله"

غمغمت مدام وو، "يا للمسكينة، إذن اذهبى واخدمى إلهك"

بيديها الرقيقتين تناولت يدى الأخت هسيا الصغيرتين وصاحبتها حتى الباب وودعتها. لقد قررت أن لا تراها مرة أخرى.

بشكل رصين جلست فى مكانها. ما زالت عيناها مليئة بالشفقة والتأثر، ثم أتت إليها ينج مسرعة وهى تصيح، "زوجة سيدى الشاب الأول بدأت فى مرحلة الولادة"

"آه، إذن ابعثى لأمها لكى تحضر، فى الوقت نفسه أنا سوف أذهب إليها". قامت ودخلت حمامها وغسلت يديها وغيرت معطفها الحريرى برداء آخر من التيل الأزرق، ثم قامت بتطييب يديها وخديها ثم ذهبت إلى جناح ليانجمو.

شعرت بالسرور بهذه الأخبار، فليس هناك خبر مثير مثل ولادة طفل. هى لم تعجب أو تتمتع بعملية ولادة أطفالها، ففى كل مرة كانت تلد فيها، تشعر بعدها أنها قد تطهرت وتجددت حياتها – إنها لا تخشى اليوم على منج، فهذه المرأة شابة وبصحة جيدة وخلقت لكى تنجب الأطفال.

إنه يوم النسـاء، مثل كل أيام الولادات، فقد امتلأت الغرفة الرئيسية لجناح الابن الأكبر، كان مليئًا بالنساء من الخادمات وبنات العم والقريبات، حتى الأطفال كانوا سعداء يضحكون وهم يحملون جرادل المياه وفناجين الشاى. كان البيت مليئًا بالأطفال، مع ذلك هاهم يرحبون بقدوم طفل جديد. أكثر من ذلك، نظرًا لأن منج هى زوجة الابن الأكبر، فقد اكتسبت هذه الولادة أهمية خاصة. ما إن اقتربت مدام وو نحو البـاب حتى بادرتها واحدة من بنات العم بالقول، "ولادة طفل ثان هى أفضل الأمور، فلو حدث أى مكروه للطفل الأول، فهناك الثانى. البيت المليء بالأطفال هو دائمًا فى أمان".

ما إن دخلت مدام وو الغرفة، حتى نهض الجميع - لقد تم ترك أعلى مقعد لها، فجلست عليه بالفعل. انهالت عليها غمغمات التحيات والترحيب من تلك الغرفة التى حل عليها الصمت. قامت رولان، بصفتها زوجة الابن الثـانى بصب الشاى. هى أيضًا كانت صامتة.

خاطبتها مدام وو، "آه، رولان"

أخذت تنظر نحوها بنظرة حادة مدققة. كانت تبدو شاحبة. لم تعد ترى رولان إلا وتتذكر أنها كانت تنتحب ذات ليلة بصوت عال. ثم لاحظت مدام وو وجود لين يى وقد انتحت جانبًا قصيًا، كانت تجلس هناك تفصص لب البطيخ الجاف بين أسنانها القوية وتلقى بالقشر على أرضية الغرفة. أحجمت مدام وو أن تؤنبها على فعلها هذا. سوف تحضر مدام كانج بعد قليل، لذا ليس هناك داع لنهر لين يى الآن. قامت الفتاة من مكانها ما إن شاهدت عينى مدام وو مسلطة عليها. تناولت مدام وو بعد ذلك الموضوعات الخاصة بالولادة، "ما هى الأحوال؟"، استفسرت بهذا القول من القابلة التى أسرعت بالخروج من غرفة النوم عندما سمعت الجلبة التى أحدثها وصول مدام وو. وقفت أمامها القابلة السمينة، إنها إنسانة خشنة الطباع تؤدى عملها هذا فى كل مكان، لكن هى بالطبع ترحب بالولادات التى تتم فى بيت غنى حيث من المتوقع أن تنهال عليها الهدايا القيمة، لا سيما إذا كان المولود ولدًا حيًا سليمًا، قالت، "هو بالتأكيد ولد، لكن زوجة الابن الأكبر تحمله عاليًا".

فجأة ارتفع صوت منج الثاقب على شكل صرخات فجائية، فأسرعت القابلة ودخلت غرفة النوم. قبل مرور نصف ساعة كانت مدام كانج قد وصلت. كانت بلا هيئة محددة بسبب حملها الجديد، وعلى الرغم من أنها ارتدت ملابس فضفاضة، فإن بطنها برزت إلى الأمام. حل الصمت ما إن عبرت عتبة الباب. كان الفضول والتحسر عليها هما سبب هذا الصمت، شعرت هى بذلك وشعرت بالخجل، لذا بادرت بالقول:

"إخوتى، أنتن هنا جميعًا، أشكركن كلكن لأنكن حضرتن لتعينوا ابنتى"، ثم خاطبت مدام وو بالقول، "وأنت، أيتها الأخت الكبيرة، كيف الحال الآن؟"

"كنت فى انتظار حضورك. دعينا ندخل إليها سويًا"

دخلا إلى غرفة النوم حيث رقدت منج على كنبة ضيقة. كان العرق ينضح على خديها ويبلل شعرها الطويل. اقتربت السيدتان إليها، كل على جانب وأمسكوا بيديها.

قالت منج وهى تلهث، "أمى – إنها أصعب من المرة الأولى"

قالت مدام كانج، "فى الحقيقة هى ليست كذلك، بل سوف تكون ولادة سريعة"

"لا تتحدثا !"، هذا ما طلبته مدام وو من كليهما، "هذا الوقت مخصص للطلق"

تشبثت منج بيد مدام وو من جانب، وبيد أمها من الجانب الآخر. كانت هى تتمنى أن تسند رأسها على صدر أمها وتبكى، لكنها لم تجرؤ على فعل ذلك، فهذا ليس مناسبًا فى حضور حماتها. انتشر فى الغرفة رائحة الدم الساخن، فيما انشغلت القابلة فى عملها المجهد، صاحت:

"هو آت الآن، سيد صغير..أرى تاج رأسه"

أخذت منج تنتفض يدها، وتلتوى بين اليدين التى تشبثت بهما. لم تفلت إحداهما يدها، فجأة رفعت منج رأسها وعضت يدها الممسكة بها أمها، فدفعت الأم يد ابنتها بعيدًا ووضعتها على صدرها.

صاحت فى ابنتها، "لماذا تحاولين جرح نفسك؟"

لكن منج قفزت باستقامة جسمها، ثم أخذت تتلوى من الألم. فتحت فمها حتى آخره وأصدرت أنيناً متوجعاً تطور إلى صرخة نهائية. أسقطت مدام كانج يد منج ودفعت القابلة جانباً ومدت يديها وأمسكت بالطفل. قالت بافتخار، "هو ولد آخر"، وكأنما هو استمع لها، فهذا الطفل الذى استنشق الهواء لأول مرة وصدرت منه صرخات متوالية.

أخذت مدام كانج تبتسم لهذا الكيان الصغير المجعد الغاضب، "هل أنت غاضب لأنك ولدت؟ اسمعى صوته يا منج، إنه يلومنا جميعاً".

لكن منج لم تجب. لقد تخلصت من الألم، الآن أغمضت عينيها ورقدت كأنما هى زهرة ألقيت على الأرض المطرة.

* * *

تلك الليلة، جلست كل من مدام وو ومدام كانج سوياً. كل شىء كان يسير حسناً فى المنزل والطفل كان سليماً. أمه استغرقت فى نوم عميق. فى ود وحب جلست كل من الصديقتين. لم تتحدث مدام وو أبداً عما فعلته مدام كانج بنفسها، ببطنها المتضخمة هذه، بينما هما جالستان يتناقشان فى الشئون العائلية وأمور أخرى متنوعة ويتذكران ماضى الأيام. فجأة سقط ظل ضخم على الباب المفتوح، إنه الأخ أندريه الذى أتى ليعطى فنجمو الدرس كالمعتاد.

سألت مدام كانج، "هو المدرس الأجنبى؟"

"إنه يأتى الآن ليستكمل فنجمو دراسة اللغة الإنجليزية". بدا لها الأمر أنه قد مر عليها دهر منذ أن تسلقت روحها جدران المنزل الليلة الماضية. الآن فى هذه الليلة، عادت تفعل ذلك مرة أخرى. لقد ارتبطت مجدداً بولادة هذا الطفل الجديد اليوم. إنه فم جديد، عقل آخر جديد هى مسئولة عنه.

قالت مدام كانج، "أنا لا أعرف الفرق ما بين القس والراهب، أكثر من معرفتى لأى لغة أجنبية".

ابتسمت مدام وو، "أنت... أنت..."

ضحكت مدام كانج وأخذت تربت على بطنها الممتلئة ثم اعترفت، "عندما أكون بمفردى ، أشعر بالسعادة. أنا سوف أسعد بوصول طفل جديد لى.

فى وجه مدام كانج، شاهدت مدام وو لدهشتها مظاهر الفرح نفسه الذى يصعب تفسيره، مثل ذاك الذى شاهدته مرتسماً على وجه الأخ أندريه بالأمس. كانت الصداقة التى تجمعهما فى أعلى درجات العلاقات البشرية. كانت مدام وو تعلم أن صديقتها لم تحاول أبداً أن تتعلم القراءة. فى الحقيقة، كانت مدام كانج تعتبر أن تعلم القراءة ليس إلا ضياعاً للوقت، بينما هى فى إمكانها أن تلد طفلا.

قالت لها مدام وو وعلى وجهها نصف ابتسامة حنونة، "أنت إنسانة طماعة، لا تريدين أبداً أن تتركى موضوع إنتاج الأولاد للشابات الصغيرات. إنه من المناسب لك أن تحملى أحفادك وليس أبناءك. متى سوف تتخلين عن هذا الموضوع؟"

قالت مدام كانج وهى تتنهد بخجل مصطنع، "أنا أشعر بالبهجة وأنا منغمسة فى هذا الموضوع بالذات".

سألت مدام وو باهتمام، "هل أنت حقاً لا تريدين من الحياة سوى أن تفعلى ذلك؟"

"نعم، إذا استطعت أن ألد طفلا كل عام فلن أتردد- ما فائدتى إذا لم أقدم لعائلتى هذه الهدية؟".

عبر أمام الباب ظل فنجمو الرشيق، نظرت نحوه مدام وو وهو يمر"

"لقد أتى فنجمو ليحضر الدرس". كلتاهما أخذتا تتابعان تحركه بعيداً.

"لين يى". كلتاهما نطق بهذا الاسم فى نفس واحد. لذا توقفت كل واحدة لتبدأ الأخرى.

قالت مدام كانج، "استمرى فى القول"

"لا، أنت أمها. قولى أنت"

"لا، لن أفعل"

"حسنًا، إذن سوف أتحدث. فنجمو ليس سعيداً مع ابنتك يا عزيزتى متشن. شىء مؤسف أنك لم تعلميها كيف تسعد زوجها".

صاحت مدام كانج، "فنجمو!". اندهشت مدام وو من لهجتها، "فنجمو ليس سعيداً!"، رددت مدام كانج هذه العبارة بنوع من الاستهزاء، "أيلين، دعينى أخبرك بأمر مهم. إنها لين يى التى لا تشعر بأى قدر من السعادة"

قالت مدام وو بأرق صوت لديها، "متشن، اهدئى قليلا"

"نعم، أنت تظنين أنك قد قمت بنصيبك فى تعليم فنجمو، لكن لين يى ليست سعيدة معه. فى الزواج يجب أن يتوافر اثنان، هل يمكن التصفيق بيد واحدة؟ إنك لم تعلمى فنجمو دوره الصحيح فى موضوع الزواج".

قالت مدام وو بحدة، "أنا؟"

"نعم، ابنك الأكبر ليانجمو يشبه والده. هو رجل بالغريزة، لذا تجدين منج سعيدة معه، لكن فنجمو يشبهك".

قالت مدام وو بمرارة، "يعنى قولك هذا، أنه يطلب شيئًا أعلى من قدراته؟"

هزت مدام كانج رأسها، "إذن دعيه يبحث عن ذلك خارجيًا، دعيه يأخذ معه كتبه التعليمية ويبحث لنفسه عن عمل لكى لا يشعر بعدم الرضى هذا، هذا كله ليس لابنتى شأن به".

صاحت مدام وو، "متشن، أنت تسيئين لى"

"من رأيى أن تعود لين يى إلى منزلها الأصلى لفترة من الزمن. ويمكن لك أنت وفنجمو أن تدرسوا كتبكم وأن تبتعدوا عن ابنتى، إلى أن تعرفوا قيمتها الحقيقية".

شـاهدت مـدام وو تلك الصداقة العميقـة وهى عـلى شـفا التحطم والتفكـك، لـذا صـاحت:

"متشن، هل أنت تتعاركين معى؟"

قـالت مـدام كـانج بكل عواطفها المحتـدمـة، "أنا كنت دائمًـا صـديقة وفيـة لك، ولم أحكم عليك أبداً حـتـى وأنت تفكرين فى أمـور تعلو عن تفكيـر أى امـرأة. لكن أنـا كنت على وعى كامل أنك إنسانة حكيمة، وكنت قد أخبرت والد أبنائك...".

قالت مدام وو بهدوء، "هل تحدثتما سوياً عنى؟"

"فقط من أجل مصلحتك". فـجـأة نهضت مدام كـانج وأخذت تجمـع فى مـلابسـهـا السائبة ثم خرجت بثبات مبتعدة عن مدام وو.

فى وقت متـأخر من هذه الليلة، عندما كـانت مدام وو فوق سـريرهـا، أتت إليـهـا ينج مسـرعة تقـول، "هل تـعلمين أن مدام كـانج قـد اصطحـبت مـعـهـا زوجـة الابن الثـالث إلى منزلها يا سيدتى؟"

"نعم، أنا أعلم ذلك"

أغلقت عـينيـهـا كـمـا لو أنهـا سـوف تنعس، لكن النـوم جـافـاهـا. لم تصـدق أن صديقتها من الممكن أن تصل إلى منزلها هذا ثم تسـحب ابنتها بهذا الشكل، كما لو أن لين يى مـا زالت تنتمى لـهم. ظلت نائمة فوق سريرهـا فى سكون، وبالكاد أغمضت عينيها هذه الليلة بسبب الغضب الذى حل عليها.

لو كانت مدام وو إنسانة خسيسة فربما فرجت عن نفسها بالشعور القاتم الخاص بالغضب من صـديقتهـا، لكن هى إنسانة متأكدة من نفسها ولم تكن بهذا الضعف. هى لامت نفسها بسبب إهمـالها التـحكم فى تصـرفاتها. كانت على علم كامل أن صداقتها بمدام كانج قوامها هو البيت والعائلة، والأرض والطين، لـمـاذا لا تكون راضية بذلك بدلا من أن تفتح أمـام وجه صديقتها أبوابًا تلقى الرعب فى قلبها؟ كل روح تنتابها المخاوف

عندما تجبر أن تتصرف بشكل يفوق مستوها. الآن، بسبب إهمالها، أصبح الفارق بين فنجمو وزوجته لين يي أكثر اتساعًا. بالتأكيد هو أمر محزن أن تسحب زوجة من بيتها ويزج بها في منزل عائلتها. يجب أن يذهب فنجمو على الفور ليسترد زوجته. لذا أرسلت لابنها هذا ليحضر إليها.

أتى فنجمو شاحبًا لكنه هادئ.

"ابني، طلبت أن تحضر لكي أعترف لك بخطئي. لقد تعاركت أنا وأم لين يي، وككل أم غبية، وقفت كل واحدة منا في صف ابنها أو بنتها، لذا أخذت هي ابنتها إلى منزلها. كان علي أن أخبرك بذلك حتى لا تظن أن هذه هي غلطة لين يي. الآن علينا أن نبذل كل جهد مستطاع لنعيدها إلى بيتها".

لرعبها، هز فنجمو رأسه رافضًا، "أنا لن أذهب إليها يا أمي، دعي الأحوال كما هي. أنا ولين يي لسنا مناسبين لبعضنا".

"كيف تقول هذا؟". كان قلبها يدق بعنف، لدرجة أنها أحست بضرباته وهو يدق ويضرب في البطانة الكثيفة لمعطفها. كان برد الصباح شديدًا، لذا ارتدت معطفًا من التيل الثقيل. قالت، "كل رجل وامرأة لديه ذرة من الذكاء يمكن له أن يتوافق مع شريك حياته. الزواج مسألة عائلية يا فنجمو، إنه نظام ثابت، ليس على الإنسان أن يضع في الاعتبار شخصه فقط".

"أمي، أعلم أن هذا ما تعلمينه أنت، وهو ما أدركناه منك، ولو كنت أنا ابنك الوحيد إذن لكنت تقبلت رأيك بكل الخضوع والرضى، لكن أنا لدي إخوة أكبر مني. من فضلك يا أمي، دعيني أتحرر".

مالت مدام وو إلى الأمام وهي جالسة على مقعدها وقد تشابكت أصابع يديها، "فنجمو، أخبرني عما حدث بينك وبين لين يي. أنا أمك".

قال بإصرار، "لا شيء"

لكنها بالطبع لم تقتنع، "تقول لا شيء. يعنى هذا أنكما كنتما تتوجهان للنوم على السرير نفسه ولا يحدث أى شىء بينكما؟"

زمجر هو، "أوه يا أمى، لماذا لا تفكرين إلا فى هذا الموضوع فقط الذى يحدث ما بين الرجل والمرأة"

"لكن هذا هو أول شىء يمكن أن يخطر على بالى"

"حسنًا، إذن، يا أمى، هو بالفعل ما كان يحدث أولا، لكن بعد انتهائه، كنت أتوقع شيئًا آخر".

"ما الذى كنت تتوقعه؟"

رفع يديه إلى أعلى، "كنت أتوقع أن يجرى بيننا نوع من الحديث، نوع من التفاهم، زمالة - شىء يحدث بعد المقدمات، أعنى بعدما يفرغ الإنسان من أعمال الجسد. ماذا بعد ذلك؟"

"لكن أنت فى سنك هذا، لا يمكن أن تفرغ من مسألة الجسد سريعًا". يبدو أنها لم تفهم فنجمو. لقد استقر فى وجدانها، كأمر مسلم به، أن كل الرجال ليسو سوى جماعة من الذكور. لقد ضحكت مرة وهى تقرأ قصة أجنبية، هى قصة يونانية قديمة، عن امرأة وقعت فى غرام رجل ليس زوجها لأن رائحة أنفاسه حلوة. فهذه المرأة لم تعرف من الرجال سوى زوجها وظنت أن النفس الكريه سمة ملتصقة بكل الرجال. أدركت هى الآن أنها تشبه تلك المرأة القديمة التى ظنت أن كل الرجال متشابهون. هى نفسها قد ولدت ابنًا فيه من الصفات التى تعتبر أعلى من مجرد الذكورة. هذا أدهشها هذا بالفعل، لدرجة أنها ظلت فترة تحملق فى وجه ابنها.

لكن بدا أن فنجمو غير واع لما يدور فى مخيلتها. جلس، انحنى قليلا، كوعاه على ركبتيه المنفرجتين، يداه تتعلقان فى الوسط حرتين.

قالت هى أخيراً بصوت خفيض، "أشعر أنه ليس فى استطاعتى أن آمرك بفعل شيء معين. وأرى الآن أننى قد أقحمت نفسى فى أدق خصوصياتك".

نظرت نحوه فوجدت الدموع تترقرق فى عينيه.

استفسرت، "كيف تسمى الحرية، أخبرنى وأنا سوف أحققها لك"

"أريد أن أغادر هذا المنزل"

هذه الكلمات مزقت قلبها، لكن اقتصرت بتقديم هذا السؤال إليه:

"أين تود أن تذهب؟"

"أخبرنى الأخ أندريه أنه يمكن له أن يساعدنى فى عبور البحار"

قالت وهى تشعر بتأنيب النفس، "هل لو لم يحضر الأخ أندريه هذا المنزل إطلاقاً، فهل كنت قد فكرت فى هذا؟"

"فعلا كنت فكرت فيه، لكنى ما كنت على معرفة بالسبيل المناسب لتحقيق أمنياتى. لقد أرشدنى الأخ أندريه إلى الطريق".

لم تجب على هذا، جلست ساكنة تفكر، ثم تنهدت وهو تقول، "حسناً يا ابنى، انطلق حراً".

(٩)

بعد أقل من شهر وفي يوم معين عندما بدأت نتف الثلج الخفيف تتساقط، رحل فنجمو. كل القاطنين فى المنزل وقفوا يشاهدون رحيله. الشارع الذى يلى بوابة المنزل يسير حتى النهر، لذا كل رجال المنزل ومعهم مدام وو ساروا معه حتى حافة خط المياه. أياد عديدة تضافرت لتحمل متاعه، وأياد أخرى ساعدته لكى يمتطى ظهر القارب الصغير المتأرجح الذى كان عليه أن يقله إلى قارب أكبر يعمل بالبخار، وهذا سوف يقله إلى عبارة نهرية. هذه العبارة سوف تنقله حتى المحيط، هناك تنتظره باخرة ضخمة. فوق تلك الأرض البيضاء التى غطاها الجليد، امتدت سماء رمادية واسعة. تحرك القارب وذابت رقاقات الثلج التى تجمعت على المجدافين. عدد من المودعين تابعوا فنجمو، لكن مدام وو لم تسر معهم. وقفت فى مكانها، عبارة عن كيان صغير ملتف داخل معطف من الفراء تراقب ابنها هذا وهو يبتعد عن شواطئ منزله. كان يتملكها الخوف والحزن، لكنها كانت تعزى نفسها بهذه الكلمات، "إنه الآن يشعر بالحرية"، ثم جمعت معطفها حول جسدها وعادت لتحتمى داخل جدران منزلها.

برحيل فنجمو، توقف حضور الأخ أندريه، لكن مدام وو دعته أن يستمر فى الحضور وتكون تلميذته هذه المرة هى لين يى بدلا من فنجمو.

قالت للأخ أندريه، بأسلوبها الراسخ الرصين، "عندما يعود ابنى من البلاد الأجنبية، أريد أن تعرف زوجته بعضاً من معارفه"

الآن أخبركم كيف تم إصلاح ذات البين فى مسألة زواج فنجمو ولين يى: فى يوم ما، ذهبت مدام وو إلى منزل كانج وتحدثت مع لين يى بكل لطف فى حضور أمها.

أخبرت لين يى أن زوجها فنجمو سوف يرحل إلى الخارج وهى تدعوها للحضور لمنزلها، ربما يمكن أن تحمل منه طفلا قبل رحيله.

قالت مدام وو لزوجة ابنها، "لا أفعل ذلك من أجل مصلحة منزلنا فقط، لكن لمصلحتك أنت أيضًا، حتى لا يخيب أملك نهائيًا". كانت هى تدرس وجه لين يى وهى تتحدث معها - ظنت أنه وجه يحفل بقدر كبير من الجمال والأنانية، فالأمهات الطيبات غالبًا ما ينجبن بنات أنانيات. وصديقتها متشن هى إنسانة طيبة للغاية، هى تسعى دائمًا إلى توفير كل مسببات السعادة لأبنائها، وهم جميعًا يظنون أن منزلهم هذا هو السماء وأمهم هى الأرض.

استأنفت مدام وو الحديث، "ليس من اللائق أن تترك الزوجة خالية عندما يرحل الزوج". بهذا القول، عبرت مدام كانج عن كامل موافقتها، فمنذ واقعة عراكها مع صديقتها الحميمة، ما فتئت تبكت نفسها بسبب الغضب الذى كان قد تملكها، وقد ساعدتها لين يى فى هذا الشأن، لأنها بينما رضت أن ترحل مع أمها، أخذت مدام كانج بعد عدة أيام تنظر إلى ابنتها الشابة بوصفها امرأة عنيدة متعجرفة، هى لم تعد تلك الفتاة الصغيرة، لكنها امرأة متزوجة، لكنها ما زالت تتصرف كأنما هى ما زالت تلك الفتاة الصغيرة الدلوعة التى تعيش فى بيت غنى. كانت دائمًا ما تستيقظ متأخرة من النوم، تجول فى كل أجنحة المنزل، كل ما تفعله هو أنه ربما تلتقط منديلها إذا وقع من جيبها، بل أحيانًا تنادى على خادمة حتى تلتقط لها هذا المنديل. بطرق بسيطة، بدأت مدام كانج تؤنب لين يى وتفكر أنه ربما كان فنجمو على حق فيما كان يشكو منه. عندما سمعت أن فنجمو سوف يرحل إلى الخارج، اشتاقت أن تعود زوجته إليه.

أخبرت ابنتها أكثر من مرة، "أنت لا تنتمين الآن إلى منزلنا هذا، أنت من خاصة بيت وو". الآن، ها هى مدام وو تحاجج نفسها سرًا، "كيف يا ترى يمكن أن أجعل هذه الفتاة الشقية تصبح امرأة وزوجة صالحة، وليس لتحقيق مصلحة بيتى، لكن لكى أحقق سعادتها هى". لذا ورد على خاطرها الأخ أندريه مرة أخرى. تخيلت جرمه العظيم الصابر، ووجهه الأسمر الذى يطفر بالرحمة والطيبة، لكن هل سوف يقبل مهمة تدريس زوجة فنجمو الشابة؟

أعلنت مدام كانج بكل حزم، "يجب أن تذهبى إلى منزل زوجك هذا اليوم"، وكما كانت حريصة أن تنزع ابنتها نزعًا من منزل وو، ها هى بالتعجل نفسه تعيدها إلى هذا المنزل مرة أخرى. لذا رجعت لين يى فى صمت. هى ليست بالإنسانة الغبية، بوضوح لاحظت التغييرات التى طرأت على سلوكيات أمها. أدركت أنها الآن تطرد طردًا من سمائها وأرضها أيضًا. شعرت بوخز فى قلبها، وبكل سكون وخضوع عادت إلى جناح فنجمو، بينما هو كان فى أشد حالات الانشغال بتوضيب متعلقاته التى سوف تصحبه فى السفر، لكن لأنه كان على وعى بأنه أخيرًا سوف يحصل على حريته كاملة، كان مرحًا وغير مهتم بها، لم يعد الأمر مهمًا أن تكون هى معه أم لا، مادام أنه سوف يغادر هذه المنزل.

قالت له، "هاأنذا أعود إليك"

لم يخبرها أنه سعيد بذلك، ولم تسأله عما إذا كان سعيدًا أم لا، ولم يتوقع كلاهما أن يبذل للآخر الود والحب. ساعدته بنوع جديد من الخضوع فى تطبيق ملابسه وإزالة بعض الغبار من فوق كتبه. فى الليل، رقدا سويًا فى السرير واستجابت هى معه، جزئيًا كواجب يؤدى لمصلحة هذا المنزل، وجزئيًا لأنهما من الشباب ويشعران بالجوع. فى الصباح، افترقا بلا حديث كالمعتاد، ولكى تتبع السلوك المحتشم، لم تخرج هى من جناحها.

قال هو، "إلى الملتقى"

ردت عليه بالقول، "فلتمنحك السماء رحلة آمنة". استندت على باب الجناح وهى تراقب رحيله. لاحظت أن هناك قليلاً من الشك يلعب ويهز قلبها من مكانه الوسيط، لكنها لم تكن مستعدة أن تدرك الخطأ فى تكوينها. فكرت، "ربما لأننى لا زلت أشعر بالنعاس"، ثم فغرت فاها حتى آخره، وبدون أن تخبئ هذا الفم الأحمر الصغير، توجهت سريعًا إلى سريرها العريض وجذبت اللحاف الحريرى وتكورت داخله كأنما هى شرنقة.

من هذا النوم، أتت مدام وو لتعمل على إيقاظها بعد رحيل فنجمو، "اصحى يا لين يى، لقد نمت بما فيه الكفاية، الآن قومى نشيطة لكى تتلقى أولى دروسك".

تلعثمت لين يى وأخذت تردد، "دروسى؟"

"سوف تتعلمين الطبخ والخياطة فى الصباح، وهذا ما سوف تتكفل به بنت العم الكبرى، ثم قبل ساعة من موعد الغذاء، تحضرين إلى جناحى وسوف أعلمك قراءة الكلاسيكيات. بعد الظهر، سوف يحضر الأخ أندريه ويعلمك لغة أجنبية، فى المساء سوف تساعدين المربيات فى وضع الأطفال فى مراقدهم، يجب من الآن أن تتعلمى كيفية التعامل مع الأطفال".

أخذت تنظر إليها لين يى وهى ما زالت ملفوفة داخل لحافها، بينما شعرها المتشعث منتشراً حولها، "الآن؟"

"نعم، الآن". قالت مدام وو ذلك بحزم بالغ. كانت تحمل فى يدها عصا رفيعة من البامبو وأخذت تدق بها على الأرض،"قومى على الفور واغسلى وجهك بالماء، ومشطى شعرك هذا، ثم احضرى عندى".

رجعت مدام وو إلى جناحها، فمها مطبق بشكل يسىء إلى جمالها، فكرت، "إننى أفعل ذلك كله من أجل فنجمو. ما إن يتحقق ذلك حتى أفكر أنا أيضاً كيف أنال حريتى".

لكن لأنها لا تثق كثيراً فى لين يى، اضطرت أن تبقى بجوارها وهى مع الأخ أندريه يعطيها الدرس الأول. يجب أن لا تتعود لين يى على الكسل. من الآن، من أجل الحفاظ على الشرف، هى نفسها سوف تشرف أثناء تلك الساعات التى سوف يقضيها هذا القس مع زوجة ابنها الغائب. هى كانت تعلم أن الأخ أندريه إنسان، لكن من غيرها يمكن أن يصدق أن هذا الجسم الضخم ليس إلا قشرة خارجية؟

بهذا الأسلوب، كانت تجلس كل يوم على مقعدها العالى فى المكتبة، فى يدها تلك العصا التى يعلوها شكل التنين، فلم تعد الجدة العجوز فى حاجة إليها الآن.

كانت تنصت لكل كلمة ينطق بها الأخ أندريه فى مجال تعليمه لزوجة ابنها، لكن بينما كانت الفتاة تتململ وهى تحاول أن تفهم الأجزاء الصعبة من الدروس، كان ذهن مدام وو يطير مقدمًا ويتجول فى أبهاء مئات من العجائب.

بذلك استطاعت أن تعرف أشياء كثيرة عن البحار وعن الأرض التى تجمعت على شكل كرة ضخمة تتأرجح ما بين النجوم والكواكب، عرفت شيئًا عن مسارات الشمس والقمر، أيضًا مسارات الرياح والسحب، لكن كل هذه الأمور لا تعتبر من الأعاجيب أفضل من معرفتها للألسنة الأجنبية. هى كانت مغرمة بالتبحر فى هذا المجال بالذات، كانت تختار كلمة معينة، مثل الحياة أو الموت، الحب، الطعام، الهواء والماء، الجوع، النوم، الزهرة، الشجرة، العشب وتتعلم هذه الكلمة بعدة ألسنة أجنبية يعرفها الأخ أندريه. هذه الألسنة هى الكلمات التى ينطق بها باقى البشر. لقد تعلمت كل هذه الأمور تحت غطاء أنها تساعد لين يى فى التعلم.

أثناء تبحرها فى كل هذه المجالات التعليمية، بدت لها كل الأشياء التى شغلت حياتها وكأن لها معنى وقيمة. فى زمن سابق، كانت هى أحيانًا تتعجب لماذا هى تقضى كل زمانها مشغولة بدورة متكررة من الولادات والوفيات ثم الولادات مرة أخرى. بين تلك الجدران الأربعة، حيث يتناسل الرجل وتحمل المرأة لكى لا تنتهى سلسلة آل وو، أحيانًا كانت تتساءل فيما بين نفسها، ما الذى يهم إذا انتهى أمر بيت معين وشأنه وانقضى عهده نهائيًا. وعندما تكثر ولادات البنات، أو فى سنة أخرى عندما يهبط طفل متخلف من الرحم، كانت تشعر بالحزن والأسى، لا سيما فى الأعوام التى اشتاقت فيها أن تحتفل بعيدها الأربعينى وإنها فى ذلك الحين رفضت أن تجيب الأسئلة التى تزاحمت فى أعماق روحها. وقد حدث أنه فى يوم من تلك الأيام السالفة، حدث بالصدفة أن كانت الأخت الصغيرة هسيا متواجدة، وتتذكر الآن أن الأخت هسيا تساءلت:

"هل أقرأ عليك شيئًا من الكتاب المقدس يا مدام؟"

كانت هى فى هذه الفترة مهمومة بشكل بالغ، لأنه بالإضافة إلى أمور عديدة، كانت على علم أنها حامل مرة أخرى، لكنها كانت فى قمة الأدب والأخلاق بحيث يتعذر لها أن ترفض هذا الطلب، لذا أجابت، "إذا كان هذا يريحك، اقرئى".

لذلك أخرجت الأخت هسيا كتابها وأخذت تقرأ بصوتها المكسر الطفولى كلمات مثل هذه:

"ما هو الإنسان حتى تهتم به، أو الإنسان الذى تتذكره؟ لأن أيام الإنسان كالعشب...."

"توقفى"، كانت تلك صيحة المدام. انطلق صوتها مجلجلا، وكان هذا مثيراً للغرابة، لدرجة أن الأخت هسيا أخذت تحدق فيها باستغراب.

تساءلت المدام، "هل هذه الكلمات كتبت لكى تسعد قلب البشر؟ هل هى كلمات الله؟ لا، هى فى الواقع كلمات شيطان. إذا كنت مضطرة أن أستمع لتلك الأقاويل أيتها الأخت الصغيرة، فمعنى ذلك أنه من الأفضل أن أشنق نفسى. لا تقرئى على شيئًا من كتابك هذا، وإلا وافتنى المنية فى الحال".

لكنها الآن تعيد الفكر فى هذه الكلمات وتتذكرها بكل وضوح. نعم إنها حقيقية، فجسد الإنسان يشبه العشب، وعندما ولد طفلها الأخير ميتًا، تذكرت هذه الكلمات وهى تقبض بين يديها بهذا الجسد الصغير الساكن. لكن اليوم، وهى تستمع لمختلف أصوات البشر يصيحون بمختلف اللغات المختلفة، لكنهم يرددون الكلمات نفسها، شعرت بعجب جديد يتملكها.

"هل كل الناس ينطقون بكلمة تعنى الله؟"

أجاب الأخ أندريه بصوت رزين، ثم أخذ ينطق كلمة الله بمختلف اللغات التى يعرفها "الله – الله – الله – الله".

قالت له بصوتها الموسيقى، وما زالت هذه الطبول تدق فى أذنيها، "إذن فى كل أرجاء العالم، نحن ننادى ونطلب من السماوات القديمة"

فى مثل تلك الليالى لا تنعس مدام وو. فى صمت، جعلت ينج تجهزها للنوم، وصعدت فوق حاجز سريرها المصنوع من الخشب الأحمر، وخلف الستائر الحريرية، منحت وقتها كله لروحها وأخذت تسترجع وتتأمل فى كل ما تعلمته. لقد أصبح الأخ

أندريه بالنسبة لها كأنما هى البئر العميق الواسع، بئر يختبئ داخله علم ومعرفة غزيرة. فى الليل، تفكر فى العديد من الأسئلة التى هى فى حاجة إلى إجابات. أحيانًا، عندما يتزاحم فى ذاكرتها عدد ضخم من التساؤلات، تنهض من سريرها وتنير شمعتها، ثم تتناول فرشاتها المصنوعة من شعر الجمال وتسطر على ورقة كل الأسئلة بخطها الجميل. فى اليوم التالى، عندما يحضر الأخ أندريه، تقرأ له الأسئلة وهو يستمع لها بكل اهتمام.

الآن، كان أسلوبه فى الإجابة عن هذه الأسئلة فى منتهى البساطة، لكن هذا كان يحدث لأنه فائق التعليم، إنه لا يحتاج، كما يفعل من هو أقل منزلة أن يتحدث ويشرح بأسلوب فوق أو أعلى من المستوى الحقيقى للسائل. بدلا من ذلك، إنه يعرف كيف، كما كان يفعل أتباع المعلم تاو فى العهود القديمة، أن يضع فى بضع كلمات بسيطة خلاصة الخلاصة للحقيقة، إنه يستبعد أوراق الشجرة، ثم يقطف ثمرة الفاكهة، يزيل قشرتها، يفصص المحتوى الداخلى لها، يلقى بلحم الثمرة جانبًا، يتناول البذرة ويفتح قشرتها، هناك توجد النواة، نقية ونظيفة.

كان عقل مدام وو فى ذلك الزمان مرهفًا، خارقًا وحاداً كالسكين، لدرجة أنه كان فى استطاعتها أن تتناول منه هذه النواة وتفهم ما تعنيه. أما لين يى الشابة الصغيرة، فإنها تجلس بين الاثنين، عيناها مفتوحتان على سعتهما، بينما يتم تداول تلك الكلمات البسيطة، ويبدو واضحًا عليها، أنها بعيدة، بعد المشرق عن المغرب فى فهم المعانى المتداولة ومعرفة محتواها، فمثلها ما زال نائمًا ومغيبًا فى مرحلة الشباب.

لكن الأخ أندريه يتعجب دائما من المقدرة العجيبة التى تتحلى به مدام وو، قال لها يومًا، "لقد عشت طوال حياتك بين تلك الجدران الأربعة، لكن عندما تحادثت معك وأجبت عن كل استفسارك، كنت كمن يتجاوب مع زميل له من الإخوة. أنت تدركين وتفهمين على الفور ما أقصده وأعنيه".

ما إن استمعت لذلك حتى أجابت، "لقد أخبرتنى عن تلك الزجاجة العجيبة التى تجعل الأشياء الصغيرة تظهر بحجم بالغ الضخامة، فنطفة صغيرة من الرمال،

كما أخبرتنى، تبدو تحت المجهر هذا، لتبدو كأنها صحراء شاسعة، وإنه إذا فهمنا طبيعة هذه النطفة، إذن يمكن لنا أن نتفهم طبيعة الصحراء نفسها. هذا المنزل هو نطفة الرمل، منها أنا فهمت كل شىء داخل تلك الجدران الأربعة وما يتواجد داخلها من مظاهر الحياة". لاحظت مدام وو تلك النظرة الغاضبة التى تبدت على وجه لين يى، تلك التى بادرت بالقول، "هل تقولين يا أمى إننا نشبه الرمال؟"

"لا يا ابنتى، أنا أقول إنكم إنما تمثلون الحياة كلها"

عبر هذه الرأس الشابة، تقابلت عيناها بعينى الأخ أندريه وهى تقول، "من فضلك، علم هذه البنت".

فاندفعت لين يى بالقول، "أمى، أنا لست بنتًا"

لكن مدام وو اكتفت بالابتسام. فى فترة ما بعد الظهر لهذا اليوم، أثناء قيام الأخ أندريه بتجميع كتبه، تساءلت المدام، "هل يمكن لى أن أجرؤ بسؤالك، فى أن تتخذنى أنا أيضًا تلميذة لك؟" قالت ذلك بكل تواضع.

"أنا أتشرف بتلبية هذا الطلب"

"إذن ربما لمدة ساعة بعدما تنتهى من دروس لين يى"

هز رأسه موافقًا.

لذا، فى كل أمسية ولمدة ساعة، كان يجيب عن أسئلة مدام وو، وكانت تحرص، على الرغم من عمرها المتقدم، أن تطلب من ينج أن تجلس على مقعد مجاور للباب بينما هى تتحدث مع الأخ أندريه.

* * *

قالت لها ينج ذات صباح لاحق، "يا مدام، يجب أن أطرح عليك سؤالا معينًا، وإذا غضبت منى ، أرجوكى اطردينى من حضرتك".

"لماذا أغضب منك الآن بعد كل تلك السنوات التى انقضت وأنا أسمح لك أن تتحدثى كما تشائين؟"

وضعت الكتاب الذى كانت منهمكة فى قراءته جانبًا، لكن ظل إبهامها على الصفحة التى وقفت عندها، مستعدة أن تستأنف القراءة بعد انتهاء ينج.

"أنا لن أبعث السرور فى قلبك فيما سوف أقوله لك الآن، لكن أثناء قيامك بالتجول فى كل أنحاء الأرض مع هذا القس ضخم الجثة، كان البيت يقلب ويعدل من الفوضى وعدم الالتزام. مرضعة طفل ابنك الأول تفتقد الآن اللبن فى صدرها، وفى الليل هناك عراك مستمر ينشب بين ابنك الثانى وزوجته، خادمتها تقول إنه ليس هناك حمل حتى الآن، أما السيدة الثانية وسيدنا الكبير فإنهما.... حسنًا يا مدام، أنا لن أفترض شيئًا، لكنى أقول إنه من الخطأ الشنيع أن تنسحب سيدة فاضلة مثلك وتنهمك فقط فى قراءة الكتب كما تفعلين، وليس هناك خطأ أو شر عندما قام جدودنا بالتنبيه علينا بأنه يتوجب على النساء أن لا يعرفن القراءة أو الكتابة".

أصابت كلمات ينج صميم قلب المدام، كانت هى تستمع بينما ارتسم على وجهها نصف الابتسامة القديمة، لكن إبهامها انسحب من الكتاب، ثم طوت صفحاته ووضعته على المائدة.

"أشكرك أيتها الروح الطيبة"

نهضت على الفور واتجهت إلى غرفة نومها. كان الصباح باردًا، لذا ارتدت معطفًا من الفراء قبل خروجها. فى الساحة، كانت الأوركيديا جافة بسبب الصقيع والأوراق متساقطة على صلصال الأرض. لكن الأغصان المحملة بثمار البامبو الهندى كانت تنمو بكثافة متخذة اللون القرمزى، بينما حط على صخرة قريبة طائر أسود يأكل من هذه الثمار، لذا طارت نحوه ينج لتطرده، فالآن وقد أصبحت سيدتها صبورة معها للغاية وهى تستمع إلى تأنيبها، شعرت ينج بالذنب بسبب تطاولها هذا، وحاولت أن تصلح ما أفسدته بالانهماك فى الرغى المعتاد، وكانت مدام وو تستمع إليها دون أن تحر إجابة، وما إن عبرت المدام الجناح الخالى الذى كانت تشغله السيدة العجوز، طرأت على

رأسها فكرة، لماذا لاتدع ليانجمو يحتل هذا الجناح لكى يكون قريبًا منها، بذلك تستطيع بكل سهولة أن تشرف على أحفادها. بعد ذلك، يمكن أن تأمر بقيام تسيمو بالسكن فى جناح ليانجمو الحالى، وربما يكون المكان الأكثر اتساعًا له تأثير فعال لزرع الوئام بين الابن الثانى وزوجته.

كان الجو صحوًا، تحركت بينما تغمرها أشعة الشمس الواضحة وهى تشعر برضى وانسجام لا تدرى مصدره، فهذه الجدران الأربعة التى تحيط بقطعة الأرض الواسعة تلك، مليئة بشتى أنواع المتاعب الإنسانية، لكنها شعرت أنها قادرة على التغلب على أى نوع من المصاعب وتنتصر عليها وتصلح كل الأمور، فهى لا تعتبر نفسها جزءًا منهم، فعند قيامها بالانفصال جسديًا من السيد وو، استطاعت بذلك أن تقطع كل الخيوط التى كانت تكبلها وتحدد حركتها. أخذت هى تتأمل فى تلك العلاقة السرية التى تربط الجسد بالجسد، التى عندما تنفصم، فإنها لا تحرر الجسد فقط بل الروح أيضًا. الآن ها هى روحها تتابع كل الطرق التى تفتحت أمامها على وجه الأرض. لذلك كله خطت إلى جناح ليانجمو كما لو كانت هى واحدة من الآلهة التى رغبت أن تنزل من عليائها لكى ترسى القواعد وليس لكى تتشارك فى المعيشة.

لكن عويل الطفل المولود حديثًا صدم أذنيها بحدته المؤلمة. نسيت فى الحال كل شىء وأسرعت فى الدخول. هناك وجدت منج جالسة، بجوارها جلست المرضعة الشابة وقد وضعت الطفل الجائع على ثديها الفارغ من اللبن وقد سالت الدموع من عينيها. يمتص الطفل من الثدى ثم يدير رأسه بعيدًا ويطلق صراخًا موجعًا غاضبًا لأن اللبن يأبى أن ينزل.

قالت مدام وو، "والآن ماذا؟ كيف اختفى منك اللبن؟". وضعت هذه المرأة الشابة الطفل الصغير فى حضن أمه منج ثم انخرطت فى بكاء مر.

استفسرت مدام وو من منج، "هل أعطيت لها شوربة الكبوريا مع البيض المخفوق؟"

"لقد جربنا كل شيء، كنت أظن أولا أن الأمر بسيط وعارض، فربما تكون قد أصيبت بالبرد أو أنها أكلت أكثر من طاقتها، لذا اضطررنا أن نخلط دقيق الأرز ليصبح عصيدة وأعطيناه للطفل مرة أو مرتين، لكن الحال استمر هكذا لمدة يومين كاملين. الطفل جوعان وبدأ جلده ينفصل عن عظامه.

حضرت بعد ذلك مرضعة الطفل الأول لتبادر بالقول، "لقد قدمت لكم لبنى القديم بالنسبة لهذا الطفل الصغير، لكنه يتقيأه"، كانت مسرورة من نفسها وهى تتحدث، "لبنى لم ينقطع أبداً أيتها السيدة الأولى، لذا كيف يمكن لى أن أعرف ما يجب عمله؟"

أمرتها مدام وو، "اذهبى بعيداً". قالت لها ذلك عندما لاحظت مدى غرورها وافتخارها بذاتها، هى تعلم أيضاً أنها امرأة تطمع دائماً فى الحصول على المزيد من المال والهدايا.

استمرت المرضعة الشابة فى البكاء. جلست مدام وو وقد أمسكت بين يديها تلك العصا التى تنتهى بالتنين الرابض وأخذت تحدق فيها، ثم بادرتها بالقول:

"لقد جف لبنك لأنك حزينة، ما هى مشكلتك بالضبط؟"

فى البداية، لم تشأ المرضعة أن تتحدث، كانت تجفف دموعها فى كمها ورأسها مطأطئ، بينما استمرت الدموع تسح من عينيها بغزارة.

قالت منج وهى فى ذهول، "شيء غريب أن ماء دموعك بهذه الغزارة بينما لا توجد نقطة لبن فى صدرك!"

قالت مدام وو، "اسكتى يا منج، إنها إنسانة، تحدثى معى أيتها الروح الطيب"

بهذا التشجيع، أخذت المرأة تتلجلج بحديث بالكاد يمكن أن يسمع، "إننى لا أرى طفلتى على الإطلاق، لا أعرف أحوالها الآن.. إننى هنا منذ حوالى شهر.. الأسبوع القادم هو تمام اكتمال شهر منذ أن ولدت ابنتى.. لا أعرف بالضبط ما هى أحوالها".

هنا بدت أمارات الغضب ترتسم على وجه منــج، ضمت شفتيها الحمراوين وفتحت عينيها حتى آخرهما، "كيف يمكن أن تفكرى فى ابنتك هذه وتدعين لبنك اللازم لابنى يجف؟"

أمرتها المدام وو، "اسكتى يا منج، أرى أن تحضر ابنتها إلى هنا"

اندهشت منج وزاد غضبها، "كيف يتم رعايتها هنا بجوار ابنى؟"

"هذا الإجراء يحدث لإنقاذ ابنك"

هنا ركعت المرأة الشابة تحت أقدام مدام وو وأخذت تنهنه وهى تقول، "إذن أنت لست قاسية... أخبرونى أنك سيدة قاسية".

"من قال لك إننى قاسية؟"

"المشرف على أراضيكم الزراعية، قال لى أن لا أفكر إطلاقًا فى عدم إطاعة أوامرك، لأنه لا أحد يجرؤ على ذلك. أنا لم أكن راغبة فى الحضور إلى هنا يا سيدتى. أنا وزوجى لنا بيت، ورجلى يعمل فى أرضكم، وقد أنجبنا هذه الطفلة وهى أولى أولادنا. كنت فخورة بها وفى صدرى لبن كثير. المشرف أخبرنى أنه يلزم على أن أطيع الأوامر وأحضر إلى منزلكم هذا وإلا فإنه سوف يطرد رجلى من أرضه التى يستأجرها".

"ليس لديه أوامر أن يتحدث معك بهذا الشكل، أنا لم أخبره سوى أننا نرغب فى الحصول على مرضعة".

"هو فى القرية، يجعلنا جميعًا خائفين منك، ونحن فى قريتنا الزراعية نخافك أنت من خلاله هو أيتها الأخت الكبرى".

كانت مدام وو حائرة وغاضبة وهى تستمع إلى هذه الكلمات، لكنها لم تشأ أن تلاحظ عليها هذه الخادمة ما يفتعل فى وجدانها، ففى المنازل المحترمة، لا يجب على من يصدرون الأوامر والتعليمات أن يضعوا أنفسهم تحت رحمة من يتوجب عليهم الانصياع والطاعة. هزت رأسها قائلة بهدوء، "سوف أرسل أمرًا أن تحضر ابنتك اليوم إلى هنا. يمكن لها أن تنام بجوارك، لكن ليس فى الغرفة نفسها التى ينام فيها حفيدى".

"أنت بذلك تنقذين حياة". ثم ركعت المرأة تحت قدمى مدام وو.

لكن الطفل بدأ فى الصراخ مجدداً، فاستقامت المرأة من ركوعها وأخذت الطفل. كانت الدموع قد جفت فى عينيها، وقربت الطفل من صدرها، خطف هذا الحلمة وبدأ فى المص من جديد، وبدأ اللبن فى التدفق.

صاحت منج، "لقد منعت نزول اللبن بنفسك، أنت التى رفضت نزوله"

لكن المرأة أخذت ترمقها بنظرات كلها دهشة وحياء، هى فلاحة ذات وجه عادى، قالت:

"لا يا سيدتى، أنا لا أعلم كيف اختفى لبنى، ولا لماذا بدأ الآن فى النزول، ما أعلمه فقط هو أنه عندما قالت أختنا الكبرى إنه فى الإمكان أن تحضر ابنتى إلى هنا، شعرت على الفور أن هناك شيئاً كان مربوطاً فى قلبى والآن قد انحل، لذلك تدفق اللبن".

لكن منج ما زالت غاضبة، "أنت أيتها المرأة العامية، أنت إنسانة غبية"

نهضت مدام وو، "مادام أن حياة ابنك معتمدة على هذه المرضعة، فمن الأفضل أن لا تغضبى يا ابنتى، وأنت أيتها المرأة، عندما تحضر ابنتك، لا تنسى واجباتك نحو حفيدى".

نظرت نحوها المرأة وكلها خضوع وإذعان، قالت بصوت واهن، "لن أنسى أبداً أيتها الأخت الكبرى، سوف أطعمه هو أولا".

كان هناك شىء ما فى صوتها وسمتها جعل المدام وو تبطئ فى مسيرها، فتحت هذا المظهر الهادئ تنبعث قوة عجيبة، لكن هى لم تحاول أن تتأكد من ذلك، فهى لا تمعن النظر بقوة وتمحص فى شئون من هم أقل منزلة من عائلتها، خشية أن يربطها هذا بشىء معين يخصهم، لذا توقفت لتخاطب منج، "سوف أعطى جناح السيدة العجوز الخالى إلى ابنى الأكبر، بذلك يمكن لى أن أكون قريبة من أحفادى".

لم يبد على منج أنها سعيدة بهذا الانتقال. قامت مدام وو بتأكيد قرارها، "سوف أرسل الخدم لكى يساعدوك فى عملية الانتقال اليوم"، وبدون أن تنظر إلى منج، غادرت المكان باحثة عن ابنها الثانى تسيمو.

فى تلك الساعة، يكون تسيمو خارج المنزل مشغولا بالعمل المكلف به، وهو الإشراف على المحلات التى يتم توريد محاصيل الأراضى الزراعية ملك العائلة إليها. لكنه كان موجوداً داخل المنزل هذا اليوم. عثرت عليه مدام وو وهو يمضمض فمه كأنه انتهى من طعامه الآن.

دخلت إلى جناحه، فبصق سريعًا ووضع الكوب التى كان ممسكًا بها جانبًا.

قال، "أنت مبكرة للغاية يا والدتى"

"إننى أجرى عملية الاطمئنان اليومية على كل شىء، لقد توقفت عندك لكى أخبرك أننى سوف أعطيك جناح ليانجمو، لأننى سوف أنقله هو وعائلته إلى جناح الجدة العجوز وذلك ليكون أحفادى بجوارى".

"سوف أخبر رولان بذلك"

عندما ذكر اسم الزوجة، لاحظت هى مرور ظل بارد على وجهه، لذا تحدثت بشكل صريح كما هى عادتها عندما تلمح بشائر حلول بعض المتاعب، "لقد سمعت أن رولان كثيراً ما تبكى ليلا".

قال باقتضاب، "من أخبرك بذلك؟"

"الخدم، هو أمر مخجل أن تكون متاعب العائلة مصدراً لأقاويل الخدم"

"أنت على حق يا والدتى، ما كان واجباً أن أتزوج هذه المرأة"

"إذن فقد انتهى الحب الذى كان مشتعلا بينكما؟"

لم يجب عن ذلك سواء بنعم أو لا. أخذ يسير فى غرفته الضيقة عشر خطوات فى هذا الاتجاه وستة عشر خطوة فى الاتجاه الآخر، أخيراً قال، "ليس هناك قول يمكن أن نتبادله دون أن يقودنا هذا إلى معركة مشتركة".

"كيف أنه حتى الآن أن زوجتك لم تحمل؟ المعارك تنشب بين الرجل والمرأة عندما لا يكون هناك أطفال".

قال وهو يهز كتفيه، "إنها لا تحمل، وبالتأكيد ليس العيب فى"

"لا يمكن أن يحدث حمل إذا كانت هناك معارك مستمرة بين الرجل وزوجته، فالقلوب المكدرة تجفف سوائل الجسد وتسمم الدم. بين الرجل والمرأة، يجب إبقاء تيار الحياة متجدداً وصافياً".

أخذت تتملى فى هذا الوجه الوسيم، وأضافت، "إنه أمر سهل أن يتعارك الرجل والمرأة، فاختلافاتهما الطبيعية شاسعة، لذا إذا لم يتحدا لإنجاب جيل جديد، فإنهما يتباعدان ويتفرقان عن بعضهما كما يحدث فى شأن اختلاط الماء بالزيت. الزوجة التى بلا أبناء هى ظاهرة تعمل ضد الطبيعة، هى بذلك تتمرد على السماء والأرض، ولا يمثل الرجل فى نظرها قيمة لها اعتبار. هو يجب أن يكون صبوراً معها حتى تحمل، وما إن يحدث ذلك حتى تجد أمامك امرأة جديدة تماماً".

قال بكل غرور، "وهل أنا لست شيئاً فى نظرها الآن؟"

"إنها تحبك بجماع قلبها، لذلك هى تكرهك لأن حبها إليك لا ينتج ثمرة، هى تشعر بالغيظ والضيق بسبب ذلك. هى تفتقد إلى وسيلة للدفاع أمامك، ينقصها الملاذ الآمن، ليس لديها مكان تختبئ فيه وتصبح فيه هى نفسها".

لاحظت أنه غضب من تحليلاتها هذه، لذا أضافت، "يجب أن تقوم برحلة بعيدة نوعاً، وعندما تعود، كن لطيفاً معها وليس عصبياً. لا يجب أن تذكرها دوماً بأنها أكبر منك سناً أو أنها هى التى تقربت إليك أولا".

"كيف علمت أنها هى التى توددت إلى أولا؟". توقف عن خطوه وأخذ يحدق فيها، "كيف علمت كل هذه الأمور؟"، قال ذلك وهو نصف ضاحك.

أسندت ذقنها على يديها القابضة على تنين العصا، "أنا أستطيع أن أرى بعينى. أنها تخاف منك، فى الوقت نفسه تكرهك من أجل مخاوفها هذه. هى تحبك وفى الوقت نفسه تخشى من هذا الحب. نعم، ارحل الآن ودعنى أجلس معها قليلا، فهناك نظام وترتيب يجمع كلا من الرجل والمرأة، أما أنت وزوجتك رولان فقد خرجتما عن حدود هذا النظام. انظر مثلا إلى منج - كل الأشياء تسير معها كما أمرت به السماء. انظر كيف أنهما على وفاق كامل فى معيشتهما سويًا فى هذا المنزل! لقد أنجبت الولد ثم الثانى، وليانجمو سعيد بها وبأولاده، وليس أحدهما مولعًا بالآخر لهذه الدرجة، وكلاهما استطاعا أن يستخرجا لنا الجيل الجديد.

قال تسيمو متعجلا، "منج هذه موضة قديمة، أيضًا هى إلى حد كبير غبية، على الأقل رولان ليست غبية".

"ليس مهمًا أن تكون المرأة غبية أو ليست غبية، كل هذه عبارة عن مسائل تعتبر نسبية، حيث يجب أن يكون كل من الرجل والمرأة فى الزواج متناسبين مع بعضهما، لذا أنا اخترت منج لابنى ليانجمو. إنه أكثر حكمة وتبصرًا منها، لكنها لديها الفهم الكافى لكى تدرك ما يعنيه الزواج، لكن أنتما متساويان فى كل شىء، لذا تكثر المشاحنات بينكما".

ألقى عليها نظرة متعمقة أقلقتها، "أنت أكثر حكمة وتبصرًا من والدى"

أجابت بسرعة، "آه، لقد تعلمت ما هى حدود حكمتى، لذا يمكن القول إنه بحكمتى هذه حرصت دائمًا أن لا تحدث أى نوع من المشاحنات يمكن أن تحدث بينى وبين أبيك، ولهذا السبب أيضًا، قمت بإرسال شيومنج له لكى يستمر فى شعوره بالسعادة أثناء فترة إحساسه بتقدمه فى العمر".

حدجها تسيمو بنظرة قاسية، "وماذا عنك أنت نفسك ومشاعرك؟"

قالت بهدوء، "أنا أيضًا سوف أستمر فى حياتى شاعرة بفيض غامر من السعادة".

خرجت رولان من غرفتها، فهى لم تستطع أن تدعى أكثر من ذلك أنها لم تستمع إلى هذا الحديث المتبادل فى ذلك الجناح الصغير خارج نافذتها. كانت مدام وو على وعى كامل أنها استمعت لكل شىء، لكن هى بكل أدب واصلت هذا الادعاء، "كنت أخبر تسيمو، أنه إذا كان هذا مبعثاً للسرور لك يا ابنتى، يمكن لكما أن تنتقلا إلى جناح ليانجمو الأوسع، حيث إننى سوف أقوم بنقلهم إلى الجناح المجاور لى حتى أستطيع أن أشرف على أحفادى بشكل أفضل".

"نحن نشكرك يا والدتنا". لكن لم يتبد أى نوع من مشاعر الشكر فى نبرات صوتها، كانت هى بكل إهمال ترتدى فستاناً قبيحاً لونه أخضر، بدت فيه أكبر عمراً من سنها الحقيقى.

فكرت مدام وو، "ما إن يرحل تسيمو، فإننى سوف أخبرها كيف تحافظ على أناقتها فى الملبس ولا تكون بهذا الشكل القبيح". استمرت فى جلستها وهى ترمق زوجة ابنها، بينما يتابع تسيمو تلك النظرات، وبذلك عثر على عيب آخر فى زوجته.

قال بعنف، "إننى أكره هذا الفستان"

ردت عليه بكل وقاحة وهى تطيح بشعرها، "إذن اشتر فستاناً غيره"

قامت مدام وو على الفور. إنها لن تجلس وهى ترى هذين الاثنين يتعاركان، لذلك هى سوف تضطر إلى التدخل لكى يحل السلام بينهما، لكنها لم تستطع إلا أن تعبر عن استيائها.

بكلمة، قالت لرولان، "سوف يرحل تسيمو لفترة من الزمن، وقد سمحت له بذلك. كونا على وفاق خلال فترة الأيام القليلة القادمة إلى أن يرحل. أشغلى نفسك بعملية الانتقال هذه إلى جناحكما الجديد".

"إذا رحل تسيمو، أنا أيضاً أرحل".

وقفت منتصبة فى ردائها القبيح وقد تشنجت يداها على جانبيها. وقفت أمامها مدام وو مستقيمة واضعة يديها على عصاها. قالت بصوت واضح محدد، "أنت لا ترحلين، سوف تبقين معى. هناك الكثير الذى يجب أن أعلمه لك. سوف أعمل جاهدة على تعليمك".

مرة أخرى لم تنظر إلى زوجة ابنها لترد عليها، لذا استدارت وغادرت الجناح، ولم تنظر خلفها ولو مرة واحدة.

فكرت، "يا لزوجات أبنائى، إنهن مزعجات للغاية! يا ليتنى كنت قد أنشأت عدداً من البنات داخل منزلى هذا ليصبحن زوجات متوافقات مع احتياجاتنا! لكن أن تحضر إلينا الغريبات لكى ينجبن لنا الأحفاد، فهن لن يحضرن إلا ومحملات بكل أنواع المتاعب".

شعرت أنها فى حاجة ملحة لقدوم فترة الغروب لتنعم بالسلام بصحبة الأخ أندريه لكى يرشدها ويقود خطواتها، حيث يمكن لها أن تستعيد جسدها، وتتقدم بكل جسارة بروح عارية لكى تتلامس مع العالم كله.

* * *

داخل الجناح الصغير، حيث تركت رولان تحملق فى زوجها بأعين كلها معاناة وألم، قالت، "إذن أنت تود أن ترحل بعيداً وتتركنى هنا".

قال بحدة، "إنها فكرة والدتى بالتمام والكمال"، رفع رأسه وهو يهدهد خصلة شعر أمامية – حدقت هى فى تلك اليد باهتة اللون وشعرت بنغزة تضرب قلبها، وهى الحالة التى كثيراً ما كرهتها. قالت بتلك النبرة الكئيبة المشاكسة نفسها، "سوف أهرب".

ضحك "أنت تخاف من والدتك"

"فى الحقيقة، نعم"

هذه الموافقة كانت هى حيلته التى يلجأ لها دائمًا أمامها، فبين الحين والآخر يوافقها لكى يجردها من سلاح ضمن ذخيرة أسلحتها.

أعلنت، "أنا أفضل أن لا يكون لى أبناء على الإطلاق مادام أنهم سوف يخافوننى بهذا الشكل".

قال بصوته الهادئ، "حسنا، ها أنت الآن بلا أبناء".

شعرت بقلبها ينفطر بسبب معاناتها القديمة، ومهما حاولت فهى لا تستطيع أن تهرب منها، همست، "تسيمو، هل أنت حقًا تكرهنى؟"، اقتربت منه وهى تتحدث، أخذ هو يتملى فى وجهها.

قال من بين أسنانه، "لماذا تصرين دائمًا على مهاجمتى وتتعمدين جرح كرامتى بحيث لا أحس أبداً بأى لحظة من السلام والوئام؟"

صاحت، "تشعر بالسلام عندما تكون بعيداً عنى؟"

"كل ما أرجوه هو السلام، السلام فى مفهومه البسيط"

قالت بكل عاطفة متقدة، "تبغى الحصول على السلام حتى تنسانى كلية!"

"أنا أعلم السبب الذى من أجله تجعليننى أغضب منك"، ثم ضحك بمرارة، "أنت بذلك تحققين هدفك وهو أن أكون فى معيتك دومًا بهذه الطريقة".

لقد استطاع أن يستجلى الحقيقة منها، وهى حقيقة حتى هى لا تدرك عمق أغوارها. نعم، فهو عندما يتوقف عن التفكير فيها نهاراً وليلا، بعد إهماله لها بعد زواجهما، تسلط عليه أساطين الغضب لكى تجذبه دومًا إليها، هى رغبت فى أن تتلقى المعاناة والعذاب منه، كذلك الألم، كل هذا أفضل من لا شىء على الإطلاق.

رأته وهو يدير رأسه بعيداً عنها. منظره بث الرعب فى قلبها، فكرت، "يجب أن أنقذ نفسى منه، يجب أن أتخلص من هذا الحب الذى يكبلنى، هو أمر يشعرنى بقدر كبير من المرارة".

فى التو، حدث شىء غريب، فبدلا من أن تشتهى تلك اللحظة التى يمكن فيها أن تتحرر، انزاحت أفكارها ناحية حماتها، وبكل ما يعتمل فى فؤادها من مشاعر حائرة، بدأت فى العدو وتجاوزت زوجها واخترقت الأجنحة المختلفة ولم تتوقف إلا أمام مدام وو التى كانت جالسة فى مكتبتها تدخن باستخدام غليونها الدقيق.

صاحت، "أمى، دعينى أنا أيضًا أتحرر من قيودى"

سمعت مدام وو تلك الصيحة كأنما هى صدى لعزيز أحلامها وأغلى مشتهيات روحها، لكنها لم تكشف عن سرها. وضعت الغليون على المائدة وأخذت تحدق فى وجه زوجة ابنها.

قالت: "اهدئى قليلا، اجلسى وأبعدى هذا الشعر الذى يغطى عينيك، وبينما أنا أفكر، دعينى أن أخبرك بأن لا ترتدى هذه الفستان فيما بعد، عليك أن ترتدى ملابس مفرحة مريحة للنظر، وهذا سوف يخفف من سمرتك. الآن، كيف يمكن لى أن أحررك؟"

"أريد أن أغادر هذا المنزل - بعيداً عن تسيمو". لم تحاول أن تجلس متتبعة حركات يد مدام وو. وقفت ساكنة فى مكانها لا تستمع لما تنطق به حماتها. كل من السيدتين أخذتا تحدقان فى بعضهما.

قالت المدام: "لقد أبلغتك أن تسيمو سوف يرحل، لذلك سوف تتحررين منه لفترة من الزمن".

"أريد أن أتحرر منه إلى الأبد، ما كان يجب أن أتزوجه. إننى أكره ما أشعر به نحوه، أشعر أننى واحدة من العبيد من جراء ذلك، إنه يشكلنى كما يرغب وليس كما أرغب أنا".

"وهل يمكن أن يلام هو من أجل ذلك؟"

كررت، "دعينى أرحل"

بدأت مدام وو، على الرغم منها، تعجب بهذه الفتاة الغريبة الغاضبة، "إلى أين سوف تذهبين، ما الذى يمكن أن تجده امرأة وهى بعيدة عن منزل زوجها؟ وحتى إذا حررتك من هذا المنزل، فهل فعلا سوف تشعرين بالحرية؟ المرأة التى بلا زوج تصبح محتقرة من الجميع. هى لن تتحرر إلا من خلال زوج وابن".

نظرت نحوها رولان بعين مرتعبة، "أخبرينى كيف يمكن لى أن أتحرر؟"

شعرت مدام وو بتعاطف قوى نحوها، "مع الأسف الشديد يا ابنتى، لا أستطيع أن أخبرك، لأننى بكل بساطة، لا أعرف".

ثابرت المرأة، "ألم تحبى من قبل؟"

نظرت مدام وو إلى أسفل. لم تجب، شعرت أن تسيمو قد أساء إلى هذه الفتاة بطريقة ما. لكن كيف يمكن له أن يعلم ما تقصده هى؟ إنه يعبر فقط عن نفسه، وهل يمكن له أن لا يفعل غير ذلك، حتى لو كان هذا غير كاف فى نظر تلك الفتاة؟ بدأت الآن تتيقن أنها كانت محظوظة للغاية لأنها لم تكن غارقة فى حب السيد وو. فى وقت ما كان هذا الخطر محتملا عندما كانت صغيرة فى العمر، لكن ما حارب معها هو طبيعتها التى يصعب إرضاؤها، لكن يبدو أن رولان هى عكسها تماماً. قالت لها أخيراً، "إذا أنجبت طفلا سوف تتحررين منه، على الأقل سوف تعملين على تقسيم حبك، فالطفل يلزمه الكثير، وسوف تكونين مضطرة أن تبذلى له الكثير. لكن إذا لم تنجبى، يمكن لك حينئذ أن تشغلى نفسك بدراسة معينة، مثلا بالرسم أو أى أمر مشابه. يجب أن تعملى على تقسيم نفسك يا ابنتى، لقد سمحت لكل قواك أن تنصب فى نهر ضيق عميق. الآن، عليك أن تحفرى مسالك لنفسك، وبعضاً من النهيرات الصغيرة وتوزعى حبك فى هذا وذاك".

قالت رولان بصوت فيه قدر من المرارة، "تعنين أن أنشغل بأداء أعمال شاقة؟"

ردت المدام بلطف وهدوء، "إذا لزم الأمر ذلك، لكن هو سبيلك الوحيد للحصول على السلام، بدون ذلك، إنما أنت تعرضين نفسك للفناء. هو سوف يكرهك، وهذا ما أنا

متأكدة منه. إنه يحوم الآن على حافة نهر الكراهية، لذلك فضلت أن يبتعد عنك لفترة ويرحل بعيداً".

رطبت رولان شفتيها الجافتين، ثم همست، "هل كل الرجال مماثلون له؟"

"كل الرجال متشابهون، وما إن تكتشف النسوة ذلك، حتى يشعرن بالتحرر منهم"

"إذن لماذا أنا لا أحب أحداً غير تسيمو؟"

"إنها مجرد خدعة، ربما بسبب شكله ومظهره، الطريقة التى يرفع بها حاجبيه، شكل فمه عندما يتحدث، منظر كتفيه عندما يرتدى معطفه، يده التى....".

همست رولان وهى مبهورة، "كيف تعرفين كل هذا؟"

ضحكت مدام وو، "إن السماء تنصب لنا شركًا لكى نقع نحن النسوة فى حبائله"

إنها فى الواقع لا يمكن لها أن تشعر بالغضب من هذه الفتاة، هى ليست سوى مخلوق ضعيف وقع فى المصيدة. الآن وقد أدركت مقدار ما تكنه من حب لتسيمو، غفرت لها كل أخطائها.

مدت يدها النحيلة وجذبت إليها يدى رولان وأخذت تربت على الواحدة تلو الأخرى، "لا تستمرى طويلا أسيرة لهذا الشعور التعس، أنا لا أسمح أبداً لأى إنسان داخل سقف بيتى أن يشعر بذلك. لقد بذلت أقصى جهد لى حتى أجعل الجميع يرفل فى السعادة والهناء، فما الذى ترغبين فيه يا ابنتى لكى تشعرى فعلا بالسعادة؟"

لم تجد رولان بداً سوى أن تستجيب إلى هذا الوجه الصريح، وهذا الصوت الموسيقى المريح، لذا سمحت لنفسها أن تجذب حتى جلست فوق ركبتى مدام وو.

قالت مدام وو: "دعيه يا ابنتى يرحل، لا تبكى وهو ذاهب، ساعديه فى حزم متاعه وكلك فرح وحبور مهما كان قلبك يبكى وينفطر. ثم حاولى بعد ذلك أن تنامى على سريرك باستغراق وبدون استيقاظ متقطع. دعيه هو يقلق فى نومه وليس أنت".

"لكن ما العمل إذا حدث العكس وأصبحت أنا التى يجافيها النوم وليس هو؟"

ضحكت مدام وو بصوت عال وقد أعجبتها هذه الصراحة، "إذن انهضى وسيرى داخل جناحك. هواء الليل بارد فى أيامنا هذه، وعندما تشعرين بهجوم البرد فإن رغبتك فى الحصول على الدفء سوف تلجئك الإسراع إلى سريرك لتنعسى، حتى ولو نمت بمفردك".

أخذت المرأتان تنظران فى عيون بعضهما. أدركت مدام وو ما يكتنز داخل فؤاد هذه المرأة من روح متقدة وحارة، وهى الآن ترتعد من الألم والشجن، لذا وجدت كل ينابيع حنانها وقد فغرت فاها ونضحت عليها بشكل يفوق كل ما تكنه لعائلة وو بأثرها. شعرت بموجات دافقة من الإعزاز تلتف حول هذه الروح، التى هى أيضاً امرأة مثلها.

"أنت حرة بالكامل عندما تتأكدين أنك قد اكتسبت واسترجعت مرة أخرى ذاتك وحياتك. يمكن لك أيضاً أن تشعرى بكامل حريتك داخل حدود هذه الجدران كما قد يحدث معك خارجها فى العالم الواسع. وكيف يمكن أن تشعرى بالحرية، مهما كان بعد تجوالك، بينما أنت تحملين فى معينك ذلك الشوق المؤلم والتفكير الدائم فيه؟ حاولى أن تتفهمى ما هى حقيقة انتمائك فى مجرى ينبوع الحياة ودفقها، دعيه يتدفق من خلالك، بارداً عاصفاً، لا تحاولى أبداً أن تمنعى خريره بيديك، وإلا هرب منك وكسر السدود. دعيه يذهب حراً، بهذه الطريقة سوف تتحررين منه".

"لا أستطيع أن أهنأ بمعيشتى دون أن أشعر بأنه يحبنى"

قالت لها المدام بصوت هادئ، "اشنقى نفسك الليلة إذن، لأننى أعدك أنه لن يحبك دون أن تطلقيه حراً، لا يمكن للحب أن يعيش إلا فى ظلال الحرية".

"مستعدة أن أكون عبدة له إذا أحبنى حقاً"

صاحت المدام، "أنت لست عبدة، أنت تحاولين أن تكونى السيد من خلال حبك الجارف هذا. هو يشعر بذلك ولا يحتمله. يجب أن يتحرر منك لأنك تحبينه أكثر من المعتاد. أوه، أيتها السيدة العبيطة، كيف أشرح لك كيفية الإحساس والشعور الكامل بالسعادة؟"

سقطت أمامها رولان على ركبتيها وهى تنتحب، "أعرف بالضبط ما تودين قوله- لكن - أنا خائفة من اتباع نصيحتك"

لم ترض مدام وو بهذا البكاء، "انهضى، انهضى"، قامت هى ورفعت معها رولان. قالت لها بكل حزم، "إذا كنت أنت خائفة، إذن فقد انتهى جهدى معك. لا تأتى إلى أبداً شاكية، ليس لدى وقت كاف أخصصه لك. نعم، سوف أرضى أن تغادرى هذا المنزل، إلى الأبد أيضاً".

بينما رولان تحدق فى هذه الإنسانة النحيلة الرائعة، شعرت أن قلبها المضطرب المملوء مرارة يثبت ويستقر فى صدرها، فهذه المرأة الوحيدة الباردة، بدت أمامها الآن أسعد إنسانة رأتها فى حياتها. أمها كانت سيدة نكدية مشاكسة غير راضية عن حياتها، أخواتها البنات كن دائماً ما يتعاركن، كما تفعل كل نسوة مدينة شانغهاى، لكن هذه السيدة تعيش فى صفاء ونقاء وثبات كأنما هى ينبوع يتوسط مجرى ماء جبلى.

قالت أخيراً بكل تواضع: "سوف أطيعك يا والدتى"

أخيراً وبعد رحيلها، شعرت مدام وو باندهاش بالغ، فهى قد أرسلت اثنين من أبنائها بعيداً عن منزلهما بسبب امرأتين، لم تكن هى تحبهما سابقاً، وهى الآن التى تحملت أعباءهما.

صاحت، "لكن أنا التى فى أشد الحاجة للحصول على حريتى!"

وهى ما زالت فى حالة من الاندهاش بسبب ذلك التناقض الذى ساهمت فى خلقه، سلمت نفسها إلى وصيفتها ينج حتى تستعد للنوم.

* * *

فى اليوم التالى، حكت للأخ أندريه كل ما فعلته فى موضوع إرسال ابنها تسيمو، "أنا لست قادرة على شرح كل ما يعتمل داخل فؤادى".

قال لها الأخ أندريه وهو يبتسم واحدة من ابتساماته المعروفة، "وهل الشرح له هذا القدر الكبير من الأهمية؟"

كانت دائماً ما تلاحظ هذه الابتسامة. إنها تبدأ أولا من غابة حاجبيه وذقنه كأنما هى الضوء البارع الذى يلمع وسط الغابة الكثيفة. أما ضخامة حجم هذا الرجل كذلك الشعر الكثيف الذى يغطى معظم جسده، فهذه المظاهر كانت تسبب لها الرعب أولا، لكن الآن، هى اعتادت عليها.

استفسر منها بقدر من الخجل، "ما الذى يشغل تفكيرك الآن؟"

"أنت دائمًا ما تصرح بأننا جميعًا أقرباء على سطح هذا الكوكب الذى يجمعنا، لكن مع ذلك، كيف يمكن أن تفسر لى مظهرك هذا؟"

سأل وهو مازال بتلك الابتسامة الخجولة، "ما الذى تجدينه غريباً فى؟"

قالت بهدوء: "أنت ضخم البنيان ومليء بالشعر"

"أنت تحتارين فى تفسير أحوالك – فكيف يمكن لك أن تفسرى أحوالى أنا؟"

هذه الأضواء التى اكتسحت الغابة، أصبحت واضحة وجلية الآن. شاهدت التماعة أسنانه البيضاء خلال الغابة السوداء التى غطت على ذقنه، ولمعت نقاط الضحك فى عيونه السوداء.

قالت: "قرأت أن الأجانب لهم شعر كثيف فى كل أجسامهم لأنهم أقرب إلى الحيوانات".

"ربما"، فتح فمه الواسع وانطلقت منه ضحكة مدوية.... فى عمق جنح الليل، عندما يستلقى على سريره المصنوع من البامبو، كان يشكر الله لأنه لم يتقابل مع مدام وو عندما كانت صغيرة فى العمر، فكر، "يا إلهى، ما الذى يمكن أن أفسره لروحى فى ذلك الحين"، لكنه الآن سيد على جسده، هو لا يشعر الآن سوى بذلك الموقف الفكاهى الذى يجرى أمامه.

أضاف، "في هذه الحالة، مادام أن الله قد صنعني أنا أولا، أليس عليه إذن أن يجرى إصلاحات معينة عندما صنعك أنت؟"

الآن هى التى أغرقت فى ضحك فضى رقيق، واختلط هذا بضحكه الخشن العميق وتمازجا سويًا. فى خارج الجناح، كانت هناك الخادمة المختصة بالغسيل منهمكة فى غسل الملابس الداخلية الرقيقة لمدام وو، بينما جلست ينج بجوارها لتدلها على ما يجب أن تفعله. لاحظت ينج على الفور رأس تلك المرأة وهو يرتفع وعلى ملامحها نظرات الاندهاش.

صاحت ينج، "لا تدعكى الصابون بالملابس الحريرية أيتها الجاهلة، واحتفظى بعينيك ويديك مشغولة بعملك فقط". لكنها أيضًا تعجبت، كيف يمكن لهذا القس الطويل الضخم أن يجعل سيدتها تغرق هكذا فى الضحك الصادر من الأعماق. هى لم تستطع أن تخبئ من نفسها هذا التعجب.

لأنه فى الحقيقة، على الرغم مما تعانيه مدام وو من متاعب فى إدارة أحوال هذا المنزل، فإنها مع ذلك تبدو عليها هذه الأيام مظاهر رائعة من المرح وتدفق الحياة، هى تستقبل الآن كل يوم بمتاعبه بمزيد من البهجة والغبطة. كان صبرها أحيانًا ينفذ لما تواجهه من المشاكل المنزلية المتنوعة، لكن مع ذلك، هى تستطيع الآن أن تتحكم فى نفسها وتؤدى كل عمل وتصدر كل قرار حاسم بكل الحزم والتبصر. لكن ينج، تلك التى تعرف وتفهم كل نفس يصدر من سيدتها، علمت أيضًا أنها لم تعد تهتم بكل ما يحدث داخل منزلها.

لم تجرؤ ينج أن يخطر على فكرها أى خاطر خبيث يربط هذا القس الضخم بسيدتها، فالمدام حريصة ومدققة للغاية فى هذه المسألة، بالإضافة إلى أنها الآن أكثر برودًا بينما الفضة تتدفق منها، أصبحت أكثر وضوحًا فى مظهرها وأقوى تحكمًا فى سلوكها – لكن مع ذلك، أصبحت أكثر مرحًا!

كانت ينج تراقبها عن كثب خلال يوم أو يومين عندما أرسل الأخ أندريه رسالة يخبر فيها أنه لن يتمكن من الحضور، هنا لا يبدو على مدام وو أى اهتمام بذلك،

تجدها جالسة سعيدة بمفردها داخل المكتبة كما لو أن مدرسها حاضر معها، فكيف يمكن تفسير ذلك؟

حاولت الخادمة الغسالة أن تمنع ضحكة كادت أن تصدر منها قائلة، "حتى هذا يحدث فى بيت السيد وو"، ثم همست، "هل سمعت آخر الأخبار".

قالت ينج باستياء: "سمعت ماذا؟ أنا لا أستمع أبداً لمواء القطط"

"كنت أعتقد أنك تعرفين أنه بينما تنهمك سيدتنا فى دروسها مع القس الأجنبى، فإن سيدنا يذهب الآن إلى بيوت الأزهار".

"هذا لم يحدث"

جلست ينج على مقعد منخفض من البامبو ثم انحنت ولطمت الخادمة على خدها، أحدث فى الحال علامة حمراء. لمعت عينا الفتاة ثم أدارت خدها الآخر:

"اضربينى مرة أخرى، لأن ما أقوله هو الحقيقة. هو يذهب بالفعل مع صديقه العجوز كانج – فما الذى يمكن أن تتوقعيه؟"

تظاهرت ينج أنها لم تسمع ذلك، لكن هى فى الحقيقة استمعت من قبل إلى همسات تدور بخصوص هذا الموضوع، هذا على الرغم من أن باقى الخدم يخشونها ودائماً ما يصمتون عندما تدخل عليهم. أخذت الآن تفكر، 'هذا البائس العجوز كانج، هو ذلك الذى يبذر الشر". استغرقت فى فكر عميق فى شأن كل الرجال على وجه العموم، بل هى أيضاً لم تستثن حتى زوجها كبير الطباخين من اقتراف تلك التصرفات الغريبة.

فى تلك الغرفة المستطيلة الهادئة، نسيت مدام وو كل ما يختص بمنزلها. جلست تحدق فى وجه أندريه الأسمر المتشعث، وهو، وقد سحرته هذه النظرات، انهمك فى تعليم هذه الروح كما لو أنه لم يعلم أحداً من قبل. إنها روح صافية، كلها حكمة وضياء، هى روح فتية. لقد عاشت عمرها داخل هذا المنزل وعرفت الكثير، لذا فهى قادرة أن تفهم أى شىء بلمحة نظر، عقلها عبارة عن كأس من الكريستال فائق الصنع، وهذا الكأس على استعداد الآن لمن يملؤه.

كـيف يمكن له أن يسـاعـدها على أن تعـرف كل مـا يعـرفـه هو؟ فى هذا الكأس الكريستالى، قام هو بصب كل علمه الذى احتفظ به لنفسه، لأنه حتى الآن لم يعثر على أحد يهتم أن يتشارك معه فى هذا العلم. أخبرها عن تاريخ العالم، قيام الأمم والشعوب وسقوطها، مولد الأمم الحديثة. حكى لها عن اكتشاف الكهرباء والراديوم، وشرح لها موضوع تيارات الهواء التى تحمل فى طياتها كلام الناس وأحاديثهم وموسيقاهم لتدور حول العالم أجمع.

"هل لديك هذه الآلة التى تلتقط تلك الأصوات والموسيقى؟"، هذا كان هو استفسارها لهذا اليوم.

"نعم لدى، بل أنا صنعت بنفسى واحدة مثلها تؤدى الوظيفة نفسها"

سألته وهى فى قمة الاستثارة، "هل يمكن أن تحضره لى؟"

تردد قليلا، "للأسف، هو مربوط إلى الحائط بعديد من الأسلاك، هل يمكنك – أقصد هل تريدين أن تحضرى وتزوريني فى منزلى المتواضع لكى تشاهديه؟"

أخذت تفكر فى هذا الموضوع، كيف يمكن أن تذهب إلى منزل إنسان أجنبى، حتى وهى بصحبة أخريات؟ شعرت فجأة بمظاهر الخجل تكسوها، لذا أدارت وجهها قائلة، "ربما".

"لا تشعرى بالإحراج منى، ليس هناك ما قد يسبب لك هذا، فالرجل داخلى قد مات، أماته الله".

بهذه الكلمات الغريبة، رحل. شعرت هى بالراحة تكسوها، كما يحدث فى كل مرة يغادر. إنه يضع الكثير فى دماغها. جلست تفكر، نصف ابتسامة على وجهها، تدخن غليونها الدقيق، عقلها يجول فى أرجاء هذا العالم الشاسع الذى أخبرها عنه.

انشغلت بالتفكير – "أتعجب ما إذا كان فى مقدورى أن أتجاوز هذه المدينة، وسوف أتعجب أكثر إذا أبحرت يوماً مستخدمة تلك السفن الضخمة التى يحكون عنها، أو أستخدم تلك الأجنحة الغريبة".

للمرة الأولى، شعرت بالأسف بسبب قصر حياة الإنسان على الأرض. على الأكثر أمامها الآن أربعون عاماً أخرى، فما الذى يمكن أن تفعله فى أربعين عاماً؟ لقد قضت حتى الآن أربعين عاماً سابقة ولم تخرج كثيراً خارج عتبة دارها.

استغرقت فى التفكير، "وما الذى أنا أعرفه حقاً عن مدينتى هذه التى أعيش فى كنفها؟ وما الذى أفهمه عن أمتنا التى وضعت وسط عديد من البحار والجبال؟". يمكن القول إذن، إن سحر العالم كله استحوذ على لب مدام وو.

يوماً بعد يوم، كانت تروح وتجىء وسط أفراد عائلتها وكلها ابتسام لكنها لا ترى. اجتمعت معهم أثناء فترات تناول الطعام وجلست على مقعدها المعتاد نفسه، لكنها لم تشاهد منهم أحداً على الرغم من أن جميعهم كانوا تحت أنظارها.

وهى فى هذه الحالة، اقتحمت ينج عليها خلوتها وهى منهمكة فى تنظيف جواهرها. كان اليوم فى منتصف فصل الشتاء، وقد أحضرت مدام وو طبقاً به بعض الماء وتطفو فوقه بعض الورود وفى قاعه جلست جواهرها، وصدف أن وقعت أشعة الشمس التى نفذت من شراعات النافذة على تلك الأزهار والجواهر.

صاحت المدام: "انظرى كيف تتشابه تلك الأزهار مع هذه الجواهر المصنوعة من اللؤلؤ والماس والتوباز فى الألوان البيضاء والخضراء".

رفعت ينج رأسها عالياً، "سيدتى، أنت دائماً سريعة فى التقاط مثل هذه المناظر، لكن الشىء الغريب أنك لا تلاحظين ما يجرى داخل منزلك".

"ما الذى لم أره؟"، قالت ذلك وهى تشعر بنوع من الذنب، كانت فى تلك اللحظة تفكر فى زوجتى أبنائها.

"سيدنا"

"ماذا عنه؟"

"بيوت الأزهار"

"هو لن يجرؤ!"

"بل فعلها، وهذا ليس غريبًا، فكثير من الرجال يفعلون هذا، لكن كيف سيكون الحال إذا أحضر واحدة إلى هنا من هناك؟"

أخذت مدام وو تفكر بعمق للحظات، "اسألى السيدة الثانية أن تحضر إلى هنا حالا".

نهضت ينج، واتخذت لنفسها مظهر حامل الرسائل المهمة، وذهبت. أمسكت مدام وو بعضًا من مجوهراتها وأخذت تتأملها، معظمها حصلت عليها يوم زواجها، لكن تلك الأساور كانت قد ورثتها من أمها. هذه الأقراط أعطاها لها يوم الصباحية معربًا بذلك عن مدى اغتباطه بها، وتلك الخواتم من الزمرد، اشتراها من محل أجنبى فى شانغهاى، وهى لم تكن قد رأت الزمرد من قبل. هذا الطائر الماسى اشتراه فى مناسبة أخرى من هونج كونج، وهى أيضًا لم تكن قد شاهدت الماس من قبل، أما الياقوت فقد أحضره من ولاية بعيدة، وحليات الشعر المصنوعة من اليشم، هى واردة من بلدة يوتان. كان هناك أيضًا بعض القطع الصغيرة التى لفتت أنظارها عندما حضر بناء على أوامرها بعض من تجار الجواهر، لكنها لم تشتر الكثير من أجلها. جلست فى مكانها تدير بين يديها دبوسين من الفضة، هما جميلان ومتقنا الصنع.

فى تلك اللحظة، حضرت إليها شيومنج، لقد أصبحت ثقيلة الآن بسبب ما تحمله فى بطنها. لقد تغير شكل وجهها وفمها أصبح أكثر احمرارًا.

أمسكت مدام وو بالدبوسين قائلة، "سوف أمنحك هذين، أنا لم أعد فى حاجة إليهما".

مدت شيومنج يدها وأمسكت بالدبوسين وأخذت فى فحصهما فى صمت، "إنهما أجمل من أن أستخدمهما، أنا حتى لا أعرف كيف أثبتهما".

"على أية حال، احتفظى بهما". أخذت مدام وو تقلب فى مجموعة جواهرها بإصبعها الكبير. كانت تحدوها رغبة جارفة أن تمنح شيومنج كل ما أعطاه لها السيد وو، لكنها أدركت أن هذا ليس مناسبًا أن تفعله.

بعد ذلك، شاهدت فى الطبق زهرتين مصنوعتين من الياقوت. كان شكلهما دائرياً، لكنهما لم يكونا مصقولين جيداً، قالت لها، "هذان أيضًا، خذيهما، سوف ينطقان وهما على أذنيك، أعتقد أنه منحك بعض المجوهرات".

قالت شيومنج ببطء: "لا، لكن أنا لا أريد أى مجوهرات"

أمسكت مدام وو بغليونها وعبأته بالتبغ ثم أشعلته وأخذت نفسين ثم وضعته جانبًا. قطعة من الرماد وقعت على المائدة، قامت شيومنج بدعكها بين يديها.

قالت المدام: "الآن، هل هو يذهب إلى بيوت الأزهار؟"

احمر وجه شيومنج، "سمعت أنه يفعل ذلك، لكن هو لم يخبرنى بشيء"

"ألا يمكن أن تشاهدى نفسك؟ ما هى نوعية مشاعره نحوك؟"

خفضت شيومنج من عينيها، "إننى أحصل على أكثر مما أستحق، مهما كانت نوعية ذلك. لكن أنا لا أستطيع أن أحبه". قالت ذلك بلهجة حزينة. استمعت مدام وو لذلك، وفى لحظة شعرت لدهشتها بالأسى من أجل السيد وو.

قالت، "بينى وبينك، لقد أسأنا إلى هذا الرجل، أنا بتقدمى فى العمر وأنت بسبب شبابك الغض. هل حاولت أن تحبيه؟"

رفعت شيومنج عينيها الأمينتين، "أوه، نعم. حاولت، أليس هذا هو واجبى نحوه؟"

"فى الحقيقة هو واجبك"

"أعلم ذلك"، ثم أضافت بهذا التواضع الحزين، "إننى أطيعه فى كل شيء، هذا على الأقل أفعله كما يهوى".

"هل هو يعلم أنك لا تحبينه؟"

"نعم، لأنه سألنى وأنا قلت له الحقيقة"

صاحت مدام وو، "آه، يا للأسف. لم يكن واجبًا أن تفعلى ذلك.. يا ترى ما الذى يمكن أن يجرى إذا قامت كل امرأة بذكر الحقيقة إلى رجلها؟"

"أنا غبية كما تعلمين"

"إذن هو يذهب إلى بيوت الأزهار". تنهدت عميقًا، "حسنًا، لا توجد أبدًا نهاية للمتاعب التى تنشأ بين الرجل والمرأة. متى سوف يتم ولادة هذا الطفل؟"

"الشهر القادم"

قالت لها بسرعة: "هل أنت سعيدة بذلك؟"

عندما لا تنطق شيومنج، تتخذ شكلا معينًا، تهبط يداها على حجرها، عيناها تهبطان إلى أسفل، وكتفاها يرتخيان، وعندما يتم مخاطبتها، تنقبض أصابعها وترفع جفونها، قالت، "هذا بالطبع سوف يمنحنى ميزة ما داخل هذا المنزل"، ثم خفضت من عينيها.

بدا لمدام وو أنه ليس هناك المزيد الذى تود معرفته، لذا قالت، "ارجعى، وأنا سوف أحادثه لأعرف أين موضع قلبه الآن".

نهضت شيومنج بهيئتها البسيطة المستسلمة ثم انحنت وغادرت المكان. بعد لحظات عادت وأمسكت بيدى مدام وو. كانت الجواهر تبرق فى يديها السمراوين، قالت، "نسيت أن أشكرك على هذه الهدية".

"لا تشكرينى. ضعيهما دائمًا فى يديك – وتلك سوف تصبح وسيلة الشكر المقدمة لى".

"إننى أكرر شكرى لك أيتها الأخت الكبرى". ثم ذهبت.

فى ذلك اليوم، أرسلت هى للأخ أندريه اعتذارها، وفى المساء المتأخر، بعد انتهاء وجبة العشاء – أرسلت ينج إلى جناح السيد وو معلنة قدومها. تلقى السيد وو هذه الرسالة وفى الحال بادر هو بالحضور إليها قائلا، "دعينى أنا الذى يحضر إليك يا والدة أبنائى".

اندهشت عندما لاحظت أنه قد أصبح أكثر نحافة وأقل توردًا عما كان. فى التو وجهت لنفسها اللوم. نهضت وحيته، جلس، وكلما تحققت من ملامحه زادت درجة قلقها وتوترها. إنه ليس بصحة جيدة، عيناه اللتان كانتا تبرقان دومًا أصبحتا الآن غائمتين، أما شفتاه فقد أصبحتا باهتتين.

قالت له: "تبدو مريضًا، هل أنت مريض؟"

"لا أبدًا"

أصرت، "لكن أنت لا تبدو على ما يرام"

"لا، أنا فى أحسن حال"

استفسرت، "والسيدة الثانية؟"

رفع يده إلى أعلى، "إنها تبذل كل جهدها من أجلى"

"لكن هى لا تعجبك تمامًا؟"

ظهر عليه الإحراج، "سوف أخبرك يا أم أولادى. هو أمر صعب بالنسبة لشابة صغيرة فى السن، وأنا أيضًا لم أعد شابًا".

قررت أن تمسك بخناق الحقيقة، "لكن أنا سمعت أنك تزور بيوت الأزهار"

هز كتفيه ولم يبد عليه أى مظهر من مظاهر الخجل، "أنا أذهب أحيانًا بصحبة كانج العجوز، نعم، كما تعلمين، هو من السهولة بمكان أن يشترى الرجل خدمات امرأة دون أن يحصل على الحب فى المقابل. حسنًا، هناك بعض التظاهر، وأصعب شىء فى الموضوع هو هذا التظاهر. أنا لم أتظاهر أبدًا معك يا أيلين، كنت مغرمًا بك، أما الآن مع هذه الثانية، لم أعد قادرًا أن أحب أو أتلقى الحب....."، استمر فى حك رأسه وبدا كأنما هو ذاهل عن الدنيا، "ببساطة، هو أمر سهل للغاية أن يتوجه الرجل منا إلى بيوت الأزهار".

ذكرته، "لكن الشهر القادم سوف يولد لك طفل"

"حسنًا، نعم"، بدأ مرة أخرى فى حك رأسه بطريقة تدل على مدى حيرته، "الشىء الغريب فى الموضوع هو أننى لا أشعر أنه من صلبى. على كل حال، أنا وأنت أنجبنا أربعة أولاد".

قالت بعد فترة صمت قصيرة: "إذن يبدو أن شيومنج هذه ليس ذات فائدة ملموسة داخل منزلنا هذا".

حك رأسه مرة أخرى، وهز رأسه موافقًا، "حسنًا، ربما هو كذلك"

قالت بقسوة: "لا، أظن أنك قد عاملتها بخشونة"

نظر إليها نظرة اعتذار، "لقد كنت عطوفًا معها للغاية"

أعلنت، "لكن أنت لم تمنحها أية هدايا"

اندهش، "هذا صحيح، إننى أنساها باستمرار"

نفد صبرها، "أخبرنى، ما الذى تحتاجه من أى امرأة؟"

ظهر عليه الاندهاش، "أى امرأة؟"

شعر بنفاد صبرها، لذا كان حريصًا على إرضائها، لذا بذل جهدًا مضاعفًا لكى يجيب، "حسنًا، أنا كنت..."، لاحظ أن بدايته لم تكن مرضية، لذا ابتدأ من جديد، "ليس هناك الكثير الذى يمكن أن أطلبه من المرأة. إنه... ما أريده، وهذا يمكن التعبير عنه بالقول، أنا أحب أن أضحك، أنت تعرفين ذلك. أود كثيرًا أن أستمع إلى كل ما هو مثير... أنت كثيرًا ما كنت تخبرينى بأمور مدهشة ورائعة، وكثيرًا ما كنت أضحك مما تحكينه. حسنًا، كل هذا..."، أنهى حديثه بهذه النهاية الغامضة.

قالت بحدة: "أنا لا أستطيع أن أستمر للأبد فى إضحاكك"

"طبعًا لا، لذا ولهذا، أنا أذهب إلى بيوت الأزهار"

"ما الذى يحدث هناك؟"، شعرت بالاندهاش من فضولها هذا.

"ليس الكثير، دائمًا ما يتوافر هناك ما نأكله ونشربه، ونحن أيضًا نقامر هناك مع قيام الفتيات بالعزف لنا".

رددت، "فتيات؟ كم عددهن؟"

"خمسة أو ستة، وتنضم إليهن من هى ليس لديها ارتباط معين. أنا وكانج... حسنًا، نحن عطوفون عليهن، وهن دائمًا...."

"وبعد ذلك؟"

بدأ مرة أخرى باذلا كل جهده، "حسنًا، بعدها، كما تعلمين، تنتهى الأمسية سريعًا. هؤلاء الفتيات متخمات بالقصص الطريفة والحيل الجميلة"، بدون وعى، ندت عنه ابتسامة.

"هل تقضى الليل كله هناك؟"

"ليس دائمًا"

أخذت تتأمل فى وجهه، لاحظت الخطوط التى ارتسمت فيه، هذا لم يعجبها، فمظاهر الشباب التى ظنت أنها سوف تستمر إلى النهاية بدأت الآن فى الخفوت. تنهدت، لاحظت أن نفاد صبرها قد تزايد، "هل تود أن تحضر إلى هنا فتاة من فتيات بيوت الأزهار ؟ أنا لن أوافق بالطبع، لكنى أود أن أستفسر".

ظهرت عليه مظاهر الدهشة، "ولماذا أفعل ذلك؟"

أعلنت، "أنت فى الواقع تذهب إلى هناك لكى تلعب"

"ربما"

"كم أنت طفل كبير!"

"إننى لست بارعًا مثلك يا أيلين. أنا لا أستطيع أن أقرأ الكتب، الآن أنا ليس لدى الكثير لكى أعمله أو أؤديه. ليانجمو يدير كل شىء الآن، وحتى بعد رحيل تسيمو وفنجمو،

هو يحل بدلا منهما بيسر كامل. لا أحد محتاج لخدماتى". توقف، ثم استأنف بأسلوب مغرق فى التواضع، وهذا لا يعجبها بالطبع، "إذا كان فى ذهنك أى شىء من الممكن أن أكلف بعمله، إذن سوف ألتزم بعمله وإنجازه".

لم يعد لديها ما يمكن أن تضيفه، فى الحقيقة لا يوجد شىء معين مطلوب منه. إنه يجلس الآن أمامها، أنيقاً، نظيفاً، لطيفاً، لاحظت والحزن يخترطها أن بشره وابتهاجه بالحياة قد عاد إليه بعد حديثهما المشترك هذا، وأنه يعوزها القلب الحازم لكى تنهره.

ما إن افترقا، حتى أدركت أنها طوال عمرها لن تتحرر منه أبداً، فمن خلال جسدها تسلل هو إلى روحها أيضاً. ليس كافياً أنها لم تحبه إطلاقاً، فالحب ليس له شأن بموضوع القدرة على تحمل المسئوليات.

صاحت مدام وو بنوع من الشجن الغريب، "أوه، أيتها السماء، هل سوف أستمر إلى النهاية مسئولة عنه؟"

شعرت أن أجنحة روحها، التى توازنت فى الهواء الطلق وامتدت، سقطت وتداعت وهبطت بقسوة إلى الأرض الصلدة.

(١٠)

لكن السيد وو ذهب مباشرة من جناحها إلى بيت الزهور، وهو المكان الذى اعترضت عليه، هو فى البداية تتبع السيد كانج وإلى حد ما ضد رغبته، وبالتأكيد ضد أحكام ضميره، ثم تعامل مع الاثنين وانتصر الغالب فيهما. لقد رضخت إرادته بالكامل، لذا تجده الآن مشتاقًا باستمرار لإتمام زياراته البريئة تلك، واستقر فى وجدانه مياه ضحلة قوامها الارتباك والصمت الطارئ. إنه لم يفهم شيومنج هذه. إنها ليست فى حكمة مدام وو، تلك التى كان يعبدها كما يفعل أحد كهنة المعبد، ذلك الذى يقدم فروض الطاعة لمعبوده، لكن شيومنج ليست من طائفة الآلهة أو حتى النساء. عندما حاول أن يعاملها كإله لاحظ مقدار ارتباكها وحيرتها، وعندما عاملها كامرأة، شعر أنه بذلك قد صدمها، بعد ذلك هو الذى شعر بالارتباك ولم يتقدم بعدها خطوة للأمام، وتجمدت المسائل بينهما، لم يعد قادرًا على تفهم الأسلوب المناسب للتعامل معها، لذا تركها لحالها.

هذه التجربة جعلته أكثر تعلقًا بمدام وو، التى تستطيع بمقدرة كاملة،كما تصور، أن تكون هى الإلهة والمرأة فى الوقت نفسه، لكن ليس الاثنين إطلاقًا فى وقت واحد. لكن مادام أنها رفضت بإصرار أن تعود لتصبح المرأة، ووضح أنها تود أن لا تكون الإله دومًا، كان عليه إذن أن يبحث عن المرأة فى مكان آخر.

هذا ما عثر عليه بالفعل على هيئة فتاة صغيرة مستديرة مرحة فى بيت زهور نبات الريح بشارع الزمار الأعمى - وهو بيت عتيق، فى مظهره الخارجى يبدو كأى بيت من بيوت احتساء الشاى، لكنه أيضًا مكان لممارسة القمار ويعتبر ماخورًا أيضًا. كل الفتيات فى هذا البيت من الفتيات الصغيرات فى العمر اللاتى يتميزن بالنظافة والمرح. لقد أكد له السيد كانج أنه زبون دائم لهذا البيت منذ سنوات عديدة، وأكد له أنه لم يجد

فيه أى نوع آخر من الفتيات، فى داخله، إذا رغب الرجل أن يراقب الفتيات وهو يأكل ويشرب، فله ذلك، أما من يريد خدمات خاصة فهذا يلزمه ترتيبات معينة، وهناك دائمًا قائمة انتظار طويلة للراغبين من الزبائن، لكن هذا كله لا يمثل عقبة أمام السيد وو، فهو يستطيع بسهولة أن يتصدر هذه القائمة، نظراً لمركزه المتميز فى هذه المدينة باعتباره رئيساً لعائلة مرموقة ومعروفة.

دخل الآن إلى الصالة ذات التزيين المبهج المرح بوصفه زبونًا معروفًا يتلقى التحيات من كل جانب، نادى صاحب الدار على مساعده بصوت عال، "أخبر ياسمين أن السيد وو قد وصل".

تقدم السيد وو بكل ترحاب ودلف إلى غرفة داخلية. فى الحال تم تقديم الشاى له، وبعد عدة دقائق قدم له الخمر مرفقًا معه طبق بداخله متنوعات من المزة، أخذ يأكل منها وما كاد ينتهى من نصف الطبق حتى دخلت عليه ياسمين.

عندما تم إبلاغها بحضوره، كانت مشغولة بتعطير شعرها الطويل، لذا حضرت الآن مسرعة وقد وضعت شعرها على هيئة كعكتين فوق أذنيها، ومادام أنه قد أطلق عليها اسم ياسمين، لذا كانت مصرة على استخدام العطر نفسه، وكانت غالبًا ما تضع زهرتين من زهور الياسمين فى شعرها. معظم وجهها كان مدهونًا بالمساحيق البيضاء وشفتاها حمراوان وعيناها مستديرتان وسوادهما قاتم. هى كانت ممتلئة نوعًا وشفتاها فى حالة ابتسام دائم، أتت تعدو نحوه بقدميها الصغيرتين وحطت بين ذراعيه وحكت خدها المعطر بخده.

تظاهر هو أنه لم يلاحظها، لذا عبست فى وجهه وهى تهمس، "أنا جوعانة". فغطس ملعقة من البورسلين فى الطبق الذى أمامه ، فاستندت هى الأمام كأنما هى طفل صغير لتتناول الطعام، وبينما هما فى حالة من الصمت الكامل، أنهيا الطعام كله، فدفع مقعده من قرب المائدة وانزاحت هى حتى رست تحت قدميه.

استفسر منها، "ما الذى فعلتيه فى نهارك هذا؟"

أخذت تتأمل فى أظافرها القرمزية، "أوه – لا شىء سوى أننى كنت فى انتظارك – هذا كل ما فعلته".

"لا أستطيع بالطبع أن أكون هنا باستمرار، لدى عمل كثير أنا مشغول به. أنا رجل أعمال، وهناك المحلات والأسواق والأراضى الزراعية التى يجب أن أباشرها بنفسى. إنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا فى شىء بدونى".

اشتكت هى، "أنت ترهق نفسك كثيراً فى العمل، أعتقد أنه من الواجب أن يسارع أولادك بمساعدتك"

زمجر، "أوه، أولادى، إنهم لا يفكرون إلا فى أنفسهم وفى عائلاتهم – اثنان منهما سافرا إلى الخارج، أما الابن الأكبر – حسناً، إنه يحاول، لكنى لا أستطيع أن أوكل له كل أمورى".

كان هو مستمتعًا بها وقد استندت بجسدها المستدير الصغير على كتفيه، هو أيضًا مغرم برائحة الياسمين التى تفوح من شعرها، حتى نفسها كان معطراً. تذكر فى تلك اللحظة سؤال مدام وو، هل هو يرغب أن تحضر واحدة مثلها إلى منزله؟ لو كان الأمر بيده، إذن لبلغ قمة السرور وهو ينفذ ذلك، لكنه لا يستطيع أن يدخل إلى منزله ومنزل جدوده وبصحبته فتاة من فتيات بيوت الأزهار، خيال والده سوف يقف له بالمرصاد.

كما لو أنها أدركت ما يدور فى خلده، لذا اقتربت منه أكثر ووضعت ذراعها حول رقبته، "أنا أود لو أتيت إلى بيتك لأعيش معك. أنا سوف أكون فتاة طيبة ولا أحاول إطلاقاً أن أزعج سيدات المنزل، وسوف أظل بمفردى إلى أن تأتى إلى".

قال بسرعة، "لا، لا. أنا لا أرغب أن تحضرى إلى منزلى، أفضل أن أحضر أنا إليك. إذا حضرت أنت إلى منزلى سوف تصبحين بذلك جزءاً منه، ولن أجد المكان الآخر الذى أهرب إليه لكى أمتع نفسى. يجب أن يشعر الرجل بكيانه فى مكان ما".

كانت هى على أتم استعداد لهذا الأمر، فوالدتها التى كانت هى أيضًا فى شبابها فتاة من فتيات بيوت الأزهار، علمتها كيف ترعى نفسها، قالت لها يومًا، "إذا عرض عليك رجل موسر أن تكونى محظية له فلا ترفضى، وإذا لم يتيسر ذلك، إذًا اطلبى منه أن ينشئ لك بيتًا خاصًا لك".

لذلك قالت بدلال، "ألا يمكنك أن تشترى لى منزلا صغيراً يا سيد وو؟ أنا لن أسمح بدخول أى رجل آخر سواك وسوف أكون فى انتظارك نهاراً وليلا، فى هذه الحالة سوف تصبح كما تهوى وتعشق وقتما تشاء".

كان السيد وو يفكر أيضًا فى هذا الاحتمال، إنه ليس معجبًا بالطريقة التى ينادى بها داخل بيت الأزهار هذا، فهو على كل حال، رئيس أكبر العائلات المحترمة فى هذه البلدة، وهو أعلى منزلة بمراحل من رعاع هذه المدينة.

لكن مدام وو هى التى تحتفظ بالحسابات، فكيف يمكن له أن يطلب منها مبلغًا كبيراً لكى يشترى هذا المنزل لياسمين؟

قال لها، "كما ترين يا زهرتى الصغيرة، زوجتى التى هى والدة أبنائى، هى سيدة فاضلة وتحتفظ لنا بسجلات المصروفات والإيرادات، فما الذى يمكن أن أقوله لها إذا رغبت أن أشترى منزلا لك؟"

"ألا يمكنك أن تبيع قطعة أرض زراعية صغيرة ولا تخبرها بذلك؟". جلست بجواره وأخذت تنظر نحوه نظرات توسلية، وهى كانت ذات صوت طفولى ينفذ سريعًا إلى قلبه ويقبض عليه.

قال مرتبكًا، "أنا لم أحاول أبدًا من قبل أن أخدعها"

قالت باندهاش، "هل هى تعرف شيئًا بشأننا؟"

"تقريبًا"

"ماذا تعنى تقريبًا هذه؟"

"تعنى إلى حد ما"

"كيف تعرف هى إلى حد ما، إما إنها تعرف أو لا تعرف"

"إذن دعينى أقول إنها تعرف، من الأسلم أن أقــول إنها تعرف عن أن أقول إنها لا تعـرف".

حاولت ياسمين مرة أخرى وهى تخبئ وجهها فى كتفه، "أخشى القول إن هناك سعادة فى أحشائى، لهذا أنا فى حاجة ملحة لهذا المنزل، أنا لا أستطيع أن أنجب طفلا هنا".

فى الحال، أصاب السيد وو انزعاج بالغ، لذا أزاحها عن ركبتيه وجعلها تقف على قدميها، ووقفت هكذا أمامه وقد وضعت يديها فوق وجهها. قال بحزم، "والآن، هناك كثيرون فعلوها معك قبلى وبعدى، وأنت لم تكونى عذراء عندما عرفتك"

تركت يديها فوق وجهها. لم تتأثر المساحيق، "لكن خادمتى من الممكن أن تؤكد لك أننى لم أضاجع أحداً منذ أن حضرت أنت إلى هنا، ولى حمل الآن له ثلاثة شهور، وأنت حضرت قبل ذلك".

أدارت وجهها وأخذت تمسح دموعها بطرف كمها. قالت، "لا تهتم إطلاقًا، فهذا هو قدرى، ففتيات مثلنا... أحيانًا يحدث ذلك على الرغم من إرادتنا، لا سيما إذا أحببنا الرجل، هذه هى غلطتى".

لو أنها أصرت أو أنها ألحت، إذن لنهض على الفور وربما لا يعود إلى هذا المكان مرة أخرى، لكن هو ذو قلب رقيق.

قال، "الآن، سواء أكان الأمر غلطتى أم لا، تعلمين أن هناك سبلاً متعددة للتخلص من أى حمل، وإليك شىء بسيط يساعدك فى هذا الشأن".

وضع يده ليخرج محفظته، لكنها رفضت أن تتناول النقود، بل دفعت يده بعيداً بإصبعين صغيرين، "لا من فضلك، أنا سوف ألد هذا الطفل وسوف أحتفظ به".

أصر هو، "لكن هذا لا يجب أن يحدث أبداً"

فجأة، وفى تلك اللحظة بالذات، قاطعتهما أصوات صيحات عالية مصدرها الغرفة الخارجية، "السيد وو، السيد وو". كان هذا صوت مالك المكان، وتم فتح الباب على مصراعيه، شاهد السيد وو أمامه خادمه ينج إر الذى صاح بانفعال، "سيدى، أنت مطلوب للحضور إلى المنزل على الفور، لقد شنقت السيدة الثانية نفسها فوق فرع من فروع شجرة الرمان"!

"يا أمي!"، قفز على قدميه وسارع بالخروج، بينما ترمقه ياسمين وكلها غضب وتجهم.

كان الهرج والمرج الذى تجمع داخل منزله قد ارتفع فوق الأسوار وصادفه وهو قادم بسرعة وهو يعدو فى الشارع. لقد تم استدعاء كهنة المعبد، ويسمعهم الآن وهم يقرعون أجراسهم يستدعون بها روح شيومنج الضائعة. اخترق بوابة المنزل المفتوحة على مصراعيها بلا رقيب وأسرع إلى مكان جناحه، هناك تجمع رهط عظيم من كل سكان منزله وهم يصرخون ويندبون وينادون على شيومنج باسمها، دفع طريقه بينهم، فى الوسط تمددت شيومنج على الأرض المعشبة بينما ركعت مدام وو بجوارها واضعة رأسها على ذراعيها، لكن وجه شيومنج الأصفر كان معلقاً هكذا فوق ذراع المدام كأنما هو فاقد الحياة.

صرخ السيد وو، "هل ماتت؟"

أجابت مدام وو، "لا مظاهر للحياة فيها، لقد طلبت بالفعل حضور القس الأجنبى، وإذا كان لدينا كل هؤلاء الكهنة، لماذا لا يأتى هو أيضاً؟"

فى تلك اللحظة بالذات، ظهر الأخ أندريه وتفرق المجتمعون من حوله كأنما هو البحر أمام هجمة الرياح. صمت الكهنة تحدوهم غيرة واضحة، وفى وسط هذا الصمت الذى حل، ركع الأخ أندريه وغرز إبرة فى ذراع شيومنج وجعلها تستقر هناك.

قالت له مدام وو، "أنا لن أسألك ماذا تفعل، فأنا أعلم أن كل ما تفعله هو الحكمة فى حد ذاتها".

"إنه محفز، لكن ربما يكون الوقت قد فات". استخرج الإبرة بسرعة فائقة لدرجة أنه لم يشاهد أحد هذه الحركة إلا السيد وو وزوجته.

لكن الوقت لم ينقض، اهتزت شفتا شيومنج، وبينما يراقبون، لاحظوا أن جفنيها تحركا، تنهدت مدام وو، "آه، إنها حية، إذن فالطفل حى أيضًا".

قال السيد وو، "لكن لماذا شنقت نفسها؟"

قالت مدام وو، "دعنا لا نتعب أنفسنا، فإجابة هذا السؤال سوف تخبرنا به هى نفسها، لكن أرجوك أعلن للكهنة أن روحها قد عادت. أكرمهم جيدًا يا والد أبنائى، دعهم يظنون أنهم نجحوا فى مساعيهم لذا يمكن أن يرحلوا وننعم نحن بالسلام".

أطاعها السيد وو ودعا الكهنة وقادهم إلى الجناح الخارجى وأجزل لهم العطاء، وبينما ظلت بنات العم فى معية الكهنة، أخذت كل من منج وورولان ولين يى فى التحديق بهدوء فى وجه شيومنج، وهى التى بالكاد استطاعوا أن يتعرفوا عليها على الرغم من أنها تعيش وسطهم داخل المنزل. هى من جيلهم، مع ذلك تجدها أحيانًا تتواصل مع الأكبر عمرًا من النسوة، لذا لم يشعرن بالحرية وهن يتعاملن معها، وبذلك نسينها بالكامل.

لكن بفعلتها هذه، جعلتهن يتقربن نحوها. إنها إنسانة تعيسة، لم يكن لديها رغبة أكيدة أن تتعلق بالأكبر سنًا منها، أيضًا نما فى قلب كل امرأة شابة نوع من الاهتمام الخاص بهذه المرأة شيومنج. هذا الاهتمام كان مختلطًا بالعطف والأسى فى قلب منج، بالفضول فى أعماق لين يى، بالثورة والتمرد فى فؤاد رولان. كل منهن قررن أن يعرفن شيومنج أفضل من ذلك ويتحققن من الأسباب التى جعلتها تفعل ذلك.

مع ذلك، لم يكن هناك وقت كاف لتظهر كل هذه المشاعر، لأنه ما إن وعت شيومنج لنفسها، حتى كان واضحًا أنها سوف تضطر أن تلد قبل موعدها، لذا يجب نقلها سريعًا إلى سريرها ويتم استدعاء القابلة بأسرع وقت ممكن. تمت هذه الإجراءات،

وبينما يستعد الأخ أندريه فى الخروج، تحدثت شيومنج، همست، "هل يمكن أن أتحدث مع القس الأجنبى؟"

قالت مدام وو، "إنه يستعد للرحيل". وقفت هى بجوار السرير بينما تعد الخادمات لكى يجعلن شيومنج مستعدة للولادة.

توسلت لها شيومنج، "أخبريه أن يقترب إلى هنا- فقط للحظة بسيطة"

اندهشت مدام وو، لم تكن تعلم أن شيومنج تعرف هذا القس طويل القامة، لكن لأن الفتاة على شفا حفرة الموت، لم تجرؤ هى أن ترفض لها طلبًا، لذا تقدمت وأخبرت الأخ أندريه الذى كان يستعد للرحيل، قالت، "إنها تسأل عنك أنت بالذات، أرجوك تقدم وانظر ماذا تطلب منك".

لذلك استدار الأخ أندريه وأحنى رأسه وهو يعبر مدخل الغرفة حيث رقدت شيومنج فوق السرير الضخم، وظل السيد وو خلفًا، متعصبًا ومرتبكًا فى الوقت نفسه. يا له من موقف ذلك الذى كان له يد فيه، لم يكن لديه أدنى شك من أن شيومنج قد شنقت نفسها بسبب ياسمين، بطريقتها الصامتة احتجت بحياتها.

عندما انحنى الأخ أندريه إلى جانب السرير، تحدثت شيومنج لكن صوتها كان خافتًا وواهنًا، لذا بالكاد استطاع أن يفسر ما تقول، كانت تلك الكلمات هى:

"إذا كانت المولودة بنتًا فأنا أهبها لك إذا توفيت - فهى ليست سوى لقيطة".

تساءل هو فى لطف بالغ، "كيف يمكن أن تكون لقيطة، إنها سوف تولد داخل هذا المنزل العظيم".

"لكن أنا لست سوى لقيطة، وهى سوف تصبح ابنة لقيطة"

بهذا أغلقت عينيها واستسلمت لموجات متتالية من الألم. ابتعد عنها ووجهه مكفهر ولم يخبر أحداً بما أخبرته به. كان صوتها خافتًا لدرجة أنه لم يستمع إليها أحد سواه.

في وقت متأخر من هذه الليلة، ولدت ابنة شيومنج، وهى مخلوقة صغيرة للغاية، أخذتها مدام وو وغطتها بغطاء كثيف من القطن ووضعتها على صدرها حتى تبقيها حية، ثم عادت إلى جناحها بسرعة تاركة شيومنج للداية وينج. فى غرفتها وضعت الطفلة فى سريرها الخاص ورقدت بجوارها حتى تشعر الفتاة بالدفء، ثم حضرت إليها خادمة لتطمئن عما إذا كانت المدام فى حاجة إلى أى شيء.

قالت لها المدام، "سخنى بعض الأحجار وأحضريهم إلى هنا، فهذه الطفلة عبارة عن برعم لم يتفتح بحذر".

"أوه يا سيدتى، لما لا تدعينها تموت؟ إنها بنت - ولن تكبر إلا وهى فتاة مريضة تشغل البيت كله بمتاعبها"

"عليك أن تطيعينى فقط لا غير"

خرجت الخادمة تتمتم، وأخذت مدام وو تنظر إلى هذه المخلوقة، إنها ما زالت تتنفس.

* * *

بعد يومين، حكا الأخ أندريه لمدام وو تفاصيل ذلك الطلب الغريب الذى نطقت به شيومنج. أما الطفلة فهى لم تمت، لكن لم تستطع أن تمص اللبن لأنها صغيرة للغاية، لكنها استطاعت أن تبتلع بضع قطرات من اللبن الذى وضع فى فمها بملعقة. لقد نزل لبن شيومنج، على الرغم من أنها كانت على درجة فائقة من الضعف بحيث يمكن لها أن تنطق بحرف، وحتى عندما تم إبلاغها أن الفتاة ما زالت على قيد الحياة، هى لم تنطق.

أخبرت مدام وو الأخ أندريه، "هذه الطفلة بالطبع لا تعتبر لقيطة، فهى ولدت فى منزلنا".

"كنت أعلم أنك سوف تقولين هذا، وأنت على حق، لكن لماذا تقول هذه الشابة إنها لقيطة؟"

"هى بالفعل كانت كذلك إلى أن حضرت إلى هنا"

ترددت قليلا، ثم لدهشتها البالغة، أخذت تسرد للأخ أندريه كل ما لم تحكه من قبل، وكيف أنها هى التى استحضرت شيومنج إلى المنزل.

أخذ الأخ أندريه ينصت، عيناه إلى أسفل، يداه مضمومتان فوق ركبتيه، هى لا تشاهد هذه الأيادى إلا واندهشت من صلابتها والتعرجات الواضحة فيها، لذا سألته فجأة، "لماذا يداك هكذا صلبة ومتعرجة؟". كان هو معتاداً الآن على أسئلتها الفجائية، لذا أجاب.

"لأننى دائمًا ما أحرث الأرض لكى تنبت طعامًا للأطفال"، ولم يبعد يديه عن مجال حملقتها.

استمرت فى سرد حكايتها، وعيناها مسلطة على يديه، أضافت، "أعتقد أنه مادام أنك قس، إذن أنت لا تستطيع أن تتفهم نفسيات الرجال والنساء". قالت ذلك بعد انتهائها من قص حكايتها.

"كونى قساً، فهذا يدعونى أن أفهم جيداً كلاً من الرجل والمرأة"

"إذن أخبرنى، ما الخطأ الذى ارتكبته". رفعت عينيها عن يديه إلى وجهه. تعجبت أنه هو من دون العالم كله ها هى ذى تفتح قلبها وعقلها لهذا الأجنبى التى تقع بلاده عبر بحار شاسعة ومياه لا تعتقد أنها يومًا سوف تتعرف عليها.

أجابها، "إنك لم تضعى فى اعتبارك أنه من الممكن أن لا يكون الرجل إلا جسداً فقط، وأنه حتى رجل مثل زوجك يجب أن يكون على علاقة وثيقة بخالقه. لقد عاملتيه بنوع من الاحتقار".

صاحت، "أنا؟ لكن أنا لم أفكر فى شىء على الإطلاق إلا ما يحقق له سعادة دائمة"

"أنت كنت مهتمة فقط بملء معدته ونعومة سريره، بل وأسوأ من ذلك، قمت بشراء امرأة شابة له كما لو أنك تشترين رطلا من اللحم. لكن هذه المرأة، هى أكثر من ذلك، وأنت من دون كل النساء كان واجباً أن تعلمى ذلك. لقد ارتكبت ثلاث خطايا".

رددت، "خطايا؟"

"لقد احتقرت زوجك، احتقرت أيضًا امرأة تعتبر أختًا لك فى الإنسانية، أيضًا اعتبرت نفسك فوق الجميع وأفضل من كل النساء. هذه الخطايا هى التى سببت كل هذا الشغب الذى حل على منزلك هذا، دون أن يعرفوا لماذا. شعر أبناؤك بالضيق، وأحست زوجاتهم بالتعاسة، وعلى الرغم من كل خططك، لم يشعر أحد منهم بالسعادة فى مفهومها الحقيقى. ما كان هو غرضك الحقيقى يا مدام"؟

فى مواجهة عينيه الواضحتين الهادئتين، شعرت بالرعب يسيطر عليها، "كنت أهدف فقط أن أشعر بحريتى"، تلعثمت وهى تضيف، "فكرت، إذا صنعت كل واجبى تجاه عائلتى، حينئذ سوف أحصل على حريتى كاملة".

استفسر منها، "ما الذى تعنينه بالحرية؟"

قالت بتواضع، "أعرف القليل، ببساطة أن أكون أنا قائدة نفسى والمتحكمة فى وقتى".

"أنت تطالبين بالكثير لنفسك، أنت تطلبين كل شىء"

شعرت أن دمعتها أقرب إليها من أى وقت آخر مر عليها فى حياتها، لقد استطاع إبداء المحتوى الهادئ الذى يشكل كيانها، شعورها بأنها محقة دائمًا فى كل تصرفاتها، فشعرت بالرعب يتملكها، فإذا كانت هى داخل هذا المنزل، والتى عليها يعتمد الجميع، كانت غارقة فى ارتكاب الأخطاء، إذن ما الذى سوف يحدث لهم جميعًا؟

سألت بصوت صغير، "ما الذى يمكن أن أفعله؟"

"حاولى أن تنسى ذاتك"

"لكن كل هذه السنوات كنت أؤدى واجبى على أكمل وجه"

"ودائمًا فى صميم فكرك أن تنعمى بالحرية فى النهاية"

لم تستطع أن تنكر ذلك، جلست بلا حراك، يداها مضمومتان فى طيات فستانها الرمادى، قالت أخيراً، "أرجوك أرشدنى".

قال لها بلطف، "بدلا من أن تسعى للحصول على حريتك، حاولى أن تحررى الآخرين"

رفعت رأسها.

قال لها بلطف، "من نفسك"

إنها لم تكن يومًا إنسانة متدينة، أما الآن فقد نظرت إليه بنوع من الشك، "هل تتحدث معى من واقع مبادئ دينك الأجنبى؟ إذا كان هذا هو الأمر، فأنا لا أتفهمه".

"أنا لا أتحدث من واقع مفاهيم ديانتى الأجنبية"

صاحت، "هل تود أن أصبح راهبة"

قال بهدوء، "لا أريد أن تصبحى أى شىء"

نهض بكامل ارتفاعه الشاهق، مبتسمًا ابتسامته المعهودة، وخرج من الغرفة دون أن يودعها.

وهذا الذى ربما يعتبر نوعًا من قلة الذوق، هو بكل بساطة أعطى مدام وو مؤشراً وشعوراً أنه ليس هناك فاصل ما بين هذا الزمن الذى انقضى وهما متقاربان هكذا، وبين الوقت التالى عندما يحين زمنه.

لم تتحرك من مكانها فترة طويلة، وعلى بلاط الأرضية الرمادية رقدت الأشكال التى تلاعبت بها شراعات النافذة حيث تناوب ظهور الظلال مع أشعة الشمس الساقطة. كان الهواء ساكنًا وباردًا، لكن الغرفة كانت دافئة. أمام المائدة، جثم ماعون كبير بداخله قطع الفحم المشتعلة المختلطة بالرماد، تنبعث منها أشعة ليس لها لون محدد

وحرارة مبهجة تنشر الدفء فى هواء المكان. أخذت فى جلستها تطيل التفكير، فليس هناك شيء سهل كما ظنت، فالحرية إذن ليست من الأمور التى تخضع للتنظيم والترتيب. كانت دائمًا ما تنظر للحرية وتظنها كأنما هى مشمشة معلقة فوق شجرتها، لقد تعهدت هى هذه الشجرة، لكن عندما حاولت أن تقطف الثمرة، لاحظت أنها ما زالت خضراء.

تنهدت عميقًا، ثم سمعت صوت بكاء طفلة شيومنج صادرًا من الغرفة المجاورة. أسرعت إليها وحملتها ووضعتها بين ذراعيها، وجلست بها بجوار ماعون الفحم، وما إن شعرت بالدفء حتى شعرت بالأمان وحل نوع من الهدوء والراحة على الطفلة فتوقفت عن البكاء وأخذت تنظر فى وجه مدام وو.

فكرت المدام، "إننى لا أحب هذه الطفلة، ولعلى لم أحب أى طفل آخر. ربما يكون هذا العيب فى، وهو أننى لم أستطع أبدًا أن أمنح كامل حبى لأى إنسان"

لكن هذه هى شيمتها، التى تجعلها، وبدون حب، تضم إليها هذه الطفلة بكل حرص، وعندما حضرت ينج وأخذتها منها، أخذت تتحقق من مشاعرها مرة أخرى، بل وشعرت بالسرور وهى تشاهد الطفلة تتناول طعامًا مخصوصًا بشهية بالغة.

وهى تنظر، قالت لوصيفتها، "أعطنى الفتاة وسوف أسلمها لأمها، هذه المرأة الصغيرة سوف تعيش وسوف تراعى أمها حتى النهاية"

لذا بعد وقت قليل، حملت الطفلة بين ذراعيها وخلال الشمس سارت بها حتى وصلت إلى جناحها القديم حيث رقدت شيومنج على السرير الضخم الذى ما زالت ستائره تحمل الأشكال المعبرة عن الخصوبة. كانت شيومنج نائمة، مغمضة العينين وشفتاها منطبقتان. كانت شاحبة بشكل بالغ، يداها مفتوحتان فوق الأغطية الحريرية. هذه الأيادى تغير شكلها خلال الشهور الماضية، فعندما حضرت إلى هنا المرة الأولى، كانت ذات أياد خشنة قوية بسبب الكد فى الحقول، لكنها الآن رفيعة وبيضاء.

قالت لها المدام بكل لطف وحنان، "هذه هى ابنتك. لقد أكلت جيدًا وأصبحت من القوة بحيث يمكن أن تنام بين ذراعيك".

لم تتحرك شيومنج، رفعت مدام وو ذراعها ووضعت الطفلة فى دائرة الذراع ثم غطتها باللحاف. ضمت شيومنج ذراعها قليلا ثم فتحت عينيها وقالت بكل تواضع، "أرجوك أن تقبلى اعتذارى لأننى لم أنجب لكم ولداً".

"ألا أعلم أنا أن الأولاد والبنات هم ليسو سوى عطية من السماء؟ بالإضافة إلى أنه فى هذا الأيام خاصة، البنات هن أيضًا نافعات".

ثم تذكرت ما قاله الأخ أندريه، فاستمرت سريعًا بالقول، "لا يجب أبداً أن تظنى أنك ملزمة بتنفيذ عمل معين من أجلى ..لا، لا يوجد على الإطلاق".

اندهشت شيومنج من هذا القول، "لكن إذن لماذا أُحضرت أنا إلى هنا؟"

جلست مدام وو على حافة السرير، "لقد بين لى أحدهم أننى قد أسأت لك إساءة كبرى يا أختى. فى الحقيقة، ثم الإتيان بك إلى هنا كما لو أننا نشترى رطلا من اللحم. كيف يتأتى لى أن أفعل مثل هذا مع كائن بشرى؟ أدرك الآن أننى لم أضع فى حسبانى على الإطلاق روحك. والآن، ما الذى يمكن أن أفعله لأصحح ما فعلته؟". قالت كل هذا بصوتها الرائع بدون انخفاض أو ارتفاع فى نبرة الصوت.

ظهرت ملامح الرعب على وجه شيومنج، "لكن...إلى أين أذهب؟"

أدركت مدام وو على الفور أن شيومنج لم تفهمها جيداً، وأنها ظنت أنها تخبرها بكل أدب، كما يفعل كل الأغنياء، أنه لا نفع من ورائها وأنهم ليسو فى حاجة لخدماتها فيما بعد.

قالت، "أنا لا أريد منك أن ترحلى إلى أى مكان آخر، فقط أريد أن أخبرك أننى قد أسأت إليك. دعينى أوضح لك الأمر أفضل من ذلك، إذا كان لديك طريق خاص بك، وإذا لم تضعى فى حسبانك أى فرد، ما الذى يمكن أن تفعليه بنفسك؟"

"كيف يمكن لى أن لا يكون هناك أى إنسان فى اعتبارى؟" تساءلت شيومنج وهى فى حيرة شديدة، "هناك سيدى وأنت أيضًا، كلكم أسيادى، العائلة كلها".

"لماذا إذن طلبت من القس الأجنبى أن يأخذ ابنتك إذا توفيت؟"

"لم أشأ أن أسبب لكم إزعاجًا بتربية بنت"

"لكن لماذا حاولت أن تقتلى نفسك قبل حلول يومك؟"

"لأن ينج أخبرتنى أن شكلى يوحى بأننى سوف أنجب بنتًا، لذا قلت فى بالى، من الأفضل أن يرحل كلانا حتى لا نتسبب فى أى معاناة تلحق بهذا المنزل".

"ربما يكون موتك هذا أكثر مجلبة للمتاعب من حياتك"

قالت شيومنج ببراءة، "لا تهتمى بى، لأننى لا قيمة لى فى نظر أى إنسان"

لم تحر مدام وو إجابة. نهضت، شعرت أنها عاجزة، لذا صاحت، "اتركى هذه الأفكار، لو كنت قد رحلت إذن لأصبحت تربية هذه الطفلة بدونك هى المشكلة الحقيقية، وأنت تعلمين أننى لست من ذلك النوع الذى يسمح بوفاة طفلة".

"أنت إنسانة طيبة"، ثم أغمضت عينيها وزحفت الدموع من تحت جفنيها. هذا ما لاحظته مدام وو، لكن لاحظت أيضًا أن شيومنج كانت تضم إليها الطفلة بقوة، لذا استبشرت وغادرت المكان.

وهى تعبر الساحة، تقابلت وجهًا لوجه مع السيد وو وهو قادم من الشارع. لقد واجها بعضهما بلا توقع، أدركت فى الحال أنه كان يرتكب أمرًا لا يجب أن تعرف عنه أو توافق عليه، وجهه تلون باللون الأحمر وظهر خط زاحف من العرق على جبهته.

ما إن شاهدها حتى صاح، "أم أولادى!"

"كنت أزور السيدة الثانية، يجب أن نفكر فى حالتها، لقد حاولت أن تقتل نفسها لأنها خافت أن تلد لنا بنتا، وأنه ربما يكونا هما الاثنان عبئًا على منزلنا هذا".

صاح، "يا لها من غبية، كما لو كنا من عامة الناس، ومن ذاك الذى يهتم هنا بإضافة فم جديد".

"سوف أعود معك، أنا فى حاجة إلى حكمتك". دخلا سويًا إلى الغرفة المربعة حيث قضيا الساعات الطوال فى حياتهما العادية، وخلفهم تقع الغرفة التى نامت فيها شيومنج

وهى تضم إليها ابنتها. لم يكن هناك أى احتمال أن يستمع إليها أحد، فوق رأسيهما ارتفع السقف بعوارضه الخشبية التى يمكن أن تبتلع أى صوت بشرى.

قالت هى، "الآن، نحن لدينا هذه الحياة داخل منزلنا، ماذا سنصنع معها، وهى بصحبة ابنتها الصغيرة تلك؟ أنا لاحظت أنها ليست على مزاجك، لكن هى موجودة على أية حال، وأنا بهذه المناسبة أقدم لك خالص اعتذارى".

لم يبد على السيد وو مظهر من مظاهر الارتياح، كان يرتدى معطفًا من الفرو وهذا لم يكن له ضرورة لأن جو اليوم كان معتدلا. هو دائمًا ما يشعر الآن بالحر الشديد عندما يحس بأن هناك ضغطًا عليه، حتى لو تم هذا فى موسم الشتاء.

قال، "إننى أشعر بالخجل..بعد تقديرك لى..."، أخذ يتلجلج، "حسنًا، هى إنسانة طيبة فعلا، لكن أنت تعرفين هذه المسائل، توافر الطيبة هى أمر جيد فى المرأة لكن...."

قالت بكل بساطة، "لقد كنت أنانية"، جلست فى وضعها المعتاد، يداها مضمومتان على حجرها، لم تكن تنظر إليه، كانت تركز على شكل تلك الخيالات التى كانت تتحرك على أرضية الغرفة، وهى خيالات أحدثتها بعض أشجار البامبو الشتوية التى وقفت أمام الباب المفتوح، بينما أغصانها تتراقص مع هبات الريح. أخذت تفكر فى الأخ أندريه، فجأة أدركت قصده، لن تستطيع هى أن تحصل على حريتها إلا إذا قدمت نفسها كلية، وهذا لن يتحقق إلا إذا تقبلت فى حياتها أكثر الأمور التى تكرهها فى حياتها، أضافت دون أن ترفع عينيها نحوه، "أدرك الآن خطأى، دع الأمور تجرى كما تهوى، يمكن لك أن تبعد عنك شيومنج وسوف أعود أنا إليك، وسوف ننسى، أنا وأنت كل الشهور الماضية التى انقضت".

كانت تتوقع أن تستمع فى الحال لأصوات الفرح والبهجة، لكن هذه لم تصدر. عندما زادت فترة الصمت، نظرت إلى وجهه، لاحظت أنهار العرق التى تدفقت على وجهه الأحمر. ضحك يائسًا بائسًا وأسرع بفك أزرار ياقته وأخرج منديله الحريرى ليجفف به عرقه.

قال، "لو كنت قد علمت... لو عرفت..."

زحـف على وجـدانـها دش بارد ثلجى. إنه لا يريدها ولا يرحب برجـوعـها إليـه. إذن ما سمعته هو صحيح، لقد وجد أخرى ترضيه.

قالت له بصوت ناعم، "أخبرنى عنها أكثر"

وهو يتلعثم ويتلجلج، وبتنهدات كلها إحراج وخجل وضحكات لا معنى لها، حكى لها طالبًا ما إذا كان فى الإمكان أن يشـترى لياسمين مـنزلا صغـيراً مستـقلا، وكأنما هو طفل صغير أضاف، "لا أريد أبدًا أن أضيف لمتاعبك أكثر من ذلك داخل سقف هذا البيت".

فتحت هى عينيها الطويلتين الجميلتين، "وهل تزيد متاعبى إذا شعرت أنت بمزيد من السعادة؟"، ثم تساءلت بصوتها الفتان، "دعها تحضر إلى هنا وتعيش تحت سقف منزلنا، لماذا تريد تقسيم منزلنا بيديك؟"

نهض من مكانه، تقدم نحوها، أمسك بيديها، كانت يده ضخمة وباردة، "أنت إنسانة عظيمة، لا يتحقق لكل إنسان أن يعيش فى سلام تحت سقف بيته"، ثم ابتسمت له وسحبت يديها منه.

لكن بعد فترة من فراقهما، شعرت بدهشة بالغة تكتنفها بسبب ذلك البرود الذى صاحب حالة الارتياح التى شعرت بها. أن تختار هى له امرأة تحل بدلا منها هو أمر معين، لكن أن يختار هو امرأة بنفسه، فهذا أمر آخر. أخذت تتعجب من تلك الروابط التى تحبكها الحياة ما بين الرجل والمرأة، كانت هى تظن أنها قد تحررت منه لأنها لا تحبه، لكن هى تشعر الآن بحالة الصراع التى نشبت فى قلبها عندما تيقنت أن حبه لها قد توقف.كان بمقدورها الآن أن تقيس حالة كرامتها المجروحة، وقد كان الأخ أندريه على حق عندما قال إن كل تفكيرها منصب فقط على نفسها.

* * *

سألت الأخ أندريه، "كيف يمكن لى أن أتوقف عن التفكير فى نفسى؟"

"فقط فكرى فى الآخرين"

"هل يعنى ذلك أن أخضع إرادتى للآخرين؟"

"إذا لم تخضعى نفسك فهذا يعنى شيئًا واحداً، هو أنك ما زلت تفكرين فى ذاتك، يجب أن تخضعى نفسك"

"يريد والد أبنائى أن يأتى بامرأة أخرى إلى هنا، هل أخضع أنا لذلك؟"

"كان هو خطأك عندما أحضرت له المرأة الأولى إلى هنا"

شعرت بالغضب من هذه الملاحظة بأسلوبها الخاص، ظهرت عصبيتها كأنما هى عاصفة تنبع من قرارة نفسها، قالت بعنف، "الآن هوذا أنت تتحدث معى بوصفك قسًا، أنت لا تفهم الحال عندما تضطر أن تجبر جسدك أن يطيع رغبات شخص آخر سنة تلو الأخرى بدون رغبتك أو رضاك"

كانت تحدوها رغبة أكيدة أن يشاركها الشعور بالتعاسة، لذا استمرت فى القول، "لأن تمنح جسداً رقيقًا إلى يد خشنة، عندما تلاحظ الشهوة العارمة وهى تتقابل بمشاعر الآخر الباردة – عندما تشعر بالقلب وهو يخفت والعقل يمرض. مع ذلك، هناك اضطرار لكى يحل السلام فى المنزل".

كان وجهه صافيًا ولم يتغير أو يتأثر، "هناك طرق متعددة يستطيع بها الجسد أن يقدم أضحية للروح"

تنهدت، "هل يعنى هذا أن أوافق على حضور هذه المرأة الثانية إلى منزلى؟"

"أليس من الأفضل أن يحدث هذا تحت سقفك وموافقتك، أم أن يحدث هذا تحت سقف منزل آخر؟"

قالت بلؤم، "لم أكن أظن أن قسيسًا أجنبيًا يمكن أن يقدم لى مثل هذه النصيحة"

فتحت بعد ذلك كتابها دون أن تتبادل معه حديثًا آخر، وتحت إرشاده كانت تقرأ وتدرس أشعارًا من الزبور، تأثرت للغاية وهى تلاحظ مرور الساعات وهى تشهد تلك الروح الإنسانية التى تنادى وتناشد من تعبده. وما العبادة سوى الثقة والأمل فى أن الحياة والموت لها معنى ، فهما من تخطيط السماء وتدبيرها.

تساءلت، "هل سماؤنا التى نؤمن بها هى نفسها إلهك، وهل إلهكم هو ما ندعوه بالسماء؟"

"نعم، هم الشىء نفسه"

"لكن الأخت الصغيرة هسيا أخبرتنى بوجود اختلافات، دائمًا ما كانت تخبرنا أن لا نؤمن سوى بإله واحد حقيقى ولا أن نؤمن بسمائنا. هى أعلنت أنهما ليسا متوافقين".

"فى أى نوع من العبادات، هناك الكثير من الأغبياء. هناك بالفعل إله واحد حقيقى، لكن له أسماء متعددة".

"لذلك فى أى مكان على سطح هذه الأرض المستديرة، وعلى جانب أى بحر، فإن من يؤمنون بأى إله، إنما هم يؤمنون بالواحد؟"

وافقها، "وهذا ما يفعله الإخوة من البشر"

تساءلت، "لكن أفترض أننى لم أؤمن بأى من أشكاله، ما العمل إذن؟"

"الله صبور، وهو دائمًا فى الانتظار، أليس هناك أبدية؟"

شعرت على الفور بتيار يسرى من خلاله عبرها، لكن هذا التيار لا يبدأ من عندها ولا ينتهى عندها أيضًا. يبدو الأمر كأنهما يتراسلان، من نهاية العالم إلى نهايته الأخرى".

أخذت تردد، "السماء صبورة، السماء تنتظر"

بهذه الكلمات، افترقا. جمع الأخ أندريه كتبه وصرها فى منديل ممزق ووضعه تحت إبطه. وقفت هى على باب المكتبة تراقبه وهو يسير إلى الخارج. لاحظت وجود أنحاء فيه وهو يسير، كما لو أن رأسه الثقيل المشعر هو عبارة عن حمل ثقيل على كتفيه، أو، وهذا ما أخبرت به نفسها، ربما يرجع ذلك إلى أنه دائمًا ما يركز عينيه على الممر الذى أمامه، وأنه من النادر أن يرفع رأسه ليطلع على نهاية الممشى.

استدارت ورجعت إلى المكتبة كما هى العادة عند انتهاء الدرس. كانت أحيانًا تجلس لمدة ساعة تحاول أن تثبت فى عقلها كل الأشياء التى ذكرها وعلمها، أيضًا أن تقرأ مرة أخرى كل قرأه لها قبلا، وتطيل النظر فى الصور والرسوم التى تركها وراءه، لكى تتذكر ما حكاه عن العالم وأعاجيبه.

لكن هذا اليوم، بالكاد جلست فى مكانها قبل أن تستمع إلى أصوات مصدرها الأجنحة الخارجية، لذا رفعت رأسها لتسمع. مهما كان الأمر، فإن ينج سوف تأتى مسرعة لها لتخبرها عما حدث..ما كادت أن تشكل أفكارها حتى رأت ينج قادمة نحوها وهى تعدو، كانت تبكى وتولول وترفع مريلتها على وجهها لتنتحب.

نهضت مدام وو على الفور، والكتاب الذى كانت منهمكة فى قراءته وقع على الأرض. لا بد أن هناك شرًا عظيمًا قد وقع. فكرت فى التو فى ليانجمو، ابنها الأكبر، لكنه كان قد غادر المنزل هذا الصباح كالمعتاد، فكرت أيضًا فى السيد وو. وقفت ينج على عتبة المكتبة وقد رفعت مريلتها فوق وجهها وهى تصيح، "للأسف يا سيدتى، إنه القس الأجنبى".

قالت المدام بحدة، "ماذا جرى له، إنه غادر هنا منذ دقائق قليلة"

"لقد أصيب بجروح عميقة فى رأسه"

"أصيب بجروح، كيف؟"

نهنهت ينج، "إنهم شلة الشباب، من جماعة الخضر الأشرار، كانوا ينهبون دكان المرابى، فشاهد القس ذلك فسارع لينجده، لكن هؤلاء الشباب تقدموا نحوه وضربوه بعصا فوق رأسه".

نادراً ما كانت مدام وو تسمع عن جماعة الخضر هؤلاء، لكنها كانت تعلم أنهم جماعة من الشباب يجولون كل أنحاء المناطق الريفية وشوارع المدن المنعزلة ينهبون ويسرقون ويهددون، ودائماً كان هناك بند دائم فى الكشوف المقدمة من المشرف الزراعى هو "ما يتم دفعه لجماعة الخضر".

صاحت، "وأين هو الآن الأخ أندريه؟"

"لقد حملوه إلى منزله، لكن البواب أتى وقال إنه يسأل عنك"

"يجب أن أذهب إليه، ساعدينى فى ارتداء معطفى"

"سوف أذهب لأحضر لك الحمالين

"لا، ليس هناك وقت، سوف أستخدم عربة ركشة من الشارع"

كل من فى المنزل علم فى ظرف دقائق قليلة أن مدام وو سوف تذهب للمرة الأولى فى حياتها إلى منزل غريب عنها، إلى منزل القس الأجنبى. جلست منتصبة داخل عربة الركشة، ومن خلف العداء خاطبته قائلة، "سوف أدفع لك ضعف أجرتك إذا زادت سرعتك ضعفاً".

قال هذا، "ادفعى لى ثلاثة أضعاف وسوف أجرى بثلاثة أضعاف سرعتى"

على البعد، كانت ينج تتبعها فى عربة ركشة أخرى، لكنها لم يخطر ببالها للحظة ماذا يظنه الناس فيها، كل ما كان يشغل فكرها الآن هو أنها، بطريقة ما، سوف تصل إلى جانبه فى الوقت المناسب لكى تستمع إلى صوته وهو يتحدث معها مرة أخرى وتعطى هى تعليماتها هناك إلى مدى حياتها المقبلة.

لذا خطت سريعاً وتوقفت أمام تلك البوابة الخشبية غير المدهونة التى استقرت وسط حائط من الطوب الخشن، وبدون أن تنظر لشىء، اقتحمت الباب، كان فى انتظارها امرأة عجوز تنتحب.

سألت، "أين أخونا الأكبر؟"

استدارت المرأة العجوز وصحبتها إلى منزل منخفض ثم عبر ساحة تجمع فيها عدد كبير من الأطفال يبكون، ثم إلى داخل غرفة.

هناك على سرير ضيق من البامبو، رقد الأخ أندريه، وبعض من المتسولين من رجال ونساء يقفون حوله. ما إن شاهدوها حتى تفرق هؤلاء ليمكنوها من الاقتراب أكثر منه، وكأنما هو أدرك وصولها، لذا فتح عينيه، كانت تستقر فوق رأسه منشفة خشنة ملوثة بالدماء بينما الدم ينزف من خلالها ويتساقط على الوسادة.

قالت، "أنا هنا، أرشدنى ماذا أفعل"

لفترة لم يستطع النطق، إنه مشرف على الموت، كان فى مقدورها أن تشاهد ذلك الفراغ فى قاع عينيه السود، ثم لاحظت إرادته وهى تتجمع فى الضوء، انفرجت شفتاه، وارتفع صدره فى حركة تنفس عظيمة، أثناء تحديقه فيها.

قال بشكل واضح، "قدمى طعامى لحملانى"

ثم رأت الموت وهو يتقدم حثيثًا. توقف تنفسه، أخذت جفونه تهتز، انسحبت وتوارت إرادته، أخذ جسده الضخم يرتعش، ثم فرد يديه بقوة على جانبى السرير واصطدمت يداه بعنف بأرضية الغرفة الباردة. انحنت هى وأمسكت بيده اليمنى، ثم تقدم أحد المتسولين وأمسك باليد اليسرى. وقفا هما الاثنان ممسكين باليدين عبر النائم، كل يحملق فى عين الآخر، إنه لا شىء، لا أحد، ربما خادم أو متسول. أخذ يرمقها بخجل، ثم وضع اليد الممسك بها بكل راحة على الصدر الصامت، وأرست هى اليد الأخرى عليها. أتى الأطفال مندفعين داخل الغرفة والتفوا حول السرير يبكون وينادون، "والدنا... والدنا!". لاحظت أن جميعهم بنات، الكبرى منهن لا يزيد عمرها عن خمسة عشر عامًا، تحمل بين ذراعيها طفلة صغيرة لم تسر على قدميها بعد. انحنوا على الأخ أندريه وأخذوا يتحسسونه بأياديهم الصغيرة، ويربتون على ذقنه، البعض منهن رفعن أطراف أرديتهن وأخذن فى مسح الدماء من وجهه، واستمروا جميعًا فى النحيب.

سألتهن بصوت غريب هادئ، "من أنتن؟"

صاحوا فى شكل كورس غير منتظم، "نحن حملانه"

قال المتسول، "جميعهن متشردات، كان هو يجمع الصغيرات اللاتى تم إلقاؤهن على جانب جدران المدينة، أما الكبار منهن فهن من العبيد الهاربات. هو كان يأخذ عنده كل إنسان ليس له مأوى".

كانت تتمنى أن تبكى بمفردها لأنه مات، لكن الأطفال كانوا متجمعين حولها.

انتحبت فتاة صغيرة، "أوه، جسمه بارد". كانت الدموع تتدافع على خديها، ثم أمسكت بيده ووضعته على خدها، "يده باردة".

وقفت مدام وو بلا حراك وسط أفراد هذا العائلة الغريبة. فكرت أنها لم تستمع تفاصيل كل ما حدث. قالت بصوت واهن، "من الذى وضعه فى سريره؟"

خبط المتسول على صدره، "أنا، شاهدته وهو يسقط على الأرض، كل منا فى الشارع كنا خائفين، اللصوص الخضر هربوا عندما شاهدوه وهو يموت، أما المرابى فإنه أغلق محله وأسرع بالدخول إلى منزله، لكنى أنا لست إلا متسول، ما الذى يمكن أن أخاف منه؟ فهذا القس الأجنبى كثيراً ما كان يمنحنى القليل من المال لا سيما فى الشتاء. أحياناً كان يصطحبنى إلى منزله هذا ويجعلنى أنام حتى الصباح ويعطينى طعاماً".

"أنت حملته حتى هنا؟"

"أنا ومعى إخوتى المتسولون هؤلاء". شاهدت أكثر من نصف دستة منهم، "إنه أضخم من أن يحمله واحد أو اثنان منا".

نظرت نحو جسد الأخ أندريه الساكن، لقد أسرعت لكى تستمع إلى بعض كلماته من فيه، بدلا من ذلك قال لها، "أطعمى حملانى"، وفوجئت هنا بتواجد كل هؤلاء الأطفال. أخذت تنظر نحوهن، وهن يحملقن فيها. بالحواس المرهفة للأطفال أخذوا يراقبون كل حركاتها، ناقلين كل آمالهن من الكيان الصامت للأخ أندريه إلى كيانها الذى يحفل بالحياة.

قالت بتردد، "ما الذى يمكن أن أفعله معكن؟"

انبرت فتاة نحيفة تحمل طفلة على ذراعيها، وقالت وكلها خشية، "يا سيدتى، ما الذى أخبرك به".

لم تستطع مدام وو سوى أن تقول الحقيقة، "قال لى أن أطعمكم"

أخذ الأطفال ينظرون لبعضهم. نقلت البنت النحيفة الطفلة التى تحملها إلى الذراع الآخر وتساءلت وهى متجهمة، "وهل لديك طعام يكفينا جميعًا؟"

"نعم، لدى"

قالت هذه، "عددنا حوالى عشرين، أنا عمرى خمسة عشر - وأى فتاة تبلغ السادسة عشر كان يمدها بأشياء معينة".

رددت، "يمدكم بأشياء؟"

دخلت المرأة العجوز لتقول، "فى عمر السادسة عشر، هو يجهد نفسه حتى يجد لها زوجًا وبيتًا يؤويها".

كانوا يتحدثون كما لو أن هذا الكيان الضخم ما زال على قيد الحياة. نظرت مدام وو نحوه، عيناه مغمضتان، يداه مضمومتان على صدره، قالت بتعجل، "عليكم الآن جميعًا أن تخرجوا خارجًا، دعوه يرقد فى سلام".

أطاعوها وخرجوا، المتسولون والبنات والمرأة العجوز، لم يتبق داخل الغرفة سواها بينما وقفت ينج على الباب، قالت لها المدام، "ارجعى للمنزل يا ينج".

"أنا فقط سوف أقف على الباب"

قامت مدام وو بغلق الباب، فما سوف تفعله قد يثير الأقاويل، فما الذى يجعل سيدة محترمة أن تكون بمفردها مع قس أجنبى وهو ميت؟ إنها لا تهتم. فهو ليس قسًا أو أجنبيًا فى نظرها الآن. إنه الكائن الإنسانى الوحيد الذى تكن له احترامًا يفوق الوصف. الجد العجوز علمها الكثير، لكن هذا الجد كان يخشى من أمور كثيرة، بينما الأخ أندريه

لم يخف من شيء، إنه لم يعرب عن خوفه سواء من الحياة أو الموت. إنها لم تفكر فيه أبدًا بوصفه رجلاً عندما كان حيًا، لكن وهو راقد هكذا، كانت تفكر فيه ميتًا. لعله في شبابه كان شابًا جميلا، فجسده الهائل الراقد أمامها يوحي بمقاييس ملكية، بشرته كانت شاحبة في الموت، كانت بلون صاف شفاف.

فجأة تعرفت عليه، "أنت يا من أحببته!". أخذت تردد ذلك باندهاش بالغ من نفسها.

مع هذا التعرف، وفى اللحظة التى فيها تقبلت هذا التعرف، شعرت أن كل ما بكيانها قد تبدل، وعلى الرغم من أنها لم تتحرك من مكانها، شعرت بتنميل يشمل جسدها كله، وشعرت بدمائها تلسع قلبها، بينما كان عقلها فى تمام صفائه. كل كيانها أصبح خفيفًا قويًا. رفعت رأسها وأخذت تستعرض هذه الغرفة. كانت الجدران الأربعة قائمة، لكنها شعرت بحرية مطلقة. على سريره يرقد الآن ميتًا، وهى تحملق فيه، أدركت أنه هرب من الموت. كانت هى دائمًا فى حالة من الارتياب فى موضوع الروح هذا، هى لعدة سنوات سابقة لم تدخل معبدًا أو أشعلت بخورًا أمام أحد الآلهة. لقد علمها والدها كيف أن لا تتمسك بكل هذه الخرافات التى تتمسك بها النسوة عادة، وأكمل الجد العجوز هذا العمل. إنها الآن لا تؤمن بإله لا يرى، لكن هى على يقين أن هذا الرجل الراقد أمامها سوف يستمر فى الوجود الخفى.

"أندريه!". نطقت باسمه فى صوت واضح خفيض، هى لن تدعوه فيما بعد باسم الأخ، "أنت تعيش الآن فى كل كيانى، سوف أفعل كل ما فى وسعى لكى أحتفظ بحياتك مستمرة وقائمة".

ما إن نطقت بتلك الكلمات حتى شعرت بالسلام يحل فى كل كيانها، كان هذا شعورًا قويًا، هادئًا، مثيرًا، لدرجة أنها للمرة الأولى فى حياتها، عرفت ما معنى السلام فى حقيقته الناصعة. أثناء وقوفها هكذا بلا حراك فى غرفته الخالية تقريبًا من أى متاع، شعرت بسعادة غامرة تكسوها.

لم تكن تلك السعادة التى شعرت بها هى مشاعر عابرة، إنها قوة عاتية بدأت فى التحرك والعمل والتغلغل فى كل أجزاء عقلها وجسدها. هناك أمور يجب أن تؤدى. أصبحت تلك واضحة المعالم تمامًا أمامها. يجب أن يدفن جسده، لكن بدون نشاط الكهنة أو صلواتهم. يجب التخلص من مقتنياته البسيطة، وهذا ما سوف تفعله بنفسها. ثم بكل بساطة، سوف تستأنف كل ما كان يصنعه فى حياته.

خرجت من الغرفة بكل هدوء إلى الغرفة الأخرى التى تجمع فيها كل من ينج، والمرأة العجوز، والمتسولين والبنات، ثم جلست على مقعد خشبى.

قالت، "الآن، بالنسبة لجنازته، هل ترك معكم أى تعليمات؟"

أخذوا ينظرون لبعضهم، خرس الأطفال ولم ينطقوا، ناحت المرأة العجوز وأخذت تجفف دموعها بمريلتها، ثم صاحت، "بالتأكيد هو لم يفكر يومًا فى الموت! ونحن أيضًا لم نفكر فى مثل هذه الأمور"

"هل لديه أى أقارب فى أى مكان ؟ إذا كان لهم وجود، يمكن لنا أن نبعث لهم جثمانه"

"لا أحد يعرف له أقرباء. هو حضر إلى هنا بكل بساطة منذ عدة سنوات ولم يغادر بلدتنا هذه أبدًا"

"هل كانت تصله أى رسائل؟"

قالت العجوز، "عندما كان يحدث هذا أحيانًا، لم يكن يفض الرسائل أو يحاول قراءتها، كنت أسحبهم بعد فترة وأستخدمهم إضافة إلى نعال الأطفال"

"ألم يكتب أى رسائل يومًا؟"

"أبدًا، لم يحدث"

"وأنت"، كانت تخاطب كبير المتسولين، "ألم يتحدث معك؟"

"لم يتحدث معى أبداً عمن ينتمون إليه، كنا فقط نتحدث عن أهالى المدينة والقرى المحيطة الذين كانوا فى حاجة للمساعدة بطريقة أو بأخرى"

أخذت هى تفكر فى كل هذا. أندريه الآن هو قريبها، وليس هناك آخر. سوف تشترى له تابوتًا بسيطًا أسود اللون، أما الأرض التى سوف يدفن فيها فهى ضمن نطاق أرضها. فكرت فى بقعة معينة تقع على جانب تل وحولها بعض حقول الأرز. هناك شجرة جنكجو عجوز نامية، هى كثيراً ما كانت تجلس تحت ظلها وهى ذاهبة إلى هناك تراقب موضوع زراعات الربيع.

وقفت، "سوف أذهب حالا أطمئن على أن القبر قد تم حفره"

أخذ الأطفال والمرأة العجوز ينظرون نحوها بترقب وخوف، فما كان يشغل بالهم جميعًا هو مصيرهم بعد ذلك.

قالت وهى تستعرض بأنظارها ذلك المكان المتواضع العارى، "هذا المنزل، هل هو مملوك له؟"

هزت العجوز رأسها، "إنه منزل مؤجر، نحن ندفع إيجاراً بسيطًا له لأنه بيت مسكون، لا أحد كان يرحب بسكناه لأنه مرتع لحيوانات العرس التى تحمل على ظهرها الأرواح الشريرة. لكن تلك الأرواح الشريرة كانت تخاف منه، بذلك كنا نعيش هنا بتكاليف بسيطة".

"ألم يكن لديه أى أملاك خاصة؟"

"لا شىء سوى طقمين من الملابس، يرتدى أحدهما بينما أنا أغسل الآخر، لديه أيضًا قليل من الكتب وصليب، ومرة كانت لديه صورة معلقة على الحائط، لكن فى ليلة سقطت هذه الصورة ولم يحضر بديلا لها. كان لديه أيضًا مسبحة، لكن واحدة من الأطفال كانت تلعب بها فانقطعت فتلتها وتعذر تجميع حباتها لأن عدداً كبيراً منها تدحرج وضاع، هو قال إنه لم يعد فى حاجة إليها".

كانت مدام وو تستعرض الغرفة أثناء حديث المرأة، أشارت بإصبعها، "ما الذى يوجد فى ذلك الصندوق الأسود؟"

نظرت العجوز، "إنه صندوق سحرى يصدر أصواتًا، كان معتادًا أن يستمع لأصواته ليلا". تذكرت هى أنه أخبرها قبلا بذلك. تقدمت ناحية الصندوق ووضعت أذنها عليه لكنها لم تستمع لأى أصوات".

شرحت لها العجوز، "إنه لا يتحدث لأحد سواه"

"آه، إذن سوف ندفنه معه"

"هناك شىء آخر يمتلكه، وهو نوع آخر من السحر، وهو حذرنا من أن نلمسه أبدًا"

"أين هو؟"

زحفت المرأة تحت السرير واستخرجت صندوقًا خشبيًا طويلا. فتحته، داخله استقرت آلة تشبه الغليون. قالت العجوز، "هو كان يرفعه إلى عينه اليمنى عندما يكون الليل صحوًا وينظر من خلاله إلى السماء".

أدركت مدام وو على الفور أن تلك الآلة التى كان يتطلع بها إلى النجوم. قررت بعد ذلك، "سوف آخذ هذه معى، والآن أحضروا كتبه أيضًا، أما عن المنزل فدعوه يعود إلى مالكه، قولوا له إن هذا البيت أصبح الآن خاليًا من الأرواح الشريرة ويمكن له أن يؤجره لآخرين بسعر أفضل".

تجمع حولها الأطفال ومعهم المرأة العجوز وأخذوا ينصتون إليها وفى عيونهم خوف مقيم. ابتسمت مدام وو فى وجوههم، لقد فهمت وهى تشعر بنوع من التعاطف والحنو، هو جديد عليها كل ما كانوا يفكرون فيه، قالت، "أما عنكم أنتم، جميعكم، وأنت أيضًا أيتها الأخت الكبرى، فسوف تأتون إلى منزلى لتعيشوا فيه".

انطلق من كل حناجر الأطفال آهة كبرى. لقد تم إنقاذهم وبسهولة وبثقة الطفولة تقبلوا عرض هذا الملاذ الجديد، وفى الحال ثارت مشاعرهم.

بدأوا فى التساؤل، "متى؟...متى؟"

"أعتقد أنه من الواجب أن تبقوا معه هنا إلى الغد ثم نذهب معه جميعًا إلى القبر، لكن أنتم لن تعودوا إلى هنا مرة أخرى، سوف تحضرون معى إلى منزلى".

ناحت المرأة العجوز، "أيتها القلب الطيب، هو كان يعلم ذلك - هو بالتأكيد كان يعرف!"

ابتسمت مدام وو بدون أن يتملكها القلق، "هل لديك قدر كاف من الأرز لعشائهم، هم سوف يحتاجون طعامًا اليوم وصباح الغد، أما غداؤهم فسوف يكون عندى".

استمرت العجوز فى النحيب، "هو كان دائمًا ما يحتفظ بطعام يوم فى المنزل، على الأقل هو طعام يوم واحد".

"إذن فى الغد سوف أحضر إلى هنا"

سمحت للأطفال أن يتزاحموا حولها للحظات، عالمة أنهم اعتادوا التزاحم حوله ليشعروا بالتلامس الجسدى، لذا فهم كانوا يهدفون إلى الشعور بالأمان معها. قالت لهم بكل لطف، "إلى الغد يا صغارى". غادرت المنزل حيث رقد جسده ميتًا، خرجت من لدنه وهى كائن جديد مختلفة تمامًا عن المرأة التى حضرت إلى المنزل أولا.

ذهبت على الفور إلى جناحها وجلست لفترة مع شخصيتها الجديدة. لقد تقبلت موضوع وفاة أندريه. إذا كان قد استمر على قيد الحياة، فإن الوقت سوف يحين لكى تدرك أنها كانت مدلهمة فى حبه. فى تلك الحالة، لم يكن أمامها سوى اختيار واحد أو اثنين، إما أن تختلق أعذارًا بحيث لا تراه مجددًا، أو أن تخضع روحها كلية له وتخبره عن مقدار الحب المستكن فى قلبها تجاهه، وتلك تعتبر النقطة الفارقة التى عندها سوف يحدث فراق دائم بينهما.

ظلت مستيقظة لساعات تلك الليلة، ورفضت أن تحضر إليها ينج لتعدها للنوم. لم تشأ أن تنام فى سريرها. أرادت أن تجلس، حية، يقظة، وحيدة، باحثة فى محتوى معارفها الجديدة. لقد أحبت هذا الرجل، هذا الأجنبى، هذا الغريب، ذلك الرجل الذى لم

يمد يده يومًا ليتحسسها. أخذت تبتسم لنفسها وهى جالسة فى الظلام لفترات طويلة. كان المنزل غارقًا فى الظلام والصمت حولها، لكن بجوارها كانت هناك شمعة تشتعل، وكان قلبها يتحدث بصوت عال.

"هل لو كنت مددت يدى وتحسستك، هل ربما تشعر بالخوف منى؟". لكن هى تعلم يقينًا أن أندريه لا يخاف أحداً، فهناك ذلك الإله الساكن فيه. لقد وقر فى ذهن مدام وو أن آلهة الرجال هم أعداء للنساء. شعرت بالغيرة تتملكها للمرة الأولى فى حياتها.

فكرت، "لم لا يوجد آلهة من جنسنا؟". لكن بالنسبة للنسوة عامة، الآلهة الحقيقيون هم واقع مستحيل. أخذت تتعجب من هؤلاء النسوة اللاتى تعرفهم معرفة أكيدة ويعبدون آلهة، هناك مثلا الأخت الصغيرة هسيا التى كثيراً ما كانت تتحدث عن إله معين، لكن هذه الأخت ليس لديها شىء آخر غير إله واحد، وليس لديها لا زوج أو أولاد، لا أصدقاء أو عائلة، وفى هذا الفراغ الشامل أخذت تبحث وتنقب حتى عثرت على إله وتمسكت بأذياله. كل النسوة الفضليات اللاتى كانت تعرفهن، ولا واحدة منهن بحثت عن إله وسلكت طريق الأخ أندريه.

هو عندما كان شابًا صغيراً، ابتعد عن المرأة التى أحبها، وعن الثروة التى كان من الممكن أن يجنيها، والشهرة التى ربما حصل عليها بسبب تعليمه الفائق. هو بكل بساطة ضحى بكل شىء فى سبيل معبوده.

توقفت عن سيل أفكارها وأخذت تتمعن فى قصة تلك الشابة التى كان يحبها أندريه ثم ابتعد عنها وفضل الوحدة على الارتباط بها. هى بالتأكيد كانت شابة صغيرة جميلة. شعرت بالغيرة تمسك بخناقها، ليس لأن أندريه أحب هذه الفتاة، لكن لأن هذه المرأة التى نسيها منذ زمن كثيراً ما تطلعت إليه وهو شاب صغير وسيم قبل أن يصبح قسًا.

فكرت، "كنت أتمنى لو استطعت أن أشاهده وهو ما زال ذلك الشاب العملاق". جلست فى سكون، يد فوق الأخرى، وخواتمها تبرق فوق أصابعها. نعم، لقد كان أندريه فى شبابه مصدراً تتعلق به كثير من القلوب. هو كان وسيمًا حتى وهو فى

مرحلة منتصف العمر. شعرت بالأسى من أجل هذه الفتاة أيضًا، لعلها هى الآن زوجة أحدهم بلا شك، ولعل لديها العديد من الأطفال، لأن المرأة لن تموت إذا هجرها الحبيب، لكن هى فى مكان ما من قلبها، احتفظت بصورة أندريه إما فى حب أو كراهية. إذا كانت امرأة ذات قلب ضيق فإنها حتمًا سوف تكرهه، لكن إذا كانت ذات قلب عظيم فإنها لن تلومه وتستمر فى حبه أكثر، أو ربما لا تفكر فيه فيما بعد، فالنساء على وجه العموم، قلوبهن وأجسادهن مرتبطة ارتباطًا وثيقًا، وعندما يستهلك الجسد بكثرة فإن القلب يتأثر أيضًا، إلا إذا غمره الحب، كما تشعر به الآن بالنسبة لأندريه. لقد استطاع الموت أن يخلصه من الجسد، وربما لو استمر حيًا إذن لفقدا روحيهما بسبب ضغط حاجات الجسد. استغربت الآن عندما لاحظت تدفقًا من الدماء تركزت الآن فى أعضائها الحيوية.

"أنا لست سوى امرأة"، فكرت فى هذا بنوع من الاستمتاع، حتى لو كان هذا التفكير فى جسد أندريه الضخم قد أحيا فى كيانها هذه المشاعر الغامضة، وكم كان سلامها مهددًا لو استمر بقاؤه حيًا بالجسد! شعرت فجأة بالامتنان لهؤلاء اللصوص الخضر الذين قتلوه واستطاعوا بذلك أن يزيلوا هذا الخطر تمامًا. ثم، وهى تلاحظ أشعة القمر الساطع وهى تتساقط على الأوركيديا تحت أشجار البامبو، شعرت بنوع من تأنيب الضمير لأنها شعرت بالسرور لأن أعين أندريه قد غمضت إلى الأبد.

أخذت تشرح له، "ليس الأمر أننى سعيدة بأنك ترقد الآن ميتًا. الأمر ببساطة هو أننى وأنت تم إنقاذنا من حبائل مأساة كبرى، لذا يمكن لنا الآن أن نبتهج. بالتأكيد أنت تعلم كم أحبك"

أثناء قيامها بغمغمة هذه الكلمات، كانت على وعى كامل بتفهمه لما تقصد. ليس هناك أقل من ذلك يمكن أن يجزل لها هذا الشعور من الراحة الكاملة والبشر. كانت تعلم يقينًا أنه إذا كان قد كسر تعهداته بوصفه قسًا، فهذا بالطبع سوف ينتهى إلى حزن عميق يسكن فى داخله، وهذا أيضًا سوف يدمر كل تعهدات واجباتها الضرورية تجاه عائلتها، حينئذ ربما يؤيدان البعاد عن بعضهما، لكن هذا إذا دخل إلى مرحلة التطبيق،

فهذا يعنى أنهما لن يتقابلا إطلاقًا. أما الآن فليس هناك بعاد مطلوب، تستطيع الآن أن تفكر فيه كما تشاء ودون أى أخطار يمكن أن تلحق بها.

فكرت، "لكن أنا بالتأكيد قد تغيرت. جلست ساكنة فى مكانها صامتة، لكنها كانت تتعجب من مقدار التغير الذى طرأ عليها. هى لا تعرف مدى ذلك، وعليها أن تكتشف بنفسها كل هذه الأبعاد. قلبها تغير، "أشعر أننى قد أصبحت غريبة حتى عن نفسى". كانت تفكر وقد تملكها اندهاش بالغ، "لا أعلم بالضبط ما سوف تكون عليه تصرفاتى المقبلة، وما هى حقيقة مشاعرى".

بعد مرور ساعة من هذا الاكتشاف الرائع، جلست فى وضعها الساكن. لقد أصبحت مكونات نفسها مختلفة. لن أعيش فيما بعد والواجبات المطلوبة منى هى كل واقع حياتى، الواقع الوحيد سوف يكون هو بذل الحب. لقد اكتشفت نفسها عبر الحب المبذول. مرة أخرى اكتنفتها مشاعر فياضة من السرور والابتهاج بشكل غريب، وأحست بكل هذا وهو يتسلل إلى كل كيانها ووجدانها.

فى تلك اللحظة فكرت فى تلك الآلة الخاصة بفحص النجوم. لقد أمرت أن تكون بجانبها، والآن هى داخل مكتبتها. ذهبت إلى هناك وأخرجت الآلة من صندوقها بصعوبة لأنها كانت ثقيلة، ثم وضعتها فوق ثلاثة أرجل وجدتها ضمن محتويات الصندوق، ثم نظرت من خلالها إلى نجوم السماء فى الخارج.

توقعت أن ترى على الفور أشكال النجوم والقمر فى مساره، لكنها أصيبت بخيبة الظن، فعلى الرغم من أن السماء كانت صافية، لم تر شيئًا. حاولت ذلك وهذا، لكن السماء كانت مغلقة أمامها. وهى تتنهد، وضعت الآلة فى مكانها. إنها لا تتمتع بالمعرفة الخاصة باستخدام هذه الآلة. فكرت، "إنها تخصه هو، وسوف أدفنها مع صندوق الأصوات".

بهذا القرار، ذهبت إلى سريرها ونامت.

* * *

كانت مراسم الجنازة عظيمة، لم تشاهد المدينة مثيلا لها. لم تشأ مدام وو أن تجعلها مشابهة لمراسم وفاة واحد من أهلها، لكن أعطتها مظهراً وتكريماً أعظم لأن الفقيد هو معلم ابنها. ارتدى الأطفال ملابس بيضاء، أما المتسولون الذين كانوا قد حملوا جثمان أندريه إلى منزله، فقد طلبوا أيضاً ارتداء ملابس تعبر عن حزنهم. لكن مدام وو لم ترتد ملابس خارجية تدل على الحزن.

الآن، وبعد تفكير، قبل الجنازة، تساءلت مدام وو عما إذا كان من اللائق أن تبلغ الأجانب الموجودين فى البلدة يمكن أن يحضروا الجنازة أم لا. بالطبع سوف تعلم الأخت هسيا، كذلك الطبيب الأجنبى.

مدام وو لم تشاهد هذا الطبيب من قبل، هى أيضاً لا تود أن تراه. لقد سمعت أن هؤلاء الأطباء يسيرون وفى أيديهم المشارط، مستعدين دائماً أن يعملوا بها فى أجساد المرضى. أحياناً يكونون بارعين فى قطع الخراريج، لكنهم كثيراً ما يتسببون فى قتل مرضاهم، ولا يلحق الطبيب الأجنبى إذا تسبب عمله فى قتل المريض بعكس الطبيب الأهلى. لذلك تجد أنه من النادر أن يقترب أحد من هذا الطبيب الأجنبى إلا إذا كان مشرفاً على الموت.

أرسلت رسالة مع خادم إلى كل الأجانب فى المدينة، رجع هذا ليخبرها أنهم جميعاً قالوا إن الأخ أندريه كان غريباً عنهم، وإيمانه لم يكن مستقيماً، لذا هم لن يحضروا.

فى النهاية، سارت الأمور كما خططت المدام. لكن الجنازة لم تحدث فى اليوم التالى كما خططت، حيث إنهم لم يعثروا على تابوت يسع هذا الجسد الضخم، كان عليهم أن يصنعوا واحداً يناسبه، لذا وهو يعمل ليلا ونهاراً، استطاع النجار أن ينجز هذا التابوت بعد ليلتين ويوم فى وسطهما، ثم فى وقت مبكر من النهار قبل أن تستيقظ المدينة. جلست مدام وو فى عربتها وتقدمت جماعة الموكب الذين ساروا على أقدامهم خلفها حاملين تابوت أندريه. هى بنفسها شاهدت عملية نقل جثمانه إلى التابوت.

وقفت أثناء قيام الرجال برفع جثمان أندريه ليضعوه فى التابوت، وبنفسها وضعت صندوق الصوت وجهاز مراقبة النجوم داخل التابوت، ثم تم تثبيت الغطاء بالمسامير. كانت قد أحضرت معها هذه الآلات لكى توضع معه فى التابوت لكى تدفن معه. شاهدته وهو نائم، اشتاقت إليه، لكنها لم تنطق بشىء، ثم نزل الغطاء ولم تعد ترى منه شيئًا.

لم تبك عليه. لماذا هى تفضح نفسها بالبكاء! سمعت المسامير وهى تدق فى الغطاء، والحبال وهى تدور فى مداخلها الكبرى. لقد تم استئجار خدمات عشرين فردًا ليحملوا التابوت الكبير. حملوه بالفعل إلى الشارع ووصلوا به حتى بوابة المدينة ثم ساروا به حتى وصلوا إلى التلال الشرقية. هى كانت فى المقدمة تقود المسيرة، وتحت شجرة الجنكجو كان هناك التل المستعد لاستقباله.

لم ينطق أحد بكلمة والتابوت يهبط فى الكهف الذى حفر من أجله، ثم بكى الأطفال وولولت المرأة العجوز، لكن المدام وقفت مكانها ساكنة بلا حراك والتراب ينهال ليغطى الكهف ويجعل منه كومة.

للحظات، شعرت بعقدة من الألم الجارف تتلاعب فى قلبها. هى لن تراه فيما بعد، لكن هو سوف يستمر حيًا فى ذاكرتها إلى الأبد.

عندما تم كل شىء، قادت مدام وو الجماعة فى طريق العودة، وقادت هى الأطفال حتى بوابة منزلها. منذ هذا اليوم، هم ليسو من ضمن زمرة المشردين.

(١١)

فى صباح اليوم التالى وهى تستعرض غرفتها المعتادة، علمت أن العالم هو كما هو كل صباح، لكن بدلا من أن تستيقظ وهناك هم مقيم فى القلب ورغبة أكيدة أن لا يبدأ النهار بمتاعبه، كان فى استطاعتها الآن أن تدرك ذلك النشاط المستجد الذى نبت داخلها. هذا النشاط بزغ من نبع لم تكن تدرى وجوده قبلا. بالتأكيد ما كانت تشعر به فى شبابها تجاه زوجها هو نوع من الحب. كان من المستحيل أن لا تقع فى غرام السيد وو فى أيام شبابه، هو كان فى ذلك الوقت فى قمة الوسامة والصحة مع طباع رضية استطاعت أن تخلب لبها ورغبة أن تكون فى عناقه بصفة دائمة. لكن هذا الحب لم يكن له أى دور فى داخلها، كان عبارة عن رد فعل طبيعى كأنما هو تشنج عضلى معتاد، ولم يكن القلب سوى مركز للعضلة الرئيسية فى الجسد.

هذا ما أدركته. لقد راقبت جدها يومًا وهو ممسك بين يديه بقلب حيوان النمر. فى تلك الأيام، كان هناك اعتقاد سائد من أن من يأكل قلب النمر يكتسب على الفور قوته وحيويته. إنها تتذكر هذا المنظر بالذات كأنما هو قد حدث بالأمس فقط. كانت هى فى ذلك الحين عبارة عن فتاة صغيرة لا تتعدى الثامنة أو التاسعة من العمر. استطاع رجال التلال أن يقبضوا على النمر وأتوا به وهو يناضل داخل شبكة الصيادين، وجميعهم خرجوا تحت أشعة شمس الشتاء ليشاهدوا هذا الحيوان المخطط بلونه الأصفر، ما إن وقعت أنظاره عليهم حتى فتح فمه الأحمر على اتساعه وأخذ يزمجر ويزوم فى عداء لا أمل فيه. تراجعت النسوة من هذا الخطر، لكن هى ظلت صامدة فى مكانها لا تتحرك تحملق فى عينيه الوحشيتين ذات اللون الأصفر أيضًا، وكما لو أنه أدرك مقدار قوته وتأثيره عليها، لذا أغلق فكيه وأخذ يرمقها بناظريه، تقدمت هى خطوة

إلى الأمام، فزعق فيها جدها، بعد ذلك قفز واحد من رجال التلال وأغمد خنجره فى قلب النمر. اخترق السلاح فرو النمر فانكفأ هذا إلى الخلف صريعًا. استخرج هذا الرجل القلب من مكانه وأمسك به وهو ما زال ينبض ووضعه أمام عينى جدها.

لكن ما تشعر به الآن تجاه أندريه ليس له أى شأن بذلك القلب النابض. هو حب هادئ وقوى، كأنما هو أشعة منتصف النهار. شعرت بالدفء والقوة المتجددة تتخللها بفضله، وجعلها ذلك تشعر بثقة فى نفسها لا حدود لها، ليس عليها الآن سوى أن تتصرف بفضل هذا الدفء وذلك النور، وكل ما سوف تفعله هو صائب وحقيقى، فالحب قد اخترق شغاف قلبها وكذلك كل نسمة من جسدها. أندريه لم يمت، إنه ما زال حيًا، هو معها لأنها أحبته، على الرغم من زوال الجسد. هى تلك التى كانت مرتابة طوال حياتها، وكانت دائمًا ما تنظر إلى السماء ولا ترى هناك إلهًا. بالنسبة لها، كانت أرواح الطبيعة ليست إلا خيالات أطفال، لكنها الآن متأكدة أن أندريه ما زال ملازمًا لها، هو حى. فكرت، "لقد أحببته وهو يروح ويجىء داخل هذا الجناح، لكنى لم أكن واعية فى ذلك الحين، كان على أن أشاهده ميتًا حتى أتأكد من مقدار حبى له".

ولأنها امرأة، تساءلت فى عمق ذاتها عما إذا كان هو قد أحبها أيضًا؟ ما إن تردد هذا السؤال الخاص بالحب المتبادل فى أعماقها حتى شعرت بمقدار وحدتها لأول مرة. كان فكرها الطارئ هو، "مادام أننى لا أستطيع سماع صوته، لذا لن أعرف تلك الحقيقة أبدًا".

أدارت رأسها تجاه موجودات جناحها واشتاقت إلى بعض من خطواته تخطو فوق هذه الأحجار. ثم وهى واقفة تتسمع، لا يصلها سوى صوت زقزقة بعض الطيور وسط أشجار البامبو، رأت وجهه يتبدى تدريجيًا على الشاشة القاتمة لذاكرتها. كانت عيناه تشع بالدفء وهو ينظر نحوها، شفتاه التى ضاعت وسط شعر ذقنه تبسمت لها، أما فطنته الرائعة المرحة التى كانت طابعه الدائم ظهرت أمامها بكل وضوح، لدرجة أنها بادلته الابتسام. إنها لم تستطع أن تستمع لصوته، لكن فجأة كساها ضمان أكيد أن أندريه كان مغرمًا بها. خلف جدران شخصيته كقس، وهى تلك التى فصلته عنها

عندما كان حيًا، أدركت أنه كان يحبها. هو الآن ليس قسًا فى نظرها، تلك الحواجز زالت كلية ولا ترى أى مانع أن تستدعيه فى أى لحظة، وليس هناك مانع أن يخترق فكرها ويسيطر عليه دون انتظار لاستدعاء. جسده قد مات، أما جسدها فهو الوسيلة التى من خلالها تستطيع أن تعيش معه.

أدركت الآن أنها تستطيع أن تتسلح بنوع جديد من الحكمة لم تحصل على مثيل له من قبل. استمرت فى تفكيرها وهى تحملق فى ستائر سريرها الزرقاء، "كم كنت غبية، لقد تسببت فى حدوث ارتباك لا حد له بين رجال بيتى ونسائه بسبب تصرفاتى الغريبة!"

ما فعلته هو، أنها بكل أنانية حاولت أن تتحرر منهم جميعًا وأن تسحب نفسها من وسطهم. كانت تحدوها رغبة قوية أن يشعروا جميعًا بالسعادة، كل حسب طريقته، لكنها لم تشأ أن تتعب نفسها لتحقيق هذه السعادة، لم يكن فى مقدورها أن تبلغهم كيف يمكن أن تتحقق لهم هذه السعادة. لقد وفرت لهم الطعام واللباس، وحققت داخل المنزل النظام والترتيب. مع ذلك، كان المنزل كله يشغى فى نوع من الاضطراب والقلق ولا أحد فيهم يشعر بالسعادة، أما هى فقد كساها غضب جامح لأن لا أحد منهم كان سعيداً، وهذا كله تشاهده الآن كنوع من العبط الغريب الذى سلكت سبيله دون وعى كاف منها.

فى ذلك الصباح، حضرت إليها ينج فى غرفتها، بان على وجهها علامات عدم الرضى، "لماذا لم تنهضى من سريرك حتى الآن يا سيدتى؟". كان صوتها متشنجًا.

قالت لها مدام وو وهى تبتسم، "هو فى الغالب يوم ممطر"

قالت ينج بصوت غاضب، "كيف علمت يا سيدتى؟ وأنت حتى لم تزيحى ستائر سريرك".

"أعلم ذلك عندما أستمع لرنة صوتك، وأشاهد تلك السحب التى تجمعت على وجهك".

"لم أظن أن يرد علينا يوم وأشاهد داخل منزلنا واحدة من بنات الهوى، ولا أن أشاهد أبناء العائلة وهم يتجولون فى كل أنحاء الأرض الواسعة، بينما تحضر إلينا محظية مطرودة تحتاج إلى المأوى والطعام".

"إذن فقد حضرت إلينا البنت ياسمين؟"

"إنها فى الجناح الخلفى فى الانتظار"، شغلت ينج نفسها بترتيب معدات زينة سيدتها بينما استمرت فى الحديث، "سألونى ما الذى أفعله بشأنها، أنا لا أعرف ما الذى يمكن أن أفعله بشأنها"، مدت ينج شفتها السفلى إلى الأمام، "الفتاة تقول إن وصولها متوقع، قلت لها إننى لم أتوقعها".

نهضت مدام وو من سريرها، ووضعت قدميها الصغيرتين فى شبشب مزين بالورود، "هل أتت بمفردها؟"

"أتت معها امرأة عجوز هتماء ثم خرجت مسرعة بعد ذلك. أوه، إنها بين أيدينا"، قالت ينج ذلك وهى حانقة.

لم تتحدث مدام وو، تقدمت إلى حمامها، ثم وضعت معطفاً لونه رمادى فضى من الساتان فوق قميصها الحريرى الأبيض. قامت ينج بتصفيف شعرها بدقة، لكن شفتها السفلى ما زالت فى وضع الغاضبة. أمرتها المدام، "أحضرى إفطارى". عندما تم ذلك، أخذت تتناول طعامها بشهية بالغة. شعرت بنوع جديد من الجوع حتى للطعام، وشعرت بالاستمتاع بذلك. ألم تسمع من قبل أن الحب يمكن أن يكبح الشهية؟ ثم تذكرت بعد ذلك أن الحب المستحيل هو الذى يفعل ذلك.

فكرت بكل حماس، "أندريه يحبنى"

بعد أقل من نصف ساعة، نهضت من مكانها وذهبت إلى الجناح الخلفى لترى تلك الفتاة ياسمين، تساءلت ينج، "ألا أحضرها إلى هنا يا سيدتى؟ سوف تظن فى نفسها أشياء إذا ذهبت أنت إليها".

قالت مدام وو بكل هدوء، "لا، أنا سوف أذهب إليها". هى ترغب الآن أن تحد ممن يدخلون إلى جناحها، لكى تدع روح أندريه تستقر هناك بلا إزعاج، هذا ما أقنعت به نفسها، ثم وهى تخطو حتى مدخل بوابة القمر، لاحظت أن قدميها قد ثبتت فى مكانها، كما لو أن هناك أياد أمسكت بقدميها. خطر فى بالها فكر جديد.

فكرت، "لكن أندريه ما كان ليمنع نفسه أبدًا عن الآخرين، كان فى مقدوره أن يقابل هذه الفتاة لكى يطمئن ما الذى يمكن أن يفعل بشأنها. إن روحه هنا قائمة وسوف تساعدها".

التفتت إلى ينج، "يمكن لك أن تحضريها إلى هنا". لذا بينما ذهبت ينج، جلست هى فى مكانها. كان فى إمكان أى إنسان يعبر هنا أن يشاهدها جالسة هنا، نحيفة، ذات كيان فضى، رأس منحنية وابتسامة مرسومة على وجهها الشاحب. لكن لا أحد مر بها. بعد دقائق قليلة عادت ينج بينما تسير وراءها فتاة قصيرة، سمينة، متوردة.

رفعت مدام وو عينيها وشاهدت ياسمين. أدركت توًا أن هذه النوعية من النساء هى تلك التى تمجها وتكرهها بمجرد النظر، فهى مخلوقة أرضية خشنة ومن النوع المتقد العاطفة. حاولت أن تتجنب النظر إلى عينيها، شعرت بروحها يتأرجح ما بين الأمس واليوم، شعرت ببشرتها الرقيقة ترتعش. ثم فجأة شعرت بمشاعر التمرد والاحتجاج تتراجع، لقد تدخلت روح أندريه. ظهر وجهه واضحًا وجليًا على ستارة ذاكرتها، وبينما هى تحملق فى وجهه، سألت بلطف بالغ هذه الفتاة عدة أسئلة. زحفت ينج عدة خطوات إلى الخلف تستمع وتحملق. إنه ليس صوت مدام وو الفضى الرائق، ليس فيه تلك الصلابة والقوة المعتادة. مع ذلك، ليس هو أيضًا ذلك الصوت الذى تستخدمه وهى تخاطب الأطفال، هو صوت جديد، غريب.

سألتها مدام وو، "لماذا أردت أن تحضرى إلى هنا لتعيشى؟"

حدقت ياسمين فى الأحجار التى انتصبت تحت أقدامها، كانت فى تلك اللحظة تتمنى لو أنها كانت قد ارتدت الجاكت القطنى والبنطلون بدلا من فستانها الأخضر من الساتان.

"كنت أود أن أستقر فى مكان ما قبلما ألد طفلى"

"إذن فهناك طفل فى الطريق؟"

رفعت ياسمين وجهها فى حركة سريعة، "نعم!"، قالت ذلك بصوت عال.

"ليس هناك طفل أو غيره"

رفعت ياسمين وجهها مرة أخرى، فتحت شفتيها لكى تحتج، وأخذت تحملق فى وجه مدام وو، كانت تلك ثابتة عليها يشع منها ضوء وهاج، لذا انفجرت بكاء.

رددت المدام، "إذن فليس هناك طفل"

صاحت ينج، "سيدتى، لسنا مضطرين أن نحتفظ بها"

رفعت مدام وو يدها الطويلة إلى أعلى، "هذا ما سوف أقرره أنا بنفسى. من فضلك اتركينا بمفردنا يا ينج".

"أتركك مع هذه العفنة؟"

"يمكن أن تنتظرى خارج بوابة القمر"

انتظرت حتى خرجت ينج، ثم أشارت للفتاة أن تجلس على مقعد بامبو من مقاعد الحديقة. جلست ياسمين وهى تدلك عينيها بيديها، وتسحب نشيجها ليستقر فى حلقها. بدأت مدام وو فى الحديث، "أنت تعلمين بالطبع أنه شىء محزن أن يقتحم شخص ما منزل رجل، لا سيما إذا كان هذا يرعى عائلة بهذه الكثرة مثل عائلتنا. أنت من الممكن أن تحضرى إلى هنا وتدمرى كل ما نشعر به من سعادة وهناء، لكن أيضًا من الممكن أن تحضرى وتعملى على نشر السعادة هنا، وهذا كله يعتمد على مدى صدقك وكرمك. إذا كنت قد حضرت للحصول على المأوى والأرز، أرجوك أخبرينى بذلك، سوف أحقق لك مرادك، وهذا من الممكن أن أحققه لك بدون أن تضطرى أن تبيعى جسدك".

نظرت نحوها ياسمين بدهاء، "ومن ذاك الذى يعطى شيئًا من أجل لا شىء؟"

تعجبت مدام وو من نفسها، فلو كان هذا قد حدث أمامها قبل شهر فائت، إذن لاحتقرت هى سذاجة هذه الفتاة، لكن هى الآن تتفهما جيداً.

"أنت بالطبع لم تحصلى من قبل على مأوى أو طعام مجانى، وهذا بالفعل يصعب تحقيقه".

"أنا لا أصدق أحداً"، ثم سحبت منديلا أحمر من صدرها.

"إذن فقد حضرت إلى هنا للحصول على مأوى"

هزت ياسمين رأسها، "أنا لم أقل هذا". رفعت جفونها الثقيلة وبدت فى عينيها نظرة ماكرة.

"هناك عديد من الرجال الآخرين الذين وعدونى بالمأوى"

"لكن أنت حضرت إلى هنا من أجل شىء ما، لعلك حضرت لأن وجودك هنا تشريف لك لأنك سوف تنتمين إلى عائلتنا المشهورة، حتى ولو عشت فى الجناح الخلفى".

فجأة تحول وجه ياسمين إلى اللون القرمزى تحت المساحيق الموضوعة، "أنا مغرمة بالعواجيز.."، نطقت بذلك بلغة الشوارع.

عرفت مدام وو أنها تقصد السيد وو، لكنها لم تحاول أن تعقب، فالحقيقة بدأت تتسلل إلى قلب الفتاة.

قالت مدام وو، "إنه أكبر منك كثيراً يا ابنتى"

وهى ترتعد، "أنا أحب الكبار فى العمر"

سألتها، "لماذا ترتعدين هكذا، لا يلزمك أن تكونى بهذا الشكل أمامى"

قالت الفتاة بخوف، "أنا لم أتعرف من قبل برجل من النبلاء، فهو رجل له مركز مرموق فى المجتمع هنا".

"ماذا تعنين بكونه من النبلاء؟ وهل يتعذر علينا أن ندعو ذلك النبيل بأنه مثلا شخص مندفع، متعجل، عنيد، غبى وأحيانًا طيب، ودائمًا أنانى - هذه هى الصفات الملائمة لوصفه، لكن لا ينطبق عليه إطلاقًا قولك عنه إنه نبيل".

"ما أقصده بقولى إنه نبيل..."، ثم رفعت ذراعها إلى أعلى، "انظرى إلى هذه الأساور، إنها من الذهب الخالص. لكن لو كان شابًا قد أهدانى أساور، فإنه سوف يعطينى سوارًا من النحاس وعليه طبقة من الذهب، لكن انظرى..". قامت بخلع الأسورة وأخذت فى عضها، "إنها بالفعل من الذهب الخالص. هو أيضًا إنسان صبور، عندما أكون مريضة فإنه لا يضغط على أبدًا، أما باقى الشبان فإنهم لا يهتمون، كل همهم هو أن ينالوا ما أتوا بشأنه ليحصلوا عليه، لكن هو دائمًا ما يسألنى عن حالى أولا".

"هل فعلا هذا ما يحدث منه؟"، لم يكن هو السيد وو الذى تعرفه جيدًا.

جلست الفتاة مرة أخرى ولبست الأسورة، "إذا لم أنجب لكم طفلا...."

"ولادتك لطفل ليست له أية أهمية، المهم هو هل سوف تضيفين إلى سعادة هذا المنزل أم أنك سوف تدمرين هذه السعادة؟"

رفعت ياسمين رأسها بكل حماس، "سوف أحضر وبصحبتى كل السعادة، هذا ما أعدك به يا سيدتى".

"غدًا سوف أقرر بشأنك"، قامت من مكانها وهى تتحدث، لذا أسرعت ينج لتقود الفتاة إلى الخارج.

عندما غادرت الفتاة، سارت مدام وو فى الممر حيث ارتمت أشعة الشمس الجديدة وغطت الأشجار بالضياء والدفء. هذا الضوء أعشى عينيها، لكنه جعل الدفء يسرى فى أقدامها، "لقد تصرفت حسنًا!"، فكرت وهى تتعجب من نفسها، "يا ترى كيف أمكن لى أن أتصرف هكذا بشكل جيد؟"

فهمت نفسها، إذا كانت ياسمين تحب فعلا السيد وو، إذن يجب السماح لها بالحضور، لكن هل هو حقًا يحبها؟ إذا كان هذا صحيحًا، إذن سوف يتضاعف مقدار

السعادة فى هذا المنزل، فكل الشقاء الذى يحل فى البيوت هو مرجعه نقص الحب بين أطرافه".

أخبرت ينج عندما عادت وهى تنفض يديها، "عندما أستريح قليلا، سوف أذهب لأزور جناح والد أبنائى"

"افعلى ذلك يا سيدتى". كان يبدو على وجهها مظاهر الابتهاج، "ربما تستطيعين أن تجعليه يتعقل قليلا، فنحن عندنا تخمة نساء هنا فى هذا المنزل"

كانت ينج قد سألت ياسمين قبل خروجها، "هل سوف تأتين فيما بعد لتقيمى هنا بصفة دائمة؟"

ترددت ياسمين ثم قالت، "لا أدرى، هى قالت لى إننى سوف أعلم بالقرار النهائى غداً".

قالت ينج، "دائمًا ما تقرر سيدتى أمورها فى الحال.."، لكن هى لم تكمل ما كانت تفكر فيه، وهو أنه عندما لا تنطق سيدتها بالقول، "نعم - اليوم"، فإنها بالطبع سوف تكون إجابتها "لا" فى الغد. لذا خرجت الفتاة وأغلقت وراءها البوابة الحديدية بعنف.

وهى تقول الآن، "سوف أذهب يا سيدتى، ودعيه يعلم بقرارك"، ثم برقت فى عينيها لمحة سليطة، لم تفت المدام وو، فهمت وابتسمت.

* * *

صحت مدام وو من نومها وهى واعية تمامًا، وقلبها راض ومطمئن. طوال عمرها كانت تناضل لكى تحصل على الهدوء والرصانة، لقد جعلت نفسها سجينة داخل أسوار إرادتها وطبقت ذلك على جسدها، لذا كانت إرادتها هى التى تقود جسدها لكى يتصرف بشكل معين فى أوقات معينة، بغض النظر عن طلباته ورغائبه. شعرت الآن أنها ليست فى حاجة لأن تجبر نفسها على فعل أى شىء.

خاطبت نفسها، "أندريه، لم يكن لازمًا أن تموت قبل أن أعرفك حق المعرفة"

أتى إليها الرد على الفور، "لا غرابة فى ذلك. لقد كان جسدى الضخم هو العقبة بينى وبينك، كان عليك أن تنظرى إلى وجهى وملامحى التى لا أنتمى لها بصلة، هذه التى منحت لنا عشوائيًا عن طريق أجدادى، الذين هم فى الواقع غرباء عنى. وعلى الرغم من أننى رغبت أن أهجرهم بوصفهم غرباء عنى، لكنى ظللت أسيرًا داخل حدود بشرتهم. الآن أنا كامل كنفسى".

"أندريه"، خاطبته من خلالها، "هل أستمر بدعوتك باسم الأخ؟"

"لم يعد هذا مهمًا الآن أن تصنعى حدودًا لعلاقتنا". كانت تلك هى إجابته التى دارت فى أجناب قلبها.

جلست مدام وو على سريرها منتصبة الظهر جليلة المظهر، شعرت بالخوف من هذا الحوار الدائر فى مجاهيل عقلها، ولأنها بطبيعتها من النوع الشكاك، كان جديرًا بها أن تضحك من أى ظهورات تفوق الطبيعة حتى ولو كانت لشخص هى تحبه، لكن لم يكن هناك أى نوع من الظهور أو الأصوات. هذه الغرفة هى كما هو حالها عندما أغمضت عينيها لتنام. هى بكل بساطة كانت تستمع لأندريه وهو يجيب عن أسئلتها، هذا بالتأكيد هو نوع من الهوس، إثر اكتشافها أنها كانت مولعة به وهى لا تدرى. الآن هى متأكدة بعد ثوان قليلة أنها فى الواقع قد أحبت رجلا رحل منذ عهد قريب، وهذا كان كافيًا لأن يهز السموات والأرض. تذكرت الآن أن أندريه كان قد أخبرها أن الأفكار تنتقل خلال خلايا عصبية تكون مادة المخ، لذا فإن تعرفها عليه الآن هو نتيجة لتصادم وتزاحم تم بين خلايا عقلها، وهذا بالطبع تداخل أزعج كل خطوط فكرها السابقة التى كونت كل أشكال حياتها السابقة. فكرت، "لا أدرى كيف سوف يكون حالى فيما بعد"، أخذت تتسمع للإجابة. تخيلته وهو يبتسم لها، شاهدت وتحققت من لمحة من الضياء تلمع فى ثنايا ذلك السواد العميق الذى يشكل عينيه، ثم بادلته الابتسام.

دخلت ينج الغرفة وهى فى حالة غريبة من الانزعاج، "الجناح الأمامى يحفل بعديد من الأطفال المتسولين، كذلك عادت إلينا تلك العاهرة وهى تجلس الآن فى صالة المدخل، تقول إنك بعثتى لها لتحضر".

ضحكت مدام وو، "أشعر أننى قادرة أن أبتلع رغيفا كاملا من القمح هذا الصباح".

أخذت ينج تحملق فيها، "أنت تبدين مختلفة تمامًا يا سيدتى، بشرتك أصبحت وردية كأنما هى لطفل صغير، هل تشعرين بالحمى؟"

اقتربت ينج ناحية السرير الضخم وأمسكت بيد مدام وو الصغيرة ووضعتها على خدها، قالت مدام وو، "إنها ليست حمى، إنها صحة"، ثم سحبت يدها بلطف ونفضت عنها اللحاف ونهضت، بعد ذلك سمحت لوصيفتها أن تساعدها فى غسيل وجهها وارتداء ملابسها، لكنها رفضت أن ترتدى الفستان الرمادى الحريرى الذى قدمته لها ينج، بدلا من ذلك اختارت فستانًا ورديًا كانت تضعه جانبًا بعد بلوغها عمر الأربعين، حيث كانت تظن أنه ليس لائقًا أن ترتدى مثل هذه الألوان بعد ذلك.

أما اليوم، فهو يوم يختلف عن باقى الأيام، فى المرة الأخيرة التى ارتدت فيه هذا الفستان، ظنت أنه نافع لكى يخفى منظر شحوبها، لكنه فى هذا الصباح أضاف إلى شكلها ولونها.

فكرت وهى تستعرض نفسها فى المرآة، "كان من الخطأ الشنيع أن أثور على هذا الفستان"، ثم ثارت فى نفسها علامات الإعجاب بنفسها، "شىء مؤسف أنه لم يشاهدنى أرتدى هذا الفستان". ابتسمت لنفسها فى المرآة ثم أخذت تنظر ناحية ينج لتتحقق ما إذا كانت هذه الخواطر قد ظهرت عليها أم لا، لكن ينج كانت منهمكة فى تطبيق الفستان الرمادى، الذراع على الذراع.

أخذت مدام وو تزرع مكتبتها، كان عليها اليوم أن تتشابك مع عديد من المشكلات التى لم تجد لها حلا حتى الآن. هناك عشرون طفلة فى انتظارها فى الجناح الأمامى، أما العاهرة الشابة فهى فى انتظارها فى صالة المدخل، كذلك هناك السيد وو والذى زادت مسئولياته أكثر من أى وقت مضى، ثم هناك الطفل المولود وأمه شيومنج، أيضًا أبناؤها وزوجاتهم، لكن هى لم يبد عليها الانكماش من مواجهة البشر عمومًا، لقد أدركت الآن وللمرة الأولى فى حياتها أنها كانت تناضل ضد كراهيتها للبشر، ولا واحد منهم كان يرتقى إلى مستوى الرضى الكامل عنه، لذلك لم تكن تحب أمها بسبب جهلها

وتمسكها بالخرافات، هى بالفعل أحبت والدها، أو لنقل إنها اضطرت لذلك، لكنها كانت دائمًا ما تلومه لأنه متباعد بشكل مستمر ولم تستطع أن تتقرب إليه كما يجب، وعلى الرغم من أن السيد وو كان يومًا شابًا وسيمًا يوم أن تزوجته، لكن كان به بعض السمات الخفية التى لا ترضيها، وحتى عندما شاركته العواطف الملتهبة، كانت على وعى بمناظر وروائح لا تعجبها، وكانت تشعر بنوع من الاغتصاب والإكراه فى لمساته حتى فى تلك التى تسمح بها. أيضًا كان الجد العجوز محبوبًا لديها، لكنها كانت من الرقة الشاملة بحيث نسيت ما كانت تكرهه فيه وهى منغمسة فيما كان يعجبها منه، هو قلبه كان عامرًا وذكاؤه صافيًا، لكن أسنانه كانت مهشمة ونفسه لم يكن مريحًا.

"لو كان أندريه هنا عندما اكتشفت أننى كنت أحبه، إذن..."

قبلما تتمكن من تشكيل فكرها هــذا، حـضـر إليها الآخر ليجيب على الفور "أنت ترين الآن ذلك الكم من الحكمة التى تكتنف الموت، إنه يقضى على الجسد لتظل الروح حرة طليقة".

لكنها ذكرت نفسها، "لكن لو كنت أصغر عمرًا، هل كنت ترضى بروحك فقط؟"

أخذت تحملق فى البلاط الصغير الذى يكون أرضية المكتبة، هل كان هناك احتمال أن تقع فى غرام هذا الأجنبى لو كانت هى أصغر؟ فمن الطبيعى، يعتبر أندريه رجلا أجنبيًا وافدًا من دولة أجنبية ودماؤه مختلفة. حاولت أن تتخيله وهو شاب صغير قوى، فشعرت بدمائها تثور فى عروقها.

تفجرت صيحة فى ذهنها تقول، "لا تفعلى!"

فأطلقت وعدها، "نعم، لن أفعل"

حضرت ينج محملة بأطباق الإفطار، تناولت مدام وو عصويها ثم تساءلت، "هل تم تقديم الطعام للأطفال الموجودين بالجناح الخارجى؟"

قالت ينج بنوع من العناد والتصلب، "بالطبع لا يا سيدتى، لم تصدر الأوامر بفعل ذلك".

قالت مدام وو برقتها المعهودة، "إذن أنا أصدر الأوامر الآن. يتم طبخ أرز حالا، ويتم تحضير الخبز والشاى لغدائهم".

"من حظنا الحسن أنها لم تمطر اليوم، المفروض أن نغرق تحت سيولها إذا تقبلنا مثل هؤلاء الأطفال ليعيشوا بيننا تحت سقف واحد".

"هناك مكان يكفى لإيوائهم جميعًا"

شعرت بالاندهاش وهى ترى ينج تنخرط فى البكاء، وبينما هى تخفف دموعها بكم فستانها الأخضر، أسرعت بمغادرة المكان وهى تصيح، "لقد تغيرت، نعم لقد تغيرت".

لكن فى وقت الظهيرة، أحضرت هى عدة أوان بداخلها الأرز ووضعته فى الجناح الخارجى، وعندما حضرت مدام وو إلى هناك، شاهدت الفتيات الصغيرات وهن يأكلن والسعادة تطفر من وجوههن ، أيضًا انهمكن فى حشر حبات الأرز فى الأفواه الفاغرة للأطفال الصغار من الفتيات. قامت المرأة العجوز التى كانت تشرف عليهن، بينما خدها ملىء بحبات الأرز وصاحت بالأطفال أن يحيوا مدام وو باعتبارها هى أمهم الآن، ردت عليها مدام وو وهى تبتسم، "أما وقد رحل والدكم، إذن أنا الآن أمكم". أخذ هؤلاء اليتامى ينظرن إليها فى حب وولع، ثم للمرة الأولى فى حياتها تشعر بنبضات الولادة تقتحم كيانها، شعرت أن شخصها قد انقسم وبرز منه طبيعة أخرى مختلفة تمامًا أكبر من كيانها نفسه، فهؤلاء البنات هن أولاد أندريه وأولادها أيضًا.

"أنتم جميعًا أبنائى"، نطقت بذلك وهى تتعجب من نفسها. مع استماعهم لتلك الكلمات اندفع الأطفال وأخذن فى احتضانها ولمسها ويملن عليها. أخذت تنظر إليهن، وترمق عيوبهن ونقائصهن كما تراقب عناصر الجمال فيهن، لكنها لم تشعر بأى امتعاض منهن. قالت وهى تبتسم، "لقد صنع والدكم كل ما فى جهده من أجلكم،

لكن أنتن أيضًا فى حاجة إلى أم"، ثم لمست قرحة حمراء ملتهبة فى خد طفلة، سألت، "هل ما زالت تلك تؤلمك؟"

أجابت الطفلة، "قليلا"

"كيف حدث لك هذا؟"

رفعت الفتاة رأسها، "لقد أمسكت سيدتى بعقب سيجارة، ثم..."

"أوه، لكن لماذا؟"

"أنا كنت عبدة لها.. لم أكن أتحرك بالسرعة التى تطلبها منى"

مدت هذه الطفلة يدًا متوسلة، "هل يمكن لك يا سيدتى أن تعطينى اسمًا، هو كاد أن يعطينى اسمًا لكنه مات، كل واحدة من إخوتى هؤلاء لها اسم ما عداى".

أجابت المدام، "كل واحدة منكن تخبرنى باسمها، وفى النهاية سوف أختار اسمًا لهذه الفتاة".

واحدة بعد الأخرى كانت تدلى باسمها، وكل اسم هو عبارة عن كلمة نطق بها أندريه: شفقة، إيمان، تواضع، نعمة، حقيقة، رحمة، نور، أغنية، نجمة، شعاع القمر، غسق، فرحة – مثل هذه التسميات هى التى أطلقها على الكبيرات فى العمر، أما الصغيرات فقد أطلق عليهن أسماء مرحة، مثل: قطيطة، ورق الورد، طير الثلج، ثمرة البلوط، فضة، ذهب. قال هو إنه مادام أنه ليس لدينا فضة أو ذهب، لذا تعتبر البنتين الصغيرتين هما البديل.

جميعهن كن يضحكن من هذه التسميات، قالت الصغيرة ذهب، "كان يضحكنا كل يوم"، كانت هذه طفلة صغيرة مكورة ودائمًا ما تمسك بيد فضة.

سألت مدام وو وهى تبتسم، "هل أنتما أختان؟"

عشرون صوتًا قالا فى نفس واحد، "نحن جميعًا إخوة"

وافقتهم مدام وو، "بالطبع، كم أنا غبية"

أما الفتاة ذات الندبة فإنها اقتربت منها وتلامست معها، "وماذا عن اسمى أنا؟"

أخذت مدام وو تحدق فى ذلك الوجه الدقيق، هى عبارة عن برعم فى سبيله للتفتح، كلها جمال قادم، فى الحال انبثق الاسم فى ذهن المدام، "سوف أدعوك باسم (حب)".

رددت الطفلة، "أنا حب"

امتلأ الجناح بعدد كبير من المتفرجين. كل الخدم اخترعوا لأنفسهم أعذاراً ومهاماً لكى يمروا عبر الجناح ثم يتوقفوا ليشاهدوا ما يحدث، لكن أطفال العائلة كانت لهم الحرية أن يشاهدوا كما يشاءون، وقفوا جميعاً يشاهدون مدام وو الجديدة. أخيراً بعدما تعبت ياسمين من الانتظار الطويل وهى جالسة فى صالة المدخل، حضرت هى أيضاً إلى الجناح الأمامى تتبعها خادمتها. لقد سلحت ياسمين نفسها بقوة داخلية تجعلها الآن تطالب بكل حقوقها بجسارة، هى قادرة أن تمنح هذا البيت طفلا. لكن بدلا من أن تتقابل مع سيدة فخورة معتزة بنفسها وقوية الشكيمة، شاهدت سيدة أخرى جميلة ولطيفة وسط مجموعة من الأطفال البنات. نظرت نحوها مدام وو وتقابلت عيونهما، قالت لها المدام، "أنا لم أنسك، بعدما أقرر أين سوف ينامون ويلعبون، سوف أتحدث معك".

استدارت هى وواجهت أقرباءها. لم يكن واحد منهم من أبنائها أو زوجات أبنائها، هم عبارة عن أبناء العم والخال الفقراء الذين لم يجدوا مأوًى لهم غير منزل قريبهم هذا، ولم يجدوا بأساً أن يلجأوا إليه لعلهم يجدوا فيه ركناً أو سريراً.

تساءلت المدام، "يا ترى أين يمكن لى أن أسكن هؤلاء الأطفال"

قالت لها واحدة من الأقرباء العجائز، "يا أختنا المبجلة، إذا رغبت أن تعملى معروفاً، ربما يمكثون فى معبد العائلة".

لم تكن مدام وو قلقة بأى حال، لكن هى ببساطة لم تكن تعرف أين يمكن أن تسكن هؤلاء الأطفال. الآن هى تقبلت نصيحة هذه الأرملة على الفور، "كم أنت حكيمة، ليس هناك أفضل من معبدنا، هو به العديد من الأجنحة يمكن أن يلعبوا فيها، كذلك هناك حوض الماء والنافورة، الآن سوف تجد آلهة الأسرة شيئاً يمكن أن تفعله".

قـادت الطريق أثناء حـديثهـا، وجـرى الأطفــال وراءها تحـت أشعـة الشـمس، بينما كانت المرأة العجوز تحجل وراءهم.

خلف أجنحة المنزل، كان يقع هذا المعبد القديم، ذلك الذى ابتنته واحدة من الجدود منذ مئة عام. لقد أرادت هذه الجدة أن تصبح راهبة بعد وفاة زوجها، لكنها لم تشأ أن تغادر المنزل لتعيش فى معبد عام، لذا شيدت هذا المعبد داخــل نطاق أسوار المنزل وفيـه عاشت فى حـضرة الآلهـة إلى أن مـاتت منذ مـئة عـام سـابقة. منذ ذلك الحين تم استئجار خدمـات كاهن لكى يرعى هذا المعبد. لم يكن مسـموحًا أن يخدم أحد الكهنة وعمره يقل عن الخمسين عامًا، فالمنزل ملىء بالفتيات الصغيرات.

وعلى الرغم من أن مدام وو من النوع المتشكك، فإنها سمحت لهذا الكاهن أن يستمر فى تواجده فى ذلك المعبد، وكانت تدفع مقابل عمل قشرة ذهبية على تماثيل الآلهة كل عشر سنوات، وكل عام تخصص مبلغًا لشراء البخور والشموع، وأى فــرد فـى العائلة يود أن يتـعبد، يذهب إلى هذا المعــبد، وهــذا كـان فى مـصلحـة نســوة الدار بالذات حتـى لا يضطررن أن يغـادرن المنزل حـيث يمكن أن يتـعرضـوا لمضـايقـات بعض كـهنة المعـابد الخـارجية.

إلى هذا المعبد، هى الآن تقود الأطفال. توقفت للحظات أمـام مـدخل المعبد حيث انتصب أمامها تمثالان يحرسان المعبد أحدهما لونه أسود والآخر أبيض.

سـاءلت نفسـها، "يا ترى، هل هذه الآلهة يمكن أن تغضب أندريه! فديانته ليس بها آلهة مثل هؤلاء". خيل إليها أنها تستمع إلى ضحكته المجلجلة وهى تتردد فى أنحاء هذا السقف العالى المدهون الذى يقع فوق رءوس الآلهة.

ردت عليه بابتسامة وهى ممسكة بيد الفتاة (حب)، ثم خطت على العتبات الخشبية العالية للمدخل ودلفت إلى المعبد. كان الهواء معبقًا برائحـة البخور ورائحة الزنابق. كانت البخور تحترق أمام الآلهــة، أمـا الزنابق فهى مزروعــة فى أصص فى كل مكان. ما إن استمع الكاهن العجوز صوت هذه الجلبة حتى خرج من المطبخ وهو يجرى، كان مشغولا بطبخ بعض الخضراوات من أجل غدائه ووجهه ويداه يغطيهما السناج.

أخذ يحملق فى هؤلاء الأطفال وفى مدام وو، قالت هى له، "ها أنذا أحضر لك بعض الهدايا، رددوا عليه أسماءكن يا بنات، وواحدة بعد أخرى أخذت تنطق باسمها بصوت مرح فرح.

انتهى الأمر بأن قالت المدام، "وهذه الصغيرة، هى حب، إنهن جميعًا هدية لهذا المعبد".

كان هذا الكاهن قد استمع قبلا بما حدث، وأصبح فى قناعته أن المدام إنما تفعل صلاحًا لكى ترضى عنها الآلهة والسماء، لذا ليس له أن يعترض على ذلك مهما كان الأمر صعبًا من وجهة نظره، لذا أحنى هامته وضم يديه وتراجع خلف هذا الإله أو ذاك. أما مدام وو فأخذت تستعرض غرفة المعبد التى كان يشغلها آلهة لا ترى ولا تسمع يقفون صامتين يحملقون فى أجنحة منزل عائلة وو. قالت هى، "هذه الغرفة سوف تخصص للصغيرات، فربة الرحمة هى الموجودة هنا، وهى التى سوف تحرسهن ليلا، أما تلك الغرفة الأكبر فهى للبنات الأكبر عمراً، حيث سوف يتوافر مكان للجميع، لكن يجب أن تحافظن على نظافة المكان.

لاحظت أن الفتاة حب كانت تمسك بها بقوة، قالت الطفلة، "دعينى أذهب معك، سوف أغسل ملابسك وأخدمك أثناء تناولك الطعام، أنا أستطيع فعل أى شىء".

تحول قلب مدام وو إلى شعلة من نار، لكن هى إنسانة عادلة، كانت تعلم أن أندريه لم يكن يفضل فتاة عن أخرى، لذا هزت رأسها قائلة، "يجب أن تبقى مع أخواتك تساعديهن فى كل شىء، وهذا بالتأكيد هو ما كان يرغب فيه والدك". أدركت بعد ذلك أن هذا التصرف ليس كله عدلا، لكن هى فى الواقع لا ترى أن يشاركها فيه أحد.

تساءل الأطفال، "لكن أين سوف ننام يا أمنا؟"

"مع حلول الليل سوف أرسل لكم سريعًا الأسِرَّة، لكن أولا، يمكن أن تلعبن فى الوقت المتبقى من النهار". وهى تشاهدهن وقد طفر البشر فى محياهن، تركتهن وسط صحبة الآلهة.

* * *

ضمت ياسمين شفتيها بقوة وهى تحدج بنظراتها منديلها الحريرى المطرز المعطر. أحد أركان هذا المنديل كان مثبتًا فى زر زجاجى عند طرف كتفها الأيسر، هو كان معلقًا هكذا كأنما هو ملحفة لهذا المنديل كان فى إمكانها أن تخفى وجهها أو تتلاعب به عندما تشاء أن لا تنظر إلى من تتحدث معه.

قالت لمدام وو، "يصعب على أن أتحدث معك"

"بالتأكيد هناك القليل الذى يمكن أن يقال"

"لكن هناك الكثير من القول، إذا لم يكن معى أطفال الآن ، فإنه سوف سيكون معى العديد منهم فيما بعد". ثم وضعت يدها على بطنها.

أخذت مدام وو تحدق فيها باهتمام، "أنا متأكدة أنك سوف تحملين بولد سمين، فأنت تبدين قوية البنيان"

اندهشت ياسمين من هذا القول، "لكن ماذا سوف يكون مركزى هنا فى هذا المنزل؟"

"أى مركز تقصدين؟"

قالت ياسمين بحدة، "يجب أن أكون بصفتى الزوجة الثالثة". كان عجيبًا أن فتاة جميلة مثل هذه تكون بهذا القدر من الحدة والتشدد، لكن عيناها المستديرتان، أنفها الصغير المستقيم، خدودها الحمراء وفمها الممتلئ، جميعها ظهرت عليها ملامح الحدة والعصبية.

أجابتها مدام وو، "لكن لما لا يكون هكذا؟"

قالت هذه وهى تهمس، "إذن أنت لا تمانعى؟". اختفت فجأة مظاهر الحدة من صوتها وارتخت ملامحها.

قالت المدام، "ولماذا أعترض؟

"تعنين أنه فى إمكانى أن أعيش هنا – فى ذلك المنزل العظيم – وأن أُدعى السيدة الثالثة – وعندما ألد طفلا...".

"أنا لا أرغب أبدًا أن يصبح أى طفل ينتسب إلى هذا المنزل يكون غير شرعى، هذا لا يليق باسمنا وسمعتنا النبيلة. أنت الوعاء المناسب لتلقى البذار ويجب أن يتم تكريمك".

أخذت ياسمين تحملق فيها بأعين مدورة، ثم بدأت فى البكاء والنحيب بنشيج خشن، "كنت أظن أنك سوف تكرهيننى، كنت مستعدة أن أواجه غضبك، لكنى الآن لا أدرى ماذا أفعل".

"لست فى حاجة لفعل أى شىء"، قالت المدام هذا بكل هدوء، "سوف أدعو خادمة تقودك إلى الغرف التى قمت بتخصيصها لك، وهو جناح صغير يتكون من غرفتين تقعان على يسار جناح سيدنا، أما السيدة الثانية فهى مخصص له جناح على يمين جناح سيدى، وليس هناك ما يدعو أن تتقابلا. سوف أذهب الآن إلى سيدى لأخبره بقدومك".

ترددت قليلا ثم قالت بصراحتها المعهودة، "سوف تلاحظين أنه إنسان عادل، إذا ترك غليونه عندك فهذه هى الرسالة، وإذا غادرك والغليون فى يده فلا تغضبى. هذا هو طلبى فى مقابل تحقيق إيوائك هنا. لا أريد أن تجلبى إلى هنا أى نوع من الغضب".

أخذت بعد ذلك تنظر نحو المرأة الساكنة التى جلست بجوار ياسمين دون أن تنطق بحرف واحد، "وهذه، هل هى والدتك؟"

فتحت المرأة فمها لتتكلم، لكن ياسمين سبقتها، "إنها تنتمى للمنزل الذى حضرت منه".

"دعيها إذن تعود إليه". ثم دفعت يدها فى صدرها وأخرجت بعض النقود الفضية ووضعتها على المائدة. أخذت هذه تلمع وتبرق، لذا لم تجد المرأة العجوز من نفسها سوى أن تنحنى عدة مرات أمام المدام.

لكن كل هذا تم مقاطعته بما فعلته ياسمين، فقد سقطت على ركبتيها أمام مدام وو وأخذت تنطح الأرض بجبهتها قائلة، "لقد قالوا إنك إنسانة عادلة، لكنى الآن عرفت أنك أيضًا رحيمة".

ارتفع اللون الأحمر من رقبة مدام وو وسرح حتى وصل إلى خديها، "لو كنت قد حضرت فى يوم آخر ربما وجدتينى غير هذا على الإطلاق، لكن هذا اليوم يختلف عن أى يوم آخر".

نهضت ورفعت الفتاة لتقف على قدميها وغادرت المكان سريعًا.

أخبرت نفسها، "إننى إنسانة شريرة، فأنا لا أهتم بعدد النسوة اللاتى يحضرن إلى هذا المنزل، قلبى ممتلئ". توقفت، متوقعة الحصول على إجابة عن هذا التساؤل، لكن لم تكن هناك إجابة، فقط هو السلام الشامل الذى حل فى قلبها، "لو كنت قد اكتشفتك أثناء حياتك، فهل كان الصمت قد حل بيننا هكذا؟"

مع ذلك هو لم يجب، فابتسمت من أجل هذا الصمت، على الرغم من أنه روح فإنه خجول للغاية فيما يختص بموضوعات الحب. لقد سيطرت عليه عادات حياته، لكن الصمت كسرت هالته بعد لحظات قليلة وهى تخطو داخل الجناح الرئيسى. رأت ثلاث رجال يقفون هناك، كان منظرهم محترمًا، ويرتدون ملابس لائقة. أداروا ظهورهم ما إن اقتربت ناحيتهم مدعين أنهم لم يشاهدوها، كما لو كانت شابة صغيرة. كانت تلك تحية مقبولة منهم، لكن هى استبعدت ذلك جانبًا. قالت لهم، "أنا مدام وو، هل لكم حاجة معينة هنا؟"

استداروا جانبًا عند سماعهم ذلك، قال كبيرهم بأدب جم، وهو يحييها دون أن ينظر إليها، "جئنا نبحث عن مدام وو، نود أن نسألها عما إذا كان الميت له الحق فى الانتقام ممن قتلوه أم لا؟ فعصابة الخضر هؤلاء هم من العناصر الخطرة التى تهدد كل مجتمعنا ومدينتنا. هم لم يقتلوا إنسانًا من قبل. هو صحيح كان أجنبيًا وقسًا، لكن إذا بدأوا فى قتل الأجانب والقسس اليوم فسوف يأتى علينا الدور ونقتل نحن أيضًا فى الغد. أليس من حق المدينة أن تبحث عن العدالة نيابة عن هذا الغريب؟ إذا كان هذا صحيحًا، هل يمكن للمدام أن توجه الاتهام؟"

كان هناك نوع من الاحتجاج يجتاح عقلها، شعرت بعينى أندريه ترمقها، وبكل حدة ترفض الانتقام، لذا تحدثت على الفور، "بالتأكيد هو لم يطلب الانتقام من قاتليه، هو دائماً ما كان يتحدث عن الصفح عمن فعلوا به ما لا يدرون، لكن من هم هؤلاء اللصوص؟"

"إنهم أسوأ نخبة من شباب هذه المدينة، هم مجموعة من المغامرين الذين لا يودون أن ينهضوا نتيجة لعملهم الشريف، لكن عن طريق تخويف الآخرين".

سألت متعجبة، "هل هناك الكثير من شاكلتهم؟"

ضحك الرجل بأدب احتراماً لها، "هناك الكثير منهم هذه الأيام"

"لماذا تحدث مثل هذه الأمور؟"

قال واحد آخر منهم، وهو رجل قصير وجهه مجعد لكن شعره ما زال لونه أسود "بسبب أوقاتنا السيئة هذه الأيام". وقفت هى تحت الشمس الساطعة مرتدية فستانها الوردى، كان هناك إعجاب فى عيون الرجال، لكنها لم تنتبه لذلك، فهى تعدت مرحلة الاهتمام بإعجاب الرجال. تساءلت، "ما الذى يجعل هذه الأوقات سيئة؟". هى تعلم الإجابة بالطبع، لكنها مع ذلك تساءلت.

قال كبيرهم، "سيدتى، لقد عشت أنت طوال عمرك وراء تلك الجدران العالية، لا تدرين كيف تسير أمور العالم كله، تلك التى تتقلب وسط الفوضى والاضطرابات المتنوعة. لقد بدأت تلك الاضطرابات فى بعض البلدان الشريرة والتى تهددها الحروب والخراب، لكن لا أحد يستطيع الهرب. هذه الاضطرابات تجعل الصغار فى العمر غير مستقرين. هم دائمًا ما يتساءلون لماذا هم مضطرون أن يعيشوا فى ظل أنظمة الحكم القديمة التى يجب أن تتغير حتماً، أيضًا هم ليس لديهم الجديد الذى يمكن أن يتقدموا به، لذلك هم يرفضون القديم ويأملون فى تقديم الجديد، ثم يعيشون بلا قانون يحكمهم"

نظرت إلى هؤلاء الرجال، ربما ديدنها هو الشك فى أى شىء، لكنها الآن متأكدة مما قد يخطر على بال أندريه، لذا قالت، "إنه لا يرحب أبداً بالانتقام من قاتليه".

انحنوا أمامها وغادروا، لكنها أحست بنوع من القلق يجتاحها بعد رحيلهم. تحركت باحثة عن السيد وو، لعلها تستطيع أن تتطلع على أحواله هذه الأيام، وهى تسير أخذت تفكر فيما قاله هؤلاء الرجال، هل كان من الحكمة أن ترسل أبناءها إلى تلك البلدان الخارجية المضطربة خلال تلك الأوقات السيئة؟

فكرت فى نفسها، "لو كنت بمفردى إذن لأصابنى مزيد من الخوف". لكنها لم تكن بمفردها. بهذه المشاعر المريحة تذكرت أنها قالت بأنها سوف تعلن وصول ياسمين للسيد وو، لذا تحركت إلى الأمام.

* * *

دلفت إلى بوابة القمر ورأت السيد وو وهو ينكش الأرض المزروعة بنبات الريح بمؤخرة غليونه النحاسى. كان يرتدى معطفًا مخططًا من الساتان الأزرق وينتعل حذاءه المبطن بالحرير. كان أنحف عوداً عما عهدته سابقًا، فى شبابه كان ملىء القوام، وفى منتصف عمره لم يزد عليه سوى بعض السمنة، الآن بدا نحيفًا والسمنة الداخلية بدأت فى الاختفاء والتوارى، أما بشرته البنية فإنها بدأت فى الارتخاء.

سألته بكل أدب، "هل أنت بخير يا والد أبنائى؟"

"إنى فى أفضل حال، أشكرك يا والدة أبنائى"، واستمر فى تقليب الأرض.

"أنت سوف تدمر غليونك"

"كنت أحاول أن أختبر جذور نبات الريح لأرى ما إذا كانت قد تأثرت أم لا. لقد هبط علينا مطر عنيف، لذا أخشى أن تكون الجذور قد أصابها العطب".

"هذه الأرض ذات صرف جيد، ألا تتذكر أننا سورنا المكان يوم مولد تسيمو، ورفعنا من مقدار ارتفاع الجدران بحيث يمكننى أن أشاهد نبات الأوركيديا من مخدعى".

"أنت تتذكرين كل شيء، هل نجلس هنا أم في الداخل؟ ربما من الأفضل أن ندخل، فالرياح الباردة تهب وتجمد الأقدام"

شعرت بالاندهاش لأنها لا تشعر بنوع من الغرابة وهي في حضرته، بالتأكيد هي لا تستطيع أن تشرح له مشاعرها فيما يختص بأندريه، سوف يعلق على ذلك بقوله ، تفكرين في إنسان غريب؟ قس؟ ميت؟

تبعت السيد وو إلى الغرفة الرئيسية، حيث اقتطعت الشمس مربعًا كبيرًا بجوار الباب المفتوح، شعرت هي بمشاعرها القديمة نفسها. مع ورود هذه الخواطر على ذهنها، اشتعل في داخلها نوع من الشفقة على السيد وو. إنه شيء محزن أنها لم تستطع أن تحبه، لقد حرمت هذا الرجل من حقه في الحياة، فليس هناك شيء منحته إياه سواء أكان جسدها والأبناء يعتبر كافيًا مقابل قلبها الموصود قبالته. كان عذرها الوحيد أن كليهما ارتبط بالآخر دون موافقة الآخر الطوعية. هي فعلت كل جهدها لإرضائه، لكن لو كانت قد اختارته بملء إرادتها، إذن لما غفرت لنفسها. لا شيء يمكن أن يعوض الرجل عن نقص الحب الذي تبديه المرأة التي أصبحت زوجته.

فكرت، "لذلك يجب أن أهب له بعض الحب"

تحدثت معه بكل هدوء، "منذ وقت قليل كنت أتحدث مع الفتاة ياسمين". جلست على يسار المائدة أمام منتصف الجدار المقابل واتخذ هو لنفسه المقعد الذي يقع على اليمين، وكان هذا أسلوب جلستهما سويًا في أوقات العصارى في السابق وهما يتناقشان في الأمور المشتركة الخاصة بالعائلة.

انشغل السيد وو بغليونه، لاحظت بفطنتها أنه خائف منها. في أيام أخرى ربما كانت هذه الملاحظة جديرة بأن تبعث بالسرور في قلبها، إنها لم تكن تكره مشاعر الخوف التي كان يبديها الآخرون وهم في حضرتها وتتقبلها كنصيب مستحق لها تميز أفضليتها، لكنها الآن شعرت بالحزن وهي تشاهد نظراته المختلسة والرعدة الخفيفة التي سرت في يديه الضخمتين. عندما يكون هناك خوف يهرب الحب فورًا. أندريه لم يخشها أبدًا،

هى أيضًا لم تخفه، لقد فهمت الآن، بمشاعر لا يصاحبها أى نوع من الأسف أن السيد وو لم يحبها على الإطلاق وإلا ما كان بهذا القدر من الخوف منها.

قالت له، "أرجوك أخبرنى عن حقيقة مشاعرك بالنسبة لهذه الفتاة". باللهجة الودية التى بها تحدثت، نظر نحوها عبر المائدة، لاحظت فى عينيه لمحة من الخجل لم تشاهد مثيلا لها من قبل، قال، "أعرف كيف تبدو هذه الفتاة فى نظرك، بالطبع هى من بيئة منخفضة بكل المقاييس. أنا أدرك ذلك، لكنى أشعر بالأسف من أجلها، فما هى فرصتها فى الحياة على أية حال. قصة حياتها محزنة فى الحقيقة، يا لها من طفلة مسكينة!"

قالت بكل رقة، "أخبرنى عما عرفته من قصة حياتها". كان هذا البيت العظيم يحفل بسكون غريب، لدرجة أن المرء من الممكن أن يظن أنه لا يحتوى سواهما، فالجدران سميكة والجناح يقود إلى الجناح الآخر، وفى هذه الغرفة الواسعة، صفت الموائد والمقاعد الثقيلة كما كان وضع مثيل لها من عدة قرون سابقة، وهما الاثنان كانا ضمن سلسلة طويلة من البشر الذين عاشوا قبلا تحت ظل هذا السقف العظيم الواسع. لكن هناك شيء جديد بزغ فى أيامنا هذه، لقد تم كسر نظم المعيشة الأولى وهدمها.

قال بسمت الاعتذار، "نعم، طبعًا، إنها ليست فتاة عادية، ياسمين هذه"

قالت له وهى تستخدم أسلوبها الجديد البالغ فى رقته، "إذا كانت هى بالفعل قد اكتسبت حبك، إذن هى فى الواقع إنسانة غير عادية".

بدا مبهوتًا، "هل تشعرين أنك بصحة جيدة يا أم أولادى؟ صوتك يبدو أضعف مما اعتدت عليه".

"أنا لم أشعر من قبل أننى فى أفضل حال مما أنا عليه الآن، أخبرنى بمعلومات أدق عن هذه الفتاة التى أنت أحببتها".

تردد، "أنا لست متأكدًا أننى أحببتها، هذا يعنى أننى لم أشعر معها بالحب نفسه الذى كنت أشعر به حيالك. لست أشعر بأى نوع من الاحترام لها كما كنت أحترمك وأقدرك.

أنا لست معجبًا بها، هى جاهلة، ولا يمكن بالطبع أن أطلب نصيحتها فى أى أمر من الأمور".

شعر براحة عميقة عندما لاحظ أن وجه مدام وو ودوداً أكثر من المعتاد وعينيها تشجعانه. إنها ليست غاضبة بالمرة، "إن عقلك راجح جداً، هل أستمر؟"

"أرجوك افعل يا والد أبنائى، أخبرنى كيف أنها تؤثر فيك، بذلك يمكن أن أدلك ما إذا كنت تحبها أم لا".

"لم أنت مهتمة بهذا الموضوع؟"

"ضع الموضوع هكذا، وهو أننى أشعر بالندم لأننى وضعت شيومنج فى طريقك"

قال بكل أدب، "لقد كنت تقصدين نفعًا لى"

"لقد تصرفت بأنانية"

هذه هى المرة الأولى التى فيها تعترف أنها قد أخطأت فى تصرف ما، وقد أثر فيه ذلك.

قال لها بأسلوبه المندفع القديم نفسه، "لكن ولا واحدة تفوقك، وأقولها مرة أخرى إنه لولا بلوغك سن الأربعين، لما حاولت أن أعرف غيرك من النساء".

ابتسمت مرة أخرى، "يا للأسف، فليس أمام المرأة سوى الاختيار ما بين احتفالها ببلوغها سن الأربعين أو الموت". لو كانت قد أحبته بالفعل إذن لفضلت الموت على أن تتركه لياسمين هذه.

قال بأدب جم، "أرجوك لا تفكرى أبداً فى الموت. حسنًا، أنت تقولين كيف أثرت فى هذه الفتاة - إنها تشعرنى بأننى رجل قوى، نعم هذا هو تأثيرها على".

كررت، "قوى"

"إنها صغيرة الحجم، جاهلة جداً، وضعيفة". زحفت على وجهه ابتسامة كثيفة ناعمة، "لم يهتم بها أحد من قبل. فى الحقيقة هى طفلة كبيرة، وليس لها مأوى ثابت ولم يفهمها أحد من قبل. هى تبدو فى نظرى بسيطة وعادية، لكنها عبارة عن شعلة من العواطف الجياشة، إنها فى حاجة لمن يأخذ بيديها دائماً".

استمعت له المدام باندهاش بالغ، فهى لم تستمع إليه من قبل إلا ويتحدث فقط عن احتياجاته ورغائبه.

صاحت، "هل أنت بالفعل تحبها؟"

كان هناك نوع من الإعجاب فى صوتها، لذا استجاب السيد وو لذلك بكل فخر وتواضع، "إذا ما كنت قد أخبرتك به هو ما يدل على الحب، إذن أنا أحبها".

لم يكونا متقاربين إلى بعضهما كما هو الحال اليوم، إنها لم تكن متأكدة على الإطلاق أنه يمتلك قلباً فى صدره، أيضاً هى أصبحت مخلوقة جديدة. هذا الاكتشاف أصاب وجدانها باندهاش بالغ. لم يكن الأمر محتاجاً إلى شخص مثل أندريه لكى يوقظ الحب فى مشاعرها، لكن هذه الياسمين ، هذه العامية الصغيرة، بنت الشارع، هذه الجاهلة ذات البراءة من النوع الأرضى، استطاعت أن توقظ فى قلب السيد وو مشاعر الحب نفسها، هذه بصراحة معجزة بكل المقاييس تحدث أما عينيها.

قال، "أنت طبعاً لا تمانعين؟"، التفت إليها وفى عينيه نظرة توسلية.

قالت بسرعة، "أنا سعيدة بذلك"

نهضا سريعا وتقابلا فى المنتصف تحت المنطقة المشمسة من الغرفة، دفء مشاعرها انزاح عليه، لذا أمسك يدها، لذا وللحظة وجيزة شعرا باتحاد وثيق، عيناه كانتا غارقتين فى بحار عينيها، كانت تتمنى أن تخبره لماذا هى سعيدة بشأنه، ولماذا هما متقاربان هكذا. تمنت أن تخبره أنها تفهم دقائق هذه المعجزة التى نبعت داخله، وأن خلاصتها هى الحب، سواء أكان مصدرها هو رجل عظيم أو فتاة الماخور، قس أو

عاهرة، فالمعجزة هى المعجزة، لقد سارت إليها مختبئة فى أجنحة سرية، ووصلت إليه فى بيت من بيوت الأزهار وقامت بتغييرهما سويًا، لكنها كانت على علم راسخ أنه لن يفهم معايير هذه المعجزة.

قال، "ليس هناك امرأة على ظهر الدنيا تشبهك"

وافقته، "ربما يكون هذا صحيحًا"، وبكل رقة سحبت يدها من يده.

فى تلك اللحظة بالذات، حضرت إليهما ينج، وطبقًا لعادتها، اختلست النظر من فرجة الباب لكى ترى ماذا يفعلان. اندهشت أولا، ثم شعرت بالسرور لأنها لاحظت أنهما يمسكان أيدى بعضهما. بالتأكيد هذا يعنى عودة الوفاق بينهما وأن فتاة الماخور سوف تطرد شر طردة! رجعت إلى الوراء خطوة ثم سعلت، ثم ظهرت مرة أخرى لكى تدلى برسالتها.

"سيدتى، أتى رجل يجرى وهو عند الباب الآن يقول إن مدام كانج ستلد الآن وهى فى حالة سيئة. السيد كانج يدعوك أن تحضرى لتكونى بجوار صديقتك"

قامت مدام وو على الفور، وكانت قد عادت إلى مقعدها عندما سمعت سعال ينج، قالت، "يا للسماء، هكذا إذن الأمر، ألم يدلى الرجل بنوعية المتاعب؟"

"الطفل يرفض أن يولد، لا يريد أن يهجر الرحم"

صاحت، "يجب أن أذهب إليها حالا"، أسرعت ناحية الباب ثم توقفت لتقول للسيد وو، "وأنت يا والد أبنائى، أرجوك اطمئن، سوف تأتى الفتاة إلى جناحك بكل هدوء، وأنا مستعدة أن أخرس أى لسان يتحدث عنكما بسوء، كل ما أطلبه منك هو أن تسمح لشيومنج أن ترحل".

قال وهو كله عطف، "فى الحقيقة – أنا أرغب أن تستمر فى بقائها هنا. إنها إنسانة طيبة، وإلى أين تذهب الآن إذا أخرجناها من هنا؟"

"أنا لن أخرجها بعيداً، عندما أعود سوف أقرر ماذا سوف أفعل بشأنها، لكن فى هذه اللحظة دعها تنتقل إلى جناحى". ثم التفتت إلى ينج، "هل تسمعين ما أقول يا ينج، نفذى ما فيه".

كانت ينج فى تلك اللحظة ملتصقة بالحائط، وأظافرها منغرسة فى حجارة الحائط، قالت وهى تنوح، همست"هل سوف تبقى العاهرة؟"

"إنها ليست كذلك، إنها اختيار سيدنا"

بهذه الكلمات غادرت المكان سريعاً. بعد لحظات كانت تمتطى مركبتها والحمالون يجرون بها فى الشوارع، كانوا يصيحون وينشدون، "نرجو منكم النور... نرجو منكم النور.." وكان الناس يتفرقون بسبب تلك الصيحة التى تدل على الطارئ فى لهجتهم.

(١٢)

كان منزل السيد كانج فى حالة من الفوضى والاضطراب، هذا ما شاهدته ولاحظته مدام وو ما إن حطت مركبتها بجوار الجناح الأمامى للمنزل. كانت الفتيات الصغيرات من العبيد والخادمات يجرين هنا وهناك، يصحن ويلمن بعضهن، بينما وقف الخدم من الرجال صامتين ذاهلين. عندما شاهد كبير الخدم مدام وو أسرع إليها وانحنى متوسلا لها أن تسرع للدخول إلى الجناح الداخلى. تبعته وبمرآها توقف على الفور هذا الارتباك السائد، كانت كل العيون منصبة عليها بأمل متجدد، فحكمتها معروفة وحبها لربة هذا المنزل معروف للجميع.

واحدة من النساء همست لأخرى، "إنها تقرأ كتباً كثيرة"، من خلال هذه الكتب، هم تمنوا أن تعثر على الطريقة الملائمة لإنقاذ حياة السيدة كانج.

فى الغرفة الرئيسية للجناح الداخلى، جلس السيد كانج يبكى – لقد شاهدته مدام وو كثيراً على مدى السنوات الماضية، لكنها لم تخاطبه يوماً بكلمة، بل ولم تسمع صوته يخاطبها. عبر الغرفة انحنيا كما يفعل الأقرباء البعيدون، لكنها عرفت عنه كل شىء عن طريق صديقتها، عرفت ما يفضله من طعام، تعلم أنه يفضل أكل البط المتبل بالثوم والنبيذ، وأنه لا يحب البيض الحامض، هو أيضاً يستطيع أن يلتهم سبع قطع من لحم الطيور المحشوة فى الوجبة الواحدة، وأنه يلزمه أن يشرب قنينتين من الخمر حتى يسكر، وعندما يسكر يذهب لينام ولا يتعارك مع أحد كما يحدث مع بعض السكارى، أيضاً هو دائماً ما يتفاخر بعدد الأطفال الذين ساهم فى إنجابهم، لكن إذا بكى أحدهم فى محضره فإنه يطرده فوراً من أمامه. تعلم أنه يترك خفيه عند سرير زوجته كل ليلة، وعندما لا يحدث ذلك، فهذا يعنى أنه ذاهب إلى بيت من بيوت الأزهار، لذا تسارع زوجته

بالبكاء والعويل حتى منتصف الليل، وهذا يغضبه جداً. تعلم أن لديه حسنة بجوار قلبه مما يعنى أنه طويل العمر، تعرف أيضاً أنه يعانى من كثرة الرياح التى تتزاحم داخل أحشائه، تعلم أنه عندما تهب الرياح الشمالية المحملة برمال الصحراء الدقيقة، فإن جفونه تلتهب، أيضاً خدوده تنتثر عليها حبوب حمراء إذا أكل الكبوريا، لكنه مغرم بالتهام الكبوريا. كل هذا يعنى أن مدام وو تعرف كل ما يختص بهذا الرجل - ذلك الذى جلس الآن وقد أرسى يديه السمينتين على حجره وانخرط فى البكاء لأن زوجته مشرفة على الموت - لكنه لا يعرف شيئًا عنها سوى ما يجرى على ألسنة الناس عامة مثل أنها اختارت محظية لزوجها عندما بلغت الأربعين من عمرها.

نهض عندما رآها، والدموع الصفراء تنهال على خديه المستديرين، ثم نهنه، "إنها... إنها..".

قالت مدام وو وهى تشيح بوجهها بعيداً عنه، "أنا أعرف". اندهشت من صديقتها التى وقعت فى غرام هذا الرجل المكور، فقط الآن هى أدركت كم للحب من طرق عجيبة. انتقلت سريعًا نحو الستائر الساتانية التى تفصل هذه الغرفة عن غرفة النوم، "سوف أدخل على الفور إذا سمحت".

أخذ يتهته، "ادخلى... من فضلك ادخلى... أنقذى حياتها"

دخلت سريعًا إلى غرفة نوم السيدة كانج، كانت رائحة الدم المبدد الساخن تملأ الهواء، بينما هناك لمبة زيت تتذبذب معلقة على جانب من السرير الضخم الذى رقدت عليه مدام كانج، وفوق جسدها انحنت امرأة عجوز، وهناك خادمتان، واحدة عن القدم والأخرى عند الرأس. أزاحت مدام وو الخادمة التى عند الرأس وأخذت تنظر لصديقتها المشرفة على الموت.

قالت برقة، "متشن"

ببطء فتحت مدام كانج عينيها، "أنت"، ثم همست، "حضرت..." ثم تغضن وجهها، "إننى أموت...".

تناولت مدام وو رسغ صديقتها بين يديها، فى الحقيقة كان النبض ضعيفاً، لكنها لم تعلن ذلك، ثم أصدرت أمراً للقابلة، "يكفيك جذباً للطفل"

نظرت هذه إليها وصاحت، "لكنه ولد"

أمرتها مدام وو، "اتركينا بمفردنا، اخرجوا جميعًا، كلكم"

كلهن أخذن يحدقن فيها، صاحت القابلة العجوز وهى تضم شفتيها غضبًا "هل تتحملين المسئولية؟"

"نعم أتحمل المسئولية"

وقفت فى انتظار تنفيذ هذه التعليمات وخرجوا بالفعل، ثم حل الصمت، انحنت فوق صديقتها وسألتها بصوت واضح، "متشن، هل تسمعينني؟". كانت مدام كانج مغمضة العينين وبمجهود جبار استطاعت أن تفتح جفنيها. لم تتحدث لكن مدام وو لاحظت علامات الصحو فى أعماقها.

استمرت هى فى القول، "سوف ترقدين هنا بكل هدوء إلى أن أخرج لكى أحضر لك بعض الشوربة لتحتسيها، فى الوقت نفسه وسوف تشعرين بالقوة مرة أخرى، عندما يحدث هذا سوف أساعدك لتلدى هذا الطفل، وبيننا سوف يكون هذا الموضوع سهلا".

ارتعشت جفون مدام كانج ثم أغمضت عينيها وظهر ظل ابتسامة خفيفة على شفتيها. غطتها مدام وو بعناية ثم خرجت إلى الغرفة المجاورة. لقد رحلت القابلة غاضبة، لكن الخادمتين كانتا هناك تصبان الشاى للسيد كانج وتروحان عليه، وترجوانه أن يهدأ. استدارا ما إن خرجت مدام وو، لكنها لم تخاطبهما بل خاطبت السيد كانج.

قالت له، "أريد مساعدتك"

"هل سوف تعيش؟"

"إذا ساعدتنى"

"أى شىء.. أى شىء"

أخرسته، "هش"

ثم أصدرت أمراً للخادمة، "أحضرى لى طبقاً به أفضل أنواع الشوربة عندكم اليوم".

"لدينا شوربة لحم، شوربة فراخ وشوربة سمك"

"إذن أحضرى شوربة السمك وأضيفى عليها ملعقتين من السكر الأحمر وتكون ساخنة".

ثم استدارت إلى السيد كانج قائلة، "عليك أنت أن تحضر لى الشوربة، وليست واحدة منهن".

"لكن أنا ...أنا أؤكد لك أننى أرتبك سريعاً"

رددت، "سوف تحضرها"

دخلت إلى الغرفة الداخلية مرة أخرى، ثم تناولت رسغ مدام كانج مرة أخرى، النبض كان كما هو لكن ليس أضعف. وقفت فى الانتظار، ثم سريعاً سمعت صوت خطوات السيد كانج الثقيلة وهو يتقدم ليدخل الغرفة بين يديه كان يحمل جرة بها الشوربة.

قررت أن تضع هذه الشوربة فى براد نحاسى وجدته، وبكل حرص صبت الشوربة فى البراد، ثم اقتربت ناحية السرير.

قالت، "متشن، ليس عليك سوى أن تبتلعى الشوربة"، ثم أخذت تختبر سخونة الشوربة بفمها، ثم وضعت بزبوز البراد فى فم صديقتها وجعلت الشوربة تتدفق فى فمها. لم تفتح مدام كانج عينيها وأخذت تبتلع الشوربة على دفعات، ربما خمس أو ست مرات.

أمرتها مدام وو، "الآن استريحى"

لم تتحدث مع السيد كانج، فقط تركته واقفًا هناك يراقب. وضعت البراد على المائدة ثم جذبت كميها إلى أعلى ووضعت على وسطها فوطة كانت تتدلى على مقعد، هو كان يراقبها وفى عينيه نظرة رعب بالغة.

"لا يجب أن أكون حاضراً هنا"

ثم أشارت له أن يقترب منها. فى ذعر بالغ ورهيب أطاعها. لقد استطاع أن يساهم فى إنتاج العديد من الأطفال، لكنه لم ير من قبل عملية الإنجاب نفسها، ففى نوع من الإهمال واقتناص اللذة كان عليه فقط أن يؤدى دوره البسيط فى عملية الإنجاب.

أزاحت مدام وو الأغطية وانحنت على صديقتها، قالت لها بوضوح، "متشن، لا تبذلى جهداً، استريحى تماماً، وأنا على بذل كل الجهد".

لكن على الرغم من كلماتها، ما إن مست البشرة الملتهبة، حتى صرخت مدام كانج، فى الحال وضع السيد كانج يديه على فمه وأدار وجهه.

قالت له مدام وو، "أمسك يديها، امنحها بعضاً من قوتك"

لم يكن فى قدرته أن يعصى أوامرها، عيناها القويتان كانتا مركزتين عليه بنظرة ثابتة – تقدم للأمام وهو يرتعش وأمسك بيدى زوجته. هذا، وهذا فقط، جعل مدام كانج تفتح عينيها، لقد شعرت بيديه التى تعرفها جيداً، لذا فتحت عينيها، تلجلجت، "أنت... أنت والد أبنائى!"

فى تلك اللحظة التى تم فيها التعارف، أدارت مدام وو يديها النحيلتين حول رأس الطفل فصرخت مدام كانج، فانفجر العرق مدراراً من وجه السيد كانج، أخذ يئن وهو قابض على ذراعى زوجته، قال بين أسنانه، "إذا فقط عشت الآن، فإننى أقسم... أقسم...".

تمتمت، "تقسم... لا شيء... أنا سعيدة... طفلك..."

صاح، "أطفالى لا شيء بجانبك، إذا رحلت سوف أشنق نفسى"، وانهمر العرق من وجهه.

بصوت خافت، صادر كأنه نوع من التنفس، جعل مدام وو ترتعب مما هى أقدمت عليه، قالت مدام كانج، "إذن...أنت تحبنى؟"

صاح، "أنت عقلى وقلبى.. أرجوك لا تموتى.. لا تموتى"

صاحت هى بصوت عال، "لن أموت"

فى تلك اللحظة، استطاعت مدام وو أن تجذب الطفل وتنتزعه انتزاعًا من أحشاء الأم، تبع ذلك دفق كبير من الدم، لكن مدام وو كتمته بكمية من القطن كانت القابلة قد وضعته على السرير.

السيد كانج وهو ممسك بيدى زوجته، قال، "هل انتهى الأمر؟"

قالت مدام وو، "انتهى"

همست مدام كانج، "والطفل؟"

لفت مدام وو الطفل المزرق فى الفوطة التى انتزعتها من وسطها، قالت بهدوء، "الطفل ميت، لكن أنتما لستما فى حاجة إلى طفل جديد".

أخذ هو يتمتم، "بالطبع لا، متشن، أرجوك - لا أطفال آخرين، أبدًا، أبدًا، أنا أعدك...".

غمغمت مدام وو "هش، لا تعد بشىء أنت غير قادر على الوفاء به". لمست جسم البراد، لاحظت أن الشوربة ما زالت دافئة، لذا وضعت البزبوز فى فم صديقتها، "اشربى، لقد وعدت أن تعيشى".

أخذت مدام كانج فى ارتشاف الشوربة، ثم أغلقت عينيها مرة أخرى، لكن نبضها الذى جسته مدام وو، كان أفضل وتحسن بالفعل.

أشارت مدام وو للسيد كانج أن يفلت يد زوجته، "يجب أن نتركها لتنام الآن، سوف أجلس أنا بجوارها، أما أنت فخذ هذا الطفل وادفنه".

حملت الطفل الميت ووضعته بين يدى السيد كانج.

قالت له، "دع هذا الطفل يكون هو الدليل على ما أخبرتها به، تذكر وزنه بين يديك، تذكر أنه مات لكى ينقذ زوجتك... من أجلك".

"نعم، سوف أتذكر، أعدك أننى سوف أتذكر"

"لا تعد بشىء لا تستطيع الوفاء به"، رددت مدام وو ذلك للمرة الثانية.

خلال بقية هذا اليوم كذلك الليلة التالية، ظلت هى بجوار سرير صديقتها. كان الخدم يحضرون لها الطعام والشاى الساخن، لكنها كانت تسمح لهم الوصول حتى الباب فقط. أتى إليها السيد كانج ليشكرها، أيضًا لكى ينظر إلى زوجته وهى نائمة، فقد استغرقت مدام كانج فى نوم عميق حتى وهى تمتص الشوربة الدافئة. فى تلك الشوربة، وضعت مدام وو بعض الأعشاب التى يمكن أن تكثف من الدم وتمنع سيولته، ووضعت أيضًا بعض المساحيق النباتية التى تمنع تسمم الحمل. هذه الأمور كانت قد اطلعت عليها فى الكتب القديمة التى قرأتها، وهذه لم تكن من المعلومات الشائعة.

حضرت كل من منج ولين يى، لكن حتى لهؤلاء لم تسمح للدخول إلى والدتهما، فقط سمحت لكثير من الهواء يدخل من النافذة لأجل تنفسها هى وصديقتها. كان الهواء باردًا لكنها لم تشأ أن تأمر بإحضار منقد للفحم لكى لا يلوث الجو بدخان الفحم.

تحت اللحاف الحريرى، نامت مدام كانج، وقد تم تنظيفها وأعطيت لها الشوربة والأدوية كل ساعة أو ساعتين، وبمرور الوقت عادت إلى الحياة.

فى صباح اليوم التالى، عندما اطمأنت على نبض صديقتها، تركت الغرفة أخيرًا. فى الخارج كان السيد كانج جالسًا بمفرده. إنه لم يغتسل ولم يأكل أو ينام، وكل نوع من التظاهر والزيف غادره. كان تعبًا، خائفًا وممزقًا. شاهدته مدام وو بهذا الشكل فصعب عليها، لذا جلست على مقعد مجاور.

قال لها وهو يحنى رأسه، "لقد أنقذت حياتها"

قالت له بهدوء، "يجب أن لا تتعرض زوجتك لهذه المخاطر مرة أخرى"

"أنا أعد...."، لكن مدام وو رفعت يدها إلى أعلى

"هل تستطيع أن تحتفظ بهذا الوعد عندما تعود هى صحيحة مرة أخرى؟ وإذا حدث هذا، كيف يمكن أن تنفذه؟ هل أعيدها أنا إلى الحياة لكى تجرى أنت وتبرطع إلى بيوت الأزهار بصفة مستمرة؟ هل سوف تمنع عنها الأطفال لكى تنثر بذورك فى مكان آخر؟ شىء محزن أنها تحبك بهذا المقدار، إلا إذا كنت أنت بالفعل تحبها".

"أنا بالفعل أحبها"

"لكن ما مقدار هذا الحب"، ثم ضغطت عليه، "هل هو فيه الكفاية بحيث يمكن أن يحسن من نوعية حياتها؟". أخذ يحملق فيها بعينين كبيرتين، أضافت هى، "من الأفضل أن تموت هى بدلا من أن تشعر دائمًا بالعار".

"أنا لن ألحق بها عارًا فيما بعد". أخذ يجذب شفته بإصبعه، "أنا لم أكن أعلم... لم يخطر على بالى...هى لم تخبرنى بذلك أبدًا".

"تخبرك بماذا؟"، كانت هى تعلم بالطبع، لكن لمصلحة روحه ضغطت عليه لكى ينطق بها.

قال، "لم أكن أفهم الحياة، وكيف أنها تنبثق إلى الوجود بهذه المشقة البالغة- وهى تكلف الكثير".

وافقته، "فعلا، هى تكلف الكثير، لكن زوجتك تحبك أكثر من تلك التكاليف التى تضطر أن تدفعها"

"هل كانت تعانى بهذا الشكل كل مرة تلد فيها؟"

"أى معاناة تقصد؟"

"أن تقترب هكذا إلى حافة الموت"

"كل ولادات النساء هى اقتراب من حافة الموت، والآن بالنسبة لها، إما الولادة مرة أخرى أو الموت، وعليك أنت الاختيار، لكن لا يمكن اختيار كليهما".

وضع يديه فوق عينيه، "لا، أنا أختار لها الحياة.. دائمًا.. دائمًا"

نهضت بخفة أثناء قيامه بإخفاء وجهه، ربما لن تراه أو تحدثه مرة أخرى فى حياتها، حيث ينفصل الرجال عن النساء، ولم يكن هذا ضروريًا، فهذا الرجل الخشن البسيط أصبح مرعوبًا بسبب حبه لزوجته.

عادت مدام وو إلى منزلها، متعبة للغاية، تشعر بالاشمئزاز مما رأته وانغمست فيه، ولكى تستطيع أن تخطو داخل جناحها كان عليها أن تغتسل وترسى روحها، هنا كان أندريه يرافقها، يسير بجوارها يحادثها، هل يتساوى هذا الاتحاد الذى تعهده هنا مع القلب الساذج الذى يسكن فى شغاف السيد كانج الذى يحب زوجته؟

ذهبت إلى المكتبة والدفء يحيط بها، لقد أشعلت ينج منقد الفحم، وعند النافذة البعيدة تدفقت أشعة الشمس من الشراعات.

لو لم تكن على معرفة حقيقية بدفء العمر الذى سكن فى قلبها، إذن ما كانت قد تيسرت لها المقدرة لأن تنقذ حياة صديقتها. لقد غمرها الرعب وهى تناضل ضد الجسد، ضد رائحة الدم، تهديد الموت، قبح سمنة السيد كانج، وجهه الباكى، الاشمئزاز من جسده الكثيف، حقارة فكره، لكنها أدركت أن الحب وحده هو الذى أنقذها وأغاثها من هذه الأزمة.

أتت إليها ينج مسرعة مؤنبة، "أنت يا سيدتى – انظرى إلى معطفك، هناك دم كثير عليه – أنت شاحبة للغاية....".

أخذت تنظر لنفسها، شاهدت آثار الدم على ملابسها، وهى تلك التى كانت دائمًا ما تهتم بأناقتها ومنظرها، غمغمت، "لقد نسيت نفسى".

* * *

يجب أن نضع فى أذهاننا أن مدام وو لم تفهم بشكل كامل كل التغيرات التى طرأت عليها. فى الحقيقة، هى لم تكن تدرى أين وكيف تكون خطوتها التالية، لكن كل ما هى أكيدة منه هو أنها تسير فى طريق كله أنوار، وأينما رست قدماها فى عرض

هذا الطريق، فإن كل الأمور سوف تسير سيراً حسناً، لكن أى خطوة تخطوها فى الظلال المحيطة بالطريق، فإنها هى قطعاً سوف تضيع وتفقد نفسها فى تيه لا قرار له، والضوء الذى ينير لها الطريق، هو حبها لأندريه. إذا شاءت أن تتعرف على الخطوة التالية ليس عليها سوى أن تفكر فيه، فى الحال تعرف وتعلم.

لذا عندما أحضرت إليها ينج طفلة شيومنج فى اليوم التالى، شعرت بمقدار حنوها وعطفها على هذه الطفلة، فمن خلالها استطاعت هى أن تثبت وضع شيومنج، الغريبة، فى حضن منزل عائلة وو، لكن فى وقت سابق، ربما كانت قد وضعت فى اعتبارها أن هذه الطفلة ليست سوى حمل إضافى، وأن موضوع شيومنج ليس وراءه سوى التعب وإثارة المشاكل، أما الآن فهى لا تنظر إليها كعبء أو حمل، يجب عليها أن تتعامل مع الأم والطفلة كما يرشدها أندريه أن تفعل.

سألت ينج، "أين شيومنج؟"

"إنها تشغل نفسها بالعمل فى الحديقة والمطبخ"

"هل هى سعيدة؟"

"هذه المرأة لن تشعر بالسعادة أبداً، يجب أن نتخلص منها، إنه حظ سيئ أن يكون فى ظهرانيناوجه حزين باستمرار، هذا الأمر يجبن اللبن فى صدور المرضعات ويفزع الأطفال".

"دعى شيومنج تحضر إلى هنا"

حدث هذا فى اليوم التالى من حضورها من منزل مدام كانج. ما إن استيقظت حتى أرسلت خادمة إلى هناك لتطمئن على حالة صديقتها، وقد رجعت الخادمة محملة بالأخبار الطيبة. لقد استغرقت مدام كانج فى النوم بشكل جيد طوال الليل، هذا وقد توقف النزف، أما فى هذا الصباح، فقد استطاعت أن تلتهم طبقاً مليئاً بالأرز المختلط بالسكر الأحمر، الآن هى نائمة مرة أخرى.

كان النهار فى بدايته، ساكنًا ورماديًا، أما الشمس الساطعة التى عهدتها بالأمس غابت اليوم وانتشرت رائحة الضباب المنتشر الوافد من النهر معبئًا الهواء، كانت مدام وو تشتم روائحه بكل حبور. بجوارها داخل سلة، رقدت الطفلة الصغيرة تلاعب يديها الدقيقتين، تحملق فيهما ثم تفقدهما مجددًا. وهى تلاحظ هذه اللعبة، ضحكت مدام وو من قلبها.

فكرت، "يا لها من بدايات صغيرة التى ندخل بها العالم الرحب، إذن أنا قد رقدت فى مهد كهذا، أيضًا أندريه!". حاولت أن تتخيله وهو طفل صغير، أخذت تندهش من أحوال والدته فى ذلك الحين، لا شك أن أمه أدركت منذ البداية أحوال ابنها، عرفت أنه سوف ينمو ويكبر ليصبح بركة للآخرين.

من رحم هذا الصباح الرمادى الساكن ظهرت شيومنج وهى تتسلل خلال تلك البوابات الضخمة المغلقة لتتفادى البرد، أخذت مدام وو تراقبها وهى تتقدم، كانت هذه الفتاة تمثل وحدة مع ذلك الصباح الكابى الرمادى الساكن البارد، فوجهها الشاحب مغلق، كذلك شفتاها الباهتتان، أيضًا جفونها المتثاقلة فوق عيونها السود.

قالت لها مدام وو، "انظرى إلى طفلتك هذه، إنها تضحكنى، فهى تفقد يديها ثم تعثر عليها مرة أخرى وهكذا". اقتربت شيومنج وأخذت تراقبها. لاحظت مدام وو أنها لا تحب ابنتها.

فى يوم آخر، ربما رفضت مدام وو أن تتحدث وتعلق على ذلك، أو أن تدير رأسها بعيدًا معلنة لنفسها أن هذا الموضوع ليس من شأنها، ما إذا كانت هذه الفتاة الجاهلة تحب ابنتها أم لا، لكنها الآن تساءلت، "هل فعلا أنت لا تحبين هذه الطفلة؟"

"لا أحس أبدًا أنها قطعة منى"

"لكن مع ذلك، أنت التى أنجبتيها"

"حدث هذا ضد إرادتى"

صمتت المرأتان، كلاهما كان يراقب هذه الطفلة التى لا تدرى شيئًا. فى يوم آخر، ربما قامت مدام وو بتأنيب هذه الفتاة لأنها لا تحب ابنتها، لكن الحب كان يمارس عمله الآن فى تعليمها، لذا جلست فى مكانها صامتة.

يا ترى لماذا لا تحب هذه الفتاة ابنتها غير أنها لا تحب السيد وو؟ وكيف يمكن لها أن تحب السيد وو بينما قلبها مشغول بآخر؟

فجأة سألتها، "من ذاك الذى تحبينه؟"

لم تندهش وهى تلاحظ هذا الوجه أمامها وقد صبغ فجأة باللون الأحمر، حتى أذنيها الصغيرتين تحولت إلى اللون الأحمر.

قالت شيومنج، "أنا لا أحب أحدًا". كان كذبها مفضوحًا، لدرجة أن مدام وو ضحكت.

"الآن كيف يمكن لى أن أصدقك؟ خداك وأذناك يخبران بالحقيقة. هل شفتاك خائفة أن تنطق بالحقيقة؟ أنت لا تحبين هذه الطفلة - هذا يعنى بالطبع أنك لا تحبين والدها. حسنًا، دعى الأمور كما هى، فالحب لا يمكن أن يغصب، فمصدره هو السماء نفسها، لا يتم طلبه طوعًا أو أن يجهد الإنسان نفسه فى البحث عنه، وهل على أن ألومك من أجل هذا؟ إننى أدرك تمامًا الخطأ الذى ارتكبته فى حقك، لكن يوم أن أحضرتك إلى هنا، أنا نفسى لم أكن أفهم ما هو الحب. كنت أظن أنه يمكن للمرأة والرجل أن يتناسلا كما تفعل الحيوانات، لكنى أدرك الآن أن كليهما سوف يكره الآخر إذا أجبرا على التناسل كالحيوانات، لأننا جميعًا لسنا بالحيوانات، يمكن أن نرتبط سويًا بلمسة يد أو نظرة عين، بل حتى يمكن أن نحب الجسد الذى فنى ومات، فليس هو الجسد فقط الذى يربطنا سويًا".

كان هذا حديثًا عجيبًا، شيء مريع أن يصدر من فم مدام وو المشهورة بكونها واضحة تمامًا فى حديثها وأنها إنسانة عملية، لذا حدجتها شيومنج وهى تظن فى نفسها أنها تنظر إلى شبح، لكن مدام وو ليست قطعًا شبحًا، فعيناها كانتا تلمعان

وكل كيانها غارق فى حماس منقطع النظير على الرغم من نحـافته ودقته. لقد اكتسبت حياة جديدة، هذا ما أدركته شيومنج.

قالت مدام وو، "الآن يا شيومنج، اذكرى لى اسم من يشغل قلبك؟"

قالت شيـومنج وهى تضم طـرف معطفـهـا بإبهامها وإصبعها، "سوف أمـوت من العـار!"

"لن أدعك تموتين من العار"

بهذا التشجيع وكثير من التردد والشك، صدر من فمها بعض العبارات المتقطعة، "أنت... منحتنى كهدية... محظية إلى... رجل كبير فى العمر... لكن...". هنا توقفت.

"لكن هناك رجل آخر كنت ترحبين لو أعطيت له، أليس كذلك؟"، هزت شيـومنج رأسها موافقة.

"هل هو واحد من سكان هذا المنزل؟"

هزت شيومنج رأسها مرة أخرى.

"هل هو واحد من أبنائى؟"

هنا حدقت فيها شيومنج ثم انخرطت فى بكاء مر.

"إنه فنجمو، أليس كذلك؟". قالت مدام وو ذلك وهى متأكدة من تخمينها، بينما استمرت شيومنج فى النحيب.

يا لها من معضلة تبرز الآن، يا له من أمر صعب ذلك الذى يجرى ما بين النساء والرجال، كل هذا حدث بسبب غبائها، بدون حب!

"لا تبكى، هذا كله يعود إلى خطأى أنا، وعلى أن أصلح من أخطائى بشكل أو بآخر، لكن ليس واضحاً أمامى الآن الطريق الذى يجب أن أسلكه"

بهذا ركعت شيـومنج، ومست جبهتها ويداها الأرض، غمغمـت، "قلت لك إننى سوف أموت من العار، ليس هناك أى فائدة من مخلوقة مثلى".

"هناك نفع لكل إنسان". انحنت إليها مدام وو ورفعتها، "أنا سعيدة أنك قمت بإخبارى بحقيقة مشاعرك. إنه أمر جيد أن أعرف. الآن أطلب منك أن تظلى هنا فى هذا المنزل وتصبرى قليلا وسوف أعلم المسلك الصحيح مع الوقت، فى الوقت نفسه أرجو أن تساعدينى فى العناية بالبنات اللقيطات اللاتى تحملت مسئولية إعالتهن. سوف يكون فضل منك أن تساعدينى فى هذا الشأن، إنهن جميعًا هنا لكن ليس لدى الوقت الكافى لأن أهتم بهن ورعايتهن".

ما إن ذكرت مدام وو ذلك، حتى جففت شيومنج دموعها قائلة، "أنا سوف أرعى هؤلاء اللقطاء يا سيدتى، لما لا؟ إنهن أخوة لى"، ثم انحنت وتناولت طفلتها، "سوف آخذ معى هذه الطفلة، هى أيضًا لقيطة، بل هى يتيمة لأن أمها لا تستطيع أن تحبها".

لم تجبها مدام وو – أين يمكن تحقيق السعادة لشيومنج، هذا ما لا تدرى عنه شيئًا.

* * *

من الأجنحة الرئيسية للمنزل، أخذت مدام وو تفكر فى عائلتها، بينما تمر الأيام والشهور، فى يوم طرأ عليها فكر معين، "لو كنت أنا شريرة، إذن لسررت لكونى أشبه ذلك العنكبوت الذى ينسج خيوطه ويحيط بها كل الموجودين فى منزلنا هذا".

غنى طائر وسط أشجار البامبو، سمعت صوته غير المعتاد، علمت ما هو، فمرتين كل عام يفد إلى بلادهم هذا البلبل البنى القادم من الهند ويمر بهم. صوته غنائى خشن، هذا يعنى أن فصل الربيع على الأبواب، هذا كل ما فى الأمر.

أخذت تفكر، "وكيف يمكن لى أن أتحقق بأننى لست شريرة، وأن كل ما أظنه حسن هو بالفعل طيب وحسن؟"، وكما هى العادة، وضعت هذا التساؤل فى ذاكرتها أمام أندريه.

فى يوم ما، خطرت على بالها ذكريات محددة وواضحة للغاية، كانا هما الاثنان جالسين فى غرفة المكتبة نفسها التى تجلس فيها الآن، هو على جانب من المائدة الكبرى المشغولة، وهى على الجانب الآخر لكن ليست فى مواجهته لكى ينظرا عيون بعضهما لكن تفصلهما المائدة، وجوههما تواجه الأبواب المفتوحة للجناح. كان اليوم يومًا صحوًا يشبه يومنا هذا، الهواء شفاف وأشعة الشمس قوية لدرجة أن ألوان الأحجار التى كست أرضية الجناح، وهى ذات اللون الرمادى عادة، ظهر بها لون أزرق ووردى مع بعض اللمحات من اللون الفضى، أما نبات الأوركيديا فإنه كان يزهو بلونه القرمزى القاتم. فى البركة، كانت أسماك الجولدن فيش تندفع ضد أشعة الشمس الساقطة ثم تنحرف لتسقط فى الماء.

كان أندريه منهمكًا فى رواية أسطورة قديمة خاصة بسقوط الإنسان فى حبائل الشر، وقد حدث هذا بيد المرأة حواء، فهى التى أعطت آدم تلك الثمرة المحرمة.

قالت هى، "وكيف كان فى إمكان هذه المرأة أن تعرف أن تلك الثمرة محرمة؟"

"لقد همس لها بذلك روح شريرة تشكلت على هيئة ثعبان"

"لكن لماذا فعل هذا مع المرأة ولم يفعله مع الرجل؟"

"لأنه عرف أن فكرها وقلبها ليسا مركزين على الرجل، لكن على ملاحقة الحياة نفسها، بينما تلاحظى أن عقل الرجل وفكره دائمًا مشغولان بنفسه وذاته – هو بات سعيداً لأنه قد تحقق له الحصول على المرأة والحديقة الغناء، لم إذن يتعرض لإغراء أكثر من ذلك، فهو لديه كل ما يتمنى ويرغب. لكن المرأة يمكن إغواؤها مثلا بالحصول على جنة أفضل، على مكان أوسع، على أكثر مما تمتلكه، لأنها تعلم أن جسدها سوف ينتج كائنًا جديداً، ومن أجله، عليها أن تدبر وتخطط. المرأة لا تفكر فى نفسها، لكن فى الكثيرين الذين سوف يعبرون من خلال رحمها، ومن أجلهم هى مستعدة تمامًا لأن تستسلم للإغراء، ومن أجل مصلحتهم ليس هناك مانع عندها أن تقع فى الحبائل".

نظرت نحوه، تذكرت جيداً تلك النظـرة العميقة المملوءة حكمة وحـزنًا أيضًا، تلك التى برقت فى عينيه السوداوين،"كيف تسنى لك أن تفهم عقلية المرأة بهـذا القدر مـن العمـق؟"

"حدث هذا لأننى أعيش بمفردى، فمنذ وقت مبكـر من حياتى استطعـت أن أحرر نفسى".

"ولماذا حررت نفسك، لماذا استبعدت نفسك من تيار الحياة، ألا ننتمى نحن جميعاً لهذا التيار، هل هناك حرية مطلقة أن يتحرر أى إنسان منها؟"

للمرة الأولى والوحيدة منذ أن عرفته، شعرت ببذور الشك والتردد تتلبسه، "لقد وضعت أمامى التساؤل الوحيد الذى لم أعثر له على إجابة من قبل. لقد حررت نفسى أولا من واقع الغرور. نعم، هذا ما أعلمه وأعترف به. عندما كنت مماثلا لكل الرجال، مقبلا على الحياة، راغباً أن أتزوج وأنجب البنين فكرت أن هناك امرأة تحبنى، لكن الله أرسى فى كيانى الإنسانى فكراً أستطيع به أن أحقق كامل سعادتى. نظرت إلى هذه المرأة كأنما أنظر إلى أمنا حواء، تلك التى كان كل فكرها ينحصر فى الآخرين الذين سوف تنجبهم – مع القليـل من مساهماتى، لكنها التى سـوف تنتجهم عن طريق حملهم فى بطنها. فى ذلك الحين، نظرت إلى مساهمتى تلك البسيطة، التى هى عبارة عن لذة مؤقتة وقصيرة للجسد، ثم بعدها تتحول حياتى، وتنقضى فى السعى والكد، كما فعل آدم، لكى تصبح جنتنا أكبر وأوسع حجماً والفواكه أقوى طعماً. لذلك كله سألت نفسى، هل أنا حقاً من تحبه هذه المرأة، كانت الإجابة، ربما – لكن لفترة بسيطة، فهى فى حاجة لمن يحقق غرضها الأساسى، لذا قلت لنفسى، "أليس من الأفضل أن أخدم الله، الذى لا يطلب منى شيئاً سوى أن أكون عادلا ومتواضعاً أمامه؟ وفى ذلك اليوم، أصبحت قساً".

"وهل تحققت لك السعادة التى كنت تصبو إليها؟"

"لقد أصبحت مالكاً نفسى"

الآن وهى وحيدة فى المكتبة، لأنها تفضل ذلك لكى تشعر دائمًا بتواجده معها، أخذت تتعجب من أحوال الرجال والنساء. أخذت تفكر فى المرأة حواء. هذه المرأة لا يجب أن تلام إطلاقًا لأنه فى صميم داخلها هناك بذرة معينة تجعلها دائمًا فى حالة من الرغبة الخالصة أن تستمر مسيرة الحياة. أما الرجل فقد جعل المرأة جزءًا منه، لكى يستفيد منها ويستلذ بها، لكنها ببراءتها وجهلها استخدمته فقط فى مجال الخلق اللانهائى لبعث حياة متجددة. كلاهما يعتبر أداة، لكن المرأة هى التى أدركت أنها الأداة التى تستمر بها مسيرة الحياة.

أخبرت أندريه، "هنا تجد ذلك الاختلاف ما بين الرجل والمرأة"

وفد إليها الهواء ناعمًا ولطيفًا حيث تجلس وحيدة، الرياح كانت ساكنة. ظهرت فجأة سحلية بذيل أزرق من الشق الذى ما بين الجدار الحجرى والأرضية. قبعت السحلية تتمتع بضياء الشمس، وظلت هى فى مكانها لا تتحرك كأنما هى جزء من الحجرة. كانت السحلية تحرك رأسها وتهز فى ذيلها، عيناها تلمعان. إنه من الحظ الحسن أن يكون فى البيت بعض من تلك الحيوانات غير المؤذية، إنهم يظنون أن هذا المنزل هو المأوى الأبدى لهم ويعششون فيه.

أخذت تطيل التفكير، بينما هى بلا حراك والسحلية ما زالت تلعب. إذن فهذا هو العنصر غير المريح ما بين الرجل والمرأة. يؤمن الرجل بأهمية ما يعنيه تفرده الشخصى، لكن المرأة أدركت أنها لا تمثل شيئًا فى نظره، فقط هى تلك التى تحقق ذاتها عن طريق خلق حياة جديدة متكررة. والآن، يحب الرجال نساءهم كأنفسهم وكأنهن جزء منهم، أما النساء فلا يحببن الرجل إلا إذا كانوا جزءًا مما ينتجون ويخلقون. إذن هذا لب النضال بينهما، ذلك الذى يجعل الرجال دائمًا غير راضين لأنهم لا يستطيعون تملك المرأة بالكامل، فهى من قبل أصبحت ملكًا لقوة أعظم من رغباته. ألم تخلقه هو أيضًا؟ ربما لهذا هو لم يصفح عنها أبدًا، لكنه كرهها وداوم على العراك معها بشكل سرى، حاول كثيرًا أن يسيطر عليها ويسىء إليها ويحبسها داخل جدران كثيفة،

أقدامها مربوطة، وسطها مخنوق، منع عنها أن تحصل على أجر أو مرتب، حرمها من اكتساب المهارات أو التعليم، يجعلها أرملة عندما يموت، وأحيانًا يحرقها لتتحول إلى رماد مدعيًا أن إخلاصها هو الذى دعاه لأن يفعل ذلك.

ضحكت مدام وو بصوت عال من أفعال الرجل، لذا سارعت السحلية إلى الاختباء.

مرة وأندريه يجلس قبالتها على المائدة، قالت له، "هل الرجل كله رجل، وهل المرأة كلها امرأة؟ إذا كان هذا هو حالهما، إذن هما لن يتوافقا أبداً، مادام هو يعيش من أجل ذاته، وهى تعيش من أجل استمرار الحياة، هنا يوجد نوع من تضاد المصالح".

كانت إجابته غريبة، "لقد منحنا الله ذخيرة خاصة لكل إنسان منا. هذه الذخيرة ليس لها طابع إنسانى، وليس لها صفة الذكورة أو الأنوثة، هى تدعى بالروح. هذه الروح لا تتغير ولا تتبدل، هى أيضًا تستطيع أن تفهم حركات العقل وأفعاله".

"لكن هل عقل المرأة يختلف عن عقل الرجل؟"

"إنه الشىء نفسه عندما فقط يتحرر من رغبات الجسد، لذلك تجدى أن المرأة تستخدم عقلها فقط لكى تؤدى واجباتها النسائية، وربما يستخدم الرجل عقله فى جذب المرأة إليه، لكن العقل ليس سوى أداة، يمكن أن يستخدم فى أى شأن يحقق رغبات البشر".

"إذن فهذه الروح ذخيرة ليست مذكرة أو مؤنثة"

"نعم، هذا صحيح"

"ما هى الروح فى محتواها المادى؟"

"إنها ذلك العنصر الذى لا نتوارثه من أى مخلوق آخر، إنها تلك التى تحدد ملامح شخصيتى وتشكلنى لكى أكون مختلفاً إلى حد ما عن الذين أتوا من قبلى، مهما كانت أوجه الشبه بيننا، هى التى لى أنا خاصة، هى هدية من الله".

"لكن إذا كنت غير مؤمنة بالله؟"

"لا يهم إذا كنت تؤمنين أم لا، يمكن أن تدركى بمعارفك الخاصة أنك لا تشبهين أى إنسان آخر فى العالم، لست أنت فقط، بل أكثر الناس وضاعة وأقلهم جمالا يمتلك هذه المنحة الغالية. إذا كانت هى لك، إذن سوف تشعرين بتواجدها. هذا كاف لكى تعرفى ذلك، أما الإيمان بمانحها، فيمكن له أن ينتظر. إن الله لا يهدف أن يكون غير معقول فى أعماله. هو يعلم أنه لكى يؤمن الإنسان، عليه أن يشهد بالعين ويسمع بالأذن، وإننا نحب ذاك الذى يمكن أن تلمسه أيدينا، وهذا ما يفعله الطفل الصغير عندما يدرك ما تصنع له حواسه الخمس - لكن هناك حواس أخرى، وهذه تنمو مع نمو الكائن البشرى، وعند تمام اكتمالها فنحن نؤمن بها ونصدقها كما نؤمن بفعال حواسنا الخمسة".

وهى تتذكر هذه الكلمات، أخذت تحدق عبر المائدة - كان المقعد خاليًا، لم تكن تسمع صوتًا، لكن وجهه كان واضحًا أمام ناظريها بابتسامته الجادة، وصوته أعمق مما سمعت أو رأت. غمغمت، "الآن فقط بدأت أفهم، لكن هذه هي البداية فقط، وبكل روحى أنا أحبك".

"أليس هناك حب يمكن أن ينشأ بين الأرواح"

أخبرها، "نعم، يمكن"

الآن، مدام وو ليست إلا امرأة عملية، وما تعلمته من معارف عليها أن تستخدمه للمنفعة، ففى حضن هذا البيت، الذى هو عالمها، هناك كائنان مرتبكان- أى إنهما ليسا على علاقات ودية مع باقى أفراد البيت، بالتالى هما يقفان فى موقع مضاد لنظام الكون كله، هؤلاء هما رولان ولين يى.

بدون تعجل، وبعد مرور أيام كثيرة، اقترب اليوم الذى خططت فيه أن تتحدث معهما، وكان عليها أن تتحادث أولا مع رولان لأنها الأكبر.

مرت شهور طويلة منذ أن غادر المنزل كل من تسيمو وفنجمو، وكانت خطاباتهما تصل مدام وو بانتظام، لأن الاثنين كانا ولدين بارين. كانت هذه الخطابات معنونة باسم

السيد وو وباسمها هى أيضاً، لكنهـا التى كانت تقـرؤها أولا وتفكر فيما جاء فيهـا، ثم ترسلها إلى السيد وو الذى بعدما يقرؤها يرسلها إلى ليانجمـو، هذا الذى كـادت كل شئون الأرض والمحلات تقع جميعًا تحت تصـــرفه وسلطاته، استعداداً لأن يكون هو يومًا رئيسًا لهذه العـائلة. هو يقــرأ أيضًا هذه الرســائل ثم يحفظها ضمن سجلات العـائلة.

من قـراءة هذه الخطابات، أدركت مـدام وو أن كـلاً من الابنين يسيـر فى اتجاه مـختلف. لقد أراد فنجمـو أن يرحل للبلاد الخـارجيـة ليحصل على المزيد من العلم، وأعطته هى الإذن بذلك وأرسلت له النقود اللازمة. كان هو يتعجل الرجوع، لكن الطرق البحرية فى المحيطات كانت موصدة أمامه بسبب نذر الحرب الوشيك وقوعها، ولكى لا يقع أسيراً فى أوارها، كان عليه أن يشتـبك فى رحلة أرضـيـة طويلة حتى يصل إلى موطنه فى المناطق الداخلية من بلاده.

لو كان هو ابنها الوحيد، إذن ما كانت لتسمح له بذلك، لكن لأن لديها العديد من الأبناء لذا لم تضغط عليه أن يعود فوراً. لقد بدأ رحلة العودة فى فترة الشتاء المتأخر وعبر البحار آمنًا، وتحمل الآن خطاباته طوابع بريد غريبـة الشكل، كانت هى طوابع بريد أمريكية، لكن مدام وو لم تهتم بذلك، فكل الأقطار الخارجية لها الطابع نفسه، بل وتشبه بعضها ما دام أنها جميعًا تقع خلف نطاق البحار الأربعة. لقد استأنف فنجمو تلك الدراسات نفسها التى كان قد ابتدأها مع أندريه، واستراحت مدام وو عندما عرفت أنها ليست لها أدنى صلة بالدين أو أى شأن بالآلهة.

لكن تسيمو لم يطلب أن يعبر البحار، هو فقط رحل إلى العاصمة حيث عثر هناك على مركز متميز بفضل ثروة عائلته ونفوذها، وهذا لم يدهش أيًا من السيد وو أو مدام وو لأنه مهما كان رجحان عقلها، بدا لها أنه من الطبيعى فى كل مكان أن هناك اعتباراً لعائلتها المعروفة. ثم كتب إليهما تسيمو يعلمهما لماذا هو صادف هذا الحظ الحسن، فنظراً لظهور بوادر تلك الحرب القادمة، فإنه بالطبع سوف تضطر الحكومة فى وقت ما أن تتقهقر إلى الخلف، وهناك سوف تعتمد اعتماداً كبيراً على المواطنين المتميزين فى

كل ناحية وعائلاتهم، وفى منطقتهم النائية تلك، تعتبر عائلة وو من العائلات الأكثر أهمية وأقدمها، لذا منح تسيمو مركزاً متميزاً فى الحكومة، واستطاع وهو فى مركزه هذا أن يتحمل الكثير من محاربات الغيرة والحسد وتعرض لبعض الأعمال الشريرة التى صبها عليه هؤلاء الذين لم يحوزوا على ما قدر أن يحصل عليه، لكنه كان شاباً قوياً وسلك طريقه الخاص وسط كل هذه المعوقات.

لم تكتشف مدام وو من خلال خطاباته أحواله الحقيقية، لكنها كانت تفهم فنجمو أفضل، فهذا الأخير له طريقته الخاصة التى فيها يفتح عقله وقلبه كما تفعل هى. كان ينمو حثيثاً ليصبح رجلا كاملا. أكثر من ذلك، فإن ذخيرته، كما دعاها أندريه، كانت تشتعل وتنمو أيضاً، لكن تسيمو كان يبدو كأنه ممسوس، لكن من ربطه، هى لا تعلم.

مسألة تسيمو بدأت تتسارع عندما وصلت أخبار عاجلة تنبئ بقرب حدوث هجوم وشيك سوف يشنه على البلاد جيوش هؤلاء الناس القاطنين فى شرق المحيط (اليابان) هذه السنة بدءاً من السواحل الصينية. سمعت مدام وو هذه الأنباء وأرسلت من يشترى لها الجرائد التى هى ليست معتادة على قراءتها، وذلك لكى تكتشف ما الذى يحدث بالضبط. ما قرأته، كان معتاداً فى تاريخ بلادها، فكثير من الهجمات وقعت على بلادها خلال كل العصور الماضية بأيدى الشعوب الأخرى، ودائماً ما كانت الأمة تصمد وتنتصر فى النهاية، وهى سوف تقاوم الآن، لذا لم يصبها قلق شديد، فليس محتملا أن يقطع الأعداء مئات الأميال حتى يصلوا إلى منطقتهم هذه التى يقع فيها باعتزاز منزل عائلة وو العريق. كانت هى تشعر بالامتنان للأجيال السابقة من هذه العائلة لأنهم لم يستسلموا، كما حدث لعائلات أخرى، للتمتع بمميزات العهود الجديدة، لذا لم يهتموا بالاقتراب من شواطئ المحيط وينشئوا منازل جديدة. فعائلة وو تمسكت بأراضى الجدود ولم تتزحزح عن مكانها، والآن هم يعيشون فى أمان. فى الحقيقة، هذا العدو يمكنه الآن أن يهاجم عن طريق الهواء أيضاً، لكن ليس هناك مدن كبرى فى الجوار، لذا ليس معقولا أن يعرف هذا العدو الغبى الجاهل أى شىء عن عائلة أو أخرى. شعرت مدام وو بالأمان المطلق وهى داخل منزلها.

لكن مع ذلك، هذا الهجوم المتوقع أجبرهم على إحــداث بعض التغييرات، فالحكومة انتقلت بالفعل إلى الداخل، وكان تسيمو من ضمن أفرادها، لذا كتب فى يوم من أيام بداية فصل الخريف أنه سوف يصل إلى موطنه ليمضى عشرة أو اثنى عشر يومًا مع العائلة.

بوصول هذا الخطاب، رأت مدام وو أن موضوع رولان لا يجب تأجيله أكثر من ذلك، لذا أرسلت ينج لكى تحضر رولان لمقابلتها.

الآن، لا يجب افتراض أن مدام وو لم تر خلال الشهور الماضية وجه زوجة ابنها، إنها بالفعل شاهدت رولان عديداً من المرات، ففى فترة تناول الوجبات، كانت تراها وسط الآخرين، وكانت تراها أيضًا فى مناسبات الاحتفالات الموسمية التى تتم فى الربيع أو الشتاء، دائمًا صامتة ومتعقلة فى ملابسها، وفى مرات متعددة كانت تقصدها مدام وو لكى تكتب لها بعض التسجيلات بخطها المنمق، هى كانت تحس بالعطف تجاه زوجة ابنها، بل وقالت مرة، "شىء عظيم أن يكون فى ظهرانينا زوجة ابن متعلمة". ما أن تسمع رولان ذلك حتى تتمتم ببعض التشكرات المحفوظة.

لم يحدث فى أى وقت أن سحبت الفتاة من مكانها المعتاد فى العائلة، لكن الآن ومع وصول خطاب تسيمو الأخير، رأت أن الوقت قد حان لأن تجرى حديثًا مهمًا معها.

حضرت رولان وهى تتحرك بخفة عبر أبهاء الأجنحة. إنها لم تعد تنتعل حذاءها الجلدى الجامد الذى كانت قد أحضرته من شانغهاى، بدلا من ذلك ارتدت حذاء مخمليًا نعله من القماش، لذا لم تسمع مدام وو صوتها وهى قادمة، لذا فوجئت عندما ظهر خيالها الطويل على الأرضية. بعد التحيات المعتادة، قالت لها، "يا ابنتى، أنت تتحركين الآن بخفة على الأرض".

"يا أمى، لقد ركنت حذائى الجلدى الآن"، ثم جلست وملأت كل المقعد بدلا من أن تجلس على حرفه. جلسا فى غرفة الاستقبال وليس فى المكتبة.

لم تتناول مدام وو على الفور ما قصدت أن تتحدث عنه، بدلا من ذلك قالت لها بكل أدب، "لقد بدر فى خيالى خلال الأسابيع الماضية على أن أسألك عن أحوال أهلك المقيمين فى شانغهاى بعد هجوم الأعداء، هل استطاعوا الهرب من هذا الجحيم؟"

"لقد اصطحب والدى العائلة قبل نشوب المعارك إلى هونج كونج"

قالت لها مدام وو بنوع من التعاطف، "آه، إنها مسافة طويلة"

"ليست بهذه الدرجة، هذا ما أخبرت به والدى"

"هل تعتقدين أن الأعداء سوف يجرؤون على توسيع دائرة هجومهم؟"، لقد تأثرت من سرعة زوجة ابنها فى الرد.

"هى سوف تكون حربًا طويلة"

"صحيح!"

"نعم، لأنها استلزمت تجهيزات طويلة"

"أرجوك، اشرحى لى ذلك". هذا المظهر الملىء تأكداً ووثوقًا من المعلومات، جعل مدام وو تشعر بالانشراح والإقبال، لذا شرحت لها رولان، "أمى، شعب شرق المحيط هذا، كان الخوف يمسك بتلابيبهم منذ عدة قرون، لكن من ماذا؟ من هجوم الأجانب المتكرر. هم كانوا يشاهدون دولة غربية بعد أخرى تهاجم وتمتلك، لكن حتى عندما وفد إلينا جنكيز خان وهزم بلادنا، بدأ الخوف يزحف على قلوب شعب شرق المحيط. ثم وفدت الجيوش من البرتغال وأسبانيا، من هولندا وفرنسا واستعمروا بلاداً مختلفة، وإنجلترا استولت على الهند، ونحن بين وقت وآخر كنا نقع تحت سلطة هذا أو ذاك من تلك الأمم الغازية الجشعة، لذا فكر حكام شرق المحيط، لماذا لا نتحرك نحن أيضًا؟ لذا ومن واقع خوفهم قرروا أن يستعمروا أرضنا وشعبنا، فنحن أقرب البلاد إليهم"

كان هذا كلامًا مريعًا أن يصدر من فم هذه الشابة، وقد غمر الاندهاش وجه مدام وو وهى تستمع إليه، حتى أندريه لم يتحدث مثلها.

"من أين حصلت على كل هذه المعلومات؟"

"تسيمو كان يكتب لى خطاباً كل أسبوع"

شعرت مدام وو بالراحة تسكن قلبها وهى تستمع لذلك، ابتسمت، "أنتما الاثنان، هل رجعتما أصدقاء مرة أخرى؟

احمر خدا رولان، فهى بالطبيعة شاحبة اللون، ما عدا أنها تمتلك شفتين ورديتين، لذا كان الاحمرار يظهر عليها واضحاً، لكنها مع ذلك لم تشح بوجهها بعيداً.

"نحن نتوافق بشكل مدهش عندما لا نكون بجوار بعض، وما إن يحضر حتى تبدأ معاركنا - أنا أعلم ذلك، وهذا ما أخبرته به، وكلانا نعلم ذلك".

قالت لها مدام وو وهى تضحك، "لكن أنت تعرفين ذلك، ألا يمكن أن تأخذى حذرك حتى لا يحدث هذا ويتكرر؟من فيكما الذى يبدأ العراك، أنت أم هو؟"، بالإضافة إلى استمتاعها بهذا الحديث، سرت المدام لأن الفتاة لم تحاول أن تخفى عنها شيئاً.

"أينا لا يعرف من البادئ، لقد أقسمنا فى خطاباتنا المتبادلة، أنه مهما كان البادئ فإن الآخر عليه أن يتوقف فوراً عن النقاش، لكن ليس لدى ثقة من قدرتنا على الالتزام بذلك. أنا أعرف طباع تسيمو، إنها تشبه الزوابع التى تسبق قدوم فصل الصيف، بدون سبب هى تهب، وعندما يتملكه الغضب، حينئذ أغضب أنا أيضًا". توقفت وقطبت جبينها، كانت تبحث داخل نفسها، لذا تركتها المدام لتستكمل، "هناك شىء ما يجعله كارهًا لى، هذا أمر حقيقى، هو يقول إنه لا يوجد شىء معين، لكن بالفعل يوجد. عندما نبتعد عن بعض هو لا يشعر بذلك، لكن عندما نتواصل تظهر تلك العلامات، ولو عرفت ما هى بالضبط، إذن لأمسكت بسكين حادة وقطعتها من نفسى".

قالت مدام وو بلطف، "ربما لا يكون هو شىء موجود، لكن هو شىء غير موجود فى الأساس".

رفعت رولان رأسها، عيناها التى هى كل ما تمتلكه من عناصر الجمال، بدت فيهما مظاهر الاندهاش والمفاجأة.

قالت، "هذا ما لم أفكر فيه إطلاقًا"، ثم شعرت بالهبوط مجدداً، "لكن هذا سوف يصعب أمورنا أكثر، من السهولة بمكان أن أنتزع شيئًا من داخلى، أكثر من أتناول شيئًا خارجيًا وأثبته داخلى".

"ليس من اللازم أن يكون هذا ضرورياً، كل هذا يعتمد على مدى حبك لتسيمو، إذا نظرت إلى زواجك كأنه أمر يخصكما أنتما الاثنين فقط. حسنًا، إذا سوف تستمر المعارك بينكما إلا إذا قررتما أن تبتعدا عن بعضكما".

"أنت تعنين..."، لم تكمل جملتها، فهى تخجل عندما تتحدث عن الجانب الأنثوى فيها.

"أنا أعنى ذلك". ثم استمرت فى الحديث مستشعرة بالحكمة تجرى من فمها، تلك التى اكتسبتها من معرفتها لخبايا الحب. الآن هى تعلم أن ما بين الرجل والمرأة ليس هناك ما يدعى بالواجب، ليس هناك سوى الحب - إما أن يكون هناك حب أو لا يكون.

أمسكت غليونها الفضى وبدأت فى ملئه ببطء. لم تنظر إلى زوجة ابنها لفترة. بدلا من ذلك أخذت تحدق فى جناحها، حيث كان نباتات الأوركيديا منتشرة بلونها الأصفر، بينما أخذت أوراق أعواد البامبو تتأرجح كأنما هى الشواشى التى تهزها الرياح البسيطة، فهو يوم من الأيام الجميلة التى كثيراً ما أحبت مثيلا له هى وأندريه، بسبب سكونه والسلام المنتشر فيه.

"كأمر مبدئى، يجب أن تعلمى أنه ليس أحدكما مدينًا للآخر"

قاطعتها رولان باندهاش، "أمى، هذا أغرب كلام أستمع إليه يصدر من أم لزوجة ابنها".

"لقد تعلمت كل هذا منذ عهد قريب"، أخذت تبتسم بمسحة من الحزن الداخلى، "صدقينى يا ابنتى، عندما أقول لك إننى ما زلت حتى الآن أتعلم!"

كانت هى تجذب رولان من شغاف قلبها، لقد حضرت رولان وهى مستعدة أن تواجه غضب حماتها، وقررت أن تتحمل ذلك، لكن الآن وجدت أن الأمل بدأ يتحرك فى قلبها، ولم تتلق زجراً بل الحكمة البليغة. انحنت إلى الأمام كأنما هى سوسنة طويلة تنتظر هطول المطر.

قالت مدام وو، "كل المشاكل التى تثور ما بين الرجل والمرأة مرجعها إلى الاعتقاد الجازم أن هناك واجباً يلزم أن يقضيه هذا لتلك، لكن ما إن يستبعد الإنسان من فكره هذا الاعتقاد، يصبح الطريق أمامه واضحاً. أمام كل فرد، هناك واجب يستحقه لنفسه، لكن كيف يكون هذا الواجب خاصاً به هو فقط؟ هذا الواجب هو أن يرضى نفسه، وإذا حدث لأحدهما الرضى الكامل، فإن الآخر سوف يشعر بالرضى أيضاً".

توقفت عن الحديث، انشغلت بغليونها وسحبت نفسين، ثم استمرت فى القول، "لكن لماذا هذا هو أمر حقيقى وصحيح؟ لأنه عندما يشعر أحدهما بالهناء والسعادة، تجد أن الآخر أيضاً يشعر بتلك السعادة نفسها، هذه هى السعادة الوحيدة الممكنة لكليهما".

ظلت رولان فى مكانها صامتة تستمع.

استمرت مدام وو فى الحديث، "أما عن موضوع التناسل، فهو ليس واجباً تلتزمين به أنت أو هو، لكن هو واجب يجب أن يؤدى لمصلحة جنسنا البشرى. كان خطؤك الواضح هو أنك ربطت موضوع حمل الأطفال وولادتهم بمدى حبك لتسيمو، ويخطئك هذا أربكت معك زوجك، لذا أصبح غضوباً وسريع الانفعال وهو يخاطبك"

توسلت إليها رولان، "تحدثى معى أكثر، كلامك يصل إلى شغاف قلبى"

"لقد بعدت أنت وتسيمو عن تقاليدنا المعتادة، لقد اختار كل منكما الآخر بسبب الحب، وهذا الشأن فيه خطورة كبرى، لأن ما ندعوه بالسعادة سوف يتناقص مع الوقت، لأن كل واحد منكما يفكر فى نفسه فقط، وليس فى نسلكما أو عائلتكما، أو فى واجبك أن تحملى أطفالا. أنتما لا تفكران إلا فى ذواتكما، كأن كل واحد منكما

منفصل عن الآخر، لكن أنتما لستما منفصلين، ما عدا فى جزء بسيط من كيانكما، وأنتما الآن تحاولان أن تضغطا كل حياتكما لتستقر فى هذا الجزء البسيط. الحمل والولادة والمعيشة سوياً، هى تماثل تماماً الأكل والنوم وارتداء الملابس والذهاب والإياب – لكن أنتما تحاولان أن تضغطا كل شىء فى هذا المكان الضيق المحدود، وهو مكان مزدحم، لذا تضطران أن تخترقا بعضكما لأنكما متقاربان أكثر من اللازم. كلاكما سوف يكره الآخر لأن هذا الجزء الكامن فى كل منكما، هو أنفسكما، أو هو تلك الذخيرة أو ما تدعى بالروح، تلك التى ما إن تشعر بهذا التزاحم حتى تتوقف عن التنفس والنمو أيضاً".

رولان كانت تستمع بكل كيانها.

أضافت مدام وو، "اعزلى نفسك يا ابنتى، ودعيه هو أيضاً يعزل نفسه، تقبلى هذا كأنه أمر طبيعى، كأنه واجب تؤديه إلى جنسك ونوعك، لذا فأنت عندما تحملين، هم فى الحقيقة ليسو أطفالك أو أطفاله، هم أطفال جنسنا البشرى. احملى بهم كأنك تتنفسين أو تأكلين أو تنامين. الحمل والولادة ليسا لهما شأن بأرواحكما، لا تقيسى درجة حبك له كما تقيسين حرارة جسده، إنه لا يفكر فيك فى هذه اللحظات، هو يفكر فى نفسه، أيضاً أنت فكرى فى نفسك، وهل تختلف عاطفة إنسان عن آخر، لا طبعاً. كذلك لا تحمل امرأة بطريقة مختلفة عن امرأة أخرى. فى مثل هذه الأمور نحن لا نختلف، وكلنا متشابهون. لا تتخيلى أبداً أنكما فى هذا الشأن يمكن أن تختلفا عن أكثر الأزواج فقراً أو تواضعا". توقفت، شعرت بالإرهاق يزحف عليها.

قالت رولان بصوت خفيض، "أنت تجعليننى أفكر فى الزواج كأنما هو لا شىء، أى إنه كان فى إمكانى أن أتزوج أى إنسان آخر يشبه تسيمو".

عاد النشاط إلى مدام وو، "أنا لم أنته بعد. بمفهوم معين أنت على حق، فأى امرأة بصحة جيدة يمكن أن تتزوج شاباً بصحة جيدة، ويمكن لهما أن يحققا واجبهما تجاه الحياة. لهذا السبب يجب أن نفتخر بتقاليدنا الراسخة، فالكبار فى العمر يستطيعون أن يختاروا لجنسنا أفضل مما يفعل الشبان لأنفسهم، فكرى مثلا فى ليانجمو ومنج

إنهما زوجان سعيدان ومتفاهمان، لكن بالتأكيد لا يتمتعان بالسعادة بمفهومها المطلق، كما تطلبين أنت وتسيمو. هما يتقبلان موضوع الحمل والولادة كأنما هو واجبهما للحياة، وليس هناك هدف أمام ليانجمو سوى أن يكون زوجًا وأبًا صالحًا، وأيهما لا يطلب أكثر من ذلك. لهذا كان اختيار الكبار صائبًا عندما اختاروا ليانجمو ليتزوج منج".

قالت رولان باندفاع، "لكن نحن لا نشبه هذا الزوج!"

"نعم، لستما كذلك، أنت تطلبين تواجد نوع من الصداقة والزمالة تربطكما سويًا. آه، إنك تطلبين الكثير من الزواج يا ابنتى، فالزواج ليس مهيئًا لكى يتحمل هذه المهام الإضافية".

استفسرت رولان دون أن تقصد أن تكون وقحة، "إذن ما فى قدرتنا أن نفعل؟ هل نعيش سويًا بلا زواج؟"

"نعم..ربما نعم". اندهشت مدام وو من نفسها بسبب هذا القول، "لكن هذا أيضًا موضوع صعب، لأنك أنت امرأة وهو رجل، والجسد له مطالبه الخاصة".

توقفت، باحثة عن كلمات لم تطرأ على فكرها من قبل، ووجدتها، "أنت وتسيمو محظوظان، فكلاكما يحب الآخر، إذن استمرا فى هذا يا ابنتى! لا تضيعا ساعة واحدة فى غضب، اعزلى حبك عن باقى عواطفك ولا تخلطى هذا بذاك. يومًا ما، عندما يصبح هذا الانفصال واضحًا وراسخًا كأنما هو من العادات اليومية، وعندما تلدين أطفالا وتصبحان بعد ذلك من الشيوخ، وينتهى مفعول العواطف الملتهبة، سوف تدركين وتتعرفين على أنواع أشكال الحياة".

فجأة شعرت باشتياق لأندريه، وكان يقينها أنها لن تشاهد وجهه مرة أخرى سببًا لاشتعال وجد غريب فى طيات قلبها لم تعهد له مثيلا من قبل. أغمضت عينيها وتحملت نبضات الألم، بعد ذلك، شعرت برولان وهى تقبض على يدها وتضعها على خدها. شعرت بحرارة الخد ثم الآخر، لكنها لم تفتح عينيها.

أضافت،"في السر، يجب أن تقود المرأة المسيرة، هي التي عليها واجب القيادة، إن الحياة كلها تعتمد عليها. وأنا هنا أحذرك يا ابنتي، ابني لن يساعدك أبدًا لكي يجعل من زواجكما زواجًا سعيدًا"

عندما فتحت عينيها، كانت الغرفة خالية. لقد غادرتها رولان.

* * *

هذه الليلة، عندما أعدتها ينج لكي تنام، وبعد فترة صمت طويلة وعميقة، لم تجرؤ ينج أن تكسر ذلك بثرثرتها المعتادة، قالت المدام وو، "ينج"

"نعم يا سيدتي"، أخذت ينج تنظر في المرآة التي استقرت فوق رأس مدام وو، كانت مشغولة بتمشيط الشعر الطويل الذي ظهرت فيه الآن بعض الشعرات البيضاء عند الجذور.

"لدي مهمة أرغب أن تؤديها من أجلي"

"نعم يا سيدتي"

"في أقل من شهر سوف يحضر ابني الثاني"

"كلنا نعلم ذلك يا سيدتي"

"وهذه هي مهمتك. في كل ليلة عندما تنتهين من مهامك معي، أريدك أن تذهبي إلى زوجة ابني الثاني، وتفعلي معها مثلما تفعلين معي كل ليلة".

ابتسمت ينج في المرآة، لكن مدام وو لم ترد عليها الابتسام، استمرت وهي لا تقابل عيني ينج:

"لا تنسي أبدًا ما اعتدت أن أفعله – الحمام المنعش، رائحة العطور السبعة، الدهان بالزيت، وتعطير الشعر وتمشيطه".

"أعلم ذلك يا سيدتى"، كان صوت ينج ودياً ومرحاً، ثم توقفت عن التمشيط:

"لكن ما العمل إذا رفضت هى أن أفعل معها هذا؟ فهى من نوعية النساء اللاتى لا يعملن على إبراز جمالهن".

"إنها لن ترفض، هى فى حاجة لمن يساعدها، وهى تعلم ذلك الآن"

"فليكن يا سيدتى"

(١٣)

سوف يصل تسيمو إلى منزله فى اليوم الخامس من الشهر التاسع القمرى. وصلت أنباء قرب قدومه بواسطة رسالة كهربائية إلى المدينة، وقد أحضرها حتى المنزل رسول مخصوص، وقام السيد وو بفضها وقرأ ما بها. إنه الآن من النادر أن يحضر إلى جناح مدام وو، إلا إذا برز أمر ما يختص بالأبناء، لذا أمسك بتلك الرسالة وهو يبتسم ابتسامة واسعة، "ابننا الثانى سوف يحضر إلى منزله قريباً".

أمسكت هى بالرسالة وقرأتها، ثم أخذت تقلبها بين يديها مراراً وتكراراً، فهذه هى المرة الأولى التى فيها تشاهد رسالة كهربائية. كانت هى قد علمت من أندريه أن الورق نفسه لا يندفع داخل الأسلاك كما كانت تتخيل، ولا حتى يتم النطق بالكلمات المكتوبة، لكن تُستخدم رموز معينة تدق على آلة مخصوصة، وبهذه الطريقة تكتب الرسالة.

فى ذلك الوقت القديم قالت هى، "لقد دقت طبول المتوحشين فى الغابة"

فأجاب بقوله، "كثير مما يصنعه الإنسان هو ليس إلا خلاصة ما تعلمه لنا الغابة"

إنها تتذكر هذه الكلمات بينما كانت تقلب الرسالة الكهربائية بين يديها.

قالت بصوت عال، "يجب أن نعد لإقامة حفل بهذه المناسبة"

"سوف أدعو كل أصدقائى".

استمرت هى فى التخطيط، "يجب أن نعد لحفلة ثانية يجتمع فيها العاملون فى محلاتنا وزراعاتنا".

أعلن هو بكل عظمته السيادية، "كل شىء.. كل شىء"

نظرت نحوه بتمعن، لقد عاد إليه سمته القديم، لقد أحسنت إليه ياسمين، هو الآن يبدو واثقًا من أهميته. لقد كان شعوره بالفشل معها هى، لأنه فى داخله كان يعتقد جازمًا أنها كانت ترفض معاشرته، كذلك كان فشله مع شيومنج قد تسبب له فى أضرار بليغة، فهو من النوع الذى يعتقد أنه دائمًا من الناجحين فى العلاقات النسائية. هى تعلم ذلك جيدًا، لأنها جاهدت طوال سنوات عديدة مما جعل من نجاحاته من أهم واجباتها! لكن شيومنج كانت شابة وصغيرة وجاهلة، وهى لم تكن تعلم هذه الأمور، أما ياسمين وسط كل مظاهرها الزائفة، فهى مخلصة فى جهادها بالقدر الذى يمكن أن يوفر لها الأرز والمأوى. شعرت مدام وو أن قلبها أصبح خفيفًا، باردًا، يشعر أيضًا بالاحتقار. كانت دائمًا ما تشعر بالخجل من هذه المشاعر العدوانية، على الرغم من أنها كانت تتقبلها يوميًا كنصيبها من الطبيعة البشرية.

أخبرت أندريه مرة، "إننى لست امرأة بدون خطايا، هذا يعنى، أنه إذا تقبلت مقاييسك المحددة لحدوث الخطأ أو الخطية - الأفكار الخفية، الرغبات الدفينة - إذن يمكن أن أظهر بشكل خارجى قوامه الاستقامة والصواب، لكن من يستطيع أن يسيطر على حركات القلب؟

أجاب هو، "هناك القليلون الذين يستطيعون التحكم فى أعمال القلب، وأنت واحدة منهم".

كانت تعلم أنه لكى تستمر فى بقائها على مستوى قامته، عليها أن تصل إلى تلك المستويات الراقية التى يعيش هو طبقًا لمقاييسها، فهو لن يخفض من هامته لتتساوى مع قامتها"، بذا تجدها الآن وقد تحلت بكل صبرها على زوجها والد أبنائها لتقول له، "فلندع الأمور تسير طبقًا لرغباتك".

انحنى هو إلى الأمام، واضعًا يديه على ركبتيه السمينتين، خفض من صوته لأنه سوف يبوح بالأسرار، "ربما لا تعلمين أمرًا مهمًا هو أن تسيمو هو المفضل من بين أبنائى، لهذا كنت دائمًا فى حالة من الانزعاج بسبب ارتباطه بتلك الزوجة الغضوب. كان من الواجب على تسيمو أن يتزوج امرأة طيعة ومعقولة".

لم تستطع مدام وو أن تخفى كل مخالبها، لذا قالت، "أنت لا تفهم تسيمو بشكل جيد"، نبرة صوتها كانت حادة نوعًا، "إنه إنسان ذكى، أيضًا رولان زكية، بل وبدأت أغير فكرتى عنها هذه الأيام".

بدأ الانزعاج على وجه السيد وو، كما يحدث دائمًا عندما يتم ذكر موضوع الذكاء أمامه، لذا بسرعة أعلن انسحابه، "حسنًا.. حسنًا. أعتقد أنك على صواب، لذا هل سوف تعدين موضوع الاستقبال هذا أم أقوم أنا بهذا الجهد؟"

"سوف أصدر أوامرى فيما يختص بالأمور المنزلية، أما أنت فعليك أن تدعو ضيوفك واختيار نوعية الخمور التى سوف تقدم".

انحنيا، ثم افترقا. كانت تعلم فى قرارة نفسها أن ما حدث بينهما هى مسائل تختص بالجسد، وهى أمور كانت تشمئز منها، لكن كانت ضرورية لكى يوفيا الواجبات الملزمين بها كما أخبرت رولان. لقد استطاعا أن يمدا أوصال العائلة حتى يبزغ الجيل الجديد، وأن ينجزا ما حكمت به الضرورة لكى يستمر بقاء الجنس البشرى، ثم تحرر الواحد من الآخر ما إن انتهت مهامهما. هى تعلم ذلك الآن بعدما كشف لها أندريه أسرار تلك الذخيرة المخبأة فى أعماق النفس. أيضًا ياسمين استطاعت أن تفعل الشىء نفسه مع السيد وو، ولم تتهشم أى علاقات داخل هذا المنزل الكبير واستمر فى حاله السابق، ومركز كل فرد كما هو لا يتغير. شعرت المدام وو أنها قد تصرفت بكل حكمة عندما قبلت أن تحضر ياسمين إلى منزلها، فهذا السقف يستطيع أن يسع الكثيرين، والخطأ الأكبر الخاص بولادة طفل مجهول الهوية ليست من طابع هذه العائلة، وسوف يأخذ أطفال ياسمين مكانهم اللائق فى قائمة النظام الإنسانى.

شعرت بالراحة والسلام يغمرانها وهى تباشر الأعمال المنزلية، وليس لديها اليوم وقتًا تخصصه لنفسها. أرسلت للطباخ ورئيس الخدم والساقى لكى يحضروا إليها، كذلك أرسلت أيضًا للمختصات بالنظافة والخياطة، حيث يجب تدقيق ملابس الأولاد، ومن هم فى حاجة لملابس جديدة، يجب أن توفر لهم، وعلى ابنها الرابع (ينمو)، أن يعود من الريف فورًا.

أخبرت المشرف على الأراضى الزراعية، "حان الوقت لأن يعود ابنى الرابع إلى منزله، فالمسائل كلها واضحة الآن فى منزلنا".

ضحك هذا وهو يقول، "يا مدام، هذا الابن سوف يكون هو من يدير الأراضى الزراعية بعدك، فسيدنا الشاب الأول يبلى بلاء حسنًا فى إدارة المحلات، لكن سيدنا الابن الرابع هو الذى يصلح تمامًا للإشراف على الأراضى الزراعية".

لم تر مدام وو ابنها الرابع هذا منذ عدة شهور، والآن شعرت ببعض التعجب فيما يختص بهذا الابن، فأثناء سنوات تحول الولد ليصبح شابًا ثم رجلا بالنسبة للذكور، لا تختلف كثيرًا، وهم عمومًا ليس مطلوبًا لهم سوى توفير الطعام الكافى لهم، وأن يتلقوا المعارف اللازمة، كذلك أن يعيشوا بقدر الإمكان فى الهواء الطلق، ويتم استبعادهم من أماكن ممارسة لعب القمار ومن المواخير ومن المنازعات العائلية. لهذه الأسباب، هى أرسلت ابنها هذا ليعيش فى الريف وسط الأقارب والفلاحين، لكن عليه أن يعود الآن لكى ترى مقدار نموه فى القامة والمعرفة.

أخبرت ينج، "ربما تكون الغرفتان اللتان تقعان شرق جناح ليانجمو، المليئتان بالصناديق الفارغة والمخلفات ولا يستخدمهما أحد، مناسبتين أن يحتلهما ابنى الرابع (ينمو)، وسوف يكونان له إلى أن يتزوج".

كان من الأفضل بالطبع أن يكون مقام (ينمو) بجوار جناح والده، لكنها لن تسمح له بذلك، أيضًا هى لا ترحب أن تكون قريبة من هذا الولد كثير الحركة والذى يدرج سريعًا فى مرحلة النمو، لكن عندما يسكن بجوار ليانجمو ومنج فإن هؤلاء سوف يكونون عطوفين عليه، وسوف يجد تسليته الكبرى مع أبناء أخيه الصغار. لذلك تم إعداد كل شىء، وآخر هذه المهام هو أن تقوم مدام وو بالاطمئنان على رولان، فاليوم هو موعد عودة تسيمو الذى سوف يحضر بعد الظهر، لكن لا أحد يعرف وقت وصوله بالضبط، لأنه سوف يأتى بقارب. شىء محزن أنه لا يمكن إرسال سيارة الأسرة الكبيرة لكى تأتى به، لكن للأسف الطرق ضيقة والفلاحون ما إن يروا السيارة حتى يصرخوا للسماء لأن هذه السيارة بعجلاتها الكبيرة تعتدى على حواف مزارعهم،

لذا ومن أجل ذلك، تم الاحتفاظ بتلك السيارة داخل الغرفة الكبرى التى تجاور البوابة الرئيسية للمنزل، وهى تبدو للناظرين شيئًا يدعو للدهشة. لقد ظن السيد وو أنه سوف يتهم بالتخلف إذا لم يشتر سيارة، وكان تسيمو كثيراً ما يقول لأصدقائه بلا اهتمام، "سيارة والدى الغربية هى.....".

وقفت رولان أمام مدام وو وديعة بل وخجولة أيضًا. لقد ارتدت فستانًا لونه أحمر غامق، وهذا اللون يتناسب تماماً مع بشرتها الشاحبة وفمها الأحمر، وقد أعجبت مدام وو بتفصيلة هذا الفستان، ولم تذكر شيئًا عن قصر الأكمام لأن ذراعى رولان جميلتان كذلك يديها، ثم طلبت من ينج أن تفتح صندوق مجوهراتها ومنه اختارت خاتماً ذهبيًا ثقيلا مطعمًا بالجواهر، ووضعته بنفسها فى الإصبع الأوسط من يد رولان اليمنى، رفعت هذه المرأة يدها معجبة بهذا الخاتم، "أنا فى العادة أكره الخواتم، لكن هذا بالذات جميل فى يدى".

"إنه يناسبك تمامًا، وكل ما يناسب المرأة فإنه يجعلها أكثر جمالا"

كانت رولان قد غسلت شعرها لكن لم تدهنه، كان منسابًا على كتفيها كأنما هو الحرير المسترسل، كانت ينج قد قصت أطرافه وجعلته متساوياً وناعمًا، وهذه هى الموضة الجديدة حيث تترك الفتيات شعورهن هكذا طليقة وغير مربوطة، لكن مدام وو لا تعجبها هذه الموضة، إلا أنه فى هذا اليوم لاحظت مدى جمال وجه رولان وسط شعرها، لذا لم تعارض، فكل ما يجعل المرأة أكثر جمالا هو مقبول ولا غبار عليه.

أمرت رولان، "افتحى فمك"، فتحت الفتاة فمها، فنظرت تلك داخله، كان لونه أحمر ونظيف كأنما هو فم طفل صغير، الأسنان بيضاء سليمة، يصدر من فمها نفس طازج ونقى.

رفعت مدام وو الفستان قليلا، واطلعت على الملابس الداخلية. كل هذه الملابس لونها أبيض ناصع كأنما هى الثلج ونظيفة وكلها معطرة ومطرزة بأشكال جمالية رائعة.

ثم رفعت يد الفتاة وتشممت أناملها، كانت يداها معطرة، كذلك شعرها، ومن جسدها انبعثت الروائح العطرة التى كثيراً ما استخدمتها هى فى سالف الأيام.

قالت لها بحنان، "سوف توفقين تماماً فى حياتك يا ابنتى، لم أجد شيئاً خاطئاً فيك، لكنى بالطبع ليس فى قدرتى أن أفحص عقلك وقلبك - هذان عليك أن تفحصيهما بنفسك، فالجسد يأتى فى المقدمة، لكن الذخيرة هى التى تظل وتبقى".

"أنا لم أنس أى شىء أخبرتنى به"

الآن هم فى انتظار قدوم تسيمو فى أى لحظة، وإن ذلك سوف يتحقق فى مدى أربع أو خمس ساعات، لكن من كان يظن أنه بينما تدور كل هذه المسائل فى البيت، كان هو يقترب إليهم عن طريق الهواء وليس الماء، لذلك بدلا من أن يصل إلى المنزل عبر النهر، هبط من السماء ومس الأرض خارج الجدران المنخفضة لجدران المدينة الجنوبية، فعندما علم الضابط الأكبر فى العاصمة أن تسيمو سوف يعود إلى منزله فى إجازة، ونظراً لأهمية عائلة وو فى تلك المنطقة، لذا خصص له طيارة لكى تنقله.

اهتم الطيار عندما أنزل راكبه بجوار حقل من الحقول وليس هناك أحد يقابله، لكن تسيمو ضحك منه قائلا، "إنها مدينتى، أستطيع أن أجد طريقى إلى منزلى بسهولة"، لذا صعد الطيار بطائرته إلى السماء، بينما سار تسيمو بهدوء متجهاً إلى منزله، الجميع يحملقون فيه ويحيونه سائلين كيف أتيت، ثم يبهتون عندما يخبرهم قائلا، "أتيت عن طرق الهواء الطلق".

سارع الأولاد وبعض المتسكعين بالعدو ناحية منزل عائلة وو ليعلنوا لأهل المنزل وصول السيد الثانى، لكن تسيمو كان يسير بخطوات واسعة حيث كان تقريباً وراءهم، لذا ما إن أسرعت زوجة البواب لتخبر مدام وو ورولان بوصوله وهى مقطوعة الأنفاس، حتى كان تسيمو بذاته فى أعقابها. طبقًا للعادات المرعية، كان واجبًا أن يذهب إلى والده أولا، لكن تأكد أن ليانجمو قد كتب إليه مخبراً إياه عمن يشغل الآن جناح والده، ولم يكن هو مستعداً أن يشاهد امرأة غريبة قبل ما يرى أمه، لذا هو ذهب أولا إلى جناح والدته، وشعر بالاندهاش عندما شاهد معها رولان زوجته.

كانت لحظة محرجة، أنه طبقًا للعادات المرعية كان عليه أن يحيي زوجته قبل والدته، ولدهشته ساعدته رولان، فقد تراجعت للخلف بلطف ومنحته الوقت والمكان اللازمين.

كانت تحية والدته، "يا ابنى، حضرت أخيرًا"

مدت يديها وأمسكت بذراعيه كما تفعل الأمهات عادة، "أنت أصبحت أرفع عودًا لكن تبدو بصحة جيدة وأصبحت أقوى يدًا"، قالت ذلك وهى تتملى من وجهه الأحمر.

"أنا بأفضل حال يا والدتى، لكنى مشغول باستمرار، وأنت يا أمى تبدين بصحة جيدة - أفضل مما كنت عليه عندما رحلت عنكم"، هذا وأكثر منه مر بينهما، بينما ظلت رولان فى الانتظار، واندهش تسيمو للغاية من هذا الصبر العجيب، فليس من عادتها أن تصبر هكذا، ولعظيم دهشته، خطت مدام وو بضع خطوات إلى الخلف ثم أمسكت بيد رولان وجذبتها إلى الأمام:

"إنها بالفعل فتاة طيبة، وهى الآن فى منتهى الطاعة وفعلت كل ما فى جهدها وكانت موفقة تمامًا". ليس هناك شىء يمكن أن يبهج قلب تسيمو أكثر من هذا المدح الذى يكال لزوجته، ومماثلا إلى كل الأبناء الذين ينتمون إلى الأمهات القويات، كان فى حاجة لأن يسمع مثل هذا المديح. إنها لم تشكر رولان من قبل، وكانت واحدة من أسباب غضبه من رولان هى أن والدته لم تمدحها أبدًا، وهذا ما كانت تفعله الآن. تفرست المدام فى وجهه الوسيم وابتسامته المشرقة ولمعة عينيه. تحدث مع رولان بضع كلمات عامة، وهى كلمات بسيطة مثل تلك الكلمات التى تقال فى حضور الأكبر سنًا:

"آه، أنت بصحة جيدة"

"أشكرك، أنا فعلا كذلك، وأنت؟"

كانت الكلمات المنطوقة بألسنتهم قليلة، لكن عيونهما نطقت بالكثير، عندما رفعت رولان إليه عينيها، اكتشف أنها أصبحت أكثر جمالا بمقدار عما عهده فيها من قبل، كان فستانها الأحمر المقفول حتى الرقبة يضفى عمقًا لشحوبها الذهبى.

أبعد عينيه عنها والتفت إلى والدته، وهو يتلجلج، "أمى، أشكرك لأنك بذلت جهداً عظيماً فى تعليمها - فى أن تقضى وقتاً فى.... فى...".

فهمت مدام وو، لذا أجابت، "ابنى، أخيراً أستطيع أن أقول: لقد كان اختيارك موفقاً". شاهدت بعد ذلك الدموع تترقرق فى عينى رولان، ونوعًا من الرقة واللطف شابت حركاتها. كم هم عاجزون هؤلاء الشباب على الرغم من شجاعتهم، وكم هم فى حاجة إلى رضى الكبار وتشجيعهم

تذكرت ما نطق به أندريه يومًا، "كونى عطوفة على الصغار، فهم لم يطلبوا أن يوجدوا على ظهر هذه الدنيا". تذكرت ذلك جيداً، لأنه فى ذلك اليوم البعيد، كانت غاضبة من تسيمو لأنه حضر إلى المنزل متأخراً، لذا ردت على أندريه قائلة، "وأنا أيضاً لم أطلب أن أوجد فى هذه الدنيا"، فشملها فى ذلك الوقت بعينيه الثاقبتين قائلا، "آه، لأنك عانيت فى حياتك، لا يعنى هذا أن تجعلى الآخرين يعانون هم أيضًا، فليس هناك سوى الصغير واللئيم هو الذى يهدف إلى الثأر ويسبب الألم للآخرين، لكن أنت أفضل من ذلك كثيراً أيتها السيدة الفاضلة".

تقبلت ذلك فى صمت وابتلعت غضبها. استمر هو فى الحديث، "الآن، ماذا تعنيه كلمة المعاناة، مادام أننا لم نستطع أن نتعلم منها نحن الأقوياء أن نمنع حدوث ذلك مع الآخرين؟ لقد عرفنا أعماقها، وابتلعنا مرارتها، وهذا كله يحدث لكى نتعلم كيف نطرد ذلك من كل العالم، وإلا تحول العالم كله إلى جهنم نفسها".

الآن وهى تتذكر كلماته، شعرت برغبة قوية لأن يشعر ويباشر هذان الاثنان السعادة فى منزلها. أخذت يد رولان وأمسكت يد تسيمو وضمتهما سويًا؟

"واجبك حيالى قد تم يا ابنى، خذ زوجتك إلى جناحك، واقضى معها نصف ساعة بمفردكما، وسوف يتاح لك بعد ذلك الوقت الكافى لأن تخرج لكى تحيى والدك"

شاهدتهما وهما يبتعدان، اليد فى اليد. ثم جلست وهى تبتسم وأخذت تدخن غليونها الفضى لفترة.

* * *

لمدة عشرة أيام، أصبح المنزل مركزًا لعديد من الاحتفالات، وكل قريب بعيد أو قريب حضر راغبًا أن يرى تسيمو ويتحدث معه ويسأله عن آرائه فيما يختص بتلك الحرب الدائرة، كذلك عن انتقال الحكومة كلها إلى المناطق الداخلية، وما رأيه فيما سوف تصل إليه أسعار الأرز نتيجة لكل هذه الأحداث، وهل الأجانب سوف يحاربون مع رجال شرق المحيط الأقزام أم سوف يحاربون ضدهم. لم يفكر أحد فى الهزيمة من الأعداء، كان السؤال الوحيد هو هل سوف تكون هناك مقاومة علنية واضحة وجلية باستخدام السلاح، أم أنها سوف تكون مقاومة سرية مع الوقت، ولأن تسيمو هو شاب، لذا يشجع المقاومة العلنية، ولأن السيد وو لا يعلم شيئًا، تابع ابنه فى آرائه.

لكن مدام وو وهى جالسة وسط أفراد عائلتها، تسلى نفسها بتدخين غليونها الصغير، لا تنطق بشىء سوى أن تشير بأن يؤخذ هذا الطفل لتفريغ مثانته، أو أن يوضع هذا الطفل فى سريره لكى ينام، أو تطلب من خادمة أن تكون صامتة وهى تصب الشاى فى الأكواب، أو مثل هذه الأمور. كانت تعلم يقينًا وتؤمن أن المقاومة يجب أن تكون سرية، بهذا يمكن هزيمة الأعداء، كما حدث من قبل وهزموا الآخرين. فى قرارة نفسها هى لا تؤيد قيام جيوش أخرى بالقدوم لكى يساعدوا شعبها، فمن فى العالم أتى متطوعًا أن يسعد شعبًا آخر ليس من نوعية دمائه دون المطالبة بالمقابل؟ إنه ليس من العدل فى شىء أن تعطى شيئًا دون أن تنال مقابلا.

لكنها ظلت مع ذلك صامتة. هى ليست سوى امرأة، على الرغم من أنها أكثر احترامًا من أى شخص آخر داخل سقف هذا المنزل. منذ أمد بعيد، ومع الحرية التى لم تشعر بتواجدها إلا مع أندريه، تناقشا سويًا فى موضوع الطبيعة البشرية:

"أنت تؤمن بإلهك وأنا أؤمن بالعدالة، أنت تناضل من أجل واحد وأنا أناضل ضد شىء آخر".

"إنهما الموضوع نفسه"

اليوم وهى تجلس وسط أفراد عائلتها، شعرت بوحدة قاتلة، هنا لم يحضر أندريه، ولن يحضر فيما بعد.

فجأة أخبر تسيمو، "هؤلاء الأجانب، إذا حضروا وخطوا فوق تراب بلادنا، هل يمكن أن نزيحهم بعيدًا فيما بعد؟"

"ليس علينا سوى أن نفكر فى أحوالنا من يوم ليوم"

"لكن هذا ليس هو أسلوب شعبنا، دائمًا ما كنا نفكر على مستوى مئات الأعوام".

"بعد مئات الأعوام، يمكن لنا أن نطردهم"

مرة سألت أندريه، "فى تلك الذخيرة التى تسكن كل إنسان، هل تستقر بداخلها ألوان وتقاليد ونوع من المشاعر الوطنية والمشاعر العدائية؟"

"لا، ليس هناك سوى مراحل للتطور، وفى كل المستويات، يمكن أن نلاحظ أرواحًا تشع وتبرز وسط الناس جميعًا".

"إذًا أسألك، لماذا تنتشر الحروب بين الناس والأمم؟"

"الحروب تنتشر وسط من هم أقل مستوى من البشر. فى كل أمة، لاحظى هؤلاء الذين ينضمون إلى الحرب، وكيف أن بعضهم يحاربون بلا رغبة حقيقية، وبقلب مكلوم! ليس هناك سوى المتخلفين هم الذين يعشقون شن الحروب".

أخذت تتمعن فى كل هذا، بينما كان تسيمو يتحدث بطلاقة عن فرق الجنود والدبابات والطائرات التى تلقى القنابل، وكل هذه الأمور التى ليس لها أى معنى، أخيرًا نسيت نفسها وتثاءبت بصوت واضح، الجميع التفت لينظر إليها، ضحكت، "أرجو أن تسامحونى، لقد أصبحت عجوزًا، وحكايات الحروب وما يجرى فيها لا أهتم كثيرًا بها". ثم قامت من مكانها وأسرعت ينج لتكون بجوارها، ثم وهى تنحنى وتبتسم رجعت إلى جناحها.

فى اليوم الحادى عشر، رحل تسيمو. لقد عادت إليه الطائرة وتجمع عدد كبير من أفراد العائلة والمدينة لكى يشاهدوه وهو يرحل، لكن مدام وو لم تكن ضمنهم، فكل ما ذكره خلال أيام إجازته أرهقها وأتعبها، شعرت أنه من الغباء أن يقضى شاب كل هذا

الوقت فى حياته منغمساً فى موضوعات مثل الحرب والموت، فليس هناك قيم فى هذا الموضوع تفيد العائلة أو نفسه. إن الحياة هى القوة المنتصرة، ومواجهة العدو والموت تكون بالحياة ومزيد من الحياة، لكنها عندما ذكرت ذلك، شعر تسيمو ببعض الضيق قائلا، "أمى، إنك لا تفهمين شيئاً".

مع صيحة الشباب هذه، ابتسمت وتراجعت إلى حالة الصمت التى تفضلها، ثم ودعته بكل التحيات المعتادة بكل لطف وكياسة وتقبلت منه شكره وامتنانه، ثم رحل. هى لم تكن آسفة لرحيله، لقد أثار حديثه كل من فى المنزل، وخاصة أنه جعل أخاه الأصغر يشعر بالرعب، فعندما حضر (ينمو)، لونه بنى وسمين، كأنما هو ولد من الفلاحين، وقامته زادت عدة بوصات عما كان قبل رحيله إلى الريف. لم تتحدث معه والدته أكثر من التحيات المعتادة، منتظرة أن تنتهى مسألة أخبار الحرب لكى تجلس معه فى هدوء معه وتكتشف أبعاده، لكنها لاحظت أنه منكمش على نفسه والخوف يسيطر عليه.

لذا استقر لها المقام فى جناحها، وإليها حضرت رولان بعد رحيل تسيمو. أتت إليها وركعت بجانبها ووضعت رأسها على ركبتيها. شعرت هذه ببلل دافئ يتسلل خلال قماش فستانها من الساتان.

سألت بلطف، "ما هذه الدموع؟ إنها دافئة"

همست رولان، "لقد كنا سعداء"

"إذن هى دموع جيدة"، ثم أخذت تربت على رأس الفتاة ولم تنطق بأكثر من ذلك. بعد فترة، نهضت رولان ومسحت عينيها، ابتسمت ثم غادرت.

* * *

إذا تم التعرف على كل خطوات الحياة قبل وقوعها بلحظات، فهل كان من الممكن احتمالها؟ فهذا المنزل الذى كان يحفل بكل مظاهر الأفراح والاحتفالات، غطس فى لحظة تالية فى حزن مقيم. من كان يعلم ما سوف يحدث بين طيات السحب؟ فى أقل

من نصف ساعة، بعد ساعة من رحيل تسيمو عندما صعد إلى الطائرة مع شروق شمس هذا النهار، هرول المشرف على الأرض الزراعية بالقدوم إلى منزل عائلة وو وهو يولول ويبكى يتبعه عدد كبير من المؤجرين والفلاحين، يبكون ويمزقون ملابسهم والنساء وقد أطلقن شعورهن. مثل هذه الجلبة انتشرت فى كل أنحاء المنزل، سمعتها مدام وو التى كانت قد ذهبت إلى المكتبة بعدما غادرتها رولان، فسمعت النحيب والعويل ومن يذكر اسمها، فى الحال عرفت أن هناك كارثة قد حلت.

نهضت وخرجت من غرفتها وقابلتهم أمام باب جناحها، كان يتقدمهم السيد وو، والدموع تتساقط على خديه، حتى ياسمين كانت وراءه مع الآخرين، وكل الأطفال اليتامى والمرأة العجوز وكل الخدم والجيران كانوا يتزاحمون حول البوابة.

بدأ السيد وو، "إنه ابننا..."، لم يستطع أن يستمر.

أكمل المشرف الزراعى، "رأينا نيراناً تهبط من السماء فى أبعد حقل، لذا تسابقنا لكى نرى ما هذا. للأسف يا مدام، لم نجد سوى بعض الأسلاك وماكينة أجنبية، وأشياء مهشمة من أشياء لا ندرى عنها شيئاً، وهذا كل شىء. لم نعثر على أى بقايا بشرية".

وقعت هذه الكلمات على قلبها كأنما هى خنجر، لكن كانت تعرف ذلك مسبقا.

تمتم السيد وو، "لم يتبق أى شىء نقوم بدفنه". نظر نحوها وهو فى حيرة شديدة، كيف أن ابننا الذى كان حياً منذ ساعة واحدة فقط، الآن هو لا شىء؟

شعرت بحزن قاتل، لكن كل فكرها اتجه ناحية رولان، "يجب أن نفكر أولا فى زوجته".

الكل وافق، "نعم، نعم"، لكن ما العمل إذا كانت هى حامل الآن؟ من الرحمة أنهما قضيا وقتاً سعيداً سوياً ! "وإذا كانت هى حامل، فهذا سوف يعزيك يا مدام، وأنت يا سيدى".

مع هذا الأمل المتجدد، جفت دموع مدام وو، وكان أمر السيد وو، "اذهبى إليها وعزيها، سوف نتركها لك".

لذلك ذهبت مدام وو بمفردها، حيث كان يعيش تسيمو مؤخراً مع زوجته، وببطء تشتت هذا الجمع. عاد السيد وو مصطحباً معه ياسمين وأغلق بابه. أما المشرف الزراعى، فإنه طلب من الجميع أن يعودوا إلى أراضيهم الزراعية، أما عنه هو، فإنه قال إنه سوف ينتظر حتى يسمع توجيهات مدام وو، لذا جلس فى غرفة البوابة إلى أن يحين الوقت لتستدعيه.

عاد الأطفال اليتامى إلى المعبد، هناك أشعل الكاهن العجوز البخور وأخذ يتمتم بالصلوات من أجل الابن المتوفى، "فى هذه الأيام، ليس هناك وقت للصلاة على الموتى، إنهم يعيشون ثم فى لحظة يموتون، هذا كل ما نعرفه. ابحث عن روحه فى الأعماق السمائية، اعثر عليهم وسط الجموع وأرشده إلى المكان الذى يعثر فيه على معارفه، وعندما يولد من جديد فاسمح له أن يولد فى هذه العائلة نفسها حيث ينتمى".

هذه كانت هى صلاة الكاهن العجوز.

* * *

فى ذلك الجناح الذى كثيراً ما أحست فيه رولان بالسعادة، جلست الآن منكمشة على نفسها بجوار مدام وو، رأسها مضغوط على يد المدام. كلتاهما كانتا صامتتين، وما الذى يمكن أن يقال؟ كلتاهما التحمتا فى نسيج قوامه الحب والحزن. اشتاقت مدام وو أن تخبر الفتاة عما يعتمل داخل نفسها، وكيف أنها نظرت أندريه وهو ميت، فالسيدة الكبيرة استطاعت أن تدفن أندريه، لكن للأسف لم يتبق شىء من تسيمو ليدفن، فهذه الرياح القاسية ساقت أمامها رماده ونثرته على وجه الأرض، لقد تولت هذه الرياح مهمة دفنه، وما الذى تبقى إذن من تسيمو؟ لم يتبق للأم سوى ذكريات عن أيام طفولته، ثم وهو ولد ثم شاب إلى أن أصبح رجلا. كانت تحتفظ بذكرى صوته وهو يتناقش، يعلن، وجهه صبوح، رائق، وسيم. الآن ليس لديها منه سوى معرفتها أنه قد مات. ما كان بينها وبين ابنها كلها أمور تختص بالجسد، وهذا لا يمثل سوى الذكريات التى التحمت بجسدها.

لكن ماذا تبقى منه لرولان؟ هل كان فى استطاعتهما خلال عشرة أيام أن يتجاوزا شئون الجسد؟ هل تمتلك الزوجة ما هو أفضل مما لدى الأم؟

كان الوقت مبكراً لأن تتساءل. ظلت مدام وو فى مكانها صامتة بلا حراك، والحرارة المنبعثة منها تتدفق إلى الفتاة التى جثت بجوارها.

رولان هى التى تحركت أولا، وقفت، مسحت دموعها وتوقفت عن البكاء، "سوف أشكرك إلى الأبد يا أمنا، لأننا خلال العشرة أيام تلك، لم نتعارك ولو مرة واحدة"

تساءلت مدام وو، "هل أنت قادرة الآن أن تعيشى بمفردك". إنها معجبة تماماً بهذه الفتاة، وشعرت أن حبها لهذه الفتاة يزداد عمقاً.

"أستطيع ذلك، وعندما أنفرد بنفسى قليلا يا أمى، سوف أحضر إليك وأطلب ما الذى أود أن يكون بشأنى".

"أبوابى دائمًا مفتوحة لك". نهضت وهى تتقبل مساعدة رولان فى ذلك، كانت قبضتها حارة لكنها قوية، أضافت مدام وو، "ليلا ونهاراً، بابى مفتوح لك دومًا".

"لن أنسى ذلك"

ابتعدت مدام وو، سمعت باب جناح تسيمو وهو يغلق وراءها. توقفت وتقريبًا التفتت خلفًا. من المؤكد أنها لم تقفل بابها لكى تلحق ضرراً بنفسها، فليس هذا أسلوب رولان. سوف تجلس بمفردها، ترقد بمفردها لا يزورها النوم، وسوف تعود إلى الحياة مرة أخرى بطريقة أو بأخرى. أخبرت نفسها، أنه لو كان تسيمو حيًا، إذن لاستمر عراكهما سويًا، فما جرى خلال العشرة أيام لم يكن مقدراً له أن يستمر. إنهما كانا يشعران بأنهما متساويان، كانا مغرمين ببعضهما بشكل بالغ، وكل منهما يود أن يهيمن على الآخر، وكلاهما لن يسمح للآخر أن يتحرر، لكن الآن هما يعيشان إلى الأبد فى سلام.

تمتمت، "فى سلام!". إنها أجمل كلمة ترد على لسان البشر.

* * *

على الرغم من أنهم لم يعثروا على جسد لكى يحتفلوا بدفنه، لكن مع ذلك، مرت أيام الحزن مع مراسمه كالمعتاد فى منزل آل وو. أحضروا تابوتًا وجهزوه، فيه وضعوا حاجيات تسيمو التى أحبها بالأكثر، ثم تم غلقه وختمه. يوم الدفن، تم تحديده بمعرفة المعددين فى المدينة، وصاحبه كل ما يلزم لإعلان الحزن. فى ذلك اليوم، حدث هذا، ودفن تابوته فى مقبرة العائلة فى أرض الأجداد، أما لوحته فقد وضعت فى قاعة الأجداد وسط هؤلاء الذين دفنوا من قبله خلال مئات الأعوام.

أثناء حدوث ذلك، سمحت لكل مظاهر الحزن أن تتبدى دون أن تفتش عن شىء. فى حزنها هذا، تقبلت مساعدات صديقتها مدام كانج. كان هناك القليل الذى يروح ويجىء بين المنزلين، وكانت مدام وو على وعى تام بذلك على مدى الشهور المنصرمة، لكنها لم تحاول أبدًا أن تصلح من هذا، فقد كان اهتمامها الداخلى وذكراها المتصلة تنصب فقط على أندريه، وهذا أضعف إلى حد ما من صلاتها بصديقتها، بالإضافة إلى أنها ما زالت تتذكر يوم ولادة مدام كانج وترتعش.

لكن فقد أحد الأبناء، هو أمر محزن ومؤلم، لذا التحمت كل من الصديقتين مرة أخرى، لكن ليس بالحرارة السابقة نفسها. أيضًا حضر السيد كانج الجنازة، ولو لم تحدث هذه الوفاة، لما كان فى استطاعة مدام كانج أن تدخل هذا المنزل وهى مستريحة النفس، لكنها أزاحت أى أمر آخر جانبًا وحضرت إلى جناح مدام وو بحرارتها نفسها وهى تبكى بصوت عال قائلة، "أولادنا شبوا سويًا. أنا أشعر أن ولدًا من أبنائى هو الذى مات".

كانت مدام وو تعلم أن هذا حق، ورحبت بصديقتها وجلسا سويًا بأسلوبهما القديم نفسه لفترة، وكانت مدام كانج مصرة أن ترتدى ملابس الحداد أثناء مراسم الدفن.

مع ذلك، كانت مدام وو تدرك أن هذه الصداقة قد هتكت أواصرها، فهى قد تداخلت بقوة فى شغاف الحياة الشخصية لصديقتها، وما كان لمدام كانج أن تغفر لها ذلك، على الرغم من احتفاظها بالجميل، وهذا الامتنان كانت تتحدث عنه بكل حرية، "لو لم تحضرى هذه الليلة يا أختى، إذن لكنت قد قضيت. حياتى هى من فضل يديك".

لكن كانت هناك نظرة خجولة تتبدى فى عينيها، فهى على الرغم من أنها ممتنة لأنها ما زالت على قيد الحياة، لكن مع ذلك لم تكن راضية أن تكون صديقتها هناك فى أشد أحوال ضعفها، وهناك أيضًا قليل من الغيرة فى مكان ما من قلب مدام كانج تجاه مدام وو، وهذه كانت تعلم ذلك. إنها لا تلوم صديقتها أبدًا، لكن داخليًا، هى استبعدت نفسها عنها، وعلى الرغم من أن مدام كانج حزنت فعلا على فقدان تسيمو، لكنها على أية حال لم تحزن كثيرًا على أن عائلة وو قد نقص ولد من أبنائها، ففى مثل مناسبات الأحزان تلك، هى من الممكن أن تتفوق على صديقتها. ربما فى وقت سابق، تشعر مدام وو بالغضب، لكن ليس هو الحال بها الآن. إنها تتفهم ضعفات صديقتها، لذا لا توجه لها لومًا.

سألت أندريه يومًا، "هل علينا أن نتحمل غباء الصغار من البشر ولؤمهم؟"

"نعم، لأننا عندما نعمل على تحطيمهم، نحن بذلك نحطم أنفسنا، ليس أحد منا أفضل وأكثر حكمة عن أى إنسان آخر، بحيث لا يمكن أن يدمر هذا الإنسان دون أن يفقد شيئًا آخر داخله".

"كيف إذن يمكن أن نتحمل فعالهم؟". تذكرت وقلبها يدق بعنف تلك الطفلة التى أنجبتها واحدة من الخادمات ثم تعرضت للموت بناء على موافقتها، هذه الطفلة ولدت مشوهة ومعتوهة، وقد قامت ينج بإبلاغها بهذه المعلومات، ثم رفعت الوصيفة إبهامها إلى أسفل، فهزت مدام وو رأسها بالموافقة.

أجاب أندريه، "ليس لأحد المقدرة أو الإذن لأن يحرم الحياة من أى إنسان أقل منه شيئًا". لم تستطع فى حينه أن تخبره عن قصة هذه الطفلة. الآن هى فوق عربتها فى موكب جنازة ابنها، ودت لو كانت قد أخبرت أندريه بهذه الحادثة. لقد وقع على ضميرها ذنب القضاء على تلك الطفلة فى اللحظة التى فقدت فيها ابنها، شعرت بدفعة من موجات التشاؤم تجتاحها تشير بقوة إلى الشر القديم الذى ارتكبته والذى انتقم لنفسه الآن، ثم قامت بطرد هذه الأفكار، فهى لا تعتقد فى مثل هذه الترهات. وما الذى هو وراء الروح، ليس هناك سوى الصدف فى الحياة. لن تجد فى الروح سوى كل من السبب والنتيجة، لكن ما هى تأثيرات وفاة هذه الطفلة عليها؟ لا شىء، هذا ما توصلت إليه، مادام أنها

فى ذلك الوقت لم تكن تدرى مغبة ما صنعته. الآن، وقد فهمت، هى لن تكره صديقتها، مهما كانت صغيرة فى نظرها.

فكرت بعد ذلك بنوع من التمرد، "لكننى أيضًا لست مضطرة أن أغرق فى لجة محبتها". هذا التمرد جعلها تفكر فى أندريه مرة أخرى، عندما كان يقرأ فقرة من كتابه المقدس، قرأ، "أحب قريبك كنفسك".

صاحت هى، "أحب! إنها كلمة قوية"

كانت كثيراً ما تنتقد كتابه المقدس، ربما بنوع من الغيرة، لأنه كان يقرأ فيه كثيراً ويعتمد عليه فى كل تصرفاته وحكمته، لكنها فوجئت أنه يوافقها، رفع من رأسه الضخم قائلا، "أنت على حق، الحب كلمة قوية. لا يستطيع الإنسان أن يحب جاره كنفسه، كان من المفترض أن يقول اعرف جارك كنفسك، وهذا يعنى أن أعلم ما يعانيه من متاعب وأن أتفهم موقفه ومركزه، أن أتعامل مع أخطائه كما أتعامل مع أخطائى، أن لا أحكم عليه فى الموقف نفسه الذى فيه لا أحكم فيه على نفسى. يا مدام، هذا بالضبط ما يعنيه لفظة : أحب.". ثم استمر فى القراءة بصوته العميق الناعم، وصوته ما زال حتى الآن يرن فى أذنيها.

كان اليوم المحدد للجنازة صحواً، والمياه فى أحواض المياه رقراقة، الجو دافئ والطيور تنشد وتغنى. من خلال شباك عربتها الزجاجى، استطاعت أن تشاهد كل هذا، مما زاد من أحزانها. فكرت فى رولان التى استقلت عربة خلفها، نظرت نحوها من النافذة الخلفية لترى ما إذا كانت تنظر لما حولها، لكن الستائر كانت مسدلة.

رجع ذهنها إلى ابنها الذى قضى، كيف يا ترى تلقى موته فى السماء نفسها وسط السحاب؟ هل علم ما الذى سوف يتقابل معه؟ شعرت بنفسها وقد اقتبست جسد تسيمو، أحست به وهو يشعر بالحرية والانطلاق وهو داخل الطائرة فوق الأرض بمسافات شاسعة، ثم فجأة توقفت ماكينة الطائرة عن العمل، إنه كثيراً ما كان يثق فى هذه الآلات.

قبل أن يغادرها، قالت له وهى قلقة، "هل حقاً تشعر بالأمان وهذا الآلات الأجنبية ترفعك إلى العلا؟

أخذ يضحك من جهلها، يا أمى، إنه السحر بعينه!". لكن هذا السحر خدعه. لعله لحق بضع ثوان لكى يستعرض فيها قصة حياته، شاهدت رعبه أولا ثم غضبه ثم النهاية، وعكس هذه السماء اللانهائية، سقط جسده إلى الأرض. أحنت رأسها بعد ذلك وغطت عينيها بيديها.

سارت مراسم الجنازة كالمعتاد. كانت هناك دفنات متعددة قد حدثت لأفراد من هذه العائلة، وعليها الآن أن تتحمل، حتى ولو كان المدفون هو ابنها. فى يوم من أيام الصيف الماضى، تم سحب تابوت الجدة العجوز من المعبد حيث كان فى الانتظار وتم إحضاره إلى هنا، إلى أرض مدافن العائلة، ووضع نصب من الرخام أمام قبرها، حجمه أقل حجمًا من النصب الذى وضع أمام الجد، لكن يشبهه. كانت هناك مسافة على شمال الجد مخصصة للسيد وو عندما يحين أجله، وبجوار هذا كان مخصصاً لها هى مكان، وبجانبها هناك مكان لكل من ليانجمو ومنج، بعدهما حفر القبر الذى سوف يضم تابوت تسيمو الخالى، وبالفعل تم إنزاله داخل الحفرة، بعدها تم ذبح الديك الأبيض ونُثرت دماؤه على التابوت، كذلك حرقت الآنية البيضاء، وحرقت طيارة ورقية ونثر رمادها على التابوت أيضًا، بعد ذلك ردم القبر، وفوق قمة خضراء ثبتت بعض الأوراق المتطايرة. انتهت الجنازة، ورجعت العائلة تاركة خلفها عدداً من المعددين المستأجرين ليقوموا باللازم.

* * *

وهى بمفردها فى غرفتها ليلا، كانت جالسة تبتلع أحزانها، لم تشأ أن يجلس أحد معها بعد عودتها. أما عن السيد وو، فهو كما تعلم، محتاج لمن يسرى عنه، وعلى رولان أن تعانى من جروحها إلى أن تشفى. رقدت مدام وو على سريرها تفكر فى ابنها وفى مكانه الخالى فى المنزل وفى كل الأبناء الذين كان من الممكن أن يخلقوا من صلبه،

هؤلاء لن يظهروا للوجود أبدًا الآن، وهذا أكثر ما أحزنها. إنها تأسف عميقًا بسبب كل الأماكن الخالية فى سلسلة الأجيال المتتابعة، وعندما يموت شاب أو شابة، إذن هناك الكثيرون الذين يموتون مع أيهما. لقد لعنت هى فى سرها كل هذه الآلات الأجنبية وكل الحروب والطرق التى تسلب الشباب أرواحهم. ثم أخذت تلوم نفسها لأنها لم تدع كل أبنائها يستقرون داخل منزلها ليعيشوا آمنين.

على الصفحة السوداء التى تبدت فى عقلها، رأت شكل أندريه بحجمه الكبير. كانا يومًا يبحثان موضوعًا كتبه فنجمو، أخبرت أندريه بقولها، "علم ابنى الثالث، لكن لا تعلمه أبدًا شيئًا يمكن أن يبعد قلبه عنا". صاح هو، "يا مدام، إذا أنت حاولت أن تسجنى ابنك، فهو بالتأكيد سوف يكتشف الطريقة التى بها يمكن أن يفلت منك. كلما قبضت عليه، ابتعد عنك بالأكثر".

أخبرت ذلك الشكل الذى انطبع بشكل أسود خفى على صفحات عقلها، "أنت مخطئ، أنا لم أسجنه أو أقبض عليه، هو أبعد الأبناء عنا الآن"

استيقظت مبكرًا صباح اليوم التالى. كان اليوم الجديد صحوًا أيضًا يشبه اليوم الفائت، قامت وهى لا تشعر بالراحة. بالأمس كانت المناطق الريفية جميلة فى نظرها على الرغم من أحزانها، لدرجة أنها اشتاقت الآن أن تخرج مبتعدة عن تلك الجدران التى تحدها وتقبض عليها. أخذت تسير داخل غرفتها، لا تريد أن تخرج أو تبقى مكانها. كان المنزل غارقًا فى الصمت والسكون، فالكل نام متأخرًا بعد متاعب أحزان الأمس، أخيرًا أتت إليها ينج متأخرة، شاحبة وعلى غير عادتها من الثرثرة والحديث، عيناها حمراوان. فعلت بعد ذلك كل واجباتها تجاه سيدتها، وصرفتها مدام وو، ثم ذهبت هذه إلى مكتبتها وتناولت كتابًا، بينما الهواء الطلق ينساب عبر النوافذ المفتوحة، مما جعلها تشعر بهذا الهواء كأنما هو البلسم الذى يمر ويحف على بشرتها الناعمة.

كان الوقت هو منتصف الفترة الصباحية عندما سمعت وقع أقدام قادمة، رفعت عينيها فشاهدت أمامها ابنها الرابع (ينمو).

حياها بطريقة خشنة جافة تليق بأبناء الريف. لم تحاول أن تصحح له كلماته أو أسلوبه، فهى تعلم أنه قد تأثر من كثرة مخالطته للفلاحين.

قالت له بكل حنان، "اقترب منى يا ابنى"

أمسكت يديه، شعرت بمدى خشونة أنامله وهى تقبض عليها بيديها الرقيقتين، إنه الآن يبلغها طولا، اكتشفت ذلك لدهشتها البالغة، قالت له بصوت ساخر، "أنت تنمو بأكثر سرعة".

إنه لا يشبه أحداً من أبنائها، فكلماته ليست جاهزة على لسانه، وابتسامته عسيرة، لكنها لاحظت أيضًا أن عيونه هادئة وأنه لم يكن من النوع الخجول، هو بكل بساطة لا يجد نفسه أنه فى حاجة لأن يبعث السرور فى قلب أحد من الناس. تركت يديه، ووقف هكذا أمامها بجلبابه الأزرق منتعلا حذاء له نعل من القماش السميك.

قال، "أمى، أريد أن أعود إلى المزرعة، أنا لا أرغب أن أعيش هنا"

كانت تبدو على وجهه مظاهر القوة والعزم، عيناه صغيرتان سوداوان، شعره خشن، أسنانه فائقة البياض، لدرجة أنها أرادت أن تضحك من مظهره.

سألت، "إلى أى مدى قرأت الكتب؟"

"إننى الآن فى السنة الخامسة ونقرأ كتاب القراءة الجديد، كذلك قرأت كتاب المتغيرات".

كان هذا كافيًا لسنه، "لكن أليس من الواجب أن تلتحق بمدرسة أفضل من مدرسة القرية هذه؟"

"إننى أكره الكتب والقراءة"

"تكره الكتب! آه، أنت تريد أن تقلد والدك"

تحول وجهه إلى اللون الأحمر وخفض وجهه ناظراً إلى قدميه، "لا يا أمى، أنا لست كذلك. أنا لن أشبه أحداً، إذا لم أعد إلى المزرعة فسوف أهرب".

نظر إليها ثم خفض من ناظريه، وعلى الرغم من حزنها ضحكت، "هل قلت أنا مرة لأحد من أبنائى أن لا يفعل ما يريد"؟

اشتكى الولد، "هذه الجدران عالية"

وافقته، "فعلا، هى عالية جداً"

"أريد أن أرحل الآن"

"سوف أذهب معك"

أخذ ينظر بشك نحوها، "أين سوف تنامين؟"

"أوه، أنا سوف أعود الليلة، لكن هى فرصة حتى أطل على الأرض وأرى بنفسى أين سوف تقيم وأتحدث مع مدرسك، حينئذ سوف يطمئن قلبى عليك".

فى الحال غادرها (ينمو) لكى يحضر ملابسه، وطلبت هى أن تحضر عربتها ورفضت أن تصطحبها ينج، قالت لها، "فى الريف، لا أحد يفكر أن يسىء إلى"

لذا رحلا، مدام وو داخل عربتها بينما يمتطى ابنها صهوة حصانه الصغير الذى يعتبر لعبته. هكذا سارا فى الشوارع، الكل كان يعرف من هما وإلى أين هما ذاهبان، وكانوا يتراجعون خلفاً فى احترام لأنهما من السادة.

ما إن عبرا حدود جدران المدينة، شعرت مدام وو بهدوء شامل يحيط بها، تدريجياً غادرها الشعور بالتعاسة والحزن. لقد استبعدت من فكرها كل ما يزعج هذا اليوم وأخذت تراقب جسد ابنها الرابع القوى وهو يتأرجح فوق ظهر حصانه أمامها، كان الولد يجلس فوق صهوة حصانه بشكل جيد، لكن بلا رشاقة، ملتصقاً بالسرج كأنما هو جزء من هذا الحيوان، يرتفع وينخفض مع كل خطوة يخطوها الحصان. لم يكن خائفاً من شىء، يدير سوطه المصنوع من شعر الجياد بيده ويغنى أثناء المسير. من الواضح أنه كان سعيداً، لذا قررت أن تبذل كل جهدها لأن تحقق له أقصى درجات السعادة. كانت تشعر بالرضى لأن هذا الولد، كذلك ابنها الأول ليانجمو، وجدوا مصدر كل سعادتهم فى حدود العائلة.

لذا قضت هذا اليوم فى القرية الرئيسية، وتناولت طعام الغذاء فى بيت المشرف على الأراضى الزراعية وأنصتت لكل من أتوا لمقابلتها، البعض أتى شاكرًا والآخر حضر شاكيًا، واستقبلتهم جميعًا. كان يومًا عظيمًا وشعرت أن معنوياتها قد ارتفعت وانتعشت بسبب بساطة هؤلاء الناس. كانوا أمناء وصرحاء ولا يهدفون إلى إخفاء أفكارهم. بعض الأمهات أحضرن أطفالهن إليها، وعبرت عن سرورها بسبب صحتهم الجيدة وأشكالهم المبهجة. فتشت على الأرض المجاورة للقرية وفحصت الحبوب التى وضعت على جانب لزراعة مختلف المحاصيل. انحنت نحو البئر ووافقت على أن هذه البئر ضحلة وأنها فى حاجة لأن يتم تعميقها. أحصت عدد جرار الروث المخصصة لتخصيب الأرض لزراعة الكرنب. بعد ذلك، ذهبت إلى مدرسة القرية وتحدثت مع المدرس العجوز، الذى شعر بالدهشة من تواجدها وسُر بلقائها وضحكت عندما وجدته يحاول أن يثنى على إخلاص ابنها، لكنها أخبرته أنها تعلم أن ابنها لا يحب الكتب. ثم زارت الغرفة التى ينام فيها ابنها فى منزل المشرف، وهى غرفة واسعة مبنية بالطوب اللبن وبها سرير واسع وأغطية نظيفة. وقبل غروب الشمس، حيتهم جميعًا وودعتهم ثم دخلت عربتها وانطلق الحمالون بها إلى منزلها.

الآن هى وحيدة، فعلت ما كانت تود أن تفعله منذ زمن. على قمة تل شاهدت شجرة الجنجكو الضخمة التى دفن تحتها أندريه. إذا هى توقفت بلا شرح، فسوف تنتشر الأخبار الغريبة فى كل أنحاء الريف والمدينة والمنزل، الكل سوف يعلم أين ذهبت ومتى ذهبت ، فليس هناك شىء ما يمكن أن يحدث داخل منزل عائلة وو دون أن يمر هكذا غير معلوم. لذا قالت بكل جسارة مخاطبة الحمالين، "اذهبوا بى إلى قبر القس الأجنبى الذى كان يعلم ابنى، سوف أقدم احتراماتى أمامه، مادام أن لا أحد يقوم بزيارته، وأنا قريبة منه الآن".

حملوها إلى هناك بدون تعجب، فهم أعجبوا بهذا الأدب والذوق، لذا هبطت من عربتها على بعد قليل من القبر لكى تكون بمفردها، ثم سارت فى ممر ضيق بين الحقول وصعدت التل ودخلت تحت ظلال الشجرة. كانت رياح المساء تهز أوراق هذه الشجرة التى تشبه المروحة، وهذه كانت تبرقش الظلال التى ألقت بها أشعة الشمس الغاربة.

انثنت نحو القبر وخفضت من هامة رأسها إلى الأرض ثلاث مرات، بينما على البعد كان الحمالون ينظرون،، ثم جلست على مرتفع من الأرض يحيط بالقبر وأغمضت عينيها ودعته لكي يحضر إلى ذهنها، أتى إليها بالفعل بكل ما فى حركته من خفة ولطف بينما رداؤه يتطاير حول قدميه والريح تتلاعب بشعيرات ذقنه، وعيناه كلها حياة تبرقان وتشعان.

غمغمت متلاعبة، "هذه الذقن، إنها تخبئ وجهك عنى، أنا لم أشاهد أبداً ذقنك الحقيقية، كذلك فمك". هو دائمًا ما كان يخفى جسده، فرداؤه البنى الواسع يخفى تمامًا خطوط جسده، وحذاؤه الضخم المصنوع من القماش السميك يخفى حجم قدميه.

غمغمت، "هذه الأقدام، كثيراً ما كان أطفالك يضحكون منها!"

كان هذا حقيقيًا، أحيانًا عندما كانت تزور اللقطاء فى الأمسيات، لأنها حاولت أن تزورهم كثيراً، أخبروها عن الحجم الضخم لحذائه الذى كانوا يتشاركون جميعًا فى صنعه، وكانوا بأيديهم الصغيرة يعبرون عن مقاسات غير عادية.

كانوا يقولون لها وهم يضحكون "بهذا الحجم...بهذا الحجم"

كانت السيدة العجوز تفصل النعل من الأقمشة القديمة والمخلفات ثم تعثر على القماش الذى يصنع بقية الحذاء، وعلقت على ذلك بقولها، "يا لها من أيام وأنا أحاول أن أجعل إبرة الخياطة تخترق ذلك القماش السميك".

لكن الأطفال كانوا يذكرونها، "ونحن كنا نساعدك"

وافقتهم العجوز، "نعم ساعدتمونى ما عدا فى عمل الغرز فى القماش، حتى الأطفال الصغار كانوا يحاولون مساعدتى فى غرز الإبرة فى القماش".

هكذا جلست فترة تفكر فيه، ثم بعدها عادت إلى منزلها، وهى تشعر أن قلبها يتدفق شكراً، ففى حياتها منح لها أن تعرف، وحتى أن تحب، إنسانًا كله صلاح.

* * *

بعد عدة أيام، حضر إليها أحد الفنانين من محله فى المدينة محملا بشىء يقول إنه قد أنجزه، فعلى قطعة صغيرة من الألابستر رسم هو صورة أندريه.

أخذت مدام وو تحملق فيها، نصف خائفة، "لماذا أحضرتها لى؟"، لم تكن تعلم أن خفايا ما يدور فى أعماق قلبها يمكن أن يعرفه الكل، لكنها أيضًا تعلم تلك الحكمة الغامضة التى يتحلى بها هذا الجاهل.

قال هذا بكل براءة، "لقد صنعتها بطيب خاطر من أجل هذا الرجل. مرة عندما حدثت بعض الاضطرابات فى منزلنا وفقدت عملى، كان هو يمدنا بالطعام ويهتم بنا، إلى أن استطعنا أن نهتم بأنفسنا مجدداً. فى ذلك الحين صنعت له هذه الصورة، لكى لا أنسى وجهه أبداً، لكن بالأمس فقط قالت لى والدة أبنائى، "أليس من الواجب أن نضع هذه الصورة فى المعبد الذى يأوى إليها اللقطاء الذين كان يعتبر والداً لهم؟ لذا قمت بإحضارها إلى هنا".

استراح قلبها، إذن هو لم يحضر هذه الهدية من أجلها هى، لذا وضعت الصورة على المائدة. كان الرجل قد أعد مسنداً خشبيًا تثبت فوقه الصورة، وعليه انتصب أندريه أمامها. لقد استطاع هذا الفنان أن يدقق فى شكل أندريه، على الرغم من أنه وضع فيها بعض الملامح التى لا تنتمى للفقيد، فالعين مرتفعة نوعًا عند الأطراف، ويداه ناعمتان، وحجمه يبدو أرفع من حقيقته، لكن على الرغم من كل شىء هو أندريه.

تساءلت، "كم أدفع مقابلا لهذه الصورة؟"

"إنها هدية، وليست للبيع"

"إذن هى هدية مقبولة، للأطفال بالطبع"

وهذا ما فعلته، فبعدما غادرها الرجل، ظلت الصورة أمامها يومًا كاملا، ثم فى مساء اليوم التالى أخذتها وأحضرتها إلى المعبد. كان الأطفال يأكلون وجبتهم الليلية، مائدتهم موضوعة أمام الآلهة التى تحرس الأبواب. توقفت قليلا أمام الباب معجبة بالمنظر الذى يبدو أمامها، فهناك شموع حمراء تشتعل فى الشمعدانات تحت الآلهة،

والبخور يتصاعد فوق الهيكل وهو يتلوى صاعداً إلى العلا برائحته الطيبة، وبعيداً عن مجال الضوء وسط عقود السقف، كان تجلس الآلهة المصنوعة من الطين الملون تنظر إلى الأطفال القابعين تحت أقدامها.

أصبحت اللقيطات الآن معتادات على مقرهن هذا. فى البداية كن يخفن من منظر هذه الآلهة، لكنهن الآن تناسين ذلك تمامًا، كن يثرثرن بينما تناوبت المرأة العجوز والكاهن فى خدمتهن، البنات الأكبر كن يخدمن الأصغر عمراً. عندما شاهدن مدام وو، أحدثن ضجيجًا مدويًا، وقفن يبتسمن مرحبات بها. هنا كان يحدث أمر عجيب، فهى كثيراً ما كانت تنكمش على نفسها من أى لمسة لجسدها حتى من أبنائها عندما كانوا صغاراً، بل وهى كانت تمج حتى وضع أيديهم الصغيرة على بشرتها، لكن بالنسبة لهؤلاء الأطفال، هى لم تبتعد عنها إطلاقًا، هم ليسو أبناء لها أو أبناء لأندريه، لكنهم كانوا من اختيار روحه، وعندما تكون هى وسطهم، هى فى الواقع تكون بصحبته. هل يمكن أن تضيف عليهم أخريات من اللقطاء؟ هى لا تعلم، ربما يحدث هذا أو لا يحدث.

الآن، قامت هى برفع الصــورة إلى أعلى لكى يشاهدوها جميعًا، "لقد أحضرت لكم هدية"، ثم تقدمت إلى الأمام وثبتت الصورة أمام الآلهة بجوار إناء البخور الضخم، هناك جلس أندريه ينظر إليهم وهم ينظرون إليه. فى البداية، حل عليهم صمت كامل، إنهم كانوا فى شوق أن يتملوا فى تقاطيعه، ثم بدأوا فى حديث طويل وآهات وضحكات جزلة، "آه، إنه والدنا، آه.. إنه هو".

هكذا وقفوا، يحملقون ويتأوهون، قالت لهم بكل حنان، "هنا، سوف يكون معكم باستمرار وسطكم، يمكن أن تروا وجهه ليلا ونهاراً".

ثم دعتهم أن يروا ما هو مسطر خلف الصورة، فقد حفر الرسام أربع كلمات على الحجر باللون الأسود، وهى "المحترم جداً، القلب الأجنبى".

عندما شاهدوا ذلك، أعادت الصورة إلى وضعها واستمرت هكذا منذ ذلك اليوم فى هذا المكان.

بعد عودتها من المعبد، أدركت أنها لم تشاهد كلاً من شيومنج وابنتها فى المعبد، وذكرت ذلك إلى ينج قائلة، "لقد أعطيت الإذن أن تعيش شيومنج وابنتها فى المعبد، لكنى لم أشاهدها هناك".

"إنها بالفعل تعيش هناك، لكنها كثيراً ما تجلس مع زوجة ابنك الثانى، لقد أصبحا أصدقاء كأنهما أختين، كلتاهما تعزى الأخرى، فمنذ حضور هذه العاهرة، تبدو السيدة الثانية كأنما هى أرملة، وسيدنا لا يترك أبداً غليونه على مائدتها".

عن هذا، لم تحر مدام وو إجابة، استمرت فى سكونها متعجبة بينما انهمكت ينج فى دهانها بالزيت بعدما أخذت حمامها. هناك حقيقة راسخة، وهى أنه فى البيوت الكبرى، دائماً ما تجتمع القلوب المتشابهة المتحدة المشاعر، كل واحد فيهم يلوذ بالآخر، وإذا استطاعت شيومنج أن تسرى عن رولان، إذن لا مانع أن يستمر هذا، أيضاً ربما يمكن تحفيز رولان أن تخدم أطفال المعبد وتجد راحتها فى هذا العمل. فى الحقيقة، يجب أن يحصل هؤلاء الأطفال على نوعٍ من التعليم بشكل أو بآخر، وبالتأكيد هذه هى رغبة أندريه المخلصة من أن يتعلم أطفاله القراءة والكتابة، أن يتعلموا الخياطة وطهى الطعام، أن يؤهلوا للعيش فى هذه الدنيا كأى رجل وامرأة. ذهبت مدام وو إلى سريرها هذه الليلة وفى ذهنها خطة مفادها أن تنشئ مدرسة لهؤلاء الأطفال، لكنها ليست من ذلك النوع الذى يصنع أمراً بعجلة، بل تفعله بعد تفكير وترتيب بالغ، لذا دعت الأيام تمر.

(١٤)

فى بداية السنة التالية، وردت إليهم رسالة كهربائية أرسلها الابن الثالث فنجمو. لقد استلم السيد وو تلك الرسالة، ثم أرسلها إلى مدام وو بيد واحدة من الخادمات ولم يأت بنفسه. كان خطاباً غريباً، لقد قرأته بكل الطرق المختلفة لكن لم تفهم محتواه جيداً. لقد أعلن أنه سوف يعود، وهذا كل ما فى الأمر، وأنه إذا لم تكن الرياح والأمواج مواتية؛ فإنه سوف يكون فى منزله فى مدى شهر أو شهرين حسب الظروف، لكن وقت اكتمال دراسته لم يحن بعد، إلا أنه لم يشرح لماذا هو سوف يأتى مبكراً هكذا.

كلما تمعنت مدام وو فى قراءة هذه الكلمات القليلة، كلما ازداد قلقها. كانت فى شوق فى تلك اللحظة أن يتواجد أندريه أمامها لكى تتباحث معه شئون هذا الابن الذى تشترك معه فيه. تمتمت، "هل يمكنك أن تطلع عليه ثم تخبرنى لم هو سوف يحضر فجأة هكذا، هل صنع هناك فى غربته أمراً خاطئاً....".

لكن عندما أغمضت عينيها، تطلعت على وجه أندريه فى الظلام القاتم، وجدته حزيناً صامتاً، ولم ينطق بشىء.

أيضاً هى لم تشأ أن تتحدث مع السيد وو فيما يختص بابنها هذا، أو تتحدث مع رولان أو شيومنج، لكن كلما فكرت عميقاً فى هذا المسألة، ازدادت درجة حيرتها وارتباكها، لدرجة أنها أصبحت تخشى الآن عودة فنجمو لكى لا تساهم هذه العودة فى زيادة المشاكل التى تعانى منها العائلة. ثم فكرت، لعل أهم شخص يمكن أن تتحادث معه فى هذا الشأن لن يكون سوى مدام كانج والدة لين يى.

لقد استمرت المسافة بين المنزلين بعيدة، ولو كانت المسافة بين منزلين فى الريف إذن لعمرت بالحشائش الطويلة، وحتى عندما وقر فى ذهن مدام وو أن تزور مدام كانج،

أحست بنوع من التردد لم تجد له تفسيراً. جلست مع نفسها لكى تكتشف ما هو الخطأ فى علاقتيهما، لم تشعر أنها بهذه الدرجة من البعد مع أعز صديقاتها، تلك التى لا تلومها أبداً عن الصغائر التى تصدر منها؟ لعل السبب ناتج من تلك الاختلافات التى تفصل ما بين شخصية كليهما. أدركت هى أن هذه الاختلافات نتجت من كون مدام كانج واقعة فى غرام زوجها بشكل يشبه غرامها هى بأندريه، وأن هذين الحبيبين مختلفان اختلاف السماء عن الأرض، لكنه حب له الطبيعة نفسها، وهذا يعنى أن كلا من المرأتين حبهما يتفوق حتى على حب الذات نفسها، لكن مما أثار اشمئزاز مدام وو هو أن صديقتها مغرمة بهذا الرجل السمين المهمل العجوز أكثر من نفسها، لذا فإن استخدام عاطفة الحب السامية بهذه الطريقة الخشنة إنما يخفض ويسىء لعاطفة الإخلاص والوجد فى صورته المثالية. لكنها بكل أمانة لا تستطيع سوى أن تستجلى الحقيقة، وهى أن حقيقة مشاعر مدام كانج تشبه مشاعرها تماماً، وأن الاختلاف لم يكن فى الدرجة ولكن فى المستوى. لقد أحبت مدام كانج رجلها العجوز كما يجب أن يكون الحب وهى لا تخجل من إظهار ذلك على الملأ.

فكرت، "لكن لا يجب على السيد كانج العجوز أن يعيش ويتنفس تحت السماء التى كانت تظلل أندريه".

جلست فى مكتبتها، بينما هذه الخواطر الغريبة تتدفق عليها فى يوم صباح جميل ورائق. بعد فترة، أخذت تضحك من أفكارها هذه. لم هى غاضبة هكذا من هذا الحب؟ إنها عاطفة تهبط على الإنسان كما يفعل ضياء الشمس وقطرات المطر، تهبط على المستحق وغير المستحق، على الفقير والغنى، على الجاهل والمتعلم، وهل هذا يمكن أن يدعوها لأن تغضب هكذا؟

انفجرت صرة الضحك فى قلبها، أغمضت عينيها فشاهدت أندريه يشاركها الضحك. جلست تراقب وجهه حتى غاب عنها كلية. فتحت عينيها واستقام عودها، بعدها أحضرت إليها ينج معطفها وأصبحت مستعدة للمغادرة، وكانت قد أرسلت ساعياً يعلن قدومها، وبهذا ذهبت فى زيارة لمنزل السيد كانج.

لم يتغير منزل كانج من حيث النظافة أو الترتيب. الأطفال الذين تحلقوا حولها زاد عددهم، فكل زوجة ابن أو محظية أضافت ابنًا جديداً منذ أن عبرت مدام وو عتبة هذا المنزل فى آخر زيارة لها، كلهم كانوا يطفرون سعادة ولعباً. واحدة من الخادمات المرحات اصطحبت مدام وو حيث جلست مدام كانج على مقعد خيرزانى مريح تحت شجرة صفصاف بجوار بركة مائية صغيرة. هذا المقعد الذى كانت تحتله باستمرار اتخذ لنفسه شكلا يتناسب مع جسد مدام كانج الضخم ووسع ما بين جنباته، فهى تجلس عليه طوال النهار إلى أن يحل الليل، ولا تغادره إلا إذا أمطرت السماء.

حولها كان الأطفال يلعبون ويتصايحون والبعض منهم يمص اللبن من صدور المرضعات، وبينما كانت الخادمات منهمكات فى غسل الخضراوات والأرز فى مياه البركة، وزوجات الأبناء حولها يثرثرن، والجارات يتوقفن لكى يدلين بآخر الأخبار، يأتى البائعون الجوالون عارضين بضائعهم، ونساء مبجلات يفدن من المنازل الكبرى فى المدينة لكى ينهمكن طوال اليوم فى لعب "الماه – جونج". هناك جلست مدام كانج عندما دخلت إليها مدام وو. أخذت المضيفة تصيح معلنة تحياتهاوجليل اعتذارها لعدم قدرتها على النهوض من المقعد، صاحت قائلة، "كل يوم أضيف أرطالا إلى وزنى، وما إن يأتى المساء حتى أقسم أننى أصبحت أثقل على قدمى أكثر من الصباح".

كل من فى الجناح، أغرقوا فى الضحك، وسمعت أيضاً ضحكة تنطلق من الداخل، مما يعنى أن السيد كانج أيضاً قد استمع لهذه الملحة، لكنه لم يحضر إليهم، فلأنه رجل، ليس عليه سوى أن يجلس عن قرب يستمع ويراقب، بينما هو يتظاهر أنه مشغول بالقراءة أو أنه نائم.

الآن، أدركت مدام وو وهى وسط هذا الجمع الغفير أنها لا تقدر أن تبحث مع مدام كانج أى أمر يختص بفنجمو أو لين يى، لكن بكل تؤدة، وبأسلوبها المحترم، جلست على المقعد الذى أعدته إحدى الخادمات بجوار مدام كانج. أدركت هذه على الفور أن مدام وو قد حضرت لعرض شأن معين، لذا أشاحت بيديها السمينتين طالبة من الجميع أن يغادروا على الفور ويتركانهما بمفردهما، لذا بعد عديد من الصياح

والتحركات والارتباكات انفض الجميع، بينما ظلت مدام كانج تضع يديها على ركبتيها وهى تعطى تعليماتها للجميع بصوت حاد، أخيراً خلا الجو لهما.

قامت مدام وو بإبراز الخطاب الكهربائى وقدمته لصديقتها القديمة، لكن هذه أزاحت هذه البرقية قليلا وهى تضحك، وبصوت مرح قالت، "الحروف القليلة التى تعلمتها قد نسيتها الآن تمامًا، وأنا لم أحتج إليها على الإطلاق، ولما أحتاج لها وأنت معى دائمًا يا عزيزتى أيلين"؟

وإذا كانت هناك قطيعة لها شكل معين بينهما، فهذا ما تجاهلته مدام كانج كلية، وتصرفت كأنما هى فى حضرة صديقتها كل يوم، بل وكأنما هما كانا سوياً بالأمس فقط.

ابتسمت مدام وو، إنه من الصعوبة بمكان أن لا تبتسم وهى مع هذه المرأة، ومهما شعرت بالاشمئزاز منها، لذا أخذت فى قراءة برقية فنجمو إليها، "أنا سوف أعود للمنزل فى أسرع وقت".

أخذت مدام كانج تحملق فى البرقية، "ألم يقل أى شىء آخر؟"

"هذا فقط". طبقت مدام وو البرقية ووضعتها فى صدرها، ثم رفعت إناء الشاى الموضوع على المائدة بجوارها، لكنها لاحظت أن الكوب قذر، لذا وضعت الإناء مكانه مرة أخرى.

قالت، "من الواضح أن هناك شيئًا ما قد حدث، لقد خطط من قبل أنه سوف يستمر بالخارج لمدة خمس سنوات".

صاحت مدام كانج، "لعله مريض"

"ربما يكون الأمر هكذا، لكن فى هذه الحالة، كان جديراً به أن يخبرنا"

صاحت مدام كانج مرة أخرى، "هل تظنين أنه قد ارتكب خطأ ما؟"

"لا أعتقد"، فبعد هذا التعليم الذى نهله من أندريه، هى لا تصدق أبداً أن يقدم فنجمو على عمل دنىء، أضافت، "لقد أتيت إليك بسبب لين يى، إننى ألوم نفسى لأننى لم أشجعها لكى تواصل دراستها بعد وفاة مدرسها".

أدارت وجهها بعيداً وهى تنطق بهذه الكلمات، فهى تعلم أن مدام كانج تستطيع أن تستشف المعانى الحقيقية التى تختبئ وراء أى حديث عادى، لا سيما فيما يختص بالعلاقات من بين الرجال والنساء.

قالت مدام كانج بجماع قلبها، "لين يى لا تهتم بهذه الموضوعات، إنها لم تجرؤ أن تخبركم بما كان يعتمل فى قلبها، هى فى الواقع كانت تكره هذه الدروس، هى لم تحب هذا القس، كانت تقول إنه دائمًا ما كان يذكر موضوع عقيدته".

"لكنه لم يعلمها أبداً مبادئ عقيدته، لقد منعته من أن يعلم فنجمو ذلك، لذا هو بالقطع سوف يحجم أن يفعل ذلك مع لين يى، إنه كان يتفهم مشاعرى جيداً".

"إنه لم يعلم شيئاً بخصوص الآلهة، لكنه استمر فى إرشادها عما يجب أن تفكر فيه وكيف تكون مشاعرها تجاه زوجها وتجاهك أنت أيضًا، ومع كل من تقابلهم وتعيش معهم تحت سقف واحد".

"لكن هذا ليس له شأن بالدين"

"إنها على كل حال لم تكن مستريحة معه، قالت إن ذلك جعلها لا تستمتع سواء بأكلها أو نومها".

قالت مدام وو بصوت هادئ، "وهذا ما يفعله المدرس البارع الذى يهتم بالعقل والروح أيضاً".

قالت مدام كانج وهى تتثاءب، "لو نشأ فنجمو مماثلا لهذا القس الأجنبى؛ فإن الأمور سوف تتطور إلى الأصعب بينه وبين زوجته".

أخذت هذه تدير عينيها فى أرجاء المكان، عرفت مدام وو أنها فى حاجة إلى شىء ما.

"ما الذى تحتاجينه الآن يا متشن؟"

"دائمًا فى هذا الوقت بالذات تقدم لى سلطانية من شوربة الفراخ بها الأرز وبعض الخضراوات، أشعر أننى قد جعت".

واحدة بعد الأخرى عادوا تدريجيًا إلى الجناح، بدأ الأمر أولا بأن ظهر الأولاد يجرون ويتسابقون ويضحكون، فليس مسموحًا فى بيت كانج أن يكبح جماح الأطفال طويلا. بعد ذلك ظهرت المربيات وهن يسرعن وراء الأطفال للإمساك بهم، وعندما تقبض المربية على أحد الأطفال فإنه يسرع إلى البكاء والعويل، لذا نادت عليهم مدام كانج جميعًا، "اتركوهم، دعوهم يلعبون".

حضرت أيضًا الخادمات، وفى يد واحدة منهن سلطانية الشوربة. رفضت مدام وو أن تشارك فى هذه الوجبة، لذا أخذت مدام كانج تشفط الشوربة بصوت عال وتسمح لهذا الطفل أو ذاك أن يشرب معها بعدما تقوم بتبريد السائل بالنفخ فيه.

نهضت مدام وو من مكانها، فكرت فى نفسها بأن هذه ربما تكون آخر زيارة تقوم بها لهذا المنزل، بل لعلها لن ترى صديقتها القديمة مرة أخرى، لقد حدث بينهما الفراق منذ زمن بعيد. مع ذلك، هى علمت شيئًا من هذه الزيارة، لذا لم تأسف لأنها حضرت. لقد علم أندريه زوجة ابنها واجباتها فى كل المجالات. سوف تحاول أن تعرف بالضبط ما الذى علمه لها.

* * *

كل شىء آخر، وضعته مدام وو جانبًا، ما عدا الإعداد لتلك العودة المفاجئة لفنجمو، وواجبها الأول هو إعداد لين يى لاستقباله.

وهذا يمكن أن تنجزه بسهولة، فهى لها الحق أن تستدعى زوجة ابنها كما تشاء لتزورها. فى منزل كبير مثل هذا، كثيراً ما يحدث أن مدام وو لا تتحدث مع شخص معين لعدة أيام متوالية، وهذا ما كان يحدث مع لين يى. كانت هى ترى الفتاة تقريباً كل يوم أثناء فترات تناول الطعام، وتراها أثناء الاحتفالات العائلية، لكن لم يكن هناك سبب أن تستدعى هذه الفتاة لتأتى عندها. كانت الفتاة تعيش فى المنزل وتحت إمرتها كل الخدم، تزور أختها، وتقضى باقى وقتها فى كسل، ما عدا أداء بعض الواجبات البسيطة التى حددتها لها مدام وو، عندما وزعت المهام عند بداية الموسم، مثل إطعام سمك الجولدن فش، وضع الزهور فى القاعة الرئيسية، تهوية معاطف فنجمو وتشميسها، كذلك الإشراف على الجناح الذى تسكن فيه بينما زوجها فى الخارج، وتساعدها فى ذلك خادمة عجوز أحضرتها معها من منزلها يوم أن تزوجت. مرة واحدة أو مرتين، شعرت لين يى أنها مريضة، وراعتها أختها منج، وكانت هذه تخبر مدام وو عندما تبرأ أختها من مرضها وتشفى، وهذا كل ما كانت تعلمه مدام وو.

الآن عليها أن تعلم أكثر من ذلك. هى لم تحاول أن تخدع نفسها لتقرر أن ما تفعله هو من أجل خاطر ابنها فنجمو، لقد أرادت أن تستمع من فم لين يى ما علمه لها أندريه، أن تنصت لكلماته، أن تعرف كيف رسخت هذه التعاليم فى وجدان هذه الفتاة.

لذا حضرت إليها لين يى، وقد ارتدت أفضل ثيابها ووضعت البودرة على وجهها، ونهايات شعرها كانت مجعدة. رحبت بها مدام وو بابتسامتها المعهودة، وأشارت بيدها تطلب من الفتاة أن تجلس وتكون على راحتها. أخذت تنظر إلى لين يى من أخمص قدميها حتى قمة رأسها. كانت الفتاة فى أوج جمالها، وهى تعلم ذلك ولا تخشى من حملقة مدام وو فيها. ابتسمت هذه بسبب تلك الجرأة وتلك العيون البريئة، لكن ألا تتجلى فيها ملامح البراءة؟ نعم، هذا صحيح، لكن فيهما أيضاً ملامح الخبث، الكسل، الإهمال والمرح.

قالت مدام وو، "إننى أبتسم بسبب تغير الأزمان. عندما كنت صغيرة، كنت أبكى بالدموع عندما أشاهد أطراف شعرى وقد تجعدت، ففى ذلك الزمان، كان الشعر الناعم

المسترسل الأسود هو مؤشر الجمال الساطع، لكن الآن يعتبر الشعر المجعد هو علامة الجمال الأكيدة، أليس كذلك؟ لعل منج سعيدة أيضاً بسبب أن شعرها مجعد بطبيعته، لكني أعتقد أنها تمنت لو لم يكن هكذا".

ضحكت لين يى مظهرة أسناناً بيضاء تلمع ولساناً أحمر، "أعتقد أن فنجمو سوف يعتاد على هذا الشعر المجعد، فكل نسوة الغرب شعورهن مجعدة".

ظهرت بعض ملامح الحزن على وجه مدام وو، "آه، قولى لى، لماذا أنت مغرمة دائماً بكل ما هو أجنبى؟"

قالت هذه باندفاع، "لست مغرمة بكل ما هو أجنبى، مثلا أنا لم أكن معجبة تماماً بهذا القس الأجنبى العجوز"

"لكنه لم يكن عجوزاً"

"بالنسبة لى هو كان عجوزاً ومليئاً بالشعر - أنا أكره المشعرين"

شعرت مدام وو أن هذا الحديث ليس مريحاً لكلتيهما، لذا فكرت أن تفتح موضوعاً آخر.

"لكن هو علمك أشياء أخرى نافعة، وأعتقد أن كل ما علمه لك هو من الأمور الجيدة، أود أن تعلمينى عن نوعية هذا التعليم، إذا سمحت"

عندما نطقت بجملة "إذا سمحت"، كانت بلهجة أدركت منها لين يى أنه يجب عليها أن تطيع، وليس هناك نوع من الاختيار، لذا تجهمت، وخفضت من شكل جبينها الضيق وأمسكت بخصلة من شعرها الطويل بإصبعين.

"أنا لم أحاول أن أتذكر، لكن هو دائماً ما كان يقول لى إن فنجمو قد ولد لكى يحقق أعمالا رائعة، وأن مهمتى فى الحياة أن أحقق له السعادة بقدر الإمكان لكى يشعر أنه فى أفضل حال".

"وكيف يمكن لك أن تحققى له السعادة؟"

قالت لين يى متغصبة، "قال لى إنه من الواجب على أن أكتشف التيار الذى ينساب فيه حياة فنجمو وأن أنظف منه كل الحشائش والمعوقات، وأفعل كل جهدى ليرتفع الماء إلى مستواه الطبيعى. قال لى هذا القس أيضاً أن لا أشبه تلك الصخور التى تلقى فى مجرى المياه الصافية فتقسمه إلى مسارات مختلفة، لا يجب أن أجزئ حياة فنجمو".

نعم، هذا ما فكرت فيه مدام وو، هذه بالفعل هى كلمات أندريه، هو علم بالضبط نوع عقلية هذه الفتاة، وهو دائماً ما يستخدم الكلمات البسيطة والصور البليغة لرسم شكل أفكاره. قالت لها بصوت لطيف، "استمرى يا ابنتى، هذا كلام جيد".

استمرت لين يى بعدما تركت خصلة شعرها المجعدة، بدت وكأنها تجاهد فى تجميع أفكارها، "قال لى إنه من المهم أن أقرأ الكتب التى تصنف ما يفعله فنجمو، وأنه يجب أن أتفهم أفكاره. قال لى أيضاً إن فنجمو سوف يشعر أنه وحيد طوال حياته إذا لم أكن أنا وراءه أعضده وأتابعه. وأن فنجمو فى حاجة لى... هذا ما قاله".

عادت بأنظارها إلى مدام وو، قالت، "لكن أنا لست متأكدة أن فنجمو هو بالفعل فى حاجة لى".

قابلت مدام وو تلك النظرة الطفولية، "هل أنت حقاً تحبينه؟"

إنه سؤال غريب أن يصدر من سيدة إلى زوجة ابنها، فمن بجوار مدام وو يمكن أن يهتم بذلك؟ ملأت الدموع عينى لين يى، همست، "أستطيع أنا أن أحبه، لو أحبنى".

"وهل هو لا يحبك؟"

هزت لين يى رأسها بعنف، وتساقطت الدموع كثيفة من عينيها، وظهرت كقطرات على فستانها من الساتان الأزرق الخفيف.

"لا، فنجمو لا يحبنى"

بهذه الكلمات، مالت برأسها وخبأت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء. انتظرت مدام وو. هى تعلم جيداً أن لا شىء يمكن أن يفيد المرأة أكثر من دموعها. كم اشتاقت هى أن تذرف دموعها، لكن هذه دائماً ما تعصيها!

انتظرت حتى أصبح نشيج لين يى ناعماً متقطعاً، ثم توقف، قبلما تقول، "آه، فنجمو هذا لا يحب أحداً، وهذا ما ينقصه بالفعل. يجب أن نعمل على شفائه من هذا الداء، وسوف أساعدك يا ابنتى".

كانت كلماتها قليلة وبسيطة، لكن هذه هى سمة الثقة التى يشعر بها كل إنسان فى هذا المنزل بالنسبة لمدام وو، لذا خفضت لين يى من يديها ورفعت وجهاً باسماً بينما الدموع ما زالت مرسومة على جفونها، "أشكرك يا أمنا، أشكرك، أشكرك".

* * *

كان وصول فنجمو محدداً له يوم قبل حلول فصل الشتاء، لكنه أيضاً بعد انتهاء أيام حر الخريف؛ حيث تم حصد المحاصيل وجمعها فى المخازن، وهوذا بيت عائلة وو وتلك المدينة التى اعتمدت على حكمتهم وحكمهم، كذلك فى القرى حيث يعيش ويعمل الفلاحون كما فعل أجدادهم من قبل، كانوا جميعاً دعائم قوية لتحقيق استقرار هذه الأمة وسلامها. هذا يحدث بينما هناك حرب ضروس تدور رحاها فى شرق البلاد وفى أماكن أخرى؛ حيث حدث تدمير شامل لمنازل عديدة، وبقيت الأرض الزراعية هناك خالية وخربة تنعى من يزرعها، لكن هنا فى داخل البلاد، استمر بيت وو فى مساره المعتاد.

انتظرت مدام وو قدوم ابنها، وكانت كلماته الأولى موجهة إليها، بعد التحيات والترحيب، أخذ يحدق فيما حوله، كل شىء كان كما هو وكأنما هو لا يصدق ذلك.

صاح قائلا، "لا شىء تغير على الإطلاق!"

أجابت والدته، "ولماذا يحدث أى تغيير؟"

لكن وهى تتحدث، كانت تعلم أنها لا تنطق بالحقيقة، فهنـاك تغيـير كبير حدث فى قرارة نفسها، هو ذلك التغيير الداخلى الذى عبر عن نفسه فيما تقوله الآن أو تفعله، فى الطريقة التى تحكم بها وتسـوس كـل من يطلبون منهـا النصـح والإرشـاد، المأوى والرعاية. لكنها اختارت أن لا تتحدث فى مثل هذه الأمور.

بدلا من ذلك قالت، "لقد تغيرت أنت كثيراً يا ابنى"

كانت تجلس فى مكتبتـها، ترتدى فسـتاناً بلون رمـادى فضـى من السـاتان، لقد قررت أن تقابله فى هذه الغرفة الكبيرة، حيث جلسا من قبل مع أندريه. إنها لا تنتوى أن تتحدث مع أندريه، لكن الذكريات هى التى سوف تتحدث، لذا وبعد انتهاء الاحتفالات بعـودة فنجمـو التى تمت أولا أمـام البوابة الرئيسيـة، وبعد انتـهاء الضجة، انصرف جمـهور المرحبين بعودته، ولم تتبق بعد ذلك سـوى الوليمـة التى سوف تقام لاحقًا، وفى تلك الليلة أرسلت كلمة أنها تريد أن تتحدث مع فنجمو.

جلس أمامها بلا استئذان منها، وقد غير ملابسه الإفرنجية تلك التى كان يرتديها حـال وصوله وارتدى مـلابسه الصينية، بل وخلع أيضا حذاءه الأجنبى من قدميه ولبس حـذاء من قمـاش لونه أسـود مـخملى. لا أحد تحـدث عن تسـيمو، لأنه ليس من الحظ الحسن أن يتحدث أحدهم عن الميت لذلك العائد حديثاً إلى منزله، لكن فنجمو من نفسه تحدث متذكراً أخاه.

"إننى أفتقد أخى الثانى"

مسحت مدام وو عينيها برقة بالغة. عندما كان تسيمو ما زال على قيد الحياة، لم تكن تشتـاق إليه كثيراً، لكنها تفتقـده الآن وتفكـر فيه كثيـراً. هى تعـلم أن مـا تشتـاق إليه ليس مـا عرفتـه عنه، بل ما لم تعرفـه. أخذت تلوم نفسها لأنها دعت هذا الابن ينشأ داخل هذا المنزل بينما هى فى الحقيقة لم تكتشف الكثير عنه. إنها كانت تعرفه فقط ابنـاً لها، فهى التى سـاهمت فى خلق جسده، لكن ليس بسبب أنها أصبحت على معرفة كامـلة بكيـانه.

كثيراً ما كانت تفكر فى نفسها، "ما هى نوعية أخلاقه الكريمة وأفضل ما فيه، هذا لم أعرفه ولن أعرفه".

تساءل فنجمو بعد ذلك، "ما هى حالة زوجة أخى الثانى؟"

"رولان دائمًا ما تجدها صامتة، وعندما يتوافر لى الوقت اللازم سوف أحاول أن أكتشف طريقة ما لكى تواصل المعيشة المقبولة. إنها أصغر من أن تعيش هكذا كأنما هى راهبة".

سأل فنجمو، "هى بالطبع لن تفكر فى الزواج مرة أخرى؟"

"إذا أرادت، فأنا سوف أساعدها فى هذا الشأن"

هذا أدهش فنجمو بشكل بالغ، إنه ما كان يتصور بأى حال من الأحوال أن تسمح والدته لفرد ما أن يعلو على مصلحة العائلة. ما إن لاحظت دهشته، استمرت فى حديثها الهادئ.

"لقد تعلمت وأنا أدرج فى مراحل العمر المتقدمة أن الينابيع الداخلية، إذا لم تكن صافية، إذن سوف تكون حياة الفرد صعبة وغير محتملة، تعلمت أيضًا أن هناك دين مستمر مستحق لكل روح ونفس، وهو الحق فى العيش فى سعادة وحبور".

قال فنجمو فجأة، "هذا ما كان ينطق به الأخ أندريه". بهذه الكلمات، شعر كل من الابن وأمه أنهما قد انجذبا سوياً، كما لو أن ذلك حدث بفعل قوة حضور غريبة غير مرئية.

"أمى، هل تتذكرين الأخ أندريه؟"

ترددت مدام وو، فما هو المقدار الذى يمكن أن تبوح به. أى مقدار؟ وحل عليها تهيبها القديم، فهذا الصمت المفروض بين الأجيال، لا يجب أن يخدش وينتهك كلية. الزمن هو الذى أسدل النقاب، وليس لها أن تغير ما هو أبدى، فهى مع أندريه فى جانب، وفنجمو فى جانب آخر، كل ما قالته، "نعم، أنا أتذكر أندريه".

"أمى، هو ساهم فى تغييرى بشكل جذرى"

ثم أخذ يحدق فى المقعد الذى اعتاد أن يجلس إليه أندريه، "لقد جعلنى أفهم معنى السعادة الحقيقية، لقد وضح لى مكنونات نفسى وروحى، لهذا أنا بادرت بالرجوع إلى وطنى وبيتى".

لم تعلق. لاحظت تلك الهزة التى صاحبت صوت ابنها، وعلمت أنه حتى إجابتها سوف تكون أكثر من احتماله. ابتسمت ابتسامتها اللطيفة وشبكت يديها على حجرها، وانتظرت أن يتحدث إليها أكثر.

"لا أحد يمكن أن يخمن لماذا حدث رجوعى هكذا بشكل مفاجئ، ويمكن أن يسألونى عن ذلك مراراً وتكراراً لكنى لا أستطيع أن أشرح لهم، ولا أعلم كيف أشرح لهم. لكن أنا أريد أن أخبرك أنت يا أمى، فأنت التى أحضرت أندريه إلى منزلنا".

تحقق لها الآن حضور أندريه، لكن ربما حدث هذا داخل تلافيف ذاكرتها، لذا لم تجرؤ على أن تتحدث. لا، إن أندريه موجود هنا، ليس لأنها تذكرته، لكن لأنها قد أحبته.

صاح فنجمو، رافعًا رأسه متحدثًا بسرعة كأنما يطلق الكلمات، "أمى، لقد أحببت امرأة أجنبية هناك، وهى أحبتنى أيضًا، لكن اضطررت أن أنفصل عنها وأهجرها".

لو كانت مدام وو ما زالت فى عهدها القديم، إذن ربما صاحت مستهجنة هذا، لكنها بكل لطف عقبت على ذلك، "يا لها من أحزان يا ابنى"!

نعم، هى تعلم بالفعل نوعية هذه الأحزان.

"أنت تفهمين!"، صاح فنجمو بكل دهشة الشباب.

لقد كبر ابنها هذا، إنه أصبح أطول منها بعدة بوصات، نحيف القوام ومستقيم العود يشبه جده فى ذلك. هذا ما أدركته مدام وو الآن. فى الحقيقة، هى تيقنت من أمور لم تلفت انتباهها من قبل، وهى أن فنجمو لا يشبه أباه على الإطلاق، لكن هناك

شبه كبير بينه وبين جده، ملامح الجدية نفسها تكسو وجهه، كذاك لمعة العينين – هو شاب وسيم، لكنه جاد، فتلك الوسامة الهادئة التى تصبغ أخاه الأكبر ليانجمو، وجمال تسيمو البارع، ليس هاتان هنا، فنجمو يبدو فى شكله كأنما هو معلم شاب.

قالت مدام وو، "إننى مازلت مستمرة فى التعلم حتى وأنا أتقدم فى العمر"

تنهد فنجمو، "آه يا أمى، كثيراً ما كنت أتعجب فيما إذا كان سوف يصدف أن أعثر على شخص داخل هذا المنزل يمكن أن يتفهمنى". الآن هو يستطيع أن يثق فيها، لذا انسابت التفاصيل من فمه:

"كانت هى واحدة من زميلاتى فى الدراسة، فهناك الرجال والنساء يدرسون سوياً. عندما شاهدتنى للمرة الأولى، ملأها العجب والاندهاش والفضول، هى التى سعت إلى أولا، ليس بنوع من الاقتحام كما تعلمين، لكنها قالت إنها لم تشاهد أحداً مثلى من قبل. ثم أخذت تطرح على مئات من الأسئلة تستفسر فيها عن وطنى وعن أهلى وعن نفسى، ثم أخبرتنى كل شىء فيما يختص بحياتها ومعيشتها، لقد عرفنا بعضنا – هكذا بمنتهى السرعة".

"وفى النهاية اضطررت أن تخبرها عن لين يى"

مر ظل قاتم بينه وبين الشمس، سقطت كتبه، أشاح بوجهه، "كنت مجبراً أن أخبرها بذلك، وبعدها كان واجباً أن أعود إلى وطنى".

قالت له بدرجة صوته نفسها، "لكى يفصل البحر فيما بينكما"

"لكى أضع كل شىء بينى وبينها"

حل بينهما صمت كامل. لقد رعى أندريه روح هذا الابن وجعلها تتفوق فى مجال الرقة والإحساس الدافق، لكى تسرع دائمًا وتصنع كل ما هو حسن الصيت والمقام. اشتاقت الآن إليه، وهذا الابن لا يشبه الآخرين على الإطلاق، أنه لا يجد سعادته الكبرى فى النساء أو فى مطاردة ملاذ الجسد. وعندما طلبت من أندريه أن يكون مدرسًا له، سألته أن يفعل ذلك بشكل عشوائى. كانت تظن فى ذلك الحين أنها بذلك تخطو بابنها

خطوة مفيدة إلى الأمام، لكنها بالكاد أمسكت المفتاح بطرف أصابعها؛ وأدارته فى القفل نصف دورة، فجأة فتحت أمامها بوابة هائلة، ووجدت ابنها يخطو داخلها ليعثر على عالم جديد وغريب. الآن، هل هو قد عاد إلى منزله مرة أخرى؟ هل أغلق البوابة من ورائه وأدار المفتاح فى القفل هكذا سريعًا؟

قالت، "الآن، الآن يا ابنى، ماذا سوف تفعل؟"

"لقد حضرت إلى بلدى ولن أرحل مرة أخرى، سوف أدير حياتى هنا بشكل ما"

جلسا فى سكون اثنان يتفهمان بعضهما جيدًا.

قالت، "يجب يا ابنى أن تساعد لين يى"

"أعلم ذلك، كنت أفكر فيها كثيرًا، إننى مدين لها بالكثير"

"يجب أن تكتشف طريقة لكى تحتاج إليك، يجب أن تطلب مساعدتها ولو فى أمور صغيرة تخصك، اسألها أن تهتم بأشيائك، ترتب كتبك، تحضر لك الشاى. لا تفعل شيئًا بنفسك يمكن هى أن تصنعه، لكى تشعر باستمرار أنها مشغولة ولا تعرف شيئًا غير ذلك".

وعد، "سوف أفعل ذلك"

هكذا جلسا، وكان من الممكن أن يظلا هكذا زمنًا يواسيان بعضهما، الأم والابن، لكن ما حدث هو أن شيومنج اختارت هذه اللحظة بالذات لتظهر أمامهما وتطلب شيئًا من مدام وو، كان هذا يختمر فى ذهنها وتود أن تحققه منذ زمن.

كل هذه الشهور الماضية، كانت هى تعيش مع رولان. كانت شيومنج تستمع باستمرار لأحزان رولان وهى تتحدث عن زوجها الراحل، وكلما استمعت لها، أيقنت أن أفكارها تنجذب بالأكثر إلى فنجمو، أيضًا كلما عرفت وأيقنت أنه يجب عليها أن تغادر هذا المنزل وتأخذ ابنتها معها. لكن إلى أين تذهب؟

فى ليلة، عندما عصى النوم جفون رولان، وبعدما تحدثا طويلا عن الأمور الأكثر عمقاً فى قلوب النساء، كسرت شيومنج تعهدها بأن لا تخبر أحداً، لكنها أخبرت رولان عن مقدار حبها لفنجمو.

أخبرت رولان أيضاً، "أنا إنسانة شريرة، لقد سمحت لنفسى أن أفكر فيه"

استمعت إليها رولان بانتباه شديد، وأزاحت شعرها عن كتفيها، "أوه، كم أود أن أرحل وأنت معى من هذا المنزل، كلتانا محبوستان داخل إطار هذه الجدران العالية السميكة، ونحن هنا علينا أن نحب من لا نحب، ونكره ما لا يجب أن نكره".

سألت شيومنج، "ألسنا نحن فى أمان ونحن خلف هذه الجدران؟". إنها تشعر دائمًا أنها فاقدة القدرة على التعبير عن نفسها أمام رولان، كانت هى تعجب بها، لكن كانت أيضاً تخشى جرأتها البالغة.

"نحن لا نشعر بالأمان ونحن هنا"

فى تلك اللحظة، خطر على بال كلتيهما الخاطر نفسه، العين حملقت فى العين.

تساءلت رولان، "لماذا نبقى هنا؟"

"وكيف يمكن لنا أن نرحل؟"

ثم بدأت خطة هروبهما سوياً. سوف تطلب شيومنج أولا أن تجد الفرصة لأن تعيش فى قرية الأجداد، لكنها بالطبع لن تطلب أن تعود إلى قريتها الأصلية، لأنه فى ذلك الحين سوف يبدو الأمر كأن عائلة وو قد قامت بطردها، وهذا ما لا تسمح به مدام وو على الإطلاق، لكنها سوف تطلب أن تعيش فى قرية وو. ثم عندما تعترض مدام وو على قيام فتاة شابة بالعيش بمفردها فى تلك القرية، هنا هى سوف تطلب حضور رولان أيضاً، بذلك يتسنى لرولان أن تتحدث عن نفسها، فهى سوف تطلب إنشاء مدرسة هناك لأطفال القرية الصغار، كأمر مفيد تقضى فيه وقت ترملها. كل إنسان يعلم أنه يجب على الأرامل أن يفعلن خيراً لمجتمعاتهن. هذه النتيجة توصلا إليها بعد عديد

من المناقشات والمحادثات، رولان شاءت أن تأتى فوراً وتتحدث عن نفسها، لكن شيومنج أشارت إلى أن هذا سوف يتسبب فى إثارة العديد من المشاكل، فكيف يمكن لمدام وو إذا رفضت هذا أن تضع نفسها فى موقف غير مرغوب فيه عندما ترفض طلب زوجة ابنها وفى وجهها؟ لذا من الفضل أن تأتى شيومنج أولا حيث يمكن لها أن تتقبل الرفض إذا حدث، وبذلك لن تحدث أى فراق ما بين مدام وو وزوجة ابنها.

هذا ما عارضته رولان كثيراً باعتباره موضة قديمة، لكن شيومنج أكدت لها أن الذوق والأدب يستدعيان اتباع خطتها، وبهذا اتفقتا.

الآن، كانت شيومنج تعلم تمامًا أين يوجد فنجمو، لكنها صممت فى قرارة نفسها إنها سوف تقترب إلى مدام وو فى وجوده، لكن لن تتحدث معه ولا كلمة. لذا كست ابنتها برداء أحمر صغير ونظيف وغسلت يد تلك المخلوقة الصغيرة ووجهها ووضعت نقطة حمراء بين حاجبيها وعقصت شعرها وربطت نهاياته بشريط أحمر، وبصحبة ابنتها التى أصبحت الآن سمينة، اقتربت بخطوات غير مسموعة حتى جناح مدام وو.

نظرت مدام وو تجاه الباب، فشاهدت شيومنج . كان هذا الوقت هو بعد الظهر المتأخر؛ لأن فنجمو كان قد حضر فى الصباح. كانت الشمس قد غادرت الجناح، لكن الضياء كان منتشراً، وفى هذا وقفت شيومنج وطفلتها بين يديها. كانت جميلة، وهذا ما لاحظته مدام وو باستياء، فما تشعر به شيومنج، تلك العواطف السرية غير المطلوبة، جعل منها مخلوقة رقيقة وناعمة. نظرت المدام سريعًا نحو ابنها لتتعرف عما رآه، لكنه الآن لا يرى شيئًا. حيت شيومنج مدام وو بحذر، ثم قالت، "آه، إذن فقد وصل سيدنا الثالث".

أجاب فنجمو ببساطة، "نعم نعم، هل أنت بصحة جيدة؟"

"نعم، أنا بأفضل حال"

نظرت إليه مرة واحدة، لكنها لم تثنيها، بدلا من ذلك قالت لمدام وو، "سيدتنا، هل يمكن أن أطلب منك معروفًا، أنا لا أريد أن أكون متطفلة ومزعجة لك".

كانت مدام وو تعلم أن شيومنج ما كانت تأتى هكذا إلا إذا كان هناك غرض ما، لذا هزت رأسها، "اجلسى، ودعى تلك الطفلة الثقيلة تقف على قدميها".

احمر وجه شيومنج، وفعلت ما طلب منها. لقد أتت تطلب شيئاً، وهاهى المدام تستمع، قالت هذه، "حسناً قولى ما عندك".

لقد فهمت مدام وو على الفور غرض زيارة شيومنج فى هذا الوقت بالذات، إنها تريد أن تقول بوضوح لمدام وو إنها تود أن تبتعد عن هذا المنزل، لا سيما بعد عودة فنجمو، وأن لا تكون سبباً فى تكدير العائلة. كانت مدام وو ممتنة لهذه الأخلاق الحميدة.

ما إن وافقت المدام على طلب شيومنج، حتى طلبت أن يسمح لرولان أيضاً بمغادرة المنزل أيضاً قائلة، "ما دام أن فترة حداد العائلة قد انتهت، ومادام أن حدادها هى لن يتوقف، لذا هى تود أن تخفف من أحزانها بأن تنشغل بأداء عمل طيب مفيد، تود أن تنشئ مدرسة لأطفال القرية.

فى تلك اللحظة، بينما كان فنجمو مستغرقاً فى أفكاره ناظراً إلى الأرض، نظر إليهما باندهاش قائلا، "هذا بالضبط ما أتيت لكى أصنعه".

هنا حدثت نوع من الفوضى والارتباك، وأصاب شيومنج الذهول، ومدام وو بحيرة غريبة، صاحت هذه بصوت حاد، "لكن أنت لم تخبرنى بذلك يا ابنى"؟

"لم أكن قد وصلت إلى هذه النقطة بعد، كان من الضرورى أن أفكر فى أداء عمل مفيد لأهل بلدى".

رفعت مدام وو يداً نحيفة آمرة، "انتظر"، ثم التفتت إلى شيومنج، "هل لديك طلب آخر؟" سألتها بكل عطف.

"لا شىء آخر"

"إذن أنت لديك موافقتى لأن تذهبى أنت وورولان أيضًا. سوف أستدعى المشرف على الأرض الزراعية بعد بضعة أيام وأطلب منه البحث عن منزل مناسب لكما للمعيشة وآخر يصلح مدرسة، بعد ذلك يمكن لكما أن تذهبا إلى هناك فى أى وقت، لكن أنتما سوف تحتاجان إلى أثاث أفضل مما هو موجود فى البيوت الريفية، ومهمات أخرى كثيرة. حددى ما تريدين وسوف أخبر ينج أن تقوم بتدبير كل الاحتياجات. سوف تحتاجان أيضًا إلى خادمتين وطباخ، سوف أكلف كبير الطباخين أن يستغنى عن واحد من مساعديه".

عند هذه النقطة تحدث فنجمو مرة أخرى، "إذا أرادا أن يعيشا فى هذه القرية، فمن الضرورى أن لا يشعرا أنهما أفضل ممن هم هناك، وإلا فإنهما سوف يشعران بالوحدة".

رمته شيومنج بنظرة سريعة ناعمة، لكنها لم تنطق، اندهشت من أنه يعرف مثل هذه الأمور، وهو الذى قضى كل حياته داخل بيت غنى. كيف يتاح له أن يعرف حقيقة مشاعر العاديين من الناس؟ ثم استبعدت من ذهنها مثل هذه التساؤلات، فليس لها أن تسأل عن أى شىء يختص به.

نهضت شيومنج والتقطت ابنتها وشكرت مدام وو ثم انصرفت. كانت رولان فى انتظارها ، وما إن استمعت للأخبار، حتى بدأت على الفور فى تجهيز التخطيطات التفصيلية عما سوف تكون حياتهما هناك، وهما فى حالة عظمى من الاغتباط والسرور التى لم تكن متاحة لهما حتى الأمس.

وفى تلك الغرفة التى غادرتها شيومنج، تحدثت مدام وو مع ابنها، "اشرح لى كل ما تخبئه فى قلبك".

قام ووقف أمام الباب المفتوح محتاراً ينظر أمامه. كان هو مستمتعًا بهذا الهدوء المصاحب لهبوط الليل الجديد، هنا أيضًا تتقلب المواسم كما تفعل فى كل أرجاء العالم.

قال، "يجب أن أكرس نفسى لفعل شيء معين، هذا ما علمنى إياه الأخ أندريه، وإذا لم يتيسر لى أن أصنع ما أنتويته، فليكن شيء آخر. بعد أن رحلت من هنا أخذت أفكر فيما يمكن أن أكرس نفسى له. بالطبع انغماسى فى المسائل الدينية هو ليس لى ولا يناسبنى".

"فعلا هذا تفكير جيد". انتظرت حتى يكمل.

جلس مرة أخرى، "لقد عرفت طريقى بمحض الصدفة". أخرج من جيبه كيساً به بعض الدخان الأجنبى ثم أبرز غليوناً أجنبياً قصيراً وعجيباً، لم تر مدام وو مثيلا له من قبل، لكنها لا ترضى لفضولها أن يقاطعها.

"كان يوجد فى المدينة التى عشت فيها بالخارج رجل يمتلك مغسلة وهو من جنسنا، أنا كنت أسلمه ملابسى كل عدة أيام ليغسلها"

اندهشت مدام وو، "وهل هو يغسل ملابس الآخرين؟"

"يخدم كل من يقصده، فهذه هى تجارته"

صاحت بامتعاض، "هل تريد القول إنه حتى كان يغسل ملابس الأجانب أيضاً"؟

ضحك فنجمو، "على أحدهم أن يغسل هذه الملابس"

لكنها لم تضحك، "بالطبع لا يمكن لأحد من أهلنا أن يغسل الملابس الأجنبية القذرة".

كانت تشعر باستياء بالغ، لدرجة أنها نسيت ما الذى كان يحكيه فنجمو.

حاول أن يسرى عنها، "حسناً، هذا الرجل لم يكن واحداً من أهل مقاطعتنا، هو من الجنوب، وفى يوم عندما ذهبت لأستلم ملابسى....".

"أنت تحضر ملابسك، ألم يكن عندك خادم؟"

"لا أحد هناك من الطلاب لديه خادم يا أمى"

أخذت تناضل ضد تطفلها، "أنا ألاحظ أنك كنت تعيش فى قطر غريب، ويجب أن تخبرنى بالكثير عنه لاحقاً، استمر يا ابنى".

"ذهبت لاستحضار ملابسى فأخرج الرجل لى رسالة كانت قد وصلته من أهله. أمى، هو كان بعيداً عن وطنه منذ عشرين عامًا وهو لا يستطيع أن يقرأ الرسائل التى ترد إليه منهم، ولا يستطيع أن يكتب أيضًا، لذا أنا كنت أقرأ وأكتب له الرسائل. أخبرنى أن لا أحد من أهل قريته يستطيع أن يقرأ أو يكتب، لذا هم مضطرون أن يذهبوا إلى المدينة ليجدوا إنساناً متعلماً. أنا لم أشعر أبداً من قبل بتلك المأساة التى كانت تغلف الحديث إلا عندما تعرفت على هذا الرجل. إنه إنسان طيب يا أمى وليس غبياً، هو فى منتهى الذكاء. كان دائماً يقول لى "كنت أتمنى لو تعلمت كيف أقرأ وأكتب، أنا الآن أشبه الأعمى". رجعت أنا إلى غرفتى فى الجامعة وأخذت أنظر إلى مبانيها الشاهقة وآلاف الطلبة وهم يروحون ويجيئون يتعلمون مختلف العلوم، بينما هذا الرجل المسكين لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب، ثم تذكرت أن تلك هى الحالة السائدة فى كل وطنى وأيضاً فى قريتنا، فلا واحد من أهلنا فى قريتنا يستطيع أن يقرأ أو يكتب".

"ولماذا يحدث هذا معهم، إنهم لا يروحون أو يجيئون، هم فقط يزرعون الأرض"

"لكن يا أمى، لأن يعرف الإنسان أن يقرأ، فهذا يعنى أنك قد أنرت له لمبة فى الظلام الذى يشغل عقله وفكره وفككت أسر روحه من سجنها، بذلك أنت تفتحين له باباً على الأبدية نفسها".

وقعت هذه الكلمات على أذن مدام وو وجلدت قلبها، "آه.. هذه كلمات من علمك أولا".

"أنا لم أنسه أبداً"

كيف يمكن لها الآن أن تحتج على ابنها هذا بعد ذلك، وكيف يمكن أن تمنعه أن يعيش خارج منزله؟

قال متحمساً: "إن رولان هى الإنسانة الملائمة التى يمكن أن تساعدنى فى عملى، إننى لم أفكر فيها من قبل، أيضًا يمكن لزوجتى أن تساعدنى أيضًا، وسوف ننسى أنفسنا".

قام من مكانه مرة أخرى، "أنت تعلمين يا أمى أنه إذا نجحت هنا فى قريتنا فهذا ربما ينتشر فى أماكن أخرى من وطننا، يا له من أمر عظيم أن....".

شاهدت وجهه الغض وهو يلمع بضياء من النور، كثيراً ما شاهدت مثيلا له فى وجه أندريه، وهى لن تجسر على إطفاء هذا النور.

"يا ابنى، اصنع ما تراه صالحاً من وجهة نظرك". تلك كانت هى إجابتها.

* * *

ظلت مدام وو مستيقظة فى سريرها كما يحدث كثيراً معها مؤخراً، وهذا لم يرضها أو يزعجها بأى حال، فالشباب عليهم أن يستغرقوا فى نومهم، لأن وراءهم عمل وحياة طويلة ممتدة.

بدا لها الأمر وهى فى كامل يقظتها أن البيت كأنما هو فى حالة من الحياة كما يحدث فى فترة ضياء النهار. لذا دعت ذهنها يتجول داخل كل الأجنحة. هناك أولا أولاد العمومة الذين يعيشون فى الأجنحة البعيدة والخارجية، أما الأقرباء من الدرجة الثانية والثالثة الأصغر عمراً، فإنهم هم هنا أيضاً، فهم ليس لديهم مكان آخر يستقرون داخله، وهذا المنزل الكبير يستطيع أن يؤويهم لفترة من الزمان. ثم خطر فى فكرها ذلك الجناح الذى يشغله كل من السيد وو ومعه المحظية ياسمين، لقد أزاحت فكرها عنه سريعًا. حسنًا، هى تعلم طبيعة الحياة، إنها لن تحاكم أحداً، هى فقط تبدى اهتمامًا وقلقاً. هناك، يتلقى جسد هذا العجوز أفضل رعاية وغذاء، كذلك تلك الفتاة الصغيرة تسمن وترتاح للكسل والنوم، ليلا ونهاراً. ياسمين هذه لا يصدر منها أى نوع من المتاعب يمكن أن تؤثر على استقرار باقى الأجنحة. إنها عاقر، ولا تحمل طفلا فى بطنها،

وقد سرت مدام وو بذلك، فدم ياسمين هذه هو دم غريب، ومن الأمور المستحبة أن تظل تلك الدماء لنفسها فقط. إنها تفعل أفضل واجباتها مع السيد وو، هى استمتعت بحياتها فى سنوات سابقة، وتشعر الآن بالسرور وهى تسعد ذلك الرجل العجوز، وهو دائمًا ما يغدق عليها الآن بمزيد من الحلى والمجوهرات والحرائر ويقدم لها كل ما تشتهيه من أطعمة، ويضحك فى حضورها ويهدهدها. كانت ياسمين هذه طوال عمرها عبارة عن زهرة ملقاة على قارعة الطريق، ومعرضة إلى كل ريح تحملها هنا أو هناك، أما الآن فهى فى منتهى السعادة لأنها تعلم أن لا ريح تستطيع أن تهز مقامها هنا فى ذلك المنزل المتين، حتى لو مات الرجل الكبير، فإنها سوف تستمر فى مقامها المأمون داخل هذا المنزل، ليس هناك ما يمكن أن تخشاه مادامت هى على قيد الحياة.

أما بالنسبة للسيد وو، فإن ما بدأته أمه فى شبابه، هاهى محظيته الجديدة تنهيه، وكل ما استطاعت أن تنميه داخله مدام وو، اختفى وزال الآن ، كأنما هو ضوء يخبو لأنه يفتقد الوقود. لقد أصبح سمينًا جسيمًا ثقيل الخطى، يأكل كثيرًا ويشرب بشراهة، لكنه دائمًا بصحبة ياسمين. إنه لا يذهب الآن إلى بيوت الأزهار، فياسمين توفر له كل ما يتمناه من فنون اللعب، وحتى رغبته القديمة فى مسامرة أصدقائه وخلانه، هذه غادرته أيضًا الآن، ومن النادر أن يذهب إلى بيوت الشاى لكى يستمع إلى آخر الأخبار ويناقش ما يحدث من أمور، فقد وفرت له ياسمين كل شيء، وهذا ما كانت تستقيه من الخدم. فى هذا المنزل؛ حيث استقرا هما يشعران بالسعادة الغامرة وأمامهم المأكل والشراب الوفير، كانا عبارة عن قطعتين من اللحم والعظام، ويشعران بالرضى بذلك، أما اسم السيد وو؛ فإنه نادرًا ما يلفظ به أحد داخل المنزل، وبنوع من الدهاء، ربما يلفظ به خادم لزميله، وهذا كل ما فى الأمر. فى داخل أعماق فكرها، كانت مدام وو تعلم ذلك. لم تعد هى تذهب إطلاقًا إلى الجناح الذى كان هو مملكتها فى السابق، أيضًا لم تأت ياسمين إلى جناحها أيضًا. لقد استقر بهما المقام منفصلين عن بعضهما.

أخذت تتعجب من هذه الأمور، ساءلت نفسها، وهى تتقلب وسط الأغطية الحريرية، عما إذا كانت قد فشلت فى زواجها، هل هناك شيء ما كان من المفترض أن تصنعه ولم تفعله؟ وضعت هذا التساؤل أمام أندريه، لكن للمرة الأولى لم تجد ردًا منه يتحرك

فى أبهاء ذهنها، بدلا من ذلك رأت وجه الجد العجوز المحترم وهو مرسوم على صفحات مخها، كان واضحًا جليًا، ليس عجوزًا أو شابًا، وجهه كما كان نحيفًا والبشرة الذهبية تغطى تلك العظام الرقيقة. لعل جمجمته الآن هى عبارة عن تحفة جميلة وهى فى قبرها، لقد وضحت خطوطها مع الزمن ولمعت.

"أخشى يا والدنا أننى لم أحسن التصرف مع ابنك"، قالت ذلك بحزن واضح فى نفسها، شعرت وهى تحملق فى هذا الوجه الطيب الحكيم أنه ربما لو أنها لم تفصل نفسها عن السيد وو عندما بلغت الأربعين من عمرها، فربما ما سقط فى تلك البالوعة، لكن من خلال فكرها الشاب تحدث ذلك الرجل الحكيم.

إنها تتذكر جيدًا هذا اليوم الذى جمعهما سويا، لقد أرسل فى استدعائها فوجدته جالسًا واضعًا إصبعه على صفحة من كتاب، ثم أشار إلى بضع سطور لكى تقوم بقراءتها:

"لكى تحاول أن ترفع روحًا أو نفسًا عن مستواها الطبيعى، هو أمر خطير، فالأرواح تشبه الينابيع، لها مصادرها الطبيعية، وأن تقوم بإجبارها أن تغير من طبيعتها هو عمل خطير، لأنه عندما تتعرض الأرواح إلى الضغوط؛ فإنها تبحث دومًا عن مستواها الأصلى ويحدث لها نوع من عدم الاستقرار، فهى تشعر بالحيرة وهى تتردى بين مستوى عال وآخر منخفض، وهذا عمل خطير أيضًا. الحكمة تتطلب منا أن نوازن ما بين مقاييس الروح وأن ندعها تعيش فى المستوى المقدر لها".

تقابلت عيناها مع عينى هذا الرجل الحكيم، كما يحدث الآن عبر كل تلك السنوات الماضية عندما كان له وجود داخل هذا المنزل.

شىء غريب حقًا، ففى وسط هذه الليلة والبيت غارق فى لجة من السكون والصمت، داهمها فكر قلق تجاه ابنها الأكبر ليانجمو، لكن لم تقلق بشأنه وهو أكثر أبنائها شعورًا بالسعادة والاستقرار؟ هو أيضًا يجب أن تكتشف أحواله عندما يحين الوقت المناسب.

لكن فى جناح فنجمو، هى لم تستقر بفكرها طويلا. فنجمو هذا هو رجل حقيقى- لقد شذب نفسه ليصبح إنسانًا متكاملا قدر الإمكان، إنه لم يخضع روحه. هى تشعر بالراحة الآن، لذلك بدأ عقلها يتجه بقوة نحو النوم، كأنما هو قارب يتأرجح فى بحر تحت ظلال القمر.

* * *

صدر أمر من فنجمو، "أحضرى كتبى الإنجليزية"

أسرعت لين يى لتحضر كتبه من الصندوق، كانت هناك ربطتان منهما. صاحت، "عندك الكثير من هذه النوعية".

أجاب بعدم اهتمام، "فقط احتفظت بالنافع منها، لكن أنا لدى العديد منها سوف يصلنى لاحقًا".

ركع هو بجوار الرفوف المثبتة فى الحائط وأخذ يضع الكتب بعناية فى أماكنها. من الناحية الخارجية، كانت ملامحه هادئة وهناك ابتسامة تتلاعب على وجهه، لكن داخليًا فى أعماقه رسخ ألم ممض وحزن مقيم، هو يشعر الآن أن النوم لن يزوره على الإطلاق، كان يشعر بحمية مفرطة فى أن يرسى كل حوائجه فى أماكنها، أن يخفى عن الأنظار كل حقائب السفر، تلك التى لن تستخدم فيما بعد أبداً.

سألت لين يى، "هل من الضرورى أن تضع كل شىء فى مكانه الليلة؟"

"نعم، يجب أن أعلم أننى قد حضرت إلى منزلى لأستقر فيه دوماً"

شعرت بالسعادة تغمرها وهى تستمع لهذه الكلمات، هى أصغر من أن تتخيل لم نطق بهذه الكلمات دون أن ينظر إليها. فى الحقيقة، هو عندما يخاطبها، كان يتصور أمامه وجهًا آخر غير وجهها. كان أمامه وجه مارجريت، العيون الزرقاء، الشعر البنى، البشرة البيضاء كالحليب التى لن ينسى أبدًا مذاق لمسها. هل هو سوف يشعر يومًا بالأسف لما حدث فى ذلك اليوم الذى قضياه فى الغابة عبر البحر؟ فى ذلك الحين، هو أرغم نفسه أن يبعدها عنه بعدما كانت ساكنة بين ذراعيه.

قال، "لا أستطيع أن أستمر فى هذا"

لم تنطق، فقط وقفت، عيناها الزرقاوان مثبتتان عليه. هناك شىء غريب ورائع فى العيون الزرقاء، إنها لا تخبئ أبداً ما يدور خلفها، أما العيون السوداء فهى عبارة عن ستائر مسدلة، لكن العيون الزرقاء هى ليست سوى نوافذ مفتوحة.

أخبرها بوضوح، "أنا متزوج، وزوجتى فى انتظارى هناك"

هى كانت تعلم شيئًا عن الزواج الصينى، "هل هى كانت من اختيارك، أم أن عائلتك قد ضغطت عليك واختارت لك هذه الزوجة"؟

ظل وقتاً لا يجيب. جلس تحت شجرة الصنوبر، أخذ يربت على ركبتيه ثم وضع رأسه بينهما. أخذ يفكر محاولا أن يستجلى الحقيقة. سوف يكون الأمر سهلا عليه لو قال، "أنا لم أخترها"، لكن وهو يستعد لقولها، ظهر أمامه خيال أندريه:

"ما إن تكذب، حتى تعتبر تلك خطيئة تحسب عليك. هى ليست خطيئة موجهة للخالق، لكنها موجهة نحو نفسك. كل ما ينبنى على الكذب مآله الدمار. الكذب لا يخدع أحداً أكثر ممن ينطق به".

لم يجرؤ أن يكذب عليها، وإلا فإنه فى يوم آخر سوف تدمر حبهما ويغرق فى خضم من العتاب.

"أنا لم أرغم على الزواج، دعينى أقل - لقد اخترتها بنفسى". جلست هى بلا حراك تستمع إليه، بينما يشرح لها ما الذى يعنيه الزواج فى عائلته، "بالنسبة لنا، يعتبر الزواج واجباً وليس حبًا، ليس لأنفسنا، لكن لموقفنا وسط تيار مستمر من الأجيال. أنا أعلم أن والدتى لم تحب أبى أبداً، لكنها صنعت واجبها تجاه العائلة، وكانت هى دومًا أمًا وزوجة صالحة فاضلة، لكنها عندما بلغت الأربعين من العمر، استعفت عن كونها زوجة واختارت أخرى لأبى، هذا بالطبع سبب لنا حزنًا، لكننا مع ذلك كنا ندرك عنصر العدالة المختبئ فيه. الآن هى تشعر بأنها قد أصبحت حرة لأن تسعى لتحقيق سعادتها الشخصية، لكن فى نطاق المنزل أيضًا، ونحن حولها نقصدها ونحترمها.

أنا أيضًا فعلت ما يعتبر واجبى تجاه عائلتى". كان يعلم فى أعماقه أنه بذلك يجرح مارجريت حتى نخاع روحها.

قالت، "عندما أقرر أن أتزوج، فيجب أن يحدث هذا عن حب"

لو كان هو حرًا، ليس فقط من لين يى، لكن من كل التزاماته أمام الأجيال التى تلاحقت فى عائلة وو منذ قرون مضت، وكل أجيال عائلة وو التى لم تظهر بعد للوجود، إذن ربما كان قد أخبرها بقوله، "إذن دعينا نتزوج، وسوف أهجر لين يى"، لكنه لم يكن حرًا، فأيدى أسلافه كانت تطبق عليه، كذلك أيادى أبنائه وأحفاده، الذين لم يظهروا حتى الآن إلى الوجود يستدعونه، كان واجبًا عليه أن يكون أمينًا معها.

استمر فى القول، "أعرف أننى قد تشكلت، ليس فقط بمعرفة السماء، لكن أيضًا من خلال عائلتى. أنا لا أستطيع أن أعيش بمفردى، تلك التى وهبتنى هذا الجسد، لكن هو ليس ملكًا لى. هناك شىء ما يخصنى، هذا حقيقى، هذا الشىء - وأطلقى عليه لفظ الروح إذا شئت - هو من أملاكى الخاصة، وأنا مستعد أن أهبه لك لأننى أحبك، لكن إذا جرؤت أن أمنح جسدى، فأنا بذلك أسرق حق الأجيال"

صاحت، "أنت على خطأ بين، الحب والزواج هما وجها عملة واحدة"

"أحيانًا، لكن هذا يحدث صدفة من صدف السماء، وهذا يحدث أحيانًا حتى فى بلادنا، عندما يرفع العريس النقاب عن وجه عروسه فيكتشف أنها هى محبوبته، وهى اختياره إذا كانت له الحرية الكاملة فى الاختيار، لكن هذه تعتبر واحدة من صدف السماء".

أصرت هى بكل شمم، "نحن هنا دائمًا ما نقترن عندما نشعر أننا نحب بعضنا". أدرك هو أن المسافات بدأت فى الاتساع بينهما.

"لا، هذا لا يحدث دائمًا". إنه مصمم أن يقول الحقيقة حتى لو قضت عليهما سويًا، "أنتم أيضًا تتزوجون مثلنا تمامًا، لكى تحتفظوا باستمرار السلالة، لكن أنتم تخدعون أنفسكم وتدعونه باسم الحب. أنتم دائمًا ما تتوقون إلى تحقيق ذواتكم، ومع ذلك

تخدعون أنفسكم. أنتم تتعبدون لفكرة الحب، لكن نحن الصادقين.، نحن نؤمن أنه يجب على الجميع أن يتزوجوا، من الرجال والنساء، وهذا هو واجبنا تجاه الحياة، وإذا حضر الحب، فهو يعتبر حينذاك هبة إضافية من السماء، لكن الحب ليس لازمًا لاستمرار الحياة".

"إنه أمر مهم بالنسبة لى"، قالت ذلك بصوت منخفض.

استمر هو فى القول غير مستجيب لردها هذا، "الرضى هو أمر لازم وضرورى، لكن الرضى يمكن أن يتحقق عندما يتم إنجاز الواجب – ليس أن يتوقع حدوث الحب، لكن يتوقع تكوين العائلة وإنجاب الأطفال وتكوين المنزل وحفر مكان للشخص وسط سلسلة الأجيال المتتابعة".

كان يتحدث من أعماق كيانه. أثناء حديثه هذا كان متيقنًا أن أندريه يوافق على كل كلمة ينطق بها، كان موقنًا أن هذه الموافقة لا تنبع بسبب ما نطق به، لكن لأنه اقتبس كلماته هذه من معين لحمته الحق والصدق الذى ثبت فيه.

كم هى فترة الصمت التى حلت بينهما! إنه لم يحاول أن يخدش هذه الحالة، مما جعلها تكبر وتنمو لتصبح محيطًا جعجاعًا يفصل بينهما.

قطعت هى هذا الصمت بأن مدت يدها إلى الأمام، "إذن هى لحظة الوداع، أليس كذلك؟". أمسك يدها قابضًا عليها لفترة واضعًا يده الأخرى على يده قائلا، "فعلا، هى لحظة الوداع". ثم تركها لكى ترحل.

وضع آخر كتاب فى مكانه بالرفوف، وتم تطبيق آخر قطعة من ملابسه، ثم تناول الحقائب ودفع بها لتستقر فى الممر حيث سوف يعثر عليها بعض الخدم فى الصباح، ثم رجع إلى غرفة نومهما. كانت لين يى واقفة فى منتصف الغرفة، غير متأكدة وفى الانتظار. تقدم نحوها بلا تردد وأمسك بكتفيها:

قال، "عليك أن تساعدينى، هناك عمل يجب أن أنجزه هنا فى وطنى، وأنا فى حاجة إليك. من المستحيل أن أؤدى عملى هذا بمفردى، يجب أن تعدينى بأنك سوف تقدمين لى كل مساعدة ممكنة".

شعرت هى بقدر من الخوف من تلك الوحشية التى بدت ظاهرة فى عينيه، لكنها أحست أن هذا الخوف هو محبب إليها، كانت فى حاجة لأن تشعر بالخوف منه، هى فى حاجة لأن تأتمر بأمره، لذا همست، "سوف أساعدك، سوف أفعل كل ما تطلبه منى".

* * *

أصبح فنجمو كأنما هو النار فى منزله، كل شىء أمامه كان يتحرك ويزيد النار اشتعالا. نهض من نومه فى الفجر وتناول إفطاره على ضوء الشموع. فى هذا الصباح المبكر، امتطى حصانه وركض به وسط المزارع فى ممر ضيق حتى وصل إلى القرية التى اختارها لينشئ فيها أولى مدارسه. كانت عقيدته الأكيدة هى أنه يجب على الكبير والصغير أن يتعلم. لقد خطط لإنشاء مدارس للأطفال ومدارس للرجال وأخرى للنساء وكبار السن.

بالطبع شكا الكبار من هذا، فهم لم يشكوا يوماً من عدم قدرتهم على قراءة الكتب موقنين أنه لا فائدة من القراءة، كانوا يقولون، "عندما لم يتبق أمامنا سوى بضع سنوات قليلة، فهل يتوجب علينا أن نشغل أنفسنا بما سطره الآخرون؟". كانت هذه عينة من شكواهم، كانوا يصيحون، "أليس نحن لدينا أفكارنا الخاصة، ألم نتعلم قليلاً من الحكمة بعد مرور كل هذه الأعوام؟ حكمتنا هذه هى كافية تماماً لنا".

لكن فنجمو كان أصغر من أن يستجيب لهذه الدعاوى، لذا حضر عدد من الفلاحين الكبار فى العمر طالبين من مدام وو أن تبعد عنهم ابنها هذا، وقد استقبلتهم مدام وو بترحاب، فهى دائمًا ما ترحب بمن هم أدنى منها منزلة، أما من هم أعلى منها فلا يوجد أحد، ومن هم فى منزلتها فهى من الممكن أن تعتذر عن مقابلتهم، لكن بالنسبة لمن هم أقل منها منزلة، هى لا تعتذر أبدًا عن رؤيتهم وسماع أقوالهم. لذا استقبلتهم فى القاعة الرئيسية للمنزل وأرسلت للسيد وو لكى يتصدر هذا الاجتماع ويأخذ مكانه المعتاد فى منتصف المائدة بينما جلست هى على اليسار، بذلك تظهر هيئة المنزل معروضة بشكل محترم أمام هؤلاء الفلاحين. حضر السيد وو بالفعل مرتديًا معطفًا من

الساتان بلون خمرى تحت جاكت أسود مخملى بلا أكمام، وكل ملابسه جديدة لأن ملابسه القديمة أصبحت لا تلائمه لأنه أصبح سميناً وجسيماً بشكل مريع. اندهشت مدام وو عندما شاهدته، فقد مر وقت طويل منذ أن شاهدته، وهو الآن من النادر أن يحضر إلى وجبات الطعام العائلية. فكرت هى، هذا الرجل سوف يموت مبكراً عن زمنه. أخذت تحملق فى لغده البارز، ثم فكرت مرة أخرى، من الأفضل أن يموت سعيداً حتى لو حدث هذا مبكراً، على أن يموت وهو أقل سعادة فيما بعد، لذا احتفظت هى بسلامها ولم تشأ أن تحذر.

ما إن جلس هذان المحترمان حتى وقف أمامهما جماعة الفلاحين بملابسهم الزرقاء وقد ارتدوا فى أقدامهم صنادل جديدة مصنوعة من القش المجدول، وأحضروا معهم هدايا من الكعك الملفوف فى ورق بنى ومربوط عليها برباط من القش، وتحت هذا الرباط ثبتوا أوراقاً حمراء، تلك التى تجلب الحظ الحسن. ثم قاموا بتقديم هداياهم، وكان السيد وو يتقبلها وهو يحتج بأن هذا ما كان له لزوم على الإطلاق، وما كان واجباً أن يتعبوا أنفسهم هكذا.

ثم وهم يقفون بكل احترام أمام هؤلاء المبجلين، أوضحوا مشكلتهم. استمعت مدام وو لها ، كذلك فعل السيد وو وإن كان بدرجة أقل من الاهتمام. على الفور وافق السيد وو هؤلاء الفلاحين بكل حرارة قائلا، "هؤلاء الإخوة على حق تماماً، إن ابنى هذا يتصرف بحمق وسوف أصدر له أمراً أن يعود على الفور إلى المنزل ويترككم فى سلام".

لكن مدام وو كانت تعرف كل جوانب الموضوع، ولم تشأ أن تترك الزمام للسيد وو أن يستمر فى جهله هذا، لذا وافقته أولا ثم اعترضت عليه بلباقة، وهذا ملخص حديثها:

"يا أبنائى، والدنا يتحدث بكل حكمة ويجب علينا جميعاً أن نطيعه. أنتم أيها الأخوة الأفاضل جميعكم قاربتم الأربعين من العمر، بالطبع لا يجب أبداً أن تغصبوا على فعل شىء ما ضد إرادتكم، لكن بالتأكيد هناك فى القرية من هم أقل منكم عمراً وربما ينتفعون بالحصول على قليل من المعرفة والعلم - مثلا لكى يعرفوا حساباتكم ولكى لا تتعرضوا للغش فى السوق".

ثم التفتت إلى السيد وو وقالت بصوتها الناعم، الذى ازداد نعومة مع تقدمها فى العمر، "كيف يمكن لنا أن نمنع ابننا من تعليم أى شخص يفوق الأربعين فى العمر إذا كان هو راغبًا فى ذلك؟". كانت تلك معاهدة مقبولة، لذا تم إقرارها. من اليوم، للفلاحين الكبار الحق فى أن يمتنعوا عن التعلم إذا شاءوا، ولا يخشى أى فرد منهم من أن تزاد عليه الأجرة أو أسعار البذور، إذا أراد أن يستمر فى جهله.

لكن فنجمو ضحك عندما أخبرته مدام وو بزيارة هؤلاء الكبار، صاح، "أنا لدى الطريقة المناسبة لكى أنجح فى عملى". إنه الآن يرحب بالمتاعب، وأفضل ما فى إنجازاته هى أنه هناك عدد من الكبار ابتدأوا الآن فى التعلم عندما شاهدوا الأصغر سنًا منهم يستفيدون منه. بالطبع لم يفوت فنجمو أى فرصة لكى يعلن فخره عندما يشاهد فلاحًا صغيرًا عرف وفهم الحروف والأرقام جيدًا، ولذلك يستطيع أن يقرأ فاتورة ويراجع حسابًا. أصبحت الموضة الآن هو أن يعرف الإنسان الحروف والأرقام، لذا سعت قرى أخرى لإنشاء المدارس فيها. كان فنجمو مشغولا تمامًا لدرجة أنه كانت تمر شهور دون أن تقف مدام وو على مدى تقدمه فى عمله.

كل هذا كان حسنًا وجيدًا بالنسبة لفنجمو، إلا أن طريقته هذه صدرت بعض المتاعب للمنزل الكبير، فقد رحلت كل من شيومنج ورولان إلى القرية ليعيشا هناك، هذا سبب نوعًا من القلق لمدام وو لأن فنجمو ضغط عليهما لكى يساعداه فى مجال عمله بالتدريس، لكن كيف يمكن لشيومنج أن تخبئ مشاعرها تجاهه؟ أصبح قلق مدام وو غير محتمل، لأنه على الرغم من أن فنجمو وشيومنج من العمر نفسه تقريبًا، فإنهما ليسا من الجيل نفسه، وسوف تحدث فضيحة كبرى تلحق باسم عائلة وو إذا تجمعت بعض السحب حول هذين، لكن على الرغم من قلق مدام وو، حضر فنجمو يومًا ليراها.

قابلته بترحاب، فهى تعلم أن ابنها ليس لديه أى وقت يضيعه إلا فيما هو مهم من الأمور، لذا داهمها فكر قلق عسى أن يكون قد حضر لكى يخبرها بما لا تود سماعه فيما يختص بعلاقته بشيومنج. بالفعل كان الأمر مختصًا بها. جلس هو مربعًا على مقعده واضعًا يديه على ركبتيه وابتدأ فى الحديث، كان صوته ثابتًا بينما عيناه حزينتان،

لم يكن أمامها سوى أن تعجب به، فقد استفاد كثيراً من جهة صحته ومظهره من هواء القرية، ازداد وجهه حمرة، ونجاحه فى عمله جعله أكثر جرأة.

"أمى، لا أدرى كيف يمكن أن أنقل إليك ما أفكر فيه"

"قل يا ابنى ولا تخبئ شيئًا"

أخذ يدعك يديه فى شعره القصير، فعندما حضر من الخارج كان شعره طويلا ومنسابًا وناعمًا، لكنه الآن قام بقص شعره كما يفعل الفلاحون.

قالت هى: "إنه أمر مختص بشيومنج؟"

"كيف تعلمين كل شىء؟"

"أنا لدى طرقى الخاصة، ماذا تريد قوله؟"

"أنت تعلمين يا أمى أنه لا يمكن لأى امرأة أن تؤثر فى"

ابتسمت من أجل شبابه هذا، فهناك فى ملامحه مس شغاف قلبها- آه، ربما تكون كل الطرق القديمة للحب والزواج هى كلها أمور خاطئة - من يعلم؟. مالت بجسدها قليلا إلى الأمام، قالت، "أستطيع الآن أن أتذكر..."، ثم ضبطت نفسها. تذكرت يومًا عندما كانت فى عمر فنجمو، ثم استيقظت مبكرة وأخذت تتأمل فى وجه زوجها، فأدركت أنها لا تحبه على الإطلاق، لكن مع ذلك قامت بأداء واجبها وكانت سعيدة بذلك، وكان لحياتها طريقها الخاص للاستمتا ع بالحياة.

لكن ملامح الشباب التى كست وجه ابنها أوقفت سلسلة تفكيرها، مالت مرة أخرى. لا، هى لا تستطيع أن تتحدث عن نفسها أمام ابنها.

سأل هو، "ما الذى يمكن أن نفعله؟"

"دعنا نفكر فى أكثر الحلول معقولية"

لكنه كان فى ذهنه خطة محددة، لذا قال، "أنا أطلب إذنك أن تحضر لين يى معنا، ونحن أيضاً نعيش فى القرية".

هذا ما قاله، وبينما لا يتراءى أمامها سوى تلك الحكمة النابضة فى أقواله، لكنها شعرت أيضًا بنوع من الحزن، فهوذا جناح آخر سوف يخلو من شاغليه، ثم شعرت بالسرور لأنه فكر أن تكون لين يى هى مفتاح الأمان بالنسبة إليه، وكلما فكرت فى الأمر، أيقنت أن هذا هو الحل الأمثل.

قالت أخيراً، "سوف أوافقك على هذا، لكن بشرط وحيد، هو أنه عندما تحمل زوجتك ثم تلد، فأنت عليك أن تعيدها إلى هنا وقت الولادة وبعدها بعدة شهور. يجب أن يولد الأطفال تحت ظل سقف منزلنا".

وافق فنجمو على هذا الشرط، وبعد عدة أيام أغلق فنجمو ولين يى أبواب جناحهما وانتقلا إلى منزل مبنى بالطوب اللبن فى القرية، وشعرت مدام وو بالسعادة لذلك. أخذت تفكر عما إذا كان واجبًا أن تستدعى شيومنج لكى تنصحها وتهدئها، لكنها فى النهاية قررت أن لا تفعل ذلك. يجب على تلك الفتاة الشابة أن تتعلم من الحياة نفسها، كما يتعلم كل الناس، ما الذى يحل لها، وما الذى هو محرم عليها.

(١٥)

هكذا تعلمت شيومنج، لكن فى السنة التالية، عندما حان وقت ولادة لين يى لطفلها الأول، حدثت بعض الأمور الغريبة. كانت هى السنة الكبرى التى حدث فيها التراجع الجماعى، فعندما غنم الغزاة الآتون من الجزر الشرقية منطقة شاسعة من البلاد، طردوا أمامهم عدداً كبيراً من المواطنين الذين هجروا مدنهم ومنازلهم، وفى شوارع هذه المدينة والمناطق الريفية المجاورة، تدفق الفارون.

من بين هؤلاء الذين ظلوا مدة أطول فى تلك المدينة، كانت هناك عائلة مكونة من امرأة عجوز أرملة، كذلك ابنها وزوجته وبعض الأطفال. هؤلاء ظلوا فى الفندق مدة أكثر من المعتاد. هذا وقد قام ابن هذه الأرملة بحكاية قصته التى تبرر تواجدهما هنا أكثر من اللازم.

قال، "لقد فقدت والدتى ابنة لها منذ عدة سنوات، هل هناك طريقة يمكن بها حصر الأطفال الضائعين منذ زمن؟"

سأله صاحب الفندق، "ألم تقتل هذه الطفلة؟"

"لا،لم تقتل، لكن جدتى هى التى استبعدتها، وهى كانت سيدة ذات طبع حاد وغاضبة باستمرار لأن أمى ولدت ثلاث بنات، واحدة بعد الأخرى".

"كيف أتيتم إلى هذه البلدة فى تلك السنة؟"

"إنها كانت سنة سيئة فى منطقتنا بقرب العاصمة الشمالية، ولم ينج المحصول، لذا انتقلنا إلى هذه الجهات، حيث كان الطعام وفيراً، فى الطريق بالقرب من هذا المكان ولدت أمى طفلتها".

أخذ صاحب الفندق يفكر، "ربما يكون هذا قد حدث فى فندقنا هذا، فهو الوحيد فى مدينتنا هذه، أنا قضيت عمرى هنا وكذلك أبى من قبلى".

"نعم، والدتى تقول إن هذا ما حدث فعلا فى هذا الفندق نفسه ولذلك نزلنا فيه، كل إخوتى البنات توفوا وما زالت والدتى تشتاق لابنتها المفقودة".

"سوف أذهب وأخبر كبيرة بلدتنا ما إذا كان أحد يعلم عن هذا الموضوع شيئًا، مدام وو هى التى تعرف كل شىء".

ارتدى الرجل أفضل ملابسه، وفى أمسية بعد تقديم الخدمات المطلوبة للنزلاء، أرسل من يخبر مدام وو بأن لديه طلبًا عندها إذا سمحت له بالمجىء، فأجابت بأنها مستعدة لاستقباله، فعائلة صاحب الفندق هذا كانوا يومًا من خدم منزل وو، بعد ساعة كان هو واقفًا أمامها فى القاعة الرئيسية، لكنها فى هذه المرة لم تستدع السيد وو لسماع الرجل لأنه لم يكن وقتًا موافقًا له، فهذا السيد لا يرضى أن يزعجه أحد ما إن يتناول طعام عشائه، لكنه فى الوقت نفسه الوحيد المتاح لصاحب الفندق أن يحضر، فهناك العديد من النزلاء الهاربين من جحيم الحرب عليه أن يخدمهم.

عندما وقف أمام مدام وو وقص عليها ما سمعه، أخذت تستمع وتجمع فى ذهنها كل ما تعلمه، لكنها لم تخبر هذا الرجل بما كان يدور فى فكرها، بدلا من ذلك قالت، "دع هذه الأم تحضر إلى وتخبرنى بكل قصتها".

"هذا أفضل بالفعل يا سيدتنا"، ورحل هذا الرجل برسالته تلك.

فى اليوم التالى، حضرت الأم ومعها ابنها. استقبلت مدام وو هذه المرأة فى جناحها وانتظر الابن فى القاعة الرئيسية.

الآن، مدام وو لم تكن تعلم نوعية هذه المرأة. كانت تتوقع أن ترى أمامها واحدة من العوام، لكن ما إن حضرت الزائرة وهى تتكئ على ذراع خادمة، حتى أدركت أن هذه السيدة ليست من العامة، لكنها سيدة لم تعد فى شرخ الشباب.

حيتها ثم طلبت من السيدة أن تجلس فى مكان الصدارة، لكن هذا ما رفضته هذه السيدة، لكن بعد إلحاح شديد وافقت. أخيراً جلست كلتا السيدتين ثم تم صب الشاى والكل جاهز لبدء الحديث. كل من ينج والخادمة ظلا على بعد بحيث لا يسمعان شيئًا لكن من الممكن استدعاؤهما فى أى وقت.

بعد التحيات ومزيد منها، قصت السيدة مسألتها:

"لقد أتينا من مسافة بعيدة من الغرب، بالتأكيد الأمان متوافر فى أماكن أقرب من هذا المكان، لكننى صممت أن أحضر إلى هنا بالذات، ولدى أسبابى القوية".

مسحت دموعها بمنديلها الحريرى.

قالت لها مدام وو بلطف، "أخبرينى كل ما تودين قوله"

بهذا التشجيع، أخبرتها عن قصة ابنتها الضائعة، "أنا أعلم أن ابنتى لم تمت، هى ولدت بصحة جيدة، ووالدها لم يكن مرتاحًا من اقتراح قتلها بناء على طلب أمه. هو كان إنسانًا طيباً، لكن أمه إنسانة شريرة. للأسف، هو توفى قبلها، وخشى أن يقول كلمة واحدة ضد أمه".

انتظرت لكى تجدد بكاءها، "لقد تعرضنا لعقاب شديد، فبنت بعد أخرى ومعهم ولد توفوا جميعًا ولم يتبق لى سوى ابنى الأصغر، والآن أنا أبحث عن بنتى الضائعة، لعلها ما زالت على قيد الحياة، لذا أتيت إلى هذه المنطقة النائية".

"أنت متأكدة أن البنت لم تقتل؟"

"نعم أنا أعلم ذلك، فقد سمعت وأنا نائمة بعد الولادة زوجى وهو يترجى والدته، ثم هى وافقت فى النهاية أن لا تقتل لكن أن توضع بجوار حائط المدينة".

"هل كانت هذه الفتاة ملفوفة برداء حريرى أحمر؟".

حملقت السيدة فيها، "نعم، هو معطفى الأحمر، ظننت أننى إذا لففتها به فهذا سوف يلفت النظر إليها".

نهضت مدام وو وسارت حتى صندوق خشبى فتحته وأخرجت الرداء الذى كانت شيومنج قد سلمته لها لتحتفظ به لها، عرضته أمام السيدة، "هل هو هذا الفستان؟"

تحول وجه السيدة إلى اللون الرصاصى، همست، "نعم، هو الفستان نفسه! لكن الطفلة؟"

"إنها على قيد الحياة"

ثم ذكرت لها قصة شيومنج وكيف أتت إلى هذا المنزل. أخذت السيدة تستمع وهى تنخرط فى البكاء، لكن فى خوف. كان صعباً عليها أن تستمع إلى أن السيد وو لم يرض بها، وكيف أن مدام وو قد سمحت لها أن تعيش فى الريف. كانت السيدة ممتنة ومستاءة فى الوقت نفسه، فى النهاية قالت لها مدام وو، "دعينا نذهب إلى القرية سوياً لنرى بأنفسنا، وسوف تشاهدين بنفسك كيف أن ابنتك الآن فى أفضل حال". لذا وبدون أى تأخير، طلبت تجهيز العربات، ورحلت كلتا السيدتين إلى القرية.

الآن نلاحظ أن مدام وو كانت تردد باستمرار أنها سوف تزور القرية لترى بنفسها إنجازات فنجمو، لكن مع برد الشتاء، ثم حر الصيف، ثم بعض المتاعب المرضية الخفيفة، مع حبها للبقاء منفردة مع كتبها، هذا أعاقها كثيراً عن تحقيق وعودها. لكن ما رأته اليوم أدهشها بالفعل. لقد أصبحت القرية نظيفة ورشيقة أكثر من أى وقت سابق، والناس يبدون بصحة جيدة، والأطفال بأنوف نظيفة وشعر مصفف، والناس هناك يشيرون بأصابعهم إلى مبنى بالطوب اللبن قائلين بفخر إنه المدرسة. لقد أخبرها فنجمو بالكثير وكانت هى تستمع وتقول، "نعم، نعم يا ابنى"، لكنها لم تتخيل كل ما فعله وما صنعه.

بجوار المدرسة كان يقع منزله، ولأن هناك رسولاً بعث ليخبر بقدومهم، لذا كان كل من فى البيت مستعداً لاستقبالهم. كانت تعلم أن لين يى حامل الآن، لكنها دهشت عندما شاهدت لين يى بمظهرها الصحى الفائق، خدودها حمراء، شفتاها حمراء بدون طلاء، وقد اكتسبت وزناً بالإضافة إلى حملها، أما نهايات شعرها المجعد فهى قامت بقصه،

وهذا بعث السرور فى قلب مدام وو، لكن أكثر ما أبهجها هو ذلك التغيير الشامل الذى حل على سلوكها، لقد أصبحت فتاة محترمة، سريعة التلبية، وانتهى للأبد أسلوبها الكسول.

بهذا حضروا إلى منزل فنجمو وجلسوا، ثم تم استدعاء فنجمو، وعندما حضر تم رواية القصة كلها أمامه مرة أخرى، لذا تم استدعاء شيومنج وابنتها، وأتت معها رولان.

فى اللحظة التى حضرت فيها شيومنج، تعرفت الأم والابنة على بعضهما فى التو واللحظة، فوجههما متطابق بشكل عجيب، كل من شاهد هذا المنظر أغرق فى الضحك لهذا التشابه الغريب، وكأنما هذه هى النهاية السعيدة لقصة غريبة، وإذا كانت مدام وو هى الأكثر صمتاً، لكنها الأكثر سعادة بما يحدث أمام عينيها.

صاحت شيومنج، "أمى!"

"إنها بالحقيقة ابنتى"

المفترض أن كلتيهما كانتا تبكيان بحرقة وهما فى حضن بعضهما، ثم تحتضن الأم تلك الحفيدة التى أصبح حملها ثقيلا، ثم تبكى الطفلة وترفس، فتضربها أمها، لكن الجدة تحتج على ذلك، ثم يحل الهدوء. بعد ذلك يجب أن تطالب تلك السيدة بأن ترحل معها شيومنج ومعها الحفيدة لتنضم إلى عائلتها، لكن واجباً على شيومنج أن تستأذن أولا من مدام وو.

سألت بنوع من التهيب، "هل يمكن أن أرحل مع أمى يا أختنا الكبرى؟"

الآن تنظر مدام وو وتلاحظ أن صحة شيومنج لم تعد كما كانت، فعلى الرغم من هواء الريف النقى والأكل الوفير، كانت شاحبة وهناك هالات حول عينيها مما يدل على أنها لا تستغرق فى النوم كثيراً، لاحظت مدام وو أن شيومنج لا تبعد أنظارها كثيراً عن لين يى. إنه من الأفضل أن ترحل شيومنج من منزل عائلة وو، لذا أعطتها إذنها.

"إذا لم يكن هناك أحد آخر غير والدتك، ما كنت قد سمحت لك بالرحيل، لكن السماء برحمتها قد جمعت الابنة على أمها، لذا كيف يمكن لى أن أفصل بينهما؟ سوف ترحلين، لكن ليس قبل أن أجهز لك ملابس كافية تكفيك أنت وابنتك أثناء رحلتك، لا يجب أن ترحلى فارغة من منزلنا".

احتجت السيدة بقولها إن هذا ليس ضرورياً البتة، لكن مدام وو أصرت على ذلك، ثم بعد تقديم مزيد من الشكر، رحلت شيومنج ومعها ابنتها إلى حيث تمكث أمها وابنها فى الفندق، ومنذ ذلك الوقت لم يحدث بين الأم وابنتها أى فراق.

لم تعلق مدام وو على ذلك، فقط أنه قبلما يرحلان أخذت الأم على جانب قائلة، "لا تدعى ابنتك هذه تظل وحيدة هكذا، اعثرى لها على زوج صالح، ودعيها تبدأ حياة جديدة".

وعدت السيدة بفعل ذلك، وبهذا تركت شيومنج منزل آل وو، وبعد عدة أسابيع وبعد تجهيز كل شيء رحلت هى وأمها. سعدت مدام وو لأن شيومنج لم تحضر لكى تقدم شكرها النهائى، كانت هى تعلم أن قلب هذه الفتاة الحساس منعها من أن تأتى، ليس لأنها ليست ممتنة أو ناسية، لا، هى لم تحضر لأنه ليس هناك شيء يمكن أن يقال بينها وبين والدة فنجمو، أرادت هى أن لا تتعذب مجدداً، لقد حملت معها حبها فى شغاف قلبها.

منذ ذلك الحين، لم تر مدام وو شيومنج مرة أخرى. كل عام كان يصل منها خطاب يكتبه خطاط وهى توقع عليه، فى هذه الخطابات، سنة بعد أخرى، أخبرت شيومنج أنها بخير وابنتها الصغيرة تنمو وتكبر، وعندما انتهت الحرب تزوجت هى من أرمل يعمل تاجراً صغيراً فى بكين ويبيع للمواطنين المنتجات الأجنبية. هو كان لديه ابنان، تعلمت شيومنج كيف تحبهما. أخيراً توفت أمها ثم ولدت شيومنج ابنًا ثم توأمًا. بيتها أصبح ممتلئًا الآن.

كانت مدام وو ترد على هذه الخطابات بكل حرص وحكمة، وفى كل خطاب، من طيبة قلبها، تضع أخباراً تخص فنجمو وعائلته.

* * *

نعم، لقد نمت أيضاً عائلة فنجمو، ومهما كانت حياته الداخلية، فإن حياة جسده كانت مثمرة، وأصبحت لين يى أمًا لعدد من الأطفال، ولد ثم بنت ثم ابنين آخرين. فى كل ولادة كانت تعود إلى بيت العائلة، لكن ما إن يبلغ الطفل شهراً من عمره فإنها تعود إلى القرية مرة أخرى وتأخذ مكانها بجوار فنجمو، لم يعد لديها وقت للعب أو الخصام أو أن تجعد شعرها أو أن تلون أظافرها. كان فنجمو يعاملها بحزم لكن بقدر كبير من العدالة. تعلم مدام وو أنه لم يحب لين يى أبداً، لكن تعلم أيضًا أنه ليس فى حاجة لهذا الحب، هو لديه نيران أخرى، هذه كانت تشتعل أكثر من الحب. كان هو يحترق بكل حماس من أجل أهل وطنه، كان مشتاقًا لافتتاح أكبر عدد من المدارس، وما إن وجدت هذه، حتى أبدى عدم رضاه مجدداً، فهو الآن فى حاجة أيضًا لافتتاح مستشفيات. لقد وضع جانبًا كل ملابسه الحريرية، جميعها كان محفوظًا فى صناديق تخص العائلة، لكنه كان يرتدى ملابس بسيطة مفصلة على شكل نموذج موحد، وبلا أى نوع من الزينات. شىء فى وجهه الجاد كان يذكر مدام وو دائمًا بأندريه، لكن فنجمو لم يكن لديه الحس المرح الذى كان يميز أندريه. إنه لم يتحدث إطلاقًا أو يكتب عن تلك المرأة الأجنبية التى أحبها يومًا. إن فنجمو لا يستطيع أن ينجز شيئًا بشكل جزئى، حماسه يشتعل فى كل الاتجاهات فى الوقت نفسه.

هذا الحماس كان معديًا، ومس بالفعل كل العائلة، ثم زاد من حدته. لم يكن فنجمو راضيًا عن تجهيزات تعليم الفلاحين، لذا كان عليه أن يبحث عن المعونة داخل جناح أخيه الأكبر، وهذا ما لم يتحمله أخوه الأكبر ليانجمو. فى الحقيقة، لم يعثر فنجمو على العدد الكافى من المدرسين، لكنه عندما شاهد يومًا زوجة أخيه منج وقد بدأت تسمن، سألها عما إذا كان فى إمكانها أن تحضر لتساعد لين يى وورلان فى تعليم السيدات الكبار اللاتى كن يناضلن فى تعلم الحروف والأرقام وأن تساهم فى هذا المجهود، ما إن استمعت منج لذلك حتى فتحت عينيها حتى آخرهما.

صاحت، "أنا؟ لكن أنا لم أغادر مطلقًا بوابة جناحنا إلا لزيارة والدتى"

"لكن يجب أن تفعلى هذا يا زوجة أخى، إنه واجبك، أولادك يشرف عليهم المربيات، وابنك الأكبر له مدرسه الخاص، وكل أعمالك المنزلية يقوم الخدم بشئونها. يجب أن تحضرى ساعة أو ساعتين كل يوم لتساعدينا".

شعرت منج بالإحراج، "أنا لا أستطيع، ليانجمو لن يسمح لى بفعل ذلك"

"لكن أنت تعرفين القراءة والكتابة، وليس مسموحًا لأحد فى وطننا أن يظل هكذا ساكنًا فى مكانه".

استمعت منج لذلك بوجه مرتعب، كان لفنجمو فى تلك الأيام صوت جهورى مرعب عالى النبرة، وما إن يبدأ فى شرح ما يؤمن به، لا يستطيع أحد أن يجعله يصمت، ولا ينقذه بعد ذلك سوى طيبته الزائدة، مما جعله محبوبًا أمام من يتلقوا منه التعليم.

قالت منج، "سوف أسأل ليانجمو، وغادر فنجمو وهو راض لأنه استطاع أن يثير مشاعرها.

لكن الغضب تملك ليانجمو عندما أخبرته منج وهى تبكى، قالت، "لقد جعلنى أشعر كأنما أنا مجرمة وشريرة".

خلع ليانجمو نظارته، التى كان يلبسها الآن دومًا ثم طبقها ووضعها فى جيبه، ثم صفح المائدة بيده صائحًا، "فنجمو هذا أصبح مثيرًا للمتاعب، لقد غرس أفكارًا عجيبة فى عقول البسطاء. لماذا، بالأمس فقط أتى إلى كبير المزارعين قائلا إنه من الآن فصاعدًا لن يستخدم الوسطاء فى بيع محاصيله، وإنهم سوف يبيعون كل منتجاتهم بمعرفتهم، سألته كيف يمكن لكم أن تعلموا حساب الصفقات، لكن يبدو أن فنجمو قد علمهم كيف يفعلون ذلك، كيف إذن يتيسر للوسطاء أن يعيشوا ويعولوا عائلاتهم؟ أليس هناك مكان لكل الناس فى العالم؟

تجهم فترة ثم قال، "منج، أنا أمنعك من أن تتحدثى مع أخى هذا، وأنا سوف أحادثه بنفسى".

وهذا ما فعله ليانجمو، لذا احتجز وقتاً مما كان يخصصه لزيارة المحلات ليذهب لمقابلة فنجمو. بشكل سرى، كان هو معجباً من النظافة التى حلت على القرى، لأن عمل فنجمو أصبح الآن منتشراً فى كل الجهة، لكنه لم ينبث ببنت شفه، بدلا من ذلك أخذ يتمتم، "يا ترى من يدفع مصاريف كل هذه التجهيزات. من طبيعة الحياة أن لا يكون الفقراء على هذا المستوى من النظافة كالأغنياء، وليس من الضرورى على الإطلاق إنشاء مستشفيات لهم، فهم عددهم كبير، ولماذا يستمر هؤلاء فى العيش طويلا"؟

كانت نهاية هذه الزيارة نشوب معركة حامية الوطيس نشأت بين الأخوين، وهذه المعركة زادت حدتها عندما ظهرت لين يى، لقد نظر إليها ليانجمو مستهجناً ارتداءها ملابس عادية كالفلاحين وتبدو الآن كأنما هى أكبر عمراً من زوجته منج، وهى تستمع لذلك، كادت أن ترثى لنفسها، لكن رولان تدخلت أيضًا فى المعركة إلى جانب فنجمو والشعب.

بذلك ازداد امتعاض ليانجمو؛ لأنه شاهد رولان وقد تخففت من أحزانها وحدادها، لأنهم جميعاً الآن فى حالة مستمرة من الاستثارة والنشاط فى تعليم أهل القرية. كانت العاقبة النهائية هى أنهم جميعاً افترقوا غاضبين، وذهب ليانجمو ليشكو حاله إلى والدته.

الآن نلاحظ أن مدام وو لم تعد تغادر جناحها إلا لكى تزور فتيات المعبد، أيضًا هى لم تضف إليهم جديداً، ومهما كانت رغبات أندريه، فإنها لم تحاول أن تزيد من أعدادهم، شىء وحيد فعلته، وهو أنها أعطت مالا إلى رئيسة راهبات بوذية تقيم فى جنوب المدينة لكى تكلف اثنين من راهباتها أن يبحثن يومًا عن أى لقيطات يمكن أن يكن قد تركن بجوار سور المدينة، وأن يحضروا لها هؤلاء الأطفال لتعتنى هى بهم. لقد أصرت مدام وو أن لا يصبحن اللقيطات من الراهبات، لكن أن يتم الاهتمام بهن ويحصلن على التعليم اللازم ثم يزوجوا بفلاحين صالحين وعطوفين، وهذا كله فعلته من أجل أندريه، لكنها ظلت محتفظة ببنات أندريه داخل المعبد، وعندما تبلغ الفتاة السادسة عشر من عمرها، تختار هى لها العريس المناسب. كانت هناك شهرة مدوية لهؤلاء

الفتيات لدرجة أنه كان هناك قائمة انتظار للعرسان الشبان الذين يتمنون الحصول على فتاة من وسطهن. عندما تبلغ أى فتاة هذا العمر، تدعوها مدام وو لتجلس بجوارها وتتحدث معها عن هؤلاء الشبان المستعدين للزواج بها. وتأكد أنه كان يدور حديث طويل فى المدينة بخصوص هذه الطريقة الحديثة، لأن مدام وو لم تكتف فقط بذكر اسم العريس ومواصفاته، لكنها أيضًا كانت تظهر صورهم للبنت.

عندما يتعجب أحدهم بشأن ذلك، كانت ترد قائلة، "وهل هم فقط الشبان الذين عليهم أن يشاهدوا الصور؟ أليس من العدالة أن ترى الفتاة أيضًا من سوف ترتبط به العمر كله؟". لا أحد يستطيع أن يصدر أحكامًا على مدام وو، لذا أصبح الأمر مجالا لنوع من المنافسة والشرف أن يرسل الشبان صورهم إليها، وعندما تختار الفتاة، تقوم مدام وو بإرسال صورة الفتاة إلى هذا الشاب. كانت شهرة فتيات المعبد معروفة لدرجة أنه لم يحدث مرة أن رفض عريس الفتاة المرشحة له.

هؤلاء الفتيات، كانت مدام وو تعتبرهن بناتها، وكل واحدة كانت تتلقى تعليمًا يختص بكل ما يمكن أن يحقق السلام والوئام بين الرجل والمرأة، وكلهن أصبحن زوجات صالحات، وأصبحت مدام وو مشهورة فى كل المنطقة بسبب فتياتها.

كانت تشعر بالفخر وهى تقيم حفل زفاف رائع لكل واحدة من بناتها، وكانت هى تتخذ لنفسها دور الأم، لكن ولا واحد كان يفهم نوع ابتسامتها أو تلك النظرة البعيدة التى كانت تتبدى فى عينيها، لكنها لا تهتم بمن لا يتفهمها. كانت تشعر دائمًا كأنما أندريه واقف بجوارها، بينما هى ترسل واحدة تلو الأخرى من بناته لتنعم بحياة سعيدة مديدة. لم يكن كافيًا لها أن تجهز الفتيات، فهى لم تكن تسمح بإتمام الزواج إلا بعدما يحضر الشاب وتتحدث هى معه، وإذا كانت أمه على قيد الحياة؛ فإنها تتحدث مع الأم أيضًا، وإذا حدث أن كانت الأم من النوع الحاد المشاكس، فهذا يعتبر سببًا لعدم إتمام هذا الزواج، وهذا ما فعلته ثلاث مرات، ومرتان من الثلاثة، كان الشاب منهم يشعر بالامتعاض من سلوك أمه ويبتعد عنها بالفعل.

هذا كان يحزن مدام وو، لأنها كانت تعلم جيداً أنه ليس واجباً على الابن أن يغادر منزل عائلته، لكن مع ذلك، تذكرت أن أندريه كان قد تحدث فى هذا الموضوع بالذات.

وصل إلى ذهنها هذا المنظر أكثر وضوحًا وهى تدرج فى مسالك العمر المتقدم، تذكرت جيداً ما قاله يومًا من أيام الشتاء بعدما أنهى دروسه لفنجمو. تساقط الثلج على الأماكن المفتوحة فى الجناح، ولم يتبق سوى شكل خطواته الثقيلة على بياض الثلج. كل من فنجمو وينج كانا يسيران خلال الفراندات، لكن أندريه هو فقط الذى كان يدوس بأقدامه الثقيلة على الثلج.

علقت على ذلك مدام وو بقولها، "بالتأكيد أن قدميك قد ابتلتا"، فينعم هو النظر على قدميه وحذائه كما لو أنه لا يعلم ما الذى تقوله، وبدون تبادل أى حديث آخر يسرع بفتح كتبه، ثم يحضر فنجمو ويبدأ الدرس. كانت هى تجلس قريبة فى هذا اليوم، تستمع ولا تتحدث، لكن ما إن غادرهما فنجمو حتى ألقت إليه بهذا السؤال، "ما المدى الذى يسمح به الابن أن يهجر منزل والديه؟". لقد علمت هى قبلا، أن تعليمه هذا الذى كان يشحذ به عقل فنجمو، سوف تؤدى بابنها فى النهاية فى التجول فى أنحاء الأرض.

أجاب هو، "منزل الوالدين ليس سوى محل للميلاد، ولا يزيد عن ذلك"، كان هو فى ذلك الحين يرتب كتبه مرتبة الواحد فوق الآخر داخل المنديل الذى يصر فيه الكتب.

"هل معنى قولك هذا أن الشاب ليس عليه التزام معين تجاه والديه؟"

"أنا آخر إنسان يمكن أن توجهى له هذا السؤال"، نظر إليها سريعاً، ثم أبعد نظره عنها مرة أخرى، ثم برقت ابتسامته كأنما هى شعلة من الضوء فوق وجهه، "انظرى كم بعدت أنا عن أهلى، لكنى مع ذلك لا أنسى أبدًا أن بدايات حياتى كانت فى منزل بمدينة البندقية بإيطاليا".

كررت هى، "البندقية؟". إنه لم يذكر من قبل شيئًا عن موطنه.

"إنها مدينة تشبه مدينة سوشو، فشوارعها ليست سوى ترع مائية، وبدلا من الركشة نحن هناك نستخدم القوارب فى التنقل، وعندما كنت أنظر لتلك المياه فى أوقات شروق الشمس أو غروبها ألاحظ أن الماء قد تحول إلى ذهب يجرى"

توقف عن الحديث، ثم أخذ يحدق فى الجدار القائم أمامه، لكنها كانت موقنة أنه يرى الآن تلك الشوارع المذهبة، ثم عاد إلى نفسه وودعها فى هذا اليوم.

بهذه الوسائل، كان يحطم القيود التى تحيط بها حيث تعيش. الآن هى لا تعترض أو تحتج عندما يغادر شاب منزل عائلته التى تعيش فيها أم متعجرفة، فهذا الشاب له الحق أن يعيش، الجميع لهم الحق فى أن يعيشوا مستريحين.

هذه الجدران المتغضنة كانت فى انتظار قدوم ليانجمو، عندما حضر، كان يضم شفتيه مجعداً جبهته، شاكيًا أخاه. إنها لم تعد ترى أبناءها كل يوم، بل ولا حتى كل شهر، لذا فى كل مرة يخطون فيها عتبات جناحها، تنظر إليه مجدداً بتدقيق، لذا عندما شاهدت ليانجمو هذا اليوم، لاحظت أن مظهره يليق برجل أعمال محترم، بوصفه رئيساً مقبلاً لعائلة عظيمة، وتاجراً ناجحًا موسراً.

بعد التحيات، دخل ليانجمو فوراً إلى لب الموضوع، "لقد أصبح أخى الأصغر إرهابياً، هو فى الواقع يريد أن تذهب زوجتى لكى تدرس للفلاحين فى القرية، هذا بالطبع شىء مستحيل. لقد أصبحت لين يى على شكل هؤلاء المدرسات البائسات، قصت شعرها الطويل وتحول وجهها ليصبح لونه بنيًا بسبب الشمس القوية، وتبدو رولان كأنما هى إنسانة شيوعية. هذا كله يثيرنى ويغيظنى، هل هذا يناسب مركز عائلتنا؟"

ابتسمت مدام وو، "ألم تلاحظ أن القرية قد أصبحت أكثر نظافة؟"

لكن ليانجمو لا يهتم بهذه المناظر، "إننى أفكر أولا فى مصلحة عائلتى، وليس فى الأغراب والعامة من الناس. إن مسئولية هذه العائلة سوف تقع على عاتقى بعد رحيلك أنت وأبى".

من النادر الآن أن يتحدث أحد من الأبناء بذكر اسم السيد وو، فالكل يعلم أن مكان هذا الوالد قد أصبح خاليًا الآن، إنه يبدو باستمرار ناعسًا وسعيداً، لا يطلب شيئا سوى أن يترك فى حاله. فى الحقيقة، هو محبوب الأحفاد، فهم دائمًا ما يفدون إلى جناحه يلعبون بكل حبور، بينما هو يمدهم بالحلويات ويتضاحك معهم وينعس وهو وسطهم. أما ياسمين، فهى تعلم أنها عاقر، لذا كانت تحن على هؤلاء الصغار وتعاملهم كأنما هم من أبنائها، أيضًا تفعل ذلك لأنها تعلم أن هذا الرجل الذى وفر لها المأوى والحماية، فى حاجة لأن يشعر بمن يحبونه متجمعين حوله، والكبار فى السن دائمًا ما يرحبون بالأطفال وهم يلعبون حولهم خوفًا من الموت.

لكن ليانجمو كان مناسبًا فى دوره بوصفه الابن الأكبر، ودائمًا ما يبدى احترامه الكامل لوالده، على الأقل بلفظ اللسان، وكان دائمًا ما يخفى ضعفات والده، والآن هو يشكو أخاه بحرقة.

"أخونا الأصغر (ينمو)، هل من المناسب أن يمتنع عن الذهاب إلى المدرسة الآن"؟

قالت مدام وو بلطف، "أخوك الصغير هذا لا يود أن يذهب للمدرسة"

"وهل هذا عذر مقبول لكى لا نضطر إلى إجباره للذهاب إلى المدرسة؟ لم يعد هناك أى فرق بينه وبين أبناء الفلاحين".

"حسنًا، حسنًا..."

فهم ليانجمو أنها تفضل صمته، لذا شفط غضبه فى رشفة كبيرة من الشاى، بينما ظل وجهه متجهمًا.

لم تنطق مدام وو لفترة طويلة، كانت هى تعلم فضيلة الصمت. اليوم هو كله رمادى، السماء رمادية، الجدران رمادية، ومن البركة صعد ضباب خفيف من المياه الباردة صاعدة فى ذلك الهواء الدافئ غير المناسب لهذا الموسم بالذات، كانت رائحة الأرض معلقة فى كل مكان بالجناح.

قالت مدام وو أخيراً، "هل تشعر بالراحة فى جناحك يا ابنى"

"بالطبع يا أمى"، وضع فنجان الشاى، "إننى أطاع هناك، وأولادى كلهم بصحة جيدة ويتفجرون ذكاء، هل تعلمين أن ابنى الأكبر قد أنهى دراساته المبدئية بالفعل؟"

قالت مرحبة، "إذن هو كذلك؟ وفى المدينة، هل الجميع بخير؟"

"فى أحسن حال، الأسواق ربما تكون فقيرة نوعًا، لكنها ليست فقيرة بالنسبة للموسم، وقد وفدت إلينا بعض البضائع الأجنبية مادام أن الحرب قد وضعت أوزارها، وها هو المستشفى الأجنبى ينشئ مبنى جديداً، وسمعت أن هناك أجانب سوف يفدون أيضًا".

"هل هذا أمر جيد؟"

قال بخشونة، "فنجمو سعيد بذلك، أما أنا فأقول إننا محظوظون، فزوجتى لا تحتاج إلى أطباء أجانب، وأبنائى لا يمرضون أبداً".

غمغمت مدام وو، "أتذكر أننى يومًا تسببت فى شفاء أحد الأحفاد من عائلة كانج باستخدام الأعشاب التى أعطتها لى جدتى، أعتقد أنه الآن فتى يافع....".

فى السنة الماضية، توفيت مدام كانج، تذكرتها الآن مدام وو وهى راقدة هكذا فى تابوتها. لقد صنع هذا التابوت بضعف حجمه المعتاد، فيه رقدت مدام كانج مرتدية ملابسها من الساتان ويداها الضخمتان على جانبيها. بعد موتها، اعتادت مدام وو أن تفكر فيها بحنين قديم له حلاوته القليلة الخافتة، وعلاقاتهما التى عادت إلى مسارها القديم. دائمًا كانت مدام كانج بخدود حمراء، ودائمًا هى مرحة، تشعر بالتعاسة فقط من أجل أمور بسيطة، مثل أن فتحتى أنفها متسعتان أكثر من اللازم وأن أنفها من النوع الفطيس. ما إن ماتت، وبعد ذلك بفترة بسيطة، بادر السيد كانج بالزواج مرة أخرى بفتاة شابة، وهذا كان يتسبب فى حدوث إزعاج مستمر فى منزل هذه العائلة، كان وضع هذه المرأة كأنما قد وضعت مغرفة فى قدر به يخنى يفور. لكن كل هذا لا تهتم به مدام وو ولا يمثل فى منزلها سوى مصدر محبب للثرثرة من قبل ينج، التى ربما استمعت لها المدام أو لا تستمع بينما تنهمك هذه فى تمشيط شعرها.

انتظر ليانجمو أن تتحدث أمه، استعادت ذاكرتها أخيراً وابتسمت لابنها، "حسنًا يا ابنى، يجب أن يتحدد شكل روح كل إنسان وشخصيته، ولا يستطيع روح أن يجبر آخر دون أن يتعرض هو أيضًا للأذى، لذا عش أنت فى منزلك ودع فنجمو يعيش فى بيته".

"أرجوك يا أمى أن تحذرى فنجمو من أمر وحيد، هو أن يبعد أصابعه عن شئون منزلى"

"سوف أفعل ذلك"

لذا تركها ليانجمو، وعندما تقابلت مع فنجمو المرة التالية، قالت له، "تذكر يا ابنى أن معلمك قال لك يومًا إنك عندما تدرس فمعنى هذا أنك تستدعى روحًا لتجوس فى عرض السماء، لكن لا تستطيع أبدًا أن تجبرها على فعل ذلك".

لاحظت نظرات فنجمو، تيقنت أنه تذكر أندريه الذى نطق بهذه الكلمات نفسها. إن أعجب ما كان فى حياة أندريه هو أن ملخص دعوته هو الاتجاه الدائم نحو السماء.

أحنى فنجمو رأسه وهى بين يديه، "أعلم لماذا تذكريننى بهذا، وأعلم لماذا لا أكون متهيبًا؛ لأن جوانب شعلتى تتعرض للكسر والتحطيم أحيانًا، ثم تدفع بى إلى الأمام، وعندما أنساق بهذا الشكل، فإننى أدفع الآخرين معى".

سمحت له أن يتحدث هكذا، يجب أن يجد من يستمع إليه وهو يدلى باعترافاته، وأمام من يكون هذا إلا أن يكون أمام أمه؟ مرة أخرى شعرت بوازع قوى أن تتحدث مع ابنها هذا عن أندريه، فهما روحان متقاربان وكلاهما نهل من معين الحكمة التى كان يتسم بها هذا الرجل. ومرة أخرى سيطرت على نفسها قائلة، "كثيرًا ما أفكر وأتدبر فيما حمله هذا الأجنبى الطويل إلى منزلنا هذا. نحن من أقدم العائلات ولا يمكن لأحد أن يدعى أننا فى حاجة إلى مزيد من الحكمة والفهم لكى نواصل مسيرة حياتنا، فقد ظلت عائلتنا قائمة منذ مئات الأعوام، إنه لم يغيرنا، لكننا مع ذلك تغيرنا، أنا وأنت، ونحن الاثنان اللذان قمنا بإجراء تعديلات جوهرية فى هذا المنزل، لكن ما هى طبيعة هذا التغيير"؟

"لقد تعلمنا منه ما يجب أن تكون عليه الروح فى حقيقتها الناصعة"

"أنت تضع المسألة فى منتهى البراعة". لا يمكن لأحد أن يدرك من صوتها مدى إحساسها بتواجد أندريه معهما الآن فى هذه الغرفة، واقفاً بجوار ابنها ينظر نحوهما بحب غامر. جلست هى تصطلى بوجوده. هو كثيراً ما يزورها وهى جالسة بمفردها، لكنه لا يحضر أبداً عندما يكون هناك آخر معها فى الغرفة.

قالت، "لو كان قد استمر حيًا، أنا متأكدة أنه سوف يرضى بكل ما صنعته من فعال كلها خير".

"هل تظنين ذلك؟". جلس مبتهجاً بما سمع، وهذا حفزه بنشاط متجدد، "أمى، أنا أفكر فى موضوع جديد. ما رأيك لو طلبت من الأطباء الأجانب أن يعلموا أطباءنا المحليين، ليس تعليماً عاليًا، لكن بما يكفى للتغلب على الأمراض المعتادة فى وطننا؟ إن شعبنا يموت بلا داع".

استمر فى الحديث، صوته كله بهجة ويتفجر حماساً، ملىء بالحياة، لكن هى بالكاد كانت تستمع إليه. كانت تفكر فى الآخر، شاهدته وهو بيديه الضخمتين الجميلتين عندما قطع خيط سبحته، فعثر على دوبارة وجمع فيها حباتها.

أخيراً تمتمت، "حسناً يا ابنى، بالفعل كل ما فعله هو طيب وجيد"

لكنه ما إن بدأ فى النهوض مسرعاً لكى ينفذ أفكاره الجديدة، تذكرت على الفور ما وعدت به ليانجمو، مدت يدها وأمسكت بيد فنجمو، "فقط تذكر يا ابنى - لا تجبر أحداً - ليس ليانجمو أو منج...".

"أوه، هذان الاثنان! لقد تركتهما لشأنهما بالفعل...."

خرج، وتبعه أندريه أيضاً. جلست هى بمفردها تبتسم.

* * *

مرت الأعوام على مدام وو، ولم تترك أبداً بوابتها، لكنها مع ذلك كانت على وعى كامل بكل ما يحدث داخلياً وخارجياً. كانت مشهورة بإنصاتها الواعى وحكمتها السديدة. الكثيرون كانوا يفدون إليها لينهلوا من معين حكمتها. إنها هى التى تقرر كل الشئون المهمة فى المنزل وفى المدينة أيضاً. مثلا هى الوحيدة التى قررت ما الذى يمكن عمله بالنسبة لجثة الأخت الصغيرة هسيا عندما توفيت فى ليلة شتاء بارد وهى مستقرة فى منزلها المنعزل. تم إحضار هذا الجسد النحيل إلى منزل آل وو وأشرفت المدام بنفسها على تجهيز التابوت والدفن. هذه الأخت كانت قد فصلت نفسها نهائياً عن كل من ينتمى لجنسها، وكانت كثيراً ما تتعارك مع الأجانب الآخرين المقيمين فى هذا المدينة، وعندما ماتت، لم يكن معها سوى ذلك الطباخ العجوز، وهو الوحيد الذى بكى عليها، وكان هو الذى حضر ليخبر مدام وو أنه شاهد سيدته جالسة هكذا بلا حراك على مقعدها ملتفة بلحافها الممزق بينما كتابها المقدس على ركبتيها.

وهناك تحت الآلهة المصنوعين من الطين، وتحت صورة آندريه المنحوتة على الألابستر، رقدت الأخت هسيا فى تابوتها. كان كل بنات المعبد قد غادروا ولم يتبق سوى الفتاة (حب) وهى التى أشعلت الشموع، أما الكاهن العجوز فهو بالكاد الآن يستطيع أن يتحرك وكثيراً ما كانت هى تعاونه فى أداء مهامه، أما المرأة العجوز فقد أصبحت بطيئة الحركة.

أخذت مدام وو تحدق فى هذا الوجه النحيف العظمى لتلك المرآة التى هجرت موطنها وأهلها. حاولت أن تتذكر تلك الصلوات التى كانت تتلوها الأخت هسيا كثيراً، لكن الذاكرة خانتها، لقد نسيتها مع عديد من الذكريات التى شاءت أن تتناساها، لذا لم تفعل شيئاً سوى أن تشعل عدداً من أعواد البخور أمام الآلهة وتطلب من السماء أن تتقبل روح هذه الأجنبية. بعد ذلك ختم التابوت وأغلق ووضع فى نقرة بالمعبد إلى أن يحين قدوم يوم سعد. فى ذلك اليوم، تم دفن تابوت الأخت فى جانب من تل يقع خارج حدود المدينة وأمرت مدام وو أن يوضع نصب يسجل فيه بعض الحقائق التى كانت تعرفها عنها، لذا إذا حضر واحد من أهلها؛ فإنه يستطيع أن يعثر على قبرها.

ثم حدث أمر عجيب.

بعد انتهاء الحرب، كانت كل المناطق فى حالة من الفوضى الشاملة، وكثير من الأجانب وفدوا من أعالى البحار لكى يصلحوا الأمور ويشتركوا فى خضم هذه الفوضى الناشبة أظفارها، لكن كل هذا لم يؤثر على عائلة وو، فمنطقتهم كانت بعيدة عن تلك المناطق المضطربة. لكن مع ذلك، ظل الأجانب فى قدومهم ومرورهم على المدينة لسبب أو لآخر. أحد الأسباب، هو أن فنجمو كان يستدعيهم ، فعندما يسمع بقدوم شخص معين قادم من بلاد الغرب، فإنه يدعوه للمقابلة لكى يستشيره فيما يفعله من أعمال صالحة لمنفعة أهل وطنه، وكان هؤلاء يرحبون به لأنه إنسان معروف والكل يمدحه.

بالطبع لم تستقبل مدام وو هؤلاء الأجانب، لأنها لا تعرف لغتهم ومن الصعوبة بمكان أن تتحاور معهم. أكثر من ذلك، هى أعلنت، "لقد اكتملت حياتى، لست فى حاجة إلى إضافة حياة جديدة إليها.

لكن فى يوم، أرسل لها فنجمو أن هناك إنسانًا أجنبيًا وافدًا من بلاد الغرب، لديه أسباب قوية تدعوه لأن يحضره إليها. أعطت موافقتها، وبعد عدة ساعات حضر فنجمو ومعه شاب أجنبى أسمر طويل القامة. بعد التحيات، أخذت مدام وو تحملق فيه، ثم التفتت إلى فنجمو مستفسرة، "هل هو أجنبى؟ بشرته سمراء".

"نعم، هو أجنبى، لكن جدوده قدموا من إيطاليا، وهو البلد الذى ولد فيه الأخ أندريه".

أحست على الفور بهزة تزلزل قلبها، ثم نسيت تمامًا أنها لا تتحدث سوى لغتها، لذا انحنت إلى الأمام ، واضعة يديها فوق عصاها الفضية، سائلة الأجنبى، "وهل تعرف أنت القس الأجنبى"؟

قام فنجمو بالترجمة، وكانت إجابة هذا الشاب، كما نقلها فنجمو هى، "أنا لم أعرفه شخصيًا، لكن أبى وأمى أخبرانى عنه، هو كان عمى".

قالت هى، "عمك؟ أنت من لحمه ودمه...!"

أخذت تحدق فى هذا الوجه الأسمر، لاحظت تواجد تشابه وحيد، ثم آخر. نعم، هى العيون السود نفسها التى كانت لأندريه، لكنها ليست بالاتساع نفسه. وهذا هو شكل جمجمة أندريه، ثم حملقت فى يدى الشاب، هى أقل حجما، لكن لها الشكل نفسه الذى تعرفه جيداً، كل ما فى هذا الشاب هو أقل حجمًا وأصغر مما كان لأندريه، لكن نظرات عينى الشاب لا تشبه على الإطلاق نظرات أندريه، الروح غير متشابهة. تنهدت واستندت خلفًا. لا، الروح مختلفة.

تساءلت، "هل حضرت إلى هنا بحثًا عن عمك هذا؟"

"نعم، لقد عرف والدى أين هو، على الرغم من أنه لم يكتب لنا خلال السنوات الأخيرة، وعندما مررت من هنا، أردت أن أعلم ما إذا كان على قيد الحياة أم لا، وأن أكتب لوالدى عنه".

"إنه مدفون فى أرضنا، وسوف يصحبك ابنى لتشاهد قبره"

جلسا فى حالة من الصمت الشامل، كانت مدام وو تناضل ضد شعور بالغيرة. أغمضت عينيها وشاهدت وجه أندريه على الشاشة الداخلية السوداء لذاكرتها، "أنت تنتمى لنا نحن فقط".

فتحت عينيها فوجدت هذا الشاب الأجنبى جالسًا أمامها. آه، إذن أندريه كان لديه أقرباء وعائلة، وهم بعيدون للغاية!

ابتسم الشاب، "أعتقد أنك تعلمين يا مدام لماذا هو عاش بعيداً عنا، ولماذا لم يكتب لنا خطابات على الإطلاق".

أجاب عنها فنجمو، "لم نكتشف ذلك أبداً".

"إنه كان إنسانًا هرطوقيًا وقد حرمته الكنيسة واستبعدته كمجدف، وكان هو دائمًا ما يعيد النقود التى كان والدى يرسلها إليه، ورفض أن يعود إلى وطنه".

صاح فنجمو فى ذعر، "لكن هو لم يصنع شراً بأحد".

قال الشاب، "لم يكن الأمر مختصًا بما فعله، لكن بما كان يفكر فيه ويعتنقه، وهى أمور يصعب على أن أشرحها لكم. وشكوكه هى تعتبر من الأمور العادية فى أيامنا هذه، لكن كانت محرمة على أيامه هو. وكان قد أرسل لرئيسه الدينى رسالة يوضح فيها كل أفكاره التى يؤمن بها، وأرسل خطاباً أخيراً لوالدى يخبره فيه بكل شىء. لم نكن نعلم ماذا يعنى فيما شرحه من تلك الاختلافات التى كان يؤمن بها، كانت أمى تقول عنه إنه قد جن بسبب معيشته الطويلة هكذا بعيداً منفرداً".

كل هذا، قام فنجمو بترجمتـه. كانت هى تستمع ولا تنطق بحرف. لقد نبذوه – وهم أهله وناسـه!. أغمضت عينيها وخاطبته فى أعمـاق قلبها، "لكن نحن لن ننبذك أبـداً".

جلست هكذا فى حالة من الصمت، عيناها مغمضتان، والشابان يحدقان فيها، تحرك فنجمو قلقاً؛ لأن صمتها قد طال، أخيراً فتحت عينيها، "أخبر هذا الشاب الأجنبى أن المسافة طويلة حتى يصل إلى قبر عمه وأن الطريق وعر وضيق، وأنه عندما يذهب إلى هناك لن يجد أمامه سوى قبر".

استمع الشاب إلى الترجمة، ثم قال، "إذا كانت المسافة بعيدة هكذا، إذن لا داعى لأن أذهب، على أن أعود سريعًا لألحق بسفينتى، وعلى أية حال، هو ليس سوى قبر".

بعد التوديع، خرجا. شعرت مدام وو بالسرور من خروجهما. كانت فى حاجة لأن تنفرد بنفسها لكى تتمعن فى كل المعلومات التى عرفتها عن أندريه، وهو ذاك الذى عاش معظم عمره هنا وحيداً!

فكرت، "لكن لم يكن وحيداً، هناك الأطفال والمتسولون الذين رعاهم ووفر لهم المأوى والغذاء".

أما عنها هى - كيف فتحت له أبوابها ودعته ليدخل؟ هذا لن تعرفه أبداً. لقد تم قيادته بواسطة يد خفية ليأتى إليها، وهى بنفسها التى فتحت له الأبواب ليدخل، معه أحضر إليها الحياة الأبدية. نعم، هى تؤمن الآن أنه عندما يموت جسدها؛ فإن روحها سوف يستمر فى الوجود والحياة. إنها لا تؤمن بالآلهة، وليس لديها إيمان محدد، لكن هى تمتلك حباً أبدياً، وهذا الحب هو الذى أيقظ فيها روحاً كانت غارقة فى نوم عميق، وجعلت من نفسها شعلة لا يجوز عليها الموت.

عرفت أخيراً أنها خالدة.

(تمـــت)

المؤلفة فى سطور:

بيرل باك

ولدت الكاتبة الأمريكية بيرل بك عام ١٨٩٢ فى بلدة هلسبورو، غرب فرجينيا، ثم وهى عمرها ثلاثة شهور، عاد بها والداها إلى الصين حيث كان الزوجان يعملان بالتبشير هناك، واشتريا منزلا فى حى صينى بمدينة شين كيانج، وفى هذا الحى قضت معظم طفولتها وكانت تجيد التحدث باللغة الصينية، كذلك اللغة الإنجليزية فى المنزل، وقالت فيما بعد إنها لم تشعر أبدًا بأى فرق بينها وبين أى طفل صينى، وعندما بلغت الرابعة عشر التحقت بمدرسة لتعلم اللغة الإنجليزية حسب قواعدها السليمة فى مدينة شانغهاى، وبعد عامين سافرت إلى الولايات المتحدة والتحقت بمدرسة التعليم العالى فى ولاية فرجينيا، فى ذلك الوقت بدأت فى نشر أولى أعمالها الأدبية ونالت عددًا من الجوائز، وما إن علمت بمرض والدتها، حتى أسرعت بالسفر إلى الصين وهناك عملت بالتدريس. فى عام ١٩١٧، تزوجت مستر بيرل، وهو مزارع من ولاية كانساس، وكان منتدبًا إلى الصين لدراسة الفلاحة هناك، واستقر الزوجان فى بلدة صينية شمال الصين، حيث عانا من شظف العين وأنجبا بنتًا مريضة، سافرت بعد ذلك إلى أمريكا حيث حصلت على شهادتها العليا عام ١٩٢٥، ثم عادا إلى الصين. وفى عام ١٩٢٧ حدثت مجازر للغربيين فى الصين ونجت هى وزوجها بأعجوبة بسبب تعاطف أسرة صينية فقيرة عليهما حيث قامت بتوفير مخبأ سرى لهما حتى استطاعا أن يسافرا إلى اليابان. عام ١٩٣٥، حدث الطلاق بين الزوجين وتزوجت هى بعد ذلك من ناشر كتبها.

كتبت هذه المبدعة أكثر من تسع وثلاثين رواية ك، معظمها يتحدث عن الصين، فبالإضافة إلى الرواية التى بين أيديكم، هناك مثلا: شرق وغرب - الأرض الطيبة - القلب الفخور - الحب الوحيد - سماء الصين - الوطنى - الوعد - الزوجة الغاضبة - الحب الوحيد. هذا بالإضافة إلى أحد عشر كتاباً فى موضوعات عامة وعشرات من القصص القصيرة

فى عام ١٩٤٩، غضبت لأن الأطفال الذين من أصول آسيوية ممنوعون من التبنى فى أمريكا، فأنشأت مؤسسة تهتم بهذا الموضوع، وعلى مدى خمس عقود أمكن لها أن تحقق التبنى لأكثر من خمسة آلاف طفل آسيوى، واستطاعت أن تنشئ فروعاً لمؤسستها فى كوريا الجنوبية، تايلاند والفلبين وفيتنام.

حصلت هذه الكاتبة على عديد من الجوائز، أهمها جائزة بولتزر عام ١٩٣٢، وجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٣٨ (عن مجمل أعمالها وبالأخص رواية "الأرض الطيبة").

ويعتبر منزلها فى هلسبورو/ غرب فرجينيا من المزارات السياحية القومية.

المترجم فى سطور:

سمير محفوظ بشير

- حصل على بكالوريوس تجارة ١٩٥٨.

- عمل محاسباً فى الجمعية التعاونية للبترول.

- ولد فى ١٩٣٧/٣/٢٩

- النشاط الفنى: كتب للمسرح الكوميدى.. وتم تصوير مسرحيتين فى أبوظبى عام ١٩٨٠ باسم "بس فينك ياعريس"، "عش الغرام".

- الترجمة: ترجم عدداً من الكتب لدار ميريت منها:

  - قصة جوجل، تأليف دبيتر فايس.
  - عن الكتابة، تأليف ستيفن كنج.
  - احتفال، مؤلفة ذات أصل أمريكى أصلى (هنود حمر).

- وترجم للمركز القومى للترجمة:

  - شحات مصرى.
  - الكاتدرائية.

التصحيح اللغوى: عـلا طـعمـة
الإشـراف الفنـى: حسـن كـامل

ما أن بلغت السيدة وو الأربعين من عمرها، حتى قررت أن تختار محظية لزوجها وتستقيل عن عملها كزوجة، وتركز كل جهدها على إدارة هذا المنزل الصينى الكبير المليء بالأجنحة التى تشغى بأكثر من ستين فردا، من أفراد العائلة والأقرباء. وبحكمتها وقوة شخصيتها استطاعت أن تتحكم فى كل الأمور وتعدل من مسار أبنائها وزوجاتهم، إلى أن وقع المحظور وعرفت للمرة الأولى فى حياتها ما هو الحب!

هذه الرواية أبدعتها الكاتبة الأمريكية الشهيرة بيرل بك التى عاشت فترة طويلة من حياتها فى الصين، وكتبت أكثر من ثمان وثلاثين رواية قصصية، وحصلت على العديد من الجوائز أهمها جائزة بولتزر للآداب عام 1932، أيضا جائزة نوبل فى الآداب عام 1938 (عن مجمل أعمالها الأدبية خاصة رواية «الأرض الطيبة») وهذه الرواية الأخيرة كانت مقررة يوما على طلاب (التوجيهية) الثانوية العامة بمصر.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح